حوليات جزائرية

بقلم

أ. بيليسيي

المجلد الثاني



أصالة
Assala
Culture

حوليات جزائرية

بقلم:

أ. بيليسيي

قائد الأركان ورئيس مكتب العرب بالجزائر في 1833 و1834

[illegible]

المجلد الثاني

Assala

العنوان الأصلي: Annales algériennes
Tome deuxième
الترجمة: بن تركي نصيرة
انفوغرافيا: محمد مغازي
© Assala Culture, 2013
ردمك: 978-9931-340-48-5
الإيداع القانوني: 2012-3878

حوليات جزائرية

الجزء الأول

الكتاب 9

فصل السلطة المدنية عن السلطة العسكرية في الجزائر العاصمة - استدعاء الجنرال برتزان Berthézène - تعيين الدوق دي روفيجو Le Duc de Rovigo قائدا لجيش احتلال إفريقيا - تعيين بيشون Pichon حاكما مدنيا - تجديد أفواج الجيش الفرنسي - تدريب قناصة افريقيا و كتائب المشاة - بناء الطرق وإنشاء الجبيات - Contribution des laines - الأعمال الإدارية لبيشون Pichon - التخلي عن النظام الجديد و إعادة استدعاء السيد بيشون Pichon - السيد جنتي دي بوسي de Bussy Genty حاكما مدنيا- إنشاء قريتي القبة و دالي ابراهيم - الأعمال الإدارية للسيد جنتي تحت إمرة الدوق دو روفيجو Le Duc de Rovigo.

ابتداءً من مايو 1831، قام السيد كازيمير بيرييه Casimir Périer رئيس مجلس الوزراء بإقناع الحكومة بفصل السلطة العسكرية عن السلطة المدنية، و ذلك عن طريق تنصيب حاكم مدني مستقل عن القائد الأعلى للقوات، و كان غرضه من ذلك تولي حكم أكبر في شؤون الجزائر العاصمة.

الجزء الأول

في أوائل شهر جوان، أعلم الجنرال برتزان Berthézène بهذا المخطط عن طريق برقية أرسلها وزير الحرب، و ذلك قبل فترة استدعائه، لكن المرسوم الذي يعلن التنفيذ لم يصادق قبل الأول من ديسمبر من نفس السنة. منح هذا المرسوم للحاكم المدني إدارة كل المصالح المدنية و المالية و القضائية. و قد عيّن هذا الحاكم تحت السلطة المباشرة لرئيس مجلس الوزراء، و من بعده و على التوالي: وزراء الشؤون الخارجية و الحرب و البحرية و المالية و القضاء و التجارة و الشؤون الدينية. كانت هذه التركيبة مفرغة لأنها كانت تدمر وحدة الحافز في بلد يجب النظر إليه بشكل مجمل، أكثر من أي بلد آخر، و حيث كانت التفاصيل المتعلقة بالإدارة بحاجة إلى تنسيق نحو هدف مشترك. في فرنسا،حيث كان التنسيق محكما و القواعد ثابتة مما سمح للولاة بالتعامل مع الوزراء بشكل مباشر و بدون أي عوائق و ذلك عكس ما كان عليه الحال في الجزائر التي اعتبرت - تحت الروابط الادارية - بلدا في طريق الانشاء. يبدو أن السيد كازيمير بيرييه Casimir Périer كان أول من أحس بأهمية وحدة الحافز فكان أول مشروع له هو تركيز كل الشؤون الخاصة بالجزائر العاصمة، لكنه تخلى عنه لتجنب صدم وزير الحرب.. لا شك ان السيد بيرييه Périer كان رجلا ذكيا و قادرا على قيادة شؤون الجزائر، لكن من حسن حظ استقرارنا بالجزائر أن الدوق دو دالماسي Le Duc De Dalmatie احتفظ بجزء من مهامه التي استرجعها بالكامل فيما بعد، و ذلك لكونه و لفترة معينة الوزير الوحيد الذي ساند

وجود المستعمرة، بعكس زملائه الذين انشغلوا باهتمامات أكثر جدية في نظرهم و الذين كانوا مستعدين للتخلي عن مشروع المستعمرة. و كان وزير الحرب وحيدا في مقاومة هذا الخيار الكارثي الذي يبدو أنه هزم في الأخير بشكل نهائي.

شكل مرسوم أول ديسمبر مجلسا للإدارة مكونا من القائد العام، الرئيس، الحاكم المدني، قائد القوات البحرية، الحاكم العسكري، مدير الأملاك و مفتش المالية، سكرتير المجلس. و حدد مرسوم الخامس من ديسمبر وظائف القائد العام الذي كلّف بالإجراءات السياسية و الشرطة العليا، بالإضافة إلى مهامه العسكرية الحتمية.

ولتنفيذ هذا النظام الإداري الجديد، رشحت الحكومة السيد الملازم العام سافاري Savary و الدوق دو روفيجو Duc de Rovigo ذوي التاريخ المعروف، و مستشار الدولة بارون بيشون Baron Pichon، الذي كان قد شغل بعض مناصب إدارية عليا و كلّف ببعثات دبلوماسية إلى الولايات المتحدة الأمريكية، سان دومانج Saint-Domingue و بعض دول اوروبا.

وصل الدوق دو روفيجو Duc de Rovigo إلى الجزائر في الخامس و العشرين من شهر ديسمبر. وغادر الحاكم السابق،الجنرال بيرتزين Berthézène بعد يومين من وصوله، تاركا في إفريقيا سمعة رجل شريف بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، لكن رجل لم يخلق لهذا

المنصب الذي لم يكن عليه الموافقة عليه أو التهاسه. و لا يبدو أن أخطاءه هي من جلب إليه العار و إنما كانت الحاجة لتنصيب الجنرال سافاري Savary في مكان ما. في كل الاحوال، وإنصافا للجنرال سافاري Savary و إكراما للحقيقة، يجب القول أنه فهم أن لا مكان له غير إفريقيا، فعمل بحماس و صدق بنية الارتباط بالوطن. وقد تواصل هذا الحماس طوال فترة إدارته. وإن كانت النتائج في بعض الاحيان غير مرضية و كارثية إلا أنه كان ذو مزايا عديدة.

جند الجنرال دوق دو روفيجو Le Duc de Rovigo معظم قوات الجيش الذي نُصب على رأسه، و قد تكوّن من الصف العاشر، و الخط الرابع، و الخط السابع و الستين، و كوّن متطوعين من باريس، و الفيلق الأجنبي، الزواف و قناصة افريقيا. جمع الزواف في كتيبة واحدة بعدما كانوا يكوّنون كتيبتين و شكّل قناصة إفريقيا فرقتين من سلاح الفرسان ذات ستة أسراب. و معظم هذه الأسراب من أصل فرنسي، ثم شُرع في ضم بعض الأهالي الذين كانوا يتجمعون في أسراب مستقلة. فيما بعد تم إزالة القناصة الجزائريين من هذا التنظيم الجديد. تشكل أول فوج لقناصة إفريقيا في الجزائر العاصمة و الثاني بوهران أين تواجد الخط السادس و الستون، و جزء من الفيلق الأجنبي. و في غضون العام 1832، صدر أمر من الملك لتشكيل كتيبتين من المشاة الافريقية مآلفة من جميع العسكريين الذين انظموا إلى صفوف الجيش و الذين كان

حكوما عليهم لتهم بسيطة بعد انقضاء فترة الحكم أو تقليصها.

كان الدوق دي روفيجو Le Duc de Rovigo قد عين لقيادة هذه الكتائب على التوالي: كتائب ماريشالات المخيمات فودواس Fodoas، بوشيت Buchet، بروسار Brossar، برو Brô و أفيزار Avizard، و قد أخذ هذا الأخير الحكم على منطقة الجزائر عند رحيل الجنرال دانليون Danlion. و عُيّن الملازم العام دالتون D'Alton مفتشا عاما لقوات احتلال افريقيا. كما عُيّن الجنرال تريزيل Trézel رئيسا لهيئة الأركان العامة،و كان تحت إمرته لوروا دوفيرجيه Duverger Leroy نائبا للرئيس. جاء الجنرال الجديد إلى الجزائر عازما على ترك جزء فقط من القوات في المدينة وتوزيع الباقي في بؤر أساسية من منطقة الساحل و منطقة الفحص. و بالتالي قام الجنرال باختيار مقرات مناسبة لنصب معسكرات قارة حيث تمكث كتيبة في كل واحد منها. كان على الفرق بناء مقراتها بنفسها و ذلك بأبسط الوسائل التي منحت لهم من الإدارة. شُرع العمل في هذه المعسكرات في فصل الربيع، لكن سرعان ما اكتشف أن هذه الأماكن التي اختيرت كانت غير ملائمة نظرا للأمراض التي انتشرت سريعا و هذا ما أعلن عنه تقرير الصحة آنذاك. و بعد عدة محاولات استقرت هذه المخيمات في القبة، بئر خادم، تقصراين و دالي ابراهيم، وقد بني هذين الأخيرين بالكامل في سنه 1832 لأنهما كان ملائمين للشروط الصحية. أما باقي المخيمات فلم يرس الاختيار عليها

إلا بعد عدة محاولات، بحيث بنيت عام 1833 وكان ذلك في الغالب تحت إدارة الجنرال فوارول Voirol. الزواف الذين تم تخصيص معسكر دالي ابراهيم لهم، كانوا الوحيدين الذين قاموا بمهامهم بشكل دقيق. أما بالنسبة للفرق الأخرى فقد وجب الاستنجاد بالمهندسين و ذلك بالاستعانة بقرض قيمته 25.000 فرنك فرنسي لكل مخيم، إضافة إلى مبلغ الإمدادات التي قدمتها الإدارة و أجور العمال، و هذا ما رفع نفقات كل مخيم إلى حوالي 50.000 فرنك فرنسي.

تصور الدوق دي روفيجو Le Duc de Rovigo بناء مخيم أكبر حجما من المخيمات الأخرى لتهديد منطقة البليدة و القليعة، لكن هذا المشروع لم يتم تنفيذه إلا في فترة حكم الجنرال فوارول Voirol وذلك ببناء مخيم الدويرة.

في هذه الفترة كانت ضواحي الجزائر محفوفة بمسارات المشاة والدواب، بيد أنه لم توجد طرق لعبور السيارات وهذا ما تكلف بإنشائه القائد العام. كانت المخيمات متصلة ببعضها بطرق سميت بالحزام أنشأت بسرعة وبساطة لضمان التواصل الضروري في أقرب وقت ممكن. وبعد ذلك تم وضع مخططات لطرق أكثر انتظاما، و التي كانت تتسم بكل المواصفات الفنية. شرع في الطريق الرابط بين الجزائر العاصمة و دالي ابراهيم في عهد دوق دو روفيقو، و تم تمديدها من باب عزون إلى أعالي قصر الإمبراطور. كان عملا

مميزا من حيث جمال الهندسة و البناء و سرعة التنفيذ، و بنته الفرق العسكرية بمفردها. سنعود للتحدث عن تفاصيل إنجاز الطرق عندما سنتحدث عن إدارة الجنرال فوارول Voirol، الذي أشرف عليها باهتمام خاص.

أدت أشغال بناء طريق حصن الامبراطور و الساحة التي انشئت خارج باب الوادي إلى هدم مقبرتين للمسلمين. لم يكن بالفعل من الممكن تجنب ذلك، و لم يكن من الواجب مضايقة تنقل الأحياء منا احتراما للأموات بل كان من الممكن التصرف بعنف أقل دون تعريض سمعة شعب متحضر لفضيحة انتهاك المقابر. كان من الواجب التصرف بنظام و احترام،و نقل الرفاة الى مكان ملائم. لكن بالعكس نثرت بقايا العظام بشكل عشوائي، وشوهد رجال يلعبون بفظاظة برؤوس بشرية. أثناء أعمال الحفر كانت الحفارة تقسم القبر إلى جزمين ما يجعل محتوى القبر يرتفع إلى السطح ويستعمل لردم نقاط أخرى من الطريق، و يترك ما تبقى منها على مرأى الناس. كانت هذه الأعمال خطيئة وكانت بقايا الأموات تنطق بشكاوى جاءت لتنظم لمعاناة الأحياء الذين هدمنا لهم مساكنهم، ما أدى بـ : حمدان إلى القول بكل فصاحة بأن الفرنسيين لم يتركوا للجزائريين مكانا ليعيشوا فيه ولا مكانا ليموتوا فيه.

تنبه الدوق دي روفيجو Le Duc de Rovigo ، الذي كان يتعاطف كثيرا مع الجنود، أن هؤلاء يفتقرون لأقل وسائل الراحة حتى الفراش الذي يريح أجسامهم التعبة أو المريضة، فسعى إلى توفير فراش

لكل رجل. و نظرا لانعدام النفقات المخصصة لهذه الحاجة، واعتقادا منه بأن سكان الجزائر يمتلكون كميات معتبرة من صوف الغنم،فرض الجنرال على سكان الجزائر ضريبة تقدر بـ 5400 قنطار من الصوف تدفع عينا أو نقدا بقيمة 80 فرنك على كل قنطار. و كان المجموع يعادل 432.000 فرنك فرنسي مفروضا على عشرين ألف مواطن ما يعني معدل 21 فرنك لكل فرد. و لكن و بطبيعة الحال لا ينبغي أن تدفع هذه الضريبة بشكل فردي بل بما يتناسب مع ثروات كل واحد، فتقرر بأن هذه الضريبة سوف تفرض على الأغنياء من المواطنين فقط. لكن الإدارة التي كلفت بالجباية قامت بدورها بشكل غير عادل و متحيز و هذا ما انعكس سلبا على جمع الضريبة بحيث تميز بالبطء و الصعوبة ما ادى في غالب الأحيان إلى استعمال الصرامة و القوة. كانت المدفوعات العينية الشبه معدومة دليلا على أن الجزائر لا تحتوي، عكس ما كان معتقدا، على الصوف الكافي. و للحصول عليه استعملت عائدات المساهمة النقدية في إبرام عقد مع السيد لاكروتز **Lacroutz** تاجر الجزائر الذي أتوا به من تونس.

في هذه الأثناء رفع الأهالي شكاويهم إلى باريس، التي أخذتها بعين الاعتبار حيث اعتبرت الاجراءات المتخذة من طرف الدوق دي روفيجو هي بمثابة قصر نظر وزير الحرب، الذي كان من واجبه إدراج تكاليف فرش جيش إفريقيا ضمن ميزانيته منذ وقت بعيد. ما إن تنبه وزير الحرب لهذا الامر،قام بعقد صفقة لهذا الغرض مع شركة فليه **Vallée**، و قرر إلغاء الاجراءات المتخذة سابقا من الدوق دي روفيجو **Le Duc de Rovigo** نظرا لعدم جدواها، لكن هذا الأخير رفض الانصياع لهذا

القرار، معتمدا في ذلك على قرار من مجلس الإدارة الذي اعتبر أن التراجع على قرار جمع المساهمات سيكون علامة ضعف و ستكون له عواقب وخيمة. لكن الوزير لم يرضخ لهذا القرار وأكد أوامره بحيث ردت المساهمات التي دفعت إلى اصحابها.

إتفق لاكروتز **Lacroutz** مع شركة فاليه **Vallée** و سلمها معدات الفرش التي كانت قد جهزتها. و هكذا انتهت هذه المسالة التي سببت الكثير من الحرج للدوق دي روفيجو**Le Duc de Rovigo**، و التي كان يهدف من خلالها إلى تحسين أوضاع الجنود.

بعد شهر من قدوم القائد العام، وصل السيد بيشون **pichon** إلى الجزائر، و كان المرسوم المتعلق بالضريبة على الصوف قد وضع ووقع من طرف الدوق دي روفيجو **Le Duc de Rovigo**، و عُرض عليه التوقيع هو أيضا، لكنه رفض قائلا أن هذا القرار اتخذ قبل وصوله وأن على القائد العام اتخاذ مسؤولياته بنفسه، وأنه سيساهم في تنفيذه، و لكن و لكونه معارضا لهذا القرار لم يكن تعاونه بشكل صريح. لاحظ السكان هذا الأمر ما جعلهم يجدون سببا آخر لمعارضة قرار فرض مساهمة الصوف. و عند وصول أمر إلغاء هذا القرار،كان السيد بيشون **Pichon** الوحيد من أعضاء مجلس الإدارة الذي صوت بالإيجاب بدون أي اعتراض ،كما طالب بإدراج موقفه المبرر في تقرير الجلسة التي عالجت هذه المسألة. وقد كان ذلك سببا في معاداة القائد العام للحاكم الذي ما انجر عنه سوء تفاهم دائم بين هذين المسؤولين. لم يكن يمكن لعلاقتهما أن تكون غير ذلك، و انعكس الأمر على النظام الهش الذي جنى ثمار عدم التفاهم. قام الدوق دي

روفيجو Le Duc de Rovigo ببعض التغييرات في جهازه الإداري، بحيث أعاد السيد فوجرو Fougeroux معه الى الجزائر كمفتش عام للمالية، و السيد فيوم Willaume الذي كان مفتشا عين تحت قيادة هذا الأخير. و بعد مرور بعض الوقت استبدل كلاهما بالسادة ميزونوف Maisonneuve و بلوندال Blondel. لعب السيد فوجرو Fougeroux دورا هاما في صفقة الصوف و يبدو أن ذلك ما أدى إلى استبداله. لم يكن السيد دسكالون D'Escalonne مدير الجمارك، والسيد جيراردان Girardin مدير العقار، تابعين إلى هاتين الإدارتين، و قد عُرض عليهما ضمهما لكن برتبة أقل و لم يقبلا ذلك، فاستبدل الأول بالسيد فيرلانج Verlingue في اواخر سنة 1831 والثاني بالسيد دومون D'Haumont في سنة 1832.

قام السيد بيشون Pichon بإرسال السيد دسكالون D'Escalonne إلى وهران مؤقتا لاستخلاف السيد باراشان Barachin نائب الحاكم المدني لهذه المنطقة.

أما السيد كاديت دي فو Cadet de Vaux، مفوض الملك على مقاطعة الجزائر، فقد توفي سنة 1832 و خلفه السيد كوتان Cotin موثق سابق في باريس.

رغم الفترة القصيرة لإدارة السيد بيشون Pichon فإن أي رأي صادق و موضوعي يشهد بأنه كان رجلا عادلا و عدوا للظلم، ربما أخطأ في إبداء تشدد في آرائه الإدارية، لكنه يجب الاعتراف أنه قاوم نظاما لا يمكن لذو قلب سليم إلا أن يقاومه بكل عزم؛ إنه نظام تعسفي في استخدام القوة كقاعدة حكومية مؤيدة بكل حماقة و تعنت من طرف أشخاص هم غير قادرين حتى على تطبيقه.

في الثالث من فيفري عين السيد بيشون Pichon المدعي العام للملك لدى محكمة العدل. و في الثامن من نفس الشهر، أسس الجريدة الرسمية "Le moniteur algérien" المخصصة للمنشورات التشريعية والقضائية. في السادس عشر من نفس الشهر أيضا، أصدر أمر مشترك بين السيد بيشون Pichon و القائد العام، ينص على أن الطعون لدى السلطات العليا ضد القرارت القضائية توضع لدى مجلس الادارة.

في التاسع و العشرين من فيفري، قام الحاكم المدني بتحديد شكل و تنظيم الطعون. وفي الثامن و العشرين مايو، أصدر أمر ينظم الرهون بحيث منح مهمة حفظها لكتاب المحاكم.

في السادس عشر فيفري،أرضخت كل العقود القضائية لإجراءات التسجيل. أخذت إدارة الأملاك تسمية إدارة الأملاك و الحقوق معا، و في السابع عشر مارس؛ تقرر أن يتلقى صندوقها جميع الإيداعات. وقد تقرر تركيز عمل هذه الإدارة مع إدارة الجمارك في الجزائر العاصمة بالنسبة لكل نقاط المنطقة. أثناء اتخاذ كل هذه الإجراءات كانت عنابة قد وقعت تحت سيطرتنا منذ عدة أيام.

نظم الأمر الصادر في العشرين من شهر أفريل المصالح المدنية في عنابة،بحيث تقرر تنصيب نائب الحاكم المدني و مفوض للشرطة (un commissaire de police) و قاضي ملكي مكلف بمعالجة كل النزاعات المدنية بين المسيحيين، و بين المسيحيين و المسلمين و اليهود.

قابلة للطعن إلى غاية ألفي فرنك كحد أقصى، و لما تتعدى قيمة الطعن هذا المبلغ، يقدم الاستئناف إلى محكمة عدل الجزائر العاصمة. بالنسبة للقضايا الإصلاحية، كان القاضي الملكي يحكم في القضايا التي يمكن لأصحابها بأن يدانوا بالسجن لمدة عشرة أيام على الأكثر، إضافة إلى الغرامات. أما القضايا التي تؤدي إلى عقوبات أشد فكانت تحال إلى محكمة الجنايات في الجزائر العاصمة. في القضايا الإجرامية تقرر أن يعد القاضي الملكي البيان الخاص بالقضية و يحيل المتهمين أمام محكمة العدل من أجل أن يحكم فيها. لم ينصب السيد بيشون Pichon أي قاض ملكي في مدينة وهران رغم أن هذه الأخيرة كانت تحت سيطرتنا قبل عنابة بزمن طويل.

أصدر في الواحد و الثلاثين من شهر مارس مرسوم ينظم أحكام الضرائب و الشرطة المتعلقة بصيد المرجان. و قسم الصيد إلى موسمين، كما كان عليه الحال في الأنظمة المعمول بها في الشركة الافريقية السابقة، و احتفظ بالخدمات السابقة و لكن فقط لصيادي المرجان الأجانب.

في هذه الاثناء لم يكن لمصلحة الشرطة الصحية في الجزائر العاصمة إلا تنظيما مؤقت. وكان من الضروري إعطاء هذه المصالح تنظيما عن طريق وضع إدارة جدية لمنح موانئ أوروبا الضمانات الكافية للحصول مقابل ذلك على تخفيض للحجر الصحي على صادرات المنطقة. و قد أعد مرسوم الخامس و العشرين من جانفي لهذا الغرض بحيث أسست ثلاث لجان للصحة في الجزائر، عنابة و وهران و وَضع حيز التنفيذ الأحكام الرئيسية من قانون الثالث من مارس 1822 و قانون الرابع عشر أوت من نفس السنة.

كانت هذه أهم الأوامر الإدارية للسيد بيشون Pichon، الأحكام الأخرى كانت إما انتقالية أو ذات أهمية ثانوية. رغم ذلك، فقد كان هناك من بين هذه الأحكام بند كان له تأثير واسع المدى في المجتمع رغم أنه قد يبدو قليل الأهمية؛ إنه الأمر الصادر في العاشر من شهر مارس، الذي تم مصادقته من طرف الإدارتين والذي أقر ،من بين العديد من أحكام بيع المشروبات، بمنع منح الشراب لضباط الصف و الجنود. لو كان هذا الحظر قد طبق بصرامة من طرف السلطات، لما انتشرت العادة المخزية للشرب و السكر في جيش إفريقيا بحيث وصل لحد مبالغ فيه. كانت الشوارع مليئة كل يوم بجنود سكارى متناثرين في كل مكان، ينظر إليهم المواطنون بشفقة و اشمئزاز لا يستطيعون القيام إلا بملأ المستشفيات.

كان سوء الفهم الذي حل بين القائد العام و الحاكم المدني يزداد حدة كل يوم و بشكل ملحوظ، و وصلت الأمور في أنه كان على الحكومة عزل أحدهما. و كان الحاكم المدني من هزم و بذلك فقد الحكم المدني استقلاليته القانونية. أصدر امر في الثاني عشر من ماي يلغي الامر الصادر في أول ديسمبر 1831، و غادر السيد بيشون Pichon الجزائر، ما أدى إلى ارتياح الدوق دي روفيجو Le Duc de Rovigo، وتم استخلافه بالسيد جنتي دي بوسي Genty de Bussy الذي تم تعيينه تحت إمرة القائد العام. و هكذا تأسست داخل المستعمرة حكومة موحدة.

كان السيد جنتي نائب الحاكم العسكري من الدرجة الثالثة،و تحالفه

مع رجل قوي جعله يعين مسؤولا إداريا و قضائيا. و كان لا يزال في الجزائر عندما تم إرسال لجنة إلى إفريقيا، وليس بحوزتنا إلا استعارة الألفاظ التي استعملتها هذه الأخيرة لوصف إدارته: "السلطة المدنية في أسوأ أحوالها: غياب الإدارة الجيدة، الافتقار إلى الخبرة في مهامه، نشاط عقيم من النتائج المفيدة بل هي متهورة و مدمرة في غالب الأحيان".

"اللجنة لا تنفي أن الظروف كانت صعبة في كثير من الأحيان، لكن السلطات العليا جعلتها أشد صعوبة" (جلسة الواحد و الثلاثين أكتوبر 1833).

كان السيد جنتي Genty رجلا ذكيا و ذو دراية بحيث تمكن في وقت قصير أن يستقل عن القائد العام الدوق دي روفيجو Le Duc de Rovigo الذي لم يستطع تحمل المطالب المشروعة للسيد بيشون Pichon، رضخ بكل سهولة لتأثير خليفة هذا الأخير و تسامح معه في العديد من المرات على عمليات النهب. و في وقت قصير أصبح توقيع السيد جنتي Genty مكتوبا على الأوامر الصادرة إلى جانب إسم القائد العام و بشكل متساوي، و هذا ما يثبت أنه إذا كانت المناصب تصنع الرجال فإن هناك رجالا يعرفون صنع مناصبهم بأنفسهم؛ و لكنه كان من المستحسن استغلال هذه الميزة سوى للصالح العام لكن ذلك لم يحدث إلا نادرا.

كلفت إدارة السيد جنتي بإنشاء القريتين الأوروبيتين في القبة و دالي ابراهيم، و ينبغي توضيح بعض التفاصيل في هذا الصدد.

في غضون العام 1831، وصل إلى الجزائر العاصمة حوالي 500

مهاجر ألماني و سويسري،الذين غادروا مواطنهم قصد الذهاب إلى أمريكا،و لكن عند وصولهم إلى هافر Havre (منطقة في فرنسا) غيروا وجهتهم فجأة و قرروا المجيء الى الجزائر. و قد و صل أغلبهم في حالة من العوز التام. و بما أنهم لم يجدوا أية وظائف، وأنه لا يوجد شيء يعملونه في البلاد، أصبحوا تحت مسؤولية الإدارة التي أجبرت على توزيع المواد الغذائية عليهم و إسكانهم في خيام في المناطق المحيطة بالجزائر العاصمة.

و بالرغم من هذه الإغاثات القليلة إلا أنه توفي ما يقارب مائة شخص منهم من البؤس و الحنين. أراد الدوق دو روفيجو Le Duc de Rovigo، الذي أذن له وزير الحرب بالقيام ببعض محاولات الاستيطان، توزيع بعض الأراضي للمهاجرين الباقين و قد تحدث بهذا الصدد إلى السيد بيشون Pichon الذي رد بأن إدارة العقارات لا تملك شيئا في ضواحي الجزائر العاصمة و أنه من المستحيل وضع المستوطنين الجدد،كما يرجوه القائد العام.

قام هذا الأخير، و الذي كان يولي هذا المشروع أهمية بالغة، بالإصرار على طلبه مبررا أنه من الممكن وضع المستوطنين في الأراضي المهجورة، و إذا ظهر لها ملاك يثبتون ملكيتهم، تدفع لهم رسوم سنوية أو شيء من هذا القبيل. هذه الطريقة في مصادرة الأراضي لم تكن لتتوافق مع الحاكم المدني ذو الأفكار المنطقية و المنتظمة، بحيث أنه لا يمكن ترجي أي فائدة من انتزاع ملكيات المغاربة من أجل بعض الأوروبيين، صحيح أن المغاربة قد تركوا زرع أراضيهم و أن الصالح العام كان يقتضي ألا تبقى الأراضي غير

منتجة،لكننا نعرف جيدا الأسباب التي جعلت الأعمال الفلاحية تتوقف في ضواحي الجزائر العاصمة، كنا نعلم جيدا أن هذا الوضع المؤسف كان نتيجة حتمية للأضرار التي ألحقتها القوات و اجراءات المصادرة والتدابير العنيفة التي شككت في أبسط الحقوق،هذه هي الظروف التي كان على السلطات العليا أن تعمل على توقيفها و العودة بشكل واضح وصادق إلى المبادئ العالمية للعدالة و أساسيات الإستسلام.

فهذا الأسلوب في استرجاع النشاط الزراعي في ضواحي الجزائر العاصمة سيكون بالتأكيد أكثر فعالية من المشروع الإستعماري لدوق دي روفيجو. أما بالنسبة للمستوطنين الألمان فقد كانوا يشكلون عبئا كان يجب تحمله لبعض الوقت، كان بالإمكان وضع خطة تدوم بعض الأشهر لاستغلال الأراضي في منطقة الفحص في ظل ظروف أمنية أفضل وإيجاد عمل لهؤلاء دون تجريد الأهالي من أراضيهم. لكننا فضلنا نشر الأخبار في الجرائد للتباهي بأننا نجحنا في توطين مائة من الأجانب والذين قامت سلطتنا المكروهة بإبعاد الأهالي الملاك من أجلهم.

لقد ضحوا بكل شيء من أجل هذه الأفكار المؤسفة و قد اضطر السيد بيشون Pichon للاستسلام بعد أن قاوم طويلا. اختيرت منطقتي القبة ودالي ابراهيم لبناء قريتين أوروبيتين في أثناء حكم بيشون Pichon، لكن هذا المشروع تم تنفيذه في عهد خلفه. و كانت نفقات البناء معتمدة على قرض قيمته مئتي ألف فرنك ممنوح للحاكم المدني من قبل وزارة الداخلية من أجل المحاولات الاستيطانية. كُلف السيد بروس Prus الذي نصب منذ مدة قصيرة

مهندسا للجسور و الطرقات في الجزائر العاصمة، بتنفيذ الأشغال، و نوقشت في المجلس مسألة إذا ما كانت القرى ستكون محصنة و حسم الأمر بالإيجاب. ومنذ ذلك الحين أصبح أمر تحديد المواقع في المقاطعات التي اختارتها الإدارة مهمة الهندسة العسكرية و هذا ما يفسر الخيار الخطأ الذي وقع على الأراضي الفلاحية خصوصا في دالي ابراهيم و كانت هذه القرارت لاعتبارات عسكرية قليلة الاهمية. ترك مشروع تحصين القرى على جنب بسبب سوء اختيار المواقع.

و قد كانت معظم الأراضي التي وزعت على المستوطنين تقع في دالي ابراهيم، المزرعة التي تحمل هذا الإسم كانت تابعة لمجموعة من الأنكشاريين، و في القبة حوش تابع إلى مسجد. كان هذين المبنيين وقفا. و تم التعدي أيضا على الممتلكات الخاصة.

أثيرت ادعاءات كثيرة ضد هذه الاجراءات، و الكثير من المواطنين تخلوا عن حقوقهم بعد يأسهم و باعوا أراضيهم بثمن بخس إلى الأوروبيين، الذين استعملوها حجة لإزعاج الإدارة. و تورط عدة موظفون حكوميون في هذا النوع من التجارة غير المشرفة.

بعد هذا قُسم المستوطنون الذين أقاموا في منطقتي القبة و دالي ابراهيم إلى ثلاث طبقات:

كانت الطبقة الأولى مكونة من أولئك الذين يمتلكون دخلا يكفيهم للتكفل ببناء بيوتهم بأنفسهم. وقد حصلوا على عشرة هكتارات للشخص.

الطبقة الثانية،تمثلت في الجنود السابقين الذين منحوا ستة هكتارات للشخص الواحد. هؤلاء الجنود القدامى كانوا خريجي الجيش الفرنسي.

أما الطبقة الثالثة فقد تشكلت من الذين كان يتوجب بناء مساكن لهم، وقد منح لهم أربعة هكتارات للفرد الواحد.

هكذا استقر في منطقتي القبة و دالي ابراهيم المستوطنون البؤساء القادمين من ألمانيا إلينا، لكنهم لم يجدوا النهاية السعيدة لمآسيهم أو بالأحرى التي انتظروها طويلا، إذ أن عددا كبيرا من سكان القبة لقي حتفه إثر الحمى الوبائية،و تحولت هذه الأخيرة الى خراب بالفعل. أما قرية دالي ابراهيم فقد كانت أكثر ازدهارا بفضل طريق الدويرة الذي كان يعبرها.

ما ميز هذه القضية برمتها هو خلق وكالة الاستيطان لإدارتها و التي ارتفعت تكاليف الموظفين فيها إلى ما يقرب العشرين ألف فرنك سنويا. و كانت هذه أيضا من بنات أفكار الدوق دي روفيجو Le Duc de Rovigo الذي كان لديه بعض الأصدقاء ليوظفهم. لقد حاول السيد بيشون Pichon مقاومتها لكن دون جدوى.

الدوق دي روفيجو Le Duc de Rovigo كان يتمنى أن تبعث لنا كل بلدان أوروبا فائضها من السكان، لكن لما اتضحت له صعوبة إسكان ما بين أربع مائة الى خمس مائة مستوطن، تغيرت أفكاره و قام بإصدار إعلان رسمي مضمونه أنه لن يقبل أي مستوطن بعد الآن في الجزائر، إذا لم يكن لدى هذا الأخير ما يكفيه لتلبية حاجياته لمدة سنة. و منذ هذه الفترة، لم تلبث الإدارة التي كانت تنتقل من تجاوز الى آخر، تضع عوائق لوصول الأوروبيين إلى الجزائر، خاصة أولئك الكادحين، أوروبيون مفيدون، وبقيت الأبواب مفتوحة على مصراعيها لبائعي الخردة و القطع العتيقة، الذين وسموا بلقب الرأسمالي، المحامين و بنات الهوى.

سيكون من المتعب سواء للكاتب أو للقارئ أن يصف هنا و لو بشكل ملخص كل الأوامر التي أصدرت أثناء إدارة السيد جنتي دو بوسي Genty de Bussy . إنها كمية كبيرة بشكل مخيف. هذا المدير الموهوب في الكتابة و الولع للعمل في المكتب، لم يكن يرى إفريقيا إلا في ملفاته. أما بالنسبة للعمل الميداني فلا داعي للحديث عنه. و أغلب الأوامر التي أصدرها ماتت عند الولادة،و لم تحظ حتى ببداية التنفيذ. من بين الأمور التي جعل الدوق دي روفيجو Le Duc de Rovigo يمضيها و التي أصدرت بالفعل، نذكر ما يلي:

مرسوم الرابع نوفمبر 1830 الذي منع تصدير البذور و الطحين إلى غير فرنسا. عمم هذا القرار بعد ذلك إلى مقاطعة وهران. و في العاشر جويلية 1832، وقع دوق دي روفيجو Le Duc de Rovigo على قرار يمنع فيه التصدير إلى أي وجهة كانت.

في السادس عشر أوت،صدر مرسوم ينظم إدارة القضاء الجنائي على حسب القواعد التالية: أنشئت محكمة جنائية للفصل في الجرائم المرتكبة من قبل الفرنسيين و غيرهم من الأجانب. تألفت هذه المحكمة من أعضاء المحكمة القضائية و محكمة الشرطة الإصلاحية، مكونة من سبعة أعضاء. و لقد تقرر أن تجري الإجراءات و التعليمات وفقا للقواعد المنصوص عليها في القانون الفرنسي للمحاكم و محكمة الشرطة الإصلاحية وأن الادانات لا يجوز إيقاعها إلا بأغلبية خمسة أصوات من سبعة، و أن تحول الطعون أمام مجلس الإدارة الذي ينعقد لأخذ قرار الحكم من طرف خمسة أعضاء على الأقل.

أما بالنسبة للأهالي الأصليين، فقد كانت تنظر في قضاياهم محكمة الحرب التي تعنى بالجرائم التي اقترفت من طرف المواطنين في حق أرواح و ممتلكات الأوروبيين. كما واصل القاضي المغاربي النظر في القضايا الجنائية و الإصلاحية بين المسلمين، و ذلك وفقا لإجراءات مرسوم الثاني و العشرين أكتوبر من سنة 1830، و تناول الحاخامات القضاء بين الإسرائيليين في نفس النوع من القضايا، و تقرر أن يكون هناك استئناف لكل القضايا، أمام مجلس الادارة فيما يخص القضايا الجنائية، و أمام محكمة العدل بالنسبة للقضايا الإصلاحية. أما القضايا الجنائية بين المسلمين و اليهود كان لا بد من النظر إليها من قبل المحكمة الجنائية، و المسائل الإصلاحية من قبل محكمة الشرطة الإصلاحية.

يمكن الملاحظة بأن مرسوم السادس عشر أوت جلب تغييرات كبيرة على النظام القضائي الذي وضعه الجنرال كلوزيل Clauzel. وفقا لمرسوم الثاني و العشرين أكتوبر، فإن الفرنسيين غير العسكريين المتهمين بارتكاب جرائم، ينبغي إرسالهم إلى فرنسا للحكم فيهم. لم يعتقد السيد كلوزيل Clauzel أنه يمكن أن يذهب أبعد من ذلك، وكان واثقا أن قضية بهذه الأهمية لا يمكن تسويتها نهائيا إلا بموجب قانون، أو بموجب مرسوم ملكي على الأقل. لكن السيد جانتي Genty كان يرى خلاف ذلك، و كان يعتقد أنه و القائد العام مجتمعين يمكنهما حل محل قضاة خاصين بقضايا الفرنسيين، و قد عوقب استغلال السلطة هذا من قبل وزير الحرب. في السابع عشر أوت، تم إنشاء الحرس الوطني في الجزائر، وقد حدد مرسوم الواحد و العشرين سبتمبر التنظيم ولم يتم قبول إلا الفرنسيين.

في الواحد و العشرين سبتمبر، صادق السيد جانتي Genty لوحده، و لكن بموافقة الدوق دي روفيجو Le Duc de Rovigo، مرسوما موجها لكل ملاك العقارات في المناطق القريبة من القبة و دالي ابراهيم،لتقديم عقود الملكية في يوم و ساعة محددين،و هي: الرابع و العشرين سبتمبر في السابعة و النصف صباحا لملاك دالي ابراهيم و اليوم الموالي في نفس التوقيت بالنسبة لملاك القبة، أما الذين لم يتقدموا للإدلاء بممتلكاتهم فيتوجب تطبيق المادة 713 من القانون المدني عليهم والذي ينص على ما يلي:

"الممتلكات التي لا يعرف لها مالك تضم الى أملاك الدولة"

هذا المرسوم الجائر يظهر مدى اللامبالاة التي كان السيد جانتي Genty يتعامل بها مع حقوق أهالي الجزائر. ألم يكن ذلك من السخرية المرة و الخطأ الفادح أن تستخدم مادة واحدة من القانون و يغض النظر عن تلك المواد التي تحفظ حقوق الغائبين، و أن يعلق حق الملكية لحضور المالك في توقيت محدد، و ان تمنح الملكية للدولة دون أي حكم قضائي بل وبمجرد عقد إداري؟

عين بمقتضى مرسوم العشرين سبتمبر قاضي ملكي في وهران، كما كان عليه الحال في بونا "عنابة" و نص هذا المرسوم على أن القضايا الجنائية الصادرة عن هاته المدن و المفروض إحالتها الى محكمة العدل يجب عرضها أمام المحكمة الجنائية عملا بمرسوم العشرين أبريل. في الثامن أكتوبر، أنشأ الحرس الوطني في كل من عنابة و وهران. في نفس اليوم، الطعون المقدمة إلى مجلس الإدارة في الأحكام الصادرة عن المحكمة الجنائية تم حصرها في الحالات المحكوم عليها بعقوبة الإعدام. أحيلت الطعون الخاصة بالقضايا الجنائية الصادرة من طرف

القضاة المحليين، ليس لمجلس الإدارة، كما كان ينص عليه مرسوم السادس عشر أوت بل أمام محكمة الجنايات.

في الواحد و العشرين جانفي 1833، أصدر مرسوم وضع قيد التنفيذ إجراءات جديدة حول الطعون أمام مجلس الإدارة للقرارات القضائية لمجلس قضاء الجزائر، و ألغى كل المراسيم التي أصدرت مسبقا بهذا الصدد.

بغض النظر عن هذا، قام السيد جانتي دي بوسي Genty de Bussy اعتمادا على أجزاء من القانون الاداري الفرنسي البالي، بإصدار مجموعة كبيرة من المراسيم التي تنظم مهنة الصيدلية، شرطة الملاحة و على ممتلكات المدينة وصيانة و المنازل و أشغال الطرق وما إلى ذلك. كل هذه الأعمال كتبت بفخر في جريدة le Moniteur Algérien و لكن لم يكترث أحد بتنفيذها. كانت المدينة قذرة و غير مرتبة، و المنازل تنهار كالأنقاض، حتى النافورات جفت جراء إهمال الإدارة لأن التسيير لا يعني كتابة القوانين فقط. عرف السيد جانتي Genty في المقام الأول بفرض الضرائب، حيث أنه في فترة حكمه على الجزائر، كان السيد جانتي Genty من مؤيدي فرض الرسوم على الصناعة. و تحت إمرة الدوق دو روفيجو Le Duc de Rovigo وضع تعريفة جديدة من الرسوم على التصدير، و ضريبة على البناء في الطرق العامة، وعقب ظهور أول عربة في الجزائر وضعت لها سريعا تعريفة خاصة تدفع على العربات العامة، هذا ما أدى إلى كبت هذه الصناعة على الفور و التي لم تزدهر إلا بعد مرور عامين.

في بلد جديد كالجزائر، كان يجب إعطاء حرية للتجارة و الصناعة، وعدم فرض ضرائب في البداية ليفسح أمامها المجال لتتطور و تزدهر، و هذا ما لم يعمل به في الجزائر. الرغبة الجامحة في جلب أكبر قدر من الضرائب ضللت أغلب حكامنا لدرجة أنهم ضحوا بالمستقبل مقابل الحاضر دونها ضرورة لذلك. إنه من الغريب أن يرفض رجال ذوي ذكاء مميز في الأغلب تطبيق مبدأ جد واضح وأن لا يعترفوا بأبسط عناصر الاقتصاد السياسي ولو نظريا.

في أول مارس، أنشأ السيد جانتي Genty، بموافقة الدوق دو روفيجو Le Duc de Rovigo، لجنة مكلفة بفحص سندات الملكية. كان على الملاك أو المستأجرين تقديم سنداتهم ثلاثة أيام بعد إصدار البلاغ الذي قدمته اللجنة، وقد تقرر تطبيق المادة 713، التي كان يميل إليها السيد جانتي Genty كثيرا، على كل من لم يقدم السندات. تألفت اللجنة المكلفة بهذا العمل الضخم من أربعة أعضاء، من بينهم واحد يجيد قراءة اللغة العربية، واثنين فقط ينطقان بها. كان من المستحيل عمليا أن تقوم بهذه المهمة الصعبة، دون إقدام الأهالي على ذلك و هو مالم يحدث. ولا أعتقد أن عدد مستندات الملكية المقدمة آنذاك للجنة قد تجاوز المائة. هذا الإجراء المثير للسخرية لم يستمر. كان لدى السيد جانتي دي بوسي Genty de Bussy رغبة شديدة في اكتشاف أملاك الدولة التي اختفت مستندات الملكية بالنسبة لأغلبها بسبب إهمال السيد دو بورمون De Bourmont، وبالتالي فإن فكرته المفضلة و التي انعكست في مرسوم أول مارس، كانت الاستيلاء على

بنايات الجزائر دون تمييز، ماعدا تلك التي كان يعتقد بعض الملاك أن لهم حقوقا فيها يمكن إثباتها. و بما أنه كان من الصعب إقناع الحكومة بتطبيق هذه الطريقة العنيفة للعمل، كان يجب اللجوء إلى طرق أبطء و أكثر عدلا، فالأبحاث الجزئية، في عهد الجنرال فوارول Voirol، أدت كما سنراه لاحقا، الى نتائج جيدة.

يتوجب الثناء على إثنين من الأعمال الإدارية التي قام بها الدوق دو روفيجو Le Duc de Rovigo، وهما: إنشاء مستشفى الداي و الكنيسة الكاثوليكية. أنشأ المستشفى في منزل ريفي قديم للباشا، كان المنزل كبيرا جدا و واسعا جدا،متواجد في مكان صحي غير بعيد عن المدينة خارج باب الواد، كان مخصصا للجنرالات، لكن الدوق دو روفيجو Le Duc de Rovigo عممها بكل سخاء. و على الرغم من أن البيت كان واسعا لكنه تطلب بناء منشئات جديدة.

تأسست الكنيسة الكاثوليكية في مسجد، لم يفاجئ هذا الاجراء المسلمين لما تعودوه منا من لامبالاة دينية. و كانوا سعداء لرؤيتنا أخيرا نقف للصلاة لله. استولينا أيضا تحت امرة الدوق دو روفيجو Le Duc de Rovigo على مساجد أخرى لمختلف المصالح الإدارية.

الكتاب 10

سياسة الدوق دو روفيجو Le Duc de Rovigo تجاه العرب – سلوكه تجاه الآغا – المفاوضات مع فرحات بن سعيد- مذبحة العوفية- مذبحة فرقة استكشاف فرنسية. – استعراضات الجنرال بوشي Buchet في منطقة يسر.- إضطرابات في منطقة الجزائر.- إعلان الجهاد و التمرد العام.- قضية بوفاريك.- سلوك غامض و هروب الاغا.- اعتقال مرابطي القليعة.- حملة البليدة.- اعتقال و إعدام مسعود و العربي.- مفاوضات مع قسنطينة.- مساعدة لعنابة.- أحداث وهران،و استدعاء الجنرال بوير Boyer – رحيل الدوق دو روفيجو Le Duc de Rovigo – الإنحراف على محافظة قسنطينة.

بدأ الدوق دو روفيجو Le Duc de Rovigo إدارته بطريقة جد مناسبة و جد منهجية. فقد تأكد أولا، كما رأيناه آنفا، من امتلاكنا للمنطقة بالفعل، من خلال إنشاء عدة معسكرات دائمة صغيرة. هذه المنطقة كانت محاطة بخط من التحصينات، التي انطلقت من حصن لابوانت بيسكاد الذي احتللناه، مرورا بقمة بوزريعة. دالي ابراهيم، القادوس، تقصراين، واد الكرمة، والمزرعة النموذجية، و جسر لاراتش المدعو جسر قسنطينة، البيت المربع (المحمدية حاليا) و مصب الحراش. كان يحوي حوالي ستة أميال مربعة وضعت بعيدا عن

أي محاولة غزو، والتي كان من الممكن أن تزدهر بها الزراعة من جديد لولا أن ظروفا أخرى اعترضت ذلك. لقد ازدرينا كثيرا هذه المنطقة التي تحوي جزءا كبيرا من مرتفعات الجزائر، لكن على حد قول بعض الناس، فإنه لا يمكن أن تكون الزراعة منتجة إلا في السهول. يجب على المرء أن يكون حذرا من هذه المزاعم المدعمة من المضاربين، أو بالأحرى تجار الأراضي الذين أبعدوا من المستعمرة المنشأة في أعالي الجزائر، أرادوا استغلال الأراضي التي حصلوا عليها، و كانوا غير قادرين، أو غير راغبين في القيام بذلك، فتحججوا بأنه يمكنهم في السهول عرض مواهبهم في الزراعة و الاستيطان. هؤلاء لم يعملوا على زراعة المتيجة أكثر مما فعلوه بمرتفعات الجزائر. الكثير منهم سبق له و أن قام ببيع ما اكتسبوه من الأراضي في تلك المنطقة، بشروط جعلت فرص نجاح المنتجين الحقيقيين أكثر صعوبة. وأرادوا فعل نفس الشيء للسهول. إنهم كائنات ضارة، كانوا دبابير حقيقية تسعى للعيش على حساب خلية النحل، والتي بسبب طبعهم الجشع و الأعمى، كانوا يمنعونها من أن تنمو و تتشكل.

كان الاحتلال المنتظم لمرتفعات الجزائر إجراءً تنظيميا و نقطة انطلاق مُرضية. كان من المستحسن، أن يرتكز الدوق دي روفيجو Le Duc de Rovigo على هذه القاعدة المتينة أن يتصرف مع العرب بوسائل و طرق مغايرة لتلك التي استخدمها. وسرعان ما تفاجأ بالنظام الذي اتخذه الجنرال برتزان Berthézène، منذ استخدام آغا من الأهالي، الشيء الذي جعل دور السلطة الفرنسية يبدو سلبيا، ولكن لعدم وجود مخطط واضح، ولكون سياسته تنحصر في التطبيق غير المنطقي لوحشية النظام التركي الذي لم يكن يعرف عنه غير

الجانب السلبي، فقد اكتفى فقط بإزعاجه دون أن يسقطه تماما.

و رغم أنه كان يتعامل مع الآغا ببعض الاستهتار، إلا أن هذا الأخير واصل مع ذلك مهامه. و قد نتج عن ذلك تدهور في آخر المطاف، كان من المفروض أن ينتج عنه تمرد عام، أدى إليه عمل رهيب و شديد القسوة، أمر به بكل برود الوزير السابق للشرطة الامبراطورية،وفيما يلي الأحداث:

فرحات بن سعيد الذي قمنا بتعريفه من قبل، فقد الأمل في إسقاط باي قسنطينة بدعم من العرب فقط، قرر اللجوء للفرنسيين. و لهذا الغرض، أرسل بعثة إلى الدوق دو روفيجو Le Duc de Rovigo ليحثه على القيام بحملة على قسنطينة، مع وعود بتقديم التحالف و التعاون من طرف جميع القبائل التي تعترف بسلطته. هذه البعثة، التي رافقتها ضجة كبيرة، رد عليها الدوق دو روفيجو Le Duc de Rovigo بمراوغة. بالرغم عن ذلك، لاقى أعضاء البعثة استقبالا جيدا في الجزائر، و عادوا محملين بالهدايا. في نفس يوم رحيلهم هوجموا من طرف قطاع الطرق، في أراضي العوفية، و هي قبيلة بدوية صغيرة تخيم على مسافة قريبة من البيت المربع Maison-Carrée (المحمدية)، فعادوا إلى الجزائر ليقدموا شكاويهم. إثر ذلك أخذ دوق دي روفيجو أعنف قراراته التي لا يمكن تبريرها: أمر في تلك الليلة بإرسال بعض القوات التي وصلت فجرا إلى العوفية وقاموا بتذبيحهم دون أن يستطيع هؤلاء البؤساء الدفاع عن أنفسهم. قتل كل من تدّب فيه الحياة، كل ما يمكن أخذه سلب، لم يكن هناك تمييز لا في السن ولا في الجنس. مع ذلك أنقذت إنسانية بعض الضباط عددا قليلا من النساء و الأطفال. و عند العودة من هذه الحملة

الشنيعة، كان العديد من خيالتنا يحملون رؤوسا على رماحهم، و يقال أن أحد هذه الرؤوس قد نكل به.

جُنّب رئيس هذه القبيلة البائسة، رابيا، هذه المذبحة ، لقد أحتفظ به ليقدم للمحاكمة. في الواقع،و رغم الجهود الكثيرة للسيد بيشون،الا أنه أقتيد أمام مجلس الحرب،حيث حكم عليه،أدين و أعدم، على الرغم من أنه تم التأكد من أن العوفيين لم يكن لهم علاقة بالاعتداء الذي حصل على رسل فرحات،لكن انصاف رئيس القبيلة سيكون بمثابة الاعتراف ببراءة القبيلة و بالتالي فانه يعني الادانة الأخلاقية للذي قام باصدار أمر المجزرة، ولتجنب هذا الاستنتاج المنطقي كان يجب ادانة رابيا الذي قدم رأسه هدية للراحة الشخصية لدوق دي روفيجو. وقد جاء هذا الاعتراف من قبل أحد القضاة... [1]

الاعتداء الدموي على قبيلة العوفية كان في نظر بعض الأشخاص اجراءا حكوميا مريحا للغاية. كانوا يقولون،هكذا كان يفعل الأتراك أثناء حكمهم،كانت تلك حجة لذوي العقول المغرضة. يوجد في العالم الكثير من الذين لا يفضلون شيئا غير الأفكار الجاهزة. العرب هكذا،لا يقادون الا بالفأس،و ان الأتراك لم يستعملوا غير هذه الوسائل،هي واحدة من تلك الأفكار التي تتبنى دونما فحص. لقد تأصلت هذه الأفكار في بعض العقول، لدرجة أن بعض الناس في الجزائر لا يزالون يقولون أن الحملة ضد قبيلة العوفية، رغم ظلمها،قد كانت ذات مفعول ايجابي، بحيث جلبت الهدوء التام لعدة أشهر، الشيء الذي يتناقض كليا مع الحقائق الرسمية، بحيث كانت هذه

(1) كان ذلك بوجودي الشخصي و وجود بعض الضباط الساخطين مثلي.

الفترة بالضبط نقطة انطلاق الاعتداءات الجزئية للعرب، و التي انجر عنها لاحقا الاجتماع الكبير في سوق علي. حدثت مذبحة قبيلة العوفية أثناء شهر أفريل،و في شهر ماي التالي، تم ذبح ثلاثين من فرقة استطلاع للفيلق الأجنبي على مسافة كيلومتر من ميزون كاريه (المحمدية حاليا). كل ليلة، كان بعض العرب يقومون بضرب بعض الطلقات النارية في ارجاء معسكراتنا وحصوننا، ما أدى الى حمل السلاح من طرف قواتنا، و جعلها في حالة استنفار دائم. كان دوق دي روفيجو،نفسه، غير واثق من ملائمة السياسة التي اتخذها، لدرجة انه كان في حالة ترقب دائم. لكنه احتفظ بذكرياته من الشرطة أنه يجب استيعاب كل التقارير، ناسيا أنها لا تستحق كلها ثقة عمياء. كان المترجمين الذين يتعامل معهم، و الذين يعرفون جيدا نقطة ضعفه هذه، يريدون أن يكونوا مهمين، كانوا يحاولون دائما اطلاعه على ما يحدث، اما بالوصول الفوري لباي أحمد، أو أي دعوة لحمل السلاح في متيجة[1]. الهجمات الجزئية للعرب كانت تعطي بعض المصداقية لهذه الضجة المبالغ فيها، أوامر الحراسة كانت بشكل جعل القوات شديدة الارهاق، حتى من دون مغادرة مخيماتهم، و بما أن هذه المخيمات لم تكن مقامة في أماكن صحية، هذه الظروف الى جانب النشاط دون نتيجة، و بالتالي دون أي انشغال ذهني متطلب من الجنود ، زاد

(1) كان يقال باستمرار أن الباي احمد سيصل على راس ثلاثين الف رجل، و انه على مقربة مسيرة يوم أو يومين من الجزائر. لقد لوّح بهذه الفزّاعة لغاية وصول الجنرال فوارول الذي كسرها. اما اثناء حكم دوق دي روفيجو، و قد استغلت سذاجة بعض الأشخاص بطريقة تسعد ابسط ملاحظ. يروى أن واحدا من الأهالي القحين كان يكتب بشكل علني رسائل لأحد ممولي الأخبار للدوق على أساس انها آتية من داخل البلاد، و هذه التجارة كانت جد مربحة لمن اخترعها.

عدد المرضى كثيرا لدرجة أن الجيش كان في وقت ما، اكثر من اربعة آلاف رجل في المستشفيات.

قلنا أنه في شهر ماي،تم تذبيح فريق متكون من ثلاثين جندي في ميزون كاريه (المحمدية). و كان هؤلاء البؤساء ينتمون الى الفيلق الأجنبي، سقطوا في كمين وضع لهم من طرف حزب العمارة و يسر. حاولوا الاختباء في حظيرة أحد المرابطين التي كانت في طريقهم، لكنهم لقوا حتفهم جميعا بعد أن نفذ لديهم الرصاص. أراد دوق دي روفيجو الأخذ بثأرهم، فقرر ارسال بعثة الى يسر عبر البحر. كانت هذه الأخيرة مكونة من اثنا عشر الى خمسة عشر ألف رجل، يقودها الجنرال بوشيه. وانتقلوا الى نقطة الهبوط بواسطة فرقاطة [1] و سفينة شراعية و باخارة. كان من المفروض أن ترسى أثناء الليل، و تفاجئ العدو عند الفجر، لكن هذا الأخير بقي على أهبة الاستعداد. فقد لمحت نيران مضيئة على الساحل من نقطة لأخرى، فلم تنزل القوات أبدا. و عند طلوع النهار،شوهد بعض الفرسان على الشاطئ يترقبون تحركات الأسطول. فعدنا أدراجنا الى الجزائر، مما أثار دهشة العرب و دون أي استياء واضح بين أفراد البعثة العسكرية. و كان الجنيرال بوشي قد تلقى تعليمات بإحداث مفاجئة لا غير و أن يعود اذا ما كشف أمره. فما الذي يمكن للعرب أن يكونوا قد فكروا به و لا تزال ذكرى حادثة العوفية حية في الأذهان؟ سيفكرون بالضرورة،أننا لا نجيد غير تقتيل رجال نائمين، نساء و أطفال، و لا نتجرأ على مهاجمة رجال

---

(1) Frégate

مسلحين و يقضين. أن نكون مكروهين و محتقرين في نفس الوقت، هذا كثير.

الاغا محي الدين،كان مثل كل العرب، ساخطا على مجزرة قبيلة العوفية، لكن نظرا لتمسكه بمركزه، و على الخصوص راتبه فإنه كان من المستبعد انضمامه إلى أعدائنا. مع ذلك،هذا الموقف لم يعد ذاته في عهد الجنرال بيرتزان،دوق دي روفيجو كان قد حطم النظام الذي بنيت عليه هذه الثقة،و هذا ما جعل الاغا في حالة شك دائمة. لقد فرض عليه في العاصمة كوسيط حمدان بن عثمان خوجة، كما كان يضطهد أو يراقب بواسطة الشرطة كل أصدقائه. أثناء حكم برتزان كان كل شيء يتم عن طريق الأغا، توقف العرب عن هجماتهم و كنا كلا في مكانه. وفي عهد دوق دي روفيجو، على عكس ذلك، أصبحنا نود أن تكون لنا علاقة مباشرة مع العرب، و تم استئناف الأعمال العدائية.

في حين أنه ومن خلال اعتماد نظام مختلف عن الذي استخدمه الجنرال برتزان، كان ينبغي جعله كاملا بمعنى اخر ازالة الاغا،اذا أردنا التاثير مباشرة على القبائل أو عدم فعل أي شيء الا من خلاله اذا كنا نريد الاحتفاظ به.

في كل شيء، خصوصا في فن تسيير و التعامل مع الناس يجب أن نكون أفعالنا منسقة: لم يكن الأمر كذلك في ظل هذه الظروف، بحيث نلنا مساوئ كلا النظامين دون أي فائدة تذكر. علاقاتنا المباشرة مع العرب قلصت من اعتبار

و نفوذ الأغا ما جعله يفقد مكانته كمركز كل القبائل،و ما تبقى من سلطة لهذا الأغا كان يسيء الى علاقاتنا المباشرة،التي اضحت غير كاملة و مقطعة. فالسلطة لم تكتفي الواقع موجودة في أي جهة، و تمكن رجال الظروف الراهنة بكل سهولة من استغلال السخط الذي ولدته أعمال دوق دو روفيقو و تسيير الأمور نحو انتفاضة عامة إندلعت أواخر سبتمبر.

و من أوائل من شارك و ظهر فيها كان المرابط سيدي سعدي الذي شارك من قبل في تمرد 1831. و كان هو من سافر بين القبائل ليدعو للجهاد اي الحرب المقدسة وكونه كان رجلا مشاغبا أكثر منه رجل حرب، عين بن زعمون قائدا للائتلاف. وقد نقل الاغا بمؤامرات سيدي السعدي الى الجنرال العام في السادس و العشرين أوت. في الثامن عشر سبتمبر كتب أن بن زعمون كان على مقربة من الحميز مع بعض الفرق ما أثار بعض القلق و كان هذا القلق في محله، فيما أن العرب كانوا على استعداد للقيام بنهضة عامة كان من الأحسن ترقبهم للهجوم عليهم بعد ان يجمعوا كل قواهم للتخلص منهم بضربة واحدة، بحيث لا يمكن ذلك من دون معركة قائمة على أتم القواعد. هذه السياسة أضاعت الاغا حتى نهاية سبتمبر،بحيث ظل يقاوم بكل اخلاص ضد التيار،لكن تقاعصنا الواضح الذي تركه يصل الى حد القليعة أين اقامة محي الدين جعله يخضع للأمر الواقع. وقد كان قادة التحالف قد اجتمعوا في هذه المدينة للتبشير بالحرب المقدسة أي الجهاد لم يكن لدى الاغا القوى اللازمة للمقاومة أطول من ذلك فذهب الى سوق علي أين اجتمعت الجماهير الثائرة. مع ذلك فقد كتب

الى القائد العام لتحذيره لإخطاره بالخطوة التي إضطر و عائلته إلى إتخاذها على حد قوله، متحججا بأنه سيعمل على فك المعضلة و هذه كانت عباراته. و حملت هذه الرسالة من طرف الملازم حميدو الذي كان مجبرا على المجيء الى الجزائر عن طريق البحر كون الطريق البري معترضا من طرف المتمردين. هل كان الهدف من تلك الرسالة تهيئة باب خلفي لخروج الأغا في حال ما توج بالهزيمة، و هو ماكان يملك الذكاء الكافي لتوقعه، أم كانت نيته فعلا البحث عن كسر التحالف؟ هذا ما يستحيل التأكد منه حيث أن دوق دي روفيجو سلط قواته ضد العرب قبل أن ينال الاغا فرصة المحاولة.

انظم جميع القياد الى المتمردين و بدأت أعمال العنف تأخذ طابعا جادا و خطيرا في أواخر شهر سبتمبر. كانت القوات تهاجم بشكل يومي أمام المزرعة النموذجية و ميزون كاريه. و في احدى تلك المناوشات قتل قايد بني موسى، بن أوشفون من طرف السيد سينييه ملازم أول لقناصة افريقيا. في الثامن و العشرين سبتمبر،أنشأ القائد العام مقره العام في بئر خادم. و من هناك قام بتوجيه فرقتين، واحدة على سوق علي تحت قيادة الجنرال فوداس، و أخرى تحت قيادة الجنرال بروسار على القليعة. و سارت هذة الفرقتين في أثناء الليل.

سوق علي هي مزرعة متواجدة شرق بوفاريك كان المتمردون على اهبة الاستعداد و كانوا قد أرسلوا فرقة استطلاع تواجهت مع الفرقة عند مخرج غابة بثرتونة. فسارع لتحذير العرب فجاؤوا للتمركز في سيدي حايد المتواجدة قبل بوفاريك بالنسبة لهم. و كان على رأس الفرقة سرب من قناصي افريقيا يسبقون الزواف.

وصلت هذه الأخيرة الى سيدي حيدر في ليلة ظلماء وسط العرب الذين قابلوها بإطلاق النار من مسافة قريبة. هذا الوابل المفاجيء و الغير منتظر نشر الفوضى في سلاح الفرسان الذين انطووا على عجل وراء الزواف الذين ما لبثوا أن انهزوا بدورهم. لو أن العدو قد استفاد من هذا الارتباك فلا يمكننا التنبؤ بما كان قد يحدث لكنه لم يتجرأ على التقدم و المضي قدما. هذه الغلطة، أو بالأحرى نقطة الضعف أتاحت الوقت لفرقة القوات لأن تتجمع من جديد. فسرعان ما جمع القائد الشجاع دوفيفييه الزواف. أما بالنسبة للفرسان فقد رأى الضباط أنه من الصعب تنظيمها في وقت عصيب كهذا، و أنه لم يكن أمامهم سبيل سوى التقدم بها كما كان حالها و بالتالي هرعوا بأنفسهم نحو العدو مع مناداة الفرسان للحاق بهم و الذين لبوا نداءهم. كان هذا الزخم جميلا جدا و توج بنجاح كامل. تراجع العدو. في هذا الوقت طلع النهار: و كان من الممكن تمييز الأشياء فوضع تنظيم احكم للقتال. فانسحب الفرسان العرب الجبناء تاركين وراءهم المشاة الذين قتل حوالي المائة منهم طعنا بالسيف أو بالرمح، بينما فر الهاربون الى الجانب الأخر من الموكب و نحو سوق علي. لم يرد الجنرال فوداس الاستمرار و توقف عند مقدمة الموكب. و جمع الفرقة التي أفطرت في ساحة المعركة. واتخذت بعد ذلك طريق العودة الى الجزائر، لكن ما ان بدأت حركة الانسحاب هذه حتى عاد العرب الى القوات لاستئناف القتال، كان المشاة في الواجهة و استعد الفرسان من جديد و تعثر حظ العرب مرة أخرى، و انتهى بهم الأمر إلى التخلي عن المعركة.

في هذه الأثناء، وصل الجنرال بروسار Brossard إلى القليعة دون أن يصادف الأعداء. كانت مهمته اختطاف الآغا الذي كان يظن أنه لا زال هناك، لكنه لم يجده، فألقى القبض على اثنين من بني عمومته؛ سيدي علال و سيدي محمد الذين كانا مرابطين مبجلين في البلاد، و بالخصوص سيدي محمد الذي عرف كرجل سلام و خير و الذي سأتحدث عنه أكثر من مرة في سياق هذا الكتاب. و ظلا أسيرين في الجزائر إلى غاية فترة إدارة الجنرال فوارول Voirol.

بعد معركة بوفاريك، أو بالأحرى في سيدي حايد، عاد العرب أدراجهم مثقلين بإحساسهم بالعار للهزيمة الشنعاء التي نالها مشروعهم المجنون. و غير راض عن أدائهم في تلك المعركة، انسحب بن زعمون إلى حوشه بفليسة. و منذ ذلك لم يرد التدخل في أي أمر، وبقي بعيدا عن أي مكائد سياسية.

كان الآغا يخشى أن يعتقل إذا ما عاد إلى القليعة فلجأ الى بني مناد، حيث كتب من جديد إلى الدوق دو روفيجو Le Duc de Rovigo لشرح تصرفه. لكن الدوق أصر على أن يسلم هذا الأخير نفسه مقابل أن يحظى بتقديمه للقضاء الذي يتكفل بتبرئته أو تجريمه، لكنه لم يجرؤ على تسليم نفسه. وقد كان الملازم حميدو قد وضع في السجن ما إن وصل الى الجزائر، بغية عرضه أمام مجلس الحرب. لكنه كان خائفا جدا من فكرة المحاكمة التي كان مهددا بها فمات في زنزانته من شدة رعبه. ظل الآغا يصر على براءته لمدة طويلة، حتى أنه كتب بنفسه للملك ليؤكد ولاءه، لكن تصرفاته كانت غامضة جدا في الأونة الأخيرة، لدرجة أنه كان من الصعب تصديق أقواله، ثم أن الدوق دو

روفيجو Le Duc de Rovigo الذي كان منذ مدة حذرا من الآغا. كان يريد قتله، و طلب من مترجم أن يجد له شخصا مستعدا لتنفيذ هذا الإجراء البوليسي كما كان يسميه. و قد حصلت على هذه المعلومة من المترجم نفسه، الذي تخلص بالحيلة من هذه المهمة المشينة.

كان من المفروض أن تسهل نتائج التمرد الذي قام به العرب من مهمة الدوق دو روفيجو Le Duc de Rovigo. هذه المرة على الأقل سالت الدماء في ميدان معركة. تبين للعرب أنه لا جدوى من المقاومة، هذا ما سمح ببدء حقبة جديدة لإدارة القائد العام الذي كان بإمكانه، حسب اعتقادي، القضاء على الخلاف باستبداله العنف باللين. و من المؤسف أنه كان لدى الدوق دو روفيجو Le Duc de Rovigo أفكارا أخرى بهذا الصدد. حيث بدأ هذه الفترة - التي كانت من الأجدر أن تكون عهدا للمصالحة - بفرض ضريبة قدرها مليون و مائة ألف فرنك على مدينتي بليدة و قليعة لمعاقبتهما على المشاركة في التمرد،بالرغم من أنه قد تبين بأن هذه المشاركة كانت غير مباشرة خاصة من سكان القليعة و التي ربما لم توفر سوى أربعة رجال للتحالف. علما أن هذه المدينة الصغيرة لا تضم أكثر من ألف و خمسمئة نسمة. و لم يدفع من تلك المساهمة سوى ما قيمته عشرة آلاف فرنك تحملتها عائلة مبارك و التي كان فرديها الرئيسيين في السجن، مثلما ذكرنا سالفا، و ألف و أربعمئة فرنك دفعت أثناء حكم الجنرال فوارول Voirol من طرف حاكم البليدة. كان هذا القسط الأخير بالأحرى نوعا من الضمان الذي أراد حاكم البليدة تقديمه لإثبات نواياه الحسنة لتسديد ما تبقى من المساهمة التي لم يعد منها داع بمجرد مغادرة دوق دي روفيجو Le Duc de Rovigo الجزائر.

من بين العرب الذين كانوا على صلة بالدوق دو روفيجو Le Duc de Rovigo؛ أحمد بن شنعان من بني جعد الذي كان على تواصل مع الفرنسيين عام 1830، عشية معركة سطاوالي. كان لدى القائد العام انطباع جيد عنه، و كان يود تعيينه آغا بدلا عن محي الدين. أثناء الفترة التي نتحدث عنها كان يقيم في البليدة، حيث كان يحاول جاهدا أن يعترف به كحاكم من طرف سكان المدينة. لكن و نظرا للاعتراض القوي الذي لاقاه حتى أنه تعرض لبعض الأخطار، فر إلى الجزائر العاصمة في أواخر أكتوبر. فقرر الدوق دو روفيجو Le Duc de Rovigo بعث بعض القوات إلى البليدة، و كان ذلك ضمن مشروع كان يحضره منذ زمن. هذه الحملة الجديدة التي كانت تحت قيادة الجنرال فوداس Fodoas و التي انضم إليها الجنرال تريزال Trézel، قائد أركان جيش الاحتلال، اجتمعت في واد الكرمة، في العشرين من شهر نوفمبر، و تقدمت مساء اليوم التالي إلى البليدة، التي فر معظم سكانها. نهبت القوات كل ما وجدته بالمدينة و ألحقت بها أضرار وخيمة. و في اليوم الموالي، إتجه جزء من الفرقة، التي يقودها الجنرال تريزال Trézel، نحو سيدي الكبير، قرية جميلة جدا، تقع في إحدى شعاب الأطلس، غير بعيد من البليدة، و التي تمّ نهبها بدورها. و بما أن سكان البليدة قاموا بحمل أثمن ممتلكاتهم إليها فقد كانت الغنيمة معتبرة، كما تمّ القضاء أيضا على بعض المخلوقات غير المؤذية و هذا بطبيعة الحال كان من الأعمال المرافقة لمثل هذه الحملات. وبالمقابل، تعرضت فصيلة الجنرال تريزال Trézel إلى طلقات نارية من قبل

بنادق القبائل المتربصة في الجبال، لكنه عاد إلى البليدة دونما خسائر معتبرة. و في اليوم التالي، أخذت القوات طريق العودة إلى الجزائر العاصمة، محملة بالغنائم أكثر من النصر، بعد إحداث عدة فجوات في تحصينات البليدة.

كان لهذه الحملة نتائج إيجابية في تمديد الانطباع الذي ترك لدى العرب إثر معركة بوفاريك. و لكن كان لا بد من الكف عن الضرب و عن التدمير، كان ينبغي التفكير في التنظيم و أمور الحكم. بتخلص الدوق دو روفيجو Le Duc de Rovigo من الآغا، كان حكمه مباشرا على القبائل في ظروف مواتية للغاية. لا شك في أنه كان بإمكانه الوصول إلى غايته المرجوة، لو أنه تخلص من أفكاره المسبقة في طريقة تعامله مع العرب. عين بن رباح " قايد" على بني موسى، و حمود من قرواو "قايد" على بني خليل. أما المولكي، الذي لم يشارك بتاتا في التمرد، فقد ظل "قايد" على خشنة. لكن و بينما كانت الأمور تأخذ الاتجاه الحسن، أفسدها الدوق بأعمال الغدر التي لا نجد لها مثيلا سوى في التاريخ المتدهور للإمبراطورية المنحطة؛ فقد بلغه منذ مدة أن العربي بن موسى، قايد أسبق لبني خليل، و مسعود بن عبد الواحد، قايد السبت، من ألدّ الأعداء للفرنسيين و دائما على أهبة الاستعداد لتحريض العرب ضدهم. أراد الدوق دي روفيجو إحضارهما إلى الجزائر العاصمة التي لم يظهرا بها منذ عدة أشهر، فقام في السادس أكتوبر، بإرسال برقية إلى سكان البليدة طالبا منهم أن يضموا هذين الأخيرين إلى الوفد الذي كان مقررا إرساله

إليه. هذين الأخيرين الذي أحسا بالمكيدة التي كان يخططها الدوق، و ترددا كثيرا، و لم يقررا الذهاب إلا بموجب رسالة الأمان التي تم توجيهها لهما عن طريق قايد الخشنة و هو أحد أصدقائهم. بحيث قادهما بنفسه إلى الجزائر، أين تمّ القبض عليهما بناء على تقرير أحد المترجمين و الذي لا يحتوي سوى على حقائق ماضية، و على وشاية مترجم آخر صرح أنهما نصحا الوفد القادم من البليدة أن يوافق على كل الشروط التي يفرضها دوق دي روفيجو، مقابل نسيان أخطاء هذه المدينة و ألا تأخذ بعين الاعتبار لاحقا. عندما تم القبض عليهما، طلب " قايد" الخشنة ساخطا بأن يقبض عليه هو أيضا، و مدّ يديه لتكبّل بالسلاسل المجهزة لهما. و كتبت عدة قبائل طالبة الإفراج عنهما، لكن الدوق دي روفيجو Le Duc de Rovigo كان متعنتا. و وجد قضاة لإدانة هذين البائسين الذين تمّ إعدامهما في شهر فيفري 1833. ربما لم يجد القضاة ما يدينونه في السلوك السياسي لهذين الأخيرين، فاكتفوا بالحكم عليهما اعتمادا على مظالم خاصة. كان من الواضح أن رسالة الأمان كانت عامة [1]. كان هذا الإعدام آخر فعل صدر من إدارة الدوق دو روفيجو، الذي أصيب بمرض عضال - أودى به فيما بعد إلى الموت- و الذي اعتبره العرب عقابا له من عند الله. عاد سريعا إلى فرنسا، و بقي تحت وطأة الغدر. دمر هذا العمل الاجرامي الثقة لدى العرب، و إلى يومنا هذا لا يمكن ذكر إسمي مسعود و العربي دون أن تستيقظ ذكريات الخيانة و سوء النية القاتلة تجاه هيمنتنا.

(1) أنكر الذين نصحوا الدوق دو روفيجو وجود رسالة الأمان في هذه القضية المؤسفة. لكن السيد زكار Zaccar، المترجم الذي كتبها و الذي يعرف ما يقول بهذا الصدد، قد احتج بأنها كانت في كلمات واضحة لا تقبل أي تأويل أو مجالا لسوء النية.

لم يكن الدوق دو روفيجو متعاطفا مع الموريسكيين[1] أكثر من العرب. فقد طرد العديد منهم من الجزائر العاصمة من بينهم، الأغا السابق حمدان الذي عاد إليها و كذلك أحمد بوضربة. كان استبعاد هذين الرجلين حدثا مرحبا به، خصوصا أحمد بوضربة الذي كان يعتبر رجلا خطيرا و غير مريح. و قد كان الدوق دو روفيجو Le Duc de Rovigo شديد الاقتناع أن موريسكيون الجزائر كانوا على أمل كبير أن الفرنسيين سيملّون قريبا من حملتهم لدرجة أنهم سيتخلون عنها، بعد أن يعيّنوا حكومة سيكون لهم فيها نصيب. و يبدو أن هذه الفكرة كانت قد نمت في أذهان بعض الفرنسيين المهمّين، وأصاب ريحها بعض المورسكيين -مثلما ما ذكرناه سابقا-، هؤلاء الفرنسيون كانوا يرون في الاضطرابات التي يسببها العرب الوسيلة للاقتراب من الحل، فسعوا لبقائها[2].

من بين المورسكيين هنالك شخص واحد شمله عفو الدوق دو روفيجو، إنه حمدان بن خوجة Le Duc de Rovigo، ربما إنه

(1) الموريسكيون : (Les maures)

(2) خوفا من التعرض لاحقا إلى المضايقات، قرر بعض الجزائريين - الذين لم تشملهم عملية النفي من طرف الدوق دو روفيجو- الذهاب الى باريس مع المرحلين. و منهم بن عمر، بن مصطفى باشا، حمدان، أحمد بوضربة و آخرين. و قد لاقى هؤلاء استقبالا جيدا من طرف وزراء الحكومة التي كان ممثلها يضطهدهم في الجزائر. كانت النظرة إلى هؤلاء الأشخاص المنحطين، الذين ليس لديهم قاسما مشتركا مع العرب، على أنهم عينات لشخصيات إفريقية مرموقة لم نر مثلهم في باريس، فأصبحوا كعارضي الأزياء. تلقى كل من بن عمر و بن مصطفى باشا وسام الشرف. كان بن عمر يدعى بالسيد الباي، أما حمدان فلقب بالسيد الأغا. و كانت توجه إليهم الدعوات إلى الأوساط الراقية. كانت خدعة حقيقة.

الشخص الأرقى و الأخطر من الجميع. هذا الأخير كان يعمل لحساب باي قسنطينة، و هو الآن العميل "المعترف به لدى باريس". في الاشهر الأولى لحكم الدوق دو روفيجو Le Duc de Rovigo، قدمت لنا يد مساعدة جريئة جدا جعلت عنابة من جديد في قبضتنا، ستتحدث عن ذلك لاحقا. إحتلال عنابة جعل الباي يخشى من حملة على قسنطينة، و كان على علم بمؤامرات فرحات بن سعيد، فقرر الدخول في مفاوضات مع القائد العام بهدف وحيد على ما يبدو و هو كشف نواياه. هذه القضية بقيت غامضة بالنسبة لي و لم أتمكن من كشفها بشكل كامل. في شهر أوت 1832، أخبر حمدان الدوق دو روفيجو Le Duc de Rovigo أنه علم من المرابط بن عيسى، و هو رجل مبجل للغاية في البلاد يعيش في سفوح جبل جرجرة، أن باي قسنطينة يود التفاوض معه. و قد حدثه أيضا عن رسائل كان قد وجهها له أحمد باي، والتي قد يكون تم اعتراضها. اغتنم الدوق هذه الفرصة بسرعة للتقرب من الرجل الذي كان مدعاة للقلق بالنسبة إليه، و أرسل إليه حمدان لسماع اقتراحاته. قيل حينئذ أن هذا المغاربي الذكي قد ألف قصة ليكون له عذر للذهاب- بموافقة الفرنسيين- إلى باي قسنطينة و إعلامه بالأوضاع، و لتسوية بعض المصالح. و قد اعترف لاحقا إلى لجنة إفريقيا أنه كان من المقربين لديه، مما يدعو إلى الشك في حسن نيته، لكن دونما رأي واضح في هذا الصدد، سوف نصف بسرعة

التقدم المحرز للمفاوضات، و على النحو المفصل كما جائت عليه في مراسلات الدوق دو روفيجو Le Duc de Rovigo. سافر حمدان برّا إلى قسنطينة. أرادت جماعة المغاربة- بمعنى الطرف الذي كان يحلم بحكم إسلامي يديره موظف قنصلي خارجي- اغتياله في الطريق. و حذّر حمدان في الوقت المناسب، فاتخذ تدابير انقذته من المكيدة. و إثر وصوله إلى قسنطينة، وجد الباي في أحسن حالاته و كان يبدو مستعدا للاعتراف بسيادة فرنسا، بل و حتى دفع الجزية أيضا، لكنه كان يريد في هذه الحالة أن يتم التنازل له عن جمارك عنابة. لم يكن حمدان مخولا لإبرام هذه الاتفاقية، فعاد إلى الجزائر ليأخذ التعليمات الجديدة. في أوائل شهر نوفمبر عاد إلى قسنطينة، و اتجه إلى عنابة عبر البحر. في هذه المدينة تلقى رسالة من أحد يخبره فيها بأنه غيّر رأيه. و مع ذلك واصل طريقه على أمل أن يقنعه بالعدول عن ذلك، لكن الباي كان متمسكا بموقفه. كانت العروض التي اقترحها حمدان كالآتي:

- الاعتراف بسيادة فرنسا،
- الجزية السنوية،
- التنازل عن عنابة،
- حظر التعامل التجاري مع تونس لصالح عنابة.

و كانت فرنسا بالمقابل تعد بإمداد قواته، و مساعدته في دعم سلطته في المناطق الغير معترف بها.

أجاب الباي بأنه يمكن أن يوافق بإحلال السلام و ليس الاستسلام، و بأنه تابع للباب العالي وليس لفرنسا، و أنه لن يتخل أبدا عن حقوقه على عنابة، وفي الأخير، أن العرب لن يدفعوا أبدا الجزية للمسيحيين. و لم يُخف على حمدان أنه تلقى رسائل من الجزائر حذرته من أن الفرنسيين يحاولون التفاوض معه لخداعه، و هذا ما أكدته رسائل أخرى جاءته من عنابة.

علم حمدان أثناء وجوده بقسنطينة أن الرسائل الأولى كتبت من طرف مصطفى بن مرابط، و هو تاجر مغاربي (موريسكي) بالجزائر و أن الثانية من طرف يوسف مملوك، قائد في الفوج الثالث من قناصي افريقيا[1]. لم يشك أبدا أن هذه الرسائل كانت السبب في تغيير رأي الباي، الذي لم تربطه معنا علاقة منذ ذلك الوقت.

أثناء المفاوضات التي كانت تجري في الشرق دون نتيجة، أرسلت فرنسا السيد دي مورني M de Mornai – صهر وزير الحرب- إلى سلطان المغرب، لأمره بالتخلي عن طموحاته حول مقاطعة وهران، و خاصة على منطقة تلمسان التي كان يطمع فيها بشكل خاص. و بما أن هذا العاهل كان يحس بالضعف في عدة مناطق من الساحل و أن طريقة الكلام التي كان يتحدث بها السيد مورني M. de Mornai ذكرته بما قد يكون نسيه، فإن هذا الأخير وافق على كل ما هو مطلوب منه و أخلت قواته بيلك وهران، الذي تواجدت به منذ أكثر من عام. وضعت هذه المفاوضات حدا لوضعية غريبة كانت تسود منذ عدة أشهر في المدية و

(1) على القارئ ألا ينسى انني هنا أعيد الأقوال التي أكدها حمدان، الذي افترض أن يوسف كان ينوي بتصرفه هذا أن يعيّن نفسه بايا على قسنطينة و أن من صالحه أن لا تتعامل فرنسا مع أحمد، و أنه كان يريد عرقلة المفاوضات.

مليانة. كان إثنان من المبعوثين من سلطان المغرب قد قدما لوحدهما إلى هذه المدن، و استقرا فيها بصفتهما حاكمين، دون أن يواجها أي اعتراض؛ الشخص الذي استقر في المدية كان يدعى شريف المعطي، أما الآخر فكان يدعى محمد بن شرقي. صدم الدوق دو روفيجو Le Duc de Rovigo من غرور الشخص الأول، لأنه لم يستخدم أية وسيلة للاستقرار في المدينة، غير الإقناع و ذلك في مدينة لم نتمكن من فرض سلطتنا عليها بالرغم من تهيؤ سكانها و تفوقنا المادي فيها. فحاول أن يتخلص منه باستعمال أساليب الضعفاء أي عن طريق الخيانة. كتب عدة مراسلات في هذا الصدد، و اتصل كذلك بوليد بو مزراق، الذي وعد بتسميم الشريف. كل هذه المؤامرات غير اللائقة بممثل الأمة الفرنسية النبيلة، كشفت من معطي، فكتب رسالة إلى الدوق دو روفيجوLe Duc de Rovigo ضمّنها عبارات ازدراء. و من ناحية أخرى قام سكان المدية بتوجيه رسالة للدوق مضمونها أن رسول المغرب رجل طيب يسعى لتحقيق النظام و السلام في محافظة التيطري، في حين أن الفرنسيين، الذين مدوا لهم ذراعهم، لم يكونوا قادرين على حماية أي شخص و لا إحلال السلام في أي مكان. ما نلاحظه في هذا الصدد، كما قلنا في مرات عديدة، و سنكرره في كثير من الأحيان أن ولاء السكان المحليين و اعترافهم الواضح بالسلطة متعلق بالقضاء على الفوضى. أما محمد بن شرقي، الذي كان الدوق دو روفيجو Le Duc de Rovigo يعيره اهتماما أقل، فقد قام بدوره بالكتابة له ليلزمه بالتعامل بسلامة أكبر مع العرب، و لامه على

تصرفه مع قبيلة العوفية الصغيرة. رأى القائد العام أن هذين الرجلين يتحديان سلطته، و أنهما يأخذان منه الاعتبار الذي يعطى للخصوم حين لا يكون ضميرنا مرتاحا، و في الأخير لا يمكن السيطرة عليهم. حاول في الأول أن يستبعدهما بطريقة ديبلوماسية قبل إرسال حملة يقودها السيد دو مورني M.de Mornai، فقام بالكتابة إلى القنصل الفرنسي في طنجة ليكلفه برفع احتجاج لدى سلطان المغرب، لكن هذه المفاوضات الثانوية ما لبثت تذوب جرّاء الحملة التي قام بها السيد مورني M.de Mornai، و كانت من بين نتائجها تخلي وكيلي هذا الأمير عن مدينتي المدية و مليانة. أراد العاهل المغربي- بعد أن أصبح مرغما على التخلي عن وصاية الجزائر- أن يكون له على الأقل تأثير خفي على محافظة وهران التي كان يأمل بضمها إلى مملكته عاجلا أم آجلا. و لتحقيق غايته هذه، وطد علاقته بالشاب عبد القادر، الذي بدأ يتألق في هذه المنطقة، والذي نظرا لسنه ارتأى له أن يخضع إلى نفوذ هذا الأخير أكثر من غيره من القادة. بالإضافة إلى ذلك، فقد كانت تربطهما نوع من العلاقة الأسرية، حيث أن الاثنين كانا يقولان أنهما من الأشراف ما يعني أن كليهما من نسل الرسول. كان عبد القادر رجلا فائق الذكاء إذ قبل الرعاية التي يعرضها الملك، على أن يستعملها في توسيع نفوذه الخاص. كان والد عبد القادر، الشيخ محي الدين محترما جدا من طرف العرب. أرادت القبائل المحاذية لمعسكر أن تعينه حاكما أعلى سنة 1832، لكنه رفض هذا الشرف بحجة كبر سنه، و عرض بدلا عنه ابنه الشاب عبد القادر الذي تمت مبايعته. خلال هذه المناسبة روى الشيخ محي الدين أنه أثناء تأديته لمناسك الحج - قبل

بضع سنوات- رفقة ابنه الأكبر و عبد القادر، أنه في أحد الأيام بينما كان يتجول مع الأول قام درويش طاعن في السن بإعطائه ثلاث تفاحات، و قال له: "هذه لك و هذه لابنك هذا، أما الثالثة فهي للسلطان". قال محي الدين مستغربا "و من هذا السلطان؟"، فرد الدرويش: "الذي تركته في البيت عندما خرجت لتتجول هنا". هذه الطرفة الصغيرة كانت من الأمور المسلم بها لدى أنصار عبد القادر و لم يكن تأثيرها هينا لترسيخ سلطة عبد القادر.

بعد فترة قصيرة من صعوده أول درجة على سلم الحظ، اعترفت مدينة معسكر- التي كان حكمها جمهوريا منذ طرد الأتراك- به كأمير عليها، و تميز منذ ذلك الحين على كل نظرائه. يحكى أن سكان هذه المدينة اتخذوا قرارهم هذا منذ أن أقسم لهم مرابط عجوز أن الملك جبريل قد تجلى له و أعلن له أن إرادة الله هي أن يحكم عبد القادر العرب. فمن المؤكد إذن أن الملك جبريل والله سبحانه و تعالى لا يمكن أن يقوما بخيار أفضل من ذلك.

في شهر أفريل 1832، تلقت مدينة وهران دعما من الفرسان لتشكيلة الفوج الثاني من قناصي إفريقيا، و كانوا قد بدأوا بالقيام ببعض الجولات الصغيرة، للتعرف على الضواحي من جهة و لحماية الوافدين من جهة اخرى. أخذت الحرب حينئذ منحى أكثر جدية. ففي الثالث و الرابع من ماي، تعرضت المنطقة لهجوم من طرف بعض الآلاف من العرب تحت قيادة الشيخ محي الدين و ابنه عبد القادر.

لكن العديد منهم من الاختباء في خنادق في حصن سان فيليب (Philippe-

Fort Saint)، ولم ينسحبوا إلا في الليل، بعد أن اقتنعوا بصعوبة تسلق المنحدر.

جدد العدو هجماته في السابع من ماي، و انسحب بعد عدة ساعات من الجهد الضائع. و حام حول المدينة في الثامن و ما لبث أن اختفى في التاسع من نفس الشهر. و على الرغم من عدم جدوى هذه الهجومات، فقد تميز خلالها عبد القادر ببرودة دمه و شجاعته أمام ذويه. و كان العرب في هذه الفترة لا يزالوا يرهبون نيران المدفعية. و بغية أن يتعودوا عليها و يتغلبوا على خوفهم منها، قام عبد القادر بالتقدم عدة مرات في اتجاه الرصاص و القذائف، و حيا بنكته تلك التي كانت تصدر صوتا.

لم يحدث شيء يذكر في وهران حتى الواحد و الثلاثين من شهر أوت. في ذلك اليوم، حاول ثلاثمئة فارس من قبيلة غرابة اختطاف قطيع تابع للإدارة، لكن تم صدهم من قبل فرساننا الذين قتلوا البعض منهم.

في الثالث و العشرين أكتوبر، تقدم من جديد نحو خمسمائة إلى ستمائة من العرب أمام المنطقة، و تم صدهم من طرف فرساننا مدعمين ببعض قوات المشاة. هذه المعركة الصغيرة التي تميزنا فيها بالعدد، كانت نجاحا باهرا للفوج الثاني لقناصي إفريقيا من بينهم ضباط الجيش و ضباط الصف والجنود، الذين كانوا يتصفون بسمات بارزة من الشجاعة الفردية. كان هؤلاء تحت قيادة العقيد دوليتانغ de l'Étang الذي برهن في كل الظروف عن جدارته. لمع أيضا الماريشال تروبريان Trobriant ، من أصل "بروتوني"

breton الذي يتميز بالمحاربين الشجعان، و بقيادته للسرية الأولى[1] لمقاطعة وهران كان يتألق أيضا في الصفوف الأولى خلال تلك الإشتباكات الصغيرة.

منذ حادثة الثالث و العشرين أكتوبر، قام عبد القادر باعتراض المراسلات بين وهران و المناطق الداخلية. و في العاشر من نوفمبر، تقدم من جديد أمام المنطقة، و قاتل ضد الجنرال بويير Boyer، الذي خرج بنفسه لأول مرة في هذا الظرف. و تم صد العرب بعد أن قاتلوا ببسالة. كان أداء قواتنا أيضا في مستوى جيد، على الرغم من أن الفوج الثاني من قناصي إفريقيا قد لقي خسائر معتبرة في هذه المعركة.

كانت هذه المعركة آخر الأعمال القيادية للجنرال بويير Boyer، الذي أقيل بسبب عدم التفاهم بينه و بين الدوق دو روفيجو Le Duc de Rovigo. السيد بويير Boyer فقد كان مترددا في الإعتراف كقائد بمن كان رغم ذلك قائد كل قوات الاحتلال. و كان يبرر استقلاليته عن إمرة الدوق دو روفيجو Le Duc de Rovigo بالمراسلات المباشرة التي كان يتبادلها مع الوزير، وعلى الرغم من أن الدوق دو دالماسي le Duc de Dalmatie كان السبب الرئيسي للتصرف المتمرد للجنرال بويير Boyer، فقد وجد نفسه مجبرا على التخلي عنه عندما وصلت الأمور لدرجة الاحتيار و الفصل بينه و بين رئيسه. كان الدوق دو روفيجو Le Duc de Rovigo ضد هذا الجنرال لدرجة أنه قام انتقاما منه بالاشارة خلال جدول الأعمال- لكن دون أن يذكر اسمه- إلى الاعدامات المخالفة للقانون التي كان يقوم بها في وهران. بطبيعة

(1) السرية الثانية كانت تحت قيادة الماريشال سوزي Sauzet

الحال، لقد كان من السهل لهذين الرجلين أن يتفقا على موضوع كهذا - و الذي لا يمس في شيء إنسانية الدوق دو روفيجو Le Duc de Rovigo و لا حساسيته كقائد - لو أن قائد وهران أظهر القليل من الاحترام.

تم استبدال الجنرال بويير Boyer في الجزائر بالجنرال ديميشال Desmichels، الذي كان ماريشال مخيم بسيط.

أخذنا مسار السرد بعيدا عن مقاطعة قسنطينة، حيث يجب أن نعود لنعرف القارئ بتفاصيل الاحتلال الثالث لعنابة.

بعد الكارثة التي قام بها القائد هودير Huder و التي سردناها في الجزء الأول من هذه الحوليات، إنهال الباي ابراهيم، حاكم عنابة، على السكان بفرض الضرائب و مصادرة الأملاك، مما جعلهم يندمون على أنهم استضافوه. لكن الخوف من الوقوع بين أيدي باي قسنطينة، الذي أمر ملازمه بن عيسى بأن يسير إليهم، منعهم عن فصل قضيتهم عن قضيته. بعد حصار دام ستة أشهر، قرر سكان عنابة و قائدهم ابراهيم- بعد أن استنزفوا قواهم - باللجوء مرة أخرى للفرنسيين. استقبل الدوق دو روفيجو Le Duc de Rovigo المبعوثين بشكل جيد، إذ أنه تلقى أوامر من الحكومة باغتنام أول فرصة سانحة للاستيلاء على عنابة. و عند عودتهم أرفقهم بالنقيب جوزيف[1] وكلفه بالتأكد من الأوضاع الحقيقية في عنابة. و بناء على التقرير الذي تلقاه منه، أرسل نحو عنابة زورق "الثروة" محملا بالغذاء، و اختار كابتن فريق المدفعية دارمندي d'Armandy للذهاب لمساعدة أهل عنابة على

(1) جوزيف ذو أصل غير معروف تماما، يبدو أنه إيطالي المولد، مسار حياته يُروى بأشكال مختلفة. يمكن كتابة قصة رائعة بشأن ما أذيع عنه و الإيجابي في الأمر، هو أنه

مواصلة حماية المدينة، في انتظار إمكانية إرسال المساعدات المباشرة. كان ذلك حسب بعض التوقعات، بمثابة إعداد الضابط لنفس مصير القائد هودير Huder، لكن السيد دارمندي d'Armandy واحد من أولئك الرجال ذوي الحيلة و الإقدام أمام الصعوبات، و الذين يعرفون جيدا كيف يخرجون من أسوء الظروف بكل فخر و مجد.

أبحر هذا الضابط في الثاني عشر من فيفري على المركب الشراعي" لا بيارنيز" la Béarnaise، الذي سحب معه زورق "الثروة". و أرسى بها في عنابة في التاسع و العشرين من نفس الشهر و غادرت في نفس اليوم عبر تونس، أين قادت الكابتن جوزيف Joseph، المكلف بمهمة خاصة بشراء الخيول لخيالتنا. عند وصول السيد دارمندي d'Armandy إلى عنابة، وزّع المساعدات الغذائية على السكان و ألزمهم بمواصلة القتال ضد بن عيسى. لكن نظرا للنزول معنوياتهم لم يكلل تحريضه بالنجاح، و في الليلة من الخامس إلى السادس مارس، اقتحم القائد القسنطيني المدينة حيث فتحت له أبوابها من قبل مؤيديه.

تمكن القبطان دارمندي d'Armandy من الهرب إلى الفلوكة، و استعجله الأشخاص الذين كانوا معه في الإقلاع سريعا، لكنه لم يُرد التخلي عن الجنود الأتراك الذين كانوا في القلعة، فاكتفى بالإبحار بعيدا عن متناول نيران القسنطينيين. و بعد حين، جاءه رسل من بن عيسى

كان في عام 1830 في خدمة باي تونس، و أنه جراء قصة حب، كان يمكن أن تكون ذات عواقب وخيمة عليه، اضطر إلى الهروب من البلد الذي تبناه، و الارتماء في أحضان فرنسا التي كانت آنذاك مشغولة باحتلال الجزائر. و قد خدمنا بولاء، و كوفئ بما فيه الكفاية.

يلزموه باسم هذا القائد، للانضمام إليه للتشاور في المسألة التي تشغل كليهما. و رغم خطورة الموقف إلا أنه لم يتردد في الاستجابة لهذه الدعوة. استقبله بن عيسى بشكل لائق، و في أثناء الحديث الذي جمعهما، تمّ الاتفاق على تعليق كل الأعمال العدائية بين القلعة و قسنطينة، ليتسنى لهم الوقت لتلقي أوامر القائد العام، الذي كان يبدو أن باي قسنطينة مستعد للتفاوض معه. استمر هذا الوضع إلى غاية وصول مركب البيارنيز Béarnaise العائد من تونس في السادس و العشرين من مارس مع القبطان جوزيف Joseph.

كان السيد دارماندي d'Armandy يرى أنه لا يمكن تمديد هذا الوضع لفترة أطول، نظرا للروح المعنوية المتدهورة للمحاصرين الذين كانوا لا يرون مخرجا غير الفرار، الشيء الذي كان سيؤدي بالقلعة إلى أيدي القسنطينيين دون إطلاق رصاصة واحدة. و هذا ما كان يجب تجنبه بأي ثمن، لأنها لو وقعت في أيدي عدو قوي، لن يمكن استرجاعها إلا بجهود كبيرة. و نتيجة لذلك، ذهب على متن مركب البيرينيز Béarnaise، وطلب من القبطان فريارت Fréart الذي كان يقودها أن يضع تحت تصرفه ثلاثين رجلا من طاقمه، ليساعدوه على التسلل إلى القلعة، و الدفاع عنها ضد بن عيسى لحين وصول الجديد من الجزائر. السيد فريارت Fréart ليس من أولئك الضباط الذين يخشون تعريض مسؤوليتهم للشبهة، و تبنى مشروع الكابيتان دارماندي d'Armandy،

لكن قبل التنفيذ طلب منه التقاء بن عيسى و المحاصرين مرة أخرى لمحاولة الحصول على عقد هدنة، متعهدا بالذهاب فورا إلى الجزائر لإخبار الدوق دو روفيجو Le Duc de Rovigo بتطورات الوضع.

ذهب إذن السيد دارماندي إلى بن عيسى، لكنه لم يتمكن من الحصول على شيء يذكر. و بعد تعب من عدم وصول أي رد من الجزائر، قام هذا القائد بالإعلان أنه في حالة ما إذا لم تستسلم له القلعة في اليوم الموالي فإنه سيقوم بأخذها بالغصب اليوم الذي بعده. و عاد دارماندي d'Armandy إلى متن البيرينيز la Béarnaise، و تقرر أنه سيكون تحت تصرفه ثلاثون من البحارة الذين سيتسللون إلى القلعة. لكن لا يمكن تنفيذ هذه الخطة دون موافقة الأتراك المحتجزين، و بالتالي ذهب إليهم دارماندي d'Armandy و جوزيف Joseph بالليل ليشرحا لهم ما اتفق عليه. لم يتلق هذا الخبر قبولا حسنا، حيث أن ابراهيم، الذي كان المتسبب في موت هودير d'Huder، كان يخشى تفويض الأمر لتقدير فرنسا، فأثار اضطرابا عرض الاثنين إلى المخاطرة بحياتهما، إلا أنهما تمكنا من الفرار. و استمر الصراع بين أنصارهما و أنصار ابراهيم حتى بعد مغادرتهما، و اضطر هؤلاء إلى الهروب رفقة زعيمهم، للجوء إلى بنزرت أين كان لهم الحظ للوصول دون أن يتم اكتشافهم من طرف بن عيسى. قام أتراك القلعة بإرسال أحدهم إلى القبطانين ليخبراهما بما حدث هناك. فتوجها على الفور مع البحارة الذين وضعوا تحت تصرفهم. و لأن المحاصرين كانوا يترقبون الباب، فدخلوا من الجانب المقابل بحبل

ألقي لهم. و على الفور تم رفع العلم الفرنسي على القصبة. عند رؤية ذلك حاول بن عيسى الهجوم، لكن بعض قذائف المدفع أجبرته على البقاء بعيدا. و استغلت فرصة ابتعاده لإحضار بعض المؤونة التي كانت تحتاجها القلعة من مركب البيرينيز la Béarnaise.

فقد بن عيسى الأمل في استرجاع القلعة من الفرنسيين، فقرر التخلي عن المدينة، لكنه أجبر كل سكانها على الخروج وراءه، ثم جعلها عرضة للنهب، و انتهى به الأمر إلى إحراقها لكي لا يترك إلا الحطام للفرنسيين. رأى القبطان دارماندي d'Armandy من أعالي القلعة عملية التخريب، و كان متأسفا من عدم قدرته على إيقاف ذلك. و ما إن ابتعد بن عيسى جارا وراءه سكان عنابة البائسين، حتى انقض جموع من القبائل و العرب على جثة المدينة لنهب ما كان قد خلفه القسنطينيون و الحريق. إثر هذه الأحداث حاول بعض الزواف Zouaves المتعاطفين مع ابراهيم التحريض لإثارة تمرد. لكن القبطان دارماندي d'Armandy كان قد أُنذر من طرف زعيم الأتراك، فألقى القبض على ثلاثة من هؤلاء و قادهم على متن البيرينيز la Béarnaise كما قام بقتل ثلاثة آخرين و تمت بذلك السيطرة على الوضع. رأى القبطان جوزيف Joseph أنه من واجبه إعدام شنقا من هؤلاء احتفاء بالظروف المواتية التي أدت إلى تطويق هذا التمرد. علاوة على ذلك لم تكن تلك المؤامرة شديدة الخطورة، لم يشارك فيها الأتراك بتاتا، و منذ ذلك الحين لم نر فرقة أكثر إخلاصا و ولاء لزعيمها مثل فرقة

الأتراك الذين أصبح منذ ذلك جوزيف Joseph قائدها. و بفضل قوة وحكمة رجلين تمكنت فرنسا من السيطرة على عنابة.

في اليوم التالي للأحداث التي قمنا بوصفها، كان نهب مدينة عنابة لا يزال مستمرا، فقام عشرون من الأتراك بالخروج من القلعة، و و وضعوا كمينا على أبواب المدينة اتباعا لأوامر القبطان دارماندي d'Armandy. و عند إشارة متفق عليها، تم رمي بعض القنابل على المدينة، فخرج منها العرب الذين كانوا ينهبونها سريعا، لكنهم و قعوا في الكمين الذي وضعه لهم الأتراك، وتكبدوا خسائر بشرية كبيرة. بعد هذا النجاح تشجع هؤلاء الأتراك و أقاموا بالمدينة في الثامن من أفريل. بعد وقت قصير جاءت أخبار من الجزائر مفادها تعيين دارماندي d'Armandy القائد الأعلى لعنابة بصفة مؤقتة، و أعلنوا عن إرسال الإمدادات التي وصلت بالتوالي بين الثامن و الثاني عشر من شهر أبريل، والتي كانت تشتمل على العموم في الجنود و المدفعيين. هذه الكتيبة كانت تحت قيادة قائد الكتيبة دافوا Davois، الذي يجب ذكر اسمه بكل ثناء، كونه مثال نادر للأسف للحس السليم و عدم الحساسية للتسلسل الهرمي. عند مغادرته، أخبره القائد العام أن الظروف تلزمه على ترك دارماندي d'Armandy على رأس عنابة، و أنه يمكن أن يقرر البقاء في الجزائر إن كان ذلك يزعجه. و رد دافوا Davois أنه لا يرى في هذا الأمر إلا مصلحة الخدمة، و أنه لا ينوي أبدا التنافس على الحكم مع دارماندي d'Armandy الذي نال ثقة القائد العام كونه يستحقها عن جدارة، كما أكد أنه سيطيع كل الأوامر التي يصدرها

دارماندي d'Armandy دون أي جدال لحماية مستعمرتنا الجديدة.

في هذه الأثناء طلبت قبيلة صنهاجة- القبيلة التي ينتمي إليها العرب الذين قاتلهم الأتراك على أبواب عنابة- السلام فنالوا الموافقة هم و بني عثمان- قبيلة مجاورة للمنطقة- و كانوا يجلبون المؤونة و الماشية.

و بدأ الازدهار يعم عنابة، حتى أن الإدارة تمكنت من الحصول على ميدان يؤمن احتياجات المتواجدين هناك من الماشية. لكن سرعان ما سرق جزء منها من طرف قبيلة الخارسة التي سرعان ما لاقت العقاب جزاء أعمال العنف التي قامت بها، حيث قام جوزيف Joseph رفقة الأتراك بمفاجئة هذه القبيلة أثناء الليل، و قتل بعض رجالها، و صادر لهم قطيعا أكبر بأربع مرات عن الذي أخذوه. هذا العمل الصارم أدى إلى إخماد كل أعمال عنف من طرف العرب، و كانت عنابة آمنة تماما حين جاء مارشال المخيم مونك دوزر Monck d'Uzer ليستلم الحكم في الخامس عشر من شهر ماي. الجنرال مونك دوزر d'Uzer Monck كان معروفا لدى جيش إفريقيا حيث قاد إحدى الكتائب عام 1830. وصل إلى عنابة على متن الفرقاطة ديدون la Didon مع كتيبة الصف الخامس. الفرقة الثانية وصلت بعد عشرة أيام على متن مركب السوفرين le Suffren، أما الفرقة الثالثة فلم تصل إلا في أواخر السنة لاستبدال كتيبة الصف الرابع، التي لم تعد إلى الجزائر إلا في الشهور الأولى من سنة 1833. وضعت أيضا تحت تصرف الجنرال دوزر d'Uzer كتيبة الفيلق الأجنبي، مدفعية حصار، مدفعية ريف و مدفعية خاصة بالجبل. و في شهر فيفري 1833، أنشأ في عنابة الفيلق الثالث

لقناصي إفريقيا. و الذي كانت نواته السرية السابعة و الثامنة من الفيلق الأول الذي قلص إلى ستة سرايا.

عندما جاء الجنرال دوزر **d'Uzer** لاستلام الحكم، عاد بعض سكان عنابة البؤساء الذين أجبرهم بن عيسى على ترك منازلهم، فقابلهم بصدر رحب لكنه وضع ثقته في شخص يدعى مصطفى بن كريم الذي لم يكن جديرا بها، على حد قول البعض. و نظمت الخدمة المدنية في عنابة مثلما كان الحال في وهران، حتى قبل أن يكون هناك إداريون. و تنفيذا لأوامر الدوق دي روفيجو Rovigo *Le Duc de* - الذي كان الجنرال دوزر **d'Uzer** يتعامل معه كما ينبغي، بمعنى أنه كان راضخا و مطيعا- تم القبض على بعض المغاربة المشكوك فيهم و نقلهم إلى الجزائر و من ثمّ إلى مارسيليا، أين بقوا مسجونين مدة ثمانية أشهر في حصن سان جون Saint-Jean. و قامت الحكومة بالإفراج عنهم بعد هذه المدة، و أصبحوا أحرارا بالرجوع إلى ذويهم. من بين هؤلاء المغاربة كان هناك سيد أحمد الذي تحدثنا عنه في الجزء الأول.

إعتمد الجنرال دوزر **d'Uzer** منذ البداية سياسة الرفق و العدل، و بهذه الطريقة جمع حوله بعض القبائل التي جاءت تبحث عن الحماية ضد طغيان أحمد باي، لكن يجب القول أنه أصبح ممولهم، بقبوله تقريبا جميع الأعضاء الصبايحية غير النظاميين براتب ستين سنتيم في اليوم، بموجب الأمر الصادر في السابع عشر من نوفمبر 1831. و بلغت نفقات هذا البند في عنابة خمسة عشر ألف فرنك في الشهر الواحد، بالرغم أنه لم يتم تجهيز هؤلاء الصبايحية كما ينبغي، و كانوا بالأحرى يشكلون مجموعة من الرعاة بدلا من أن يكونوا عصبة من المحاربين.

على الرغم من تساهله مع العرب، كان الجنرال دوزر **d'Uzer** مضطرا في بعض الأحيان لحمل السلاح ضدهم. ففي الثامن من جوان، بعث أثناء الليل الكابتان جوزيف **Joseph** مع الأتراك، و قطعتي مدفعية جبال وأربعة سرايا من نخبة الجنود، ضد ناي بن يعقوب و الذين كان يشتكى منهم. فاجأ الكابتان جوزيف **Joseph** العرب و استولى على محصولهم وماشيتهم، لكن الجنرال دوزر **d'Uzer**، الذي جاء وراءه مرفوقا ببعض القوات، تخلى عن هذه الغنائم. بن يعقوب كان أحد وكلاء أحمد باي، و مع ذلك فقد كان يبدو محتارا بينه و بيننا، ولم يحاربنا مباشرة، بل كان يكتفي بمنع العرب من الذهاب إلى سوق عنابة. أراد الجنرال مسايرته، آملا أن يتراجع عن أفعاله و لم يرد أن يلحق به الأذى رغم قدرته على ذلك. و بالفعل، و رغم أن هؤلاء قد رافقوا الجنرال دوزير بإطلاق النار أثناء عودته من هذه الحملة، فإن هذا القائد لم يستبعد أبدا إمكانية التحاور معه لكن كونه رجلا غنيا لم يمكننا أن نضمه إلينا إلا إذا استطعنا أن ندعم أصدقائنا دون إجبارهم على التخلي عن موقفهم، و هذا يعني عندما يكون العون أمام هؤلاء و ليس وراءهم.

لم يحدث شيء يذكر في عنابة لغاية الثامن من سبتمبر. في هذا اليوم قام ابراهيم باي- هذا الرجل المثير و الغامض الذي لا يكل- بالتقدم إلى المنطقة رفقة مجموعة من ألف و مائتي إلى ألف و خمسمائة رجل، لكنه حوصر بين مجموعتين من الجنود خرجا في نفس الوقت من بابي عنابة، وخسر الكثير من الرجال و هزم تماما. تصرف الكابتان جوزيف **Joseph**

بشكل جيد في هذه الحادثة، و على إثرها أعيد طلب ترقيته و تمت الموافقة عليه. حيث عيّن جوزيف Joseph، بعد شهور قليلة، قائدا على سرية في الفيلق الثالث لقناصي إفريقيا. السيد دارماندي d'Armandy تلقى نفس الدرجة في جيشه.

أما ابراهيم باي الذي لم يطل مكوثه في بنزرت بسبب قلقه، استعان بأحد المرابطين و المدعو بن بكري ليضم إليه بعض القبائل. و مع بداية شهر أوت تمكن من جمع قوات معتبرة، لكن في الوقت الذي أرادوا فيه السير، وقع بن بكري من على حصانه و كسرت يده. إعتبر العرب هذا الحادث كفأل سوء، فتفرقوا، و لم يستطع ابراهيم باي جمعهم من جديد إلا بعد شهر من ذلك، ليهزم كما قد رأيناه قبلا تحت أسوار عنابة.

إثر ذلك الانهزام، و بعد أن خسر كل اعتبار لدى القبائل المهزومة، سعى ابراهيم باي لإقناع القبائل التي لم تشارك في تلك المعركة، لكنه لم يُوفّق فاتخذ طريق المدية، أين وصل بعد عناء كبير و هناك اغتاله أحمد باي عام 1834، تاركا إبنان انضما إلى صفوفنا فيما بعد.

في حادثة الثامن سبتمبر وقع في أسرنا سجينين من قبيلة بني محمن القاطنة على شواطئ خليج سطورة. عاملهما الجنرال دوزر d'Uzer بشكل جيد، وأطلق سراحهما دون أية فدية. هذا العمل الكريم أكسبه صداقة هذه القبيلة القوية جدا، و التي جاء زعيمها إلى عنابة ليعرض عليه مساعدته في حالة تنظيم حملة على قسنطينة.

و خلال شهر سبتمبر، أراد بعض أهالي بني أورجين أن يتجنبوا هجمات

أحمد باي، و استقروا في مصب نهر سيبوس، بالقرب من أبواب عنابة. جزء من قبيلة الخارسة اقتربت منا أيضا، هاتين القبيلتين و قبائل أخرى قريبة من عنابة، كلها قدمت رهائن هم تابعون للسرية التركية.

في الأيام الأولى لشهر نوفمبر تفشى وباء قاتل، و كانت بعض أعراضه توحي بالحمى الصفراء، و ظهر بشكل واضح في حامية عنابة. ساد المرض لمدة طويلة من الزمن و قضى على ربع القوات و السكان. و بما أن العون المحدود لم يكن كافيا لشدة الأزمة، توفي الكثير من المرضى بسبب قلة العلاج. و ألقي اللوم في هذا الأمر على الإدارة، لكنه كان من الصعب عليها تكوين مخزون على أساس فاق كل التوقعات. و لحسن الحظ، لم يحاول باي قسنطينة الهجوم على عنابة في مثل هذه الأوقات العصيبة. كان الجنرال دوزر d'Uzer يخشى هذه الفكرة، فقام بعدة خرجات رفقة بعض القوات و كل من استطاع الركوب على حصان ليثبت للعرب أنه لا زالت تتوفر لديه القوة العسكرية، و تقدم بها بعيدا دون أن يجد من يقاتله.

من جهته قام أحمد باي بالسير بقواته نحو بعض القبائل التي لم تعترف بسلطته. و تقدم الآغا الذي كان على رأس هذا الجيش إلى حد طلحة، على بعد سبعة أميال جنوب عنابة، و اقترف ضد العرب جرائم لا توصف، حيث ذبح عددا كبيرا من الرجال، أما النساء و الفتيات فقد تم بتر أعضائهن بأبشع الطرق و حرق أثدائهن و ركبهن، يصعب علينا وصف تلك الفظائع.

إنه عار على فرنسا أن تترك ذلك الوحش البشري الذي يحكم قسنطينة والذي ما لبث أن صبّ غضبه بعد فترة قصيرة على أفراد من عائلته بحيث قطع رأس صهره و سمّم عمه بن قانا.

على الرغم من أن وحشية أحمد باي كانت تزيد كل يوم عدد مؤيدينا، إلا أنه تمكن من أن يندفع نحو عنابة، في الثالث عشر من مارس 1833، حيث تقدم حوالي سبعمائة إلى ثمانمائة فارس من قبائل الشرقة، صنهاجة، بني مالك ورجابطة. كان على رأسهم بلكحل، زعيم الزرديز، الذي كان في عام 1830 العدو الأكثر شراسة للجنرال دامريمون Damrémont.

قامت قواتنا بصد تلك الهجمة دونما أي عناء أو أية خسارة بشرية. ومنذ تلك المعركة التي لم تنم عن شيء يذكر، إلى غاية الوقت الذي أكتب فيه الآن، لم تسجل أية هجمات على عنابة من طرف العرب. و تعود هذه الحالة إلى سياسة الجنرال دوزر d'Uzer، الذي تمكن من جلب صداقة العرب، معتمدا على سيرة مناقضة للتي استعملها أحمد باي. و من المؤسف أن الحكومة لم تفكر في نشر تلك السياسة على نطاق أوسع. إلا أن الجنرال لم يكن يتردد في استعمال القوة عندما يبدو ذلك ضروريا. ففي شهر أفريل 1833، بعد تأكده أن عدة أعمال سرقة قد اقترفت في حق حلفائنا و بعض الأوروبيين، من طرف قبيلة أولاد عطية القاطنين على ضفة بحيرة تقع على بعد أربعة أميال من عنابة في اتجاه سطورة، قام الجنرال بالهجوم عليهم، وقتل الكثير منهم، و الاستيلاء على ماشيتهم لتعويض خسائر حلفائنا و كذا

خسائر الإدارة التي نهبت منها بعض الماشية من طرف هؤلاء اللصوص. في هذه الحادثة، جرح الملازم جوزيف Joseph، كما قتل العقيد دوشابان de Chabannes - الورِيث الجدير باسمه النبيل، قائد الفيلق الثالث لقناصي إفريقيا- إثنين من العرب بنفسه.

حان الوقت الآن لإعطاء وصف دقيق لمحافظة قسنطينة، أبرز محافظة من عدة نواحي من بين المحافظات التي شكلت منطقة الجزائر.

هيكل هذه المحافظة مشابه تقريبا للأخريات. هن عموما سلاسل متوازية ذات سمك متباين، مفصولة بأودية مختلفة العرض و في بعض الأحيان مترابطة بسلاسل وسيطة. أقرب هذه السلاسل للبحر، تتصل في عقدة جبل الوحش، الذي يقع في الشمال غير بعيد عن قسنطينة. تخرج من هذا المفترق ثلاث تلال جبلية رئيسية: الأولى تمتد نحو الشمال باتجاه عمودي للبحر و تنتهي في رأس بوجارون le cap Boujaroun[1]. التله الثانية نحو الشرق تحت منتصف رأس الحديد[2]، ثم يتشعب. إحدى تلك التشعبات تساير الساحل و تنتهي في عنابة، و الأخرى تبتعد قليلا و تنتهي على بعد عشرة أميال من البحر في النقطة التي يخرج منها السيبوس من الجبال. التلة الثالثة أكثر طولا من الأولين، يحوي التلي في ناحية الجنوب و ينتهي عند واد المفرق.

يبدأ سهل عنابة في نصف الدائرة المشكلة من تشعب التلة الثانية تقريبا بنفس امتداد المتيجة، و تنتهي شرقا عند جبال تشكل نصف دائرة من ضفة مفرق إلى غاية البحر شرق القالة.

(1) بالعربي: سبع روس (الرؤوس السبعة) التي تشكل في الواقع سبع نقاط
(2) بالعربي: رأس الحديد

يفصل كتلة الجبال التي تم وصفها عن كتلة جبال بجاية، الواد الكبير الذي يصب في البحر غير بعيد عن شرق جيجل.

بين رأس بوجارون le cap Boujaroun المتواجد شرق مصب الواد الكبير و رأس الحديد، نجد خليج سطورة، الذي كان يسمى قديما بـ سينوس نوميديكوس Sinus Numidicus.

و بعد رأس الحديد، في اتجاه الشرق، يمتد الساحل في اتجاه شرق غرب وصولا إلى راس احمر أو كاب دي غارد le cap de Garde. و بعدها راس روزا le cap Rosa، و بين هذين الأخيرين خليج عنابة.

بعد أن نتجاوز راس روزا le cap Rosa، و على بعد مسافة قصيرة نجد القالة و شرق القالة نجد لا زان la Zaine، أين تنتهي حدود منطقة الجزائر في هذه الجهة.

الجزء الذي فصّلناه من محافظة قسنطينة، يحوي عدة مجاري مائية، أهمها من الغرب إلى الشرق: واد الكبير، لا زور بوجعمة، سيبوس و مفرق.

غالبا ما يتغير اسم النهر الذي يصب فيه الواد الكبير، ككل المجاري المائية للبلد. هذا الأخير يتشكل من تجمع عدة روافد، و التي يجري أحدها تحت أسوار قسنطينة، يسمى واد الرمال.

و يجري واد زوور الأقل سيلانا، بموازاة واد الكبير و ينتهي إلى البحر بين مصب النهر الأخير و راس بوجارون le cap Boujaroun.

يتشكل السيبوس من تلاقي العديد من الروافد مثل واد الكبير، ويأخذ

منبعه بالقرب و بالتوازي مع قسنطينة، كما يتدفق على مسافة طويلة بين السفح الثاني و الثالث لجبل الوحش، باتجاه الشرق، ثم يستقيم نحو الشمال تحت خط طول عنابة، يجتاز السهل الكبير الواقع جنوب المدينة و يصب في البحر من الشرق و بالقرب من عنابة. أهم روافد السيبوس هي: واد سيرف، واد زناتي، واد لاريا و هو الأقرب من قسنطينة و واد طاية. أما المفرق فله مجرى أقل اتساعا و لكنه على نفس اتجاه السيبوس. يصب في خليج عنابة على بعد أربعة أميال شرق مصب السيبوس.

البوجمعة نهر صغير يقطع الجزء الغربي لسهل عنابة إلى الجنوب الشرقي و الشمال الشرقي و يصب في البحر تحت أسوار المدينة في حد ذاتها بينها و بين السيبوس.

سكان المنطقة التي قمنا بوصفها يتجزؤون إلى قبائل السهل و قبائل الجبال. الأولى عربية و الثانية أغلبها من القبايل.

و ابتداءا من الشرق، نجد في ضواحي القل أولاد دياب و هي أقوى قبائل المنطقة و كذا : بني عامر، ولاد لاريث، بني ميزان، ولاد عمور بوعلي، النهيد و أخريات. عند مصب المفرق تتواجد أراضي بني أورقين و إلى أعلى تتواجد المرداس، و في الجبال بين السيبوس و المفرق توجد بني صالح.

على امتداد الجبال و بالالتفاف غرب سهل عنابة نلتقي بعد بني صالح و على يسار السيبوس بالتالة و أولاد بوعزيز. و شمال تالة نجد ولاد قايد

و بني فورحال. فبين هاتين القبيلتين يأخذ البوجمعة منبعه و يمر الطريق بين عنابة و قسنطينة؛ و نجد الرجايطة شمال بني فورحال و شمال هؤلاء تتواجد قبيلة العيشاوة. بين هذه القبيلة و عنابة وسط الجبال الوعرة الواقعة على طول الساحل و المسماة جبال ايدوغ تسكن العديد من القبائل ذات الأصول القبايلية و لكنها تتكلم اللغة العربية، نذكر منها بني محمد المشكلة في أغلبها من مرابطين.

غرب الرجايطة و بني فورحال نجد الزرادزة و هي قبيلة كبيرة العدد مقسمة إلى الكثير من المقاطعات. و إلى الغرب منهم نجد العلمة حيث تسمى منطقتهم بسهل العسل نظرا لخصوبة تربتها. إلى شمال العلمة و باتجاه البحر نجد بني مهمن الذين يصلون إلى غاية سطورة أو سكيكدة. تعتبر سطورة مرفأ جيدا. احتل الجنويون هذا الموقع في عهد قوتهم، و كان بمثابة استراحة للسفن التي تستهدف حراسة القراصنة البربر. أما الآن فلا يوجد بسطورة سوى بعض الأكواخ البائسة. و نفس الحالة تعم القل الواقعة على بضعة أميال غربا.

في الجزء الغربي من سهل عنابة نجد بحيرة كبيرة إلى حد ما. بين البحيرة و جبال ايدوغ تسكن قبائل ولاد عطية. و الكرازة يقطنون كذلك في السهل و لكن أقرب إلى عنابة.

و إلى جنوب جبال بجاية و قبائل القبايل التي تكلمنا عنهم في الكتاب 9، و بالتالي في الجنوب الغربي للمنطقة التي نحن بصدد وصفها يمتد

سهل كبير يفصله عن الصحراء سلسلة جبلية. هذه السلسلة مرتبطة بجبال بجاية و قليسة بسلسلة متقاطعة و تبدو قمة جرجرة كالعقدة فيها. و هذا هو المكان الذي نجد فيه البيبان أو بيبان الحديد، التي تشكل مضيقا رهيبا محفوفا بالصخور العالية و شديدة الانحدار. و على بعد بضعة أميال عن هذا الممر، نصل إلى السهل الذي تسكنه قبائل العامر، الريغة، العلمة و ولاد عبد النور. و في هذه المنطقة بالذات يأخذ منبعه أحد أهم المجاري المائية التي تشكل الواد الكبير. و يسكن على ضفاف هذا الرافد قبائل بني مروان.

و عند النزول من جبال بجاية نحو الجنوب نجد المدينة الصغيرة زمورة و آثار سطيف.

السلسلة المتواجدة إلى جنوب السهل يسكنها من الغرب إلى الشرق: اولاد تبان، بني بوطالب الذين يملكون مناجم الرصاص، اولاد سليم و البعض الآخر. ترتبط بجبال الأوراس الواقعة تحت خط الزوال بقسنطينة و التي من بينها كتف جبل يمتد إلى غاية هذه المدينة ليفصل السهل الذي تحدثنا عنه عن سهل آخر يقع جنوب الجبال التي تحد جنوب عنابة. هذا السهل يمتد إلى حدود تونس و يتخلله مجاري مائية يشكل التقاءها نهر المجرى (Le Bagrada سابقا). يجري هذا النهر من الغرب إلى الشرق و يصب في البحر غير بعيد عن تونس. هذه المنطقة تسكنها العديد من القبائل العربية التي تعتبر الحنانشة أقواها.

تمتد إلى جنوب السهل، سلسلة من الجبال التي تتصل بقمة الأوراس. وبعيدا عن هذه الجبال نجد الصحراء التي يمكن اعتبارها بحرا هائلا من الرمال والذي يمتد إلى مشارف تومبوكتو.

التسمية العامة للصحراء تمس كل البلاد التي تحد من الجنوب كل المقاطعات البربرية. و هنا حافظت الأصالة العربية على كل عنفوانها. نعرف القليل عن هذه المنطقة من الجانب الجغرافي و لكنه من المناسب أن أقول بضع كلمات بما أنني لا أريد الكتابة إلا بالاعتماد على وثائق إيجابية و جديدة، و بذلك سأكون بالضرورة أكثر دقة من كوني شاملا.

إلى جنوب جبال اولاد تبان، بني بوطالب و اولاد سليم و على بعد معين من السلسلة تمتد بحيرة مالحة تحمل اسم الشط. هذه البحيرة أو بالأحرى هذه السبخة تجف تقريبا في الصيف فتطفو حينها كمية كبيرة من الملح كما في السبخات المالحة بأرزيو، تصب فيه بعض المجاري المائية الآتية من الشمال. إلى جنوب البحيرة، يجري من الغرب إلى الشرق واد جدي (La Riviére du Chevreau) و الذي يتوه في مستنقع كبير يقع تحت خط طول قسنطينة ولكن في الجنوب الأقصى و في الصحراء تماما. ونجد على ضفاف هذا النهر مدينة اولاد جلال التي تُعد بأهمية البليدة. توجد بجوارها العديد من القرى التي تعتبر البعض منها ذات أهمية بالغة. و إلى شمال الشط توجد مدينة صغيرة تدعى مسيلة التي كانت تحتوي على حامية عسكرية ضعيفة تابعة للأتراك.

على بعد مسيرة يوم و نصف و بالتحديد شرق ولاد جلال، نجد مدينة بسكرة أين كان للأتراك كذلك حامية.

كما يوجد بها قصر صغير. غير بعيد عن بسكرة نجد المدن أو القرى الصغيرة: سيدي خالد، طولقة و ليشانة.

و على بعد ثلاثة أيام سيرا نحو الشمال الغربي لأولاد جلال، نجد القبيلة القوية مجاجلي التي تتواجد على أراضيها المدينة المهمة بوسعادة و التي منذ سنوات أصبح حكمها جمهوريا بعدما تم طرد الحاكم الذي عينه باي قسنطينة عليهم.

المنطقة الجنوبية للشط أين تتواجد المدن التي تحدثنا عنها تحمل اسم منطقة الزاب. و إلى الجنوب الشرقي لهذه المنطقة توجد واحة توقرت التي تحمل عاصمتها نفس الاسم. و هي غنية و جميلة، جد خصبة و وفيرة المياه. يقال أن مدينة توقرت لها نفس الكثافة السكانية لقسنطينة. لها نشاط تجاري كبير مع القيروان و تونس. و هي محاطة بأسوار قوية و لكن قوتها الكبيرة تكمن في الفيضانات التي يمكن إحداثها حول المدينة. هذه الدويلة حافظت دائما على استقلاليتها. هناك من يؤكد أن حاكم أو أمير توقرت يملك كنوزا معتبرة. وهذه المقاطعة خارجة تماما عن إقليم قسنطينة.

كانت قسنطينة، عاصمة الإقليم الذي يحمل نفس الاسم، تسمى قديما سيرتا. وأخذت إسم قسنطينة إبان حكم الإمبراطور قسطنطين. و هي تقع على هضبة محاطة تقريبا من كل جانب بواد الرمل الذي يتدفق في واد ضيق. ولعبور هذا الواد يوجد جسر من ثلاثة أقواس، أعمدته متكئة على الصخور التي ترتفع بشكل كبير فوق مستوى الماء.

و يقال أن تعداد سكان قسنطينة يتراوح مابين 20 إلى 25 ألف نسمة. يوجد بها العديد من الآثار الرومانية كما في العديد من الأماكن التي تحيط بها.

عنابة هي المدينة الوحيدة التي نحتلها في الإقليم لأنه من الصعب اعتبار بجاية جزءا منه. يتشكل سكان المدينة من حوالي 1200 من السكان المحليين و 1700 أوروبي. و على بعد ربع ميل من عنابة نجد أطلال هيبون المشهورة بأسقفية سانت أوغسطين.

نواحي عنابة جد خلابة و جد مناسبة للاستيطان. يملك البيلك في السهل أراضي شاسعة كان بايات قسنطينة يعطونها للعرب للقيام بزراعتها بشروط محددة. تدعى هذه الأراضي العزل و كذا العاملين بها. و خصصت أراضي أخرى لرعي قطعان الباي و كانت تدعى العزيب و كذا العرب الذين يرعون بها. في فصل الصيف، كانت قطعان الماشية تأخذ إلى الجبال، و بعد موسم الحر تعاد إلى السهل. كان بن يعقوب، الذي تم ذكره سابقا، يحكم هؤلاء الرعاة و وكيل الباي أو رجل أعماله.

و لقد أخطأنا تماما بشأن هذا الرجل الذين ظنناه شيخ من قبيلة الدريد العتيقة و القوية التي لم يعد يوجد منها سوى أفراد قليلون متشرون في أنحاء المقاطعة، في حين أنه ليس سوى ما نسميه نحن مستأجر في سهل لاكرو la Crau و لاكامارغ la Camargue. فالرعاة في هذه المنطقة مشكلون بنفس طريقة العزيب في ضواحي عنابة.

و منذ احتلال الفرنسيين لهذه المدينة هجر العزل و العزيب السهل. و الجنرال دوزير d'Uzer لم يدرك أبدا مهامهم الفعلية فلم يقم بشيء لإبقائهم. و هذا كان خطأ كبيرا لأن هؤلاء الناس كانوا سيستمرون في زراعة المنطقة و رعاية القطعان لصالح فرنسا مثل ما كانوا يفعلون لصالح الأتراك. و بذلك كنا سنحافظ باستمرارية الحيازة على آثار ممتلكات الدولة في سهل عنابة. و هناك أسباب تدفعنا للشك بأن مصطفى بن كريم و بعض الأشخاص الآخرين الذين كان بإمكانهم إعلام الجنرال دوزير تعمدوا إخفاء الأمر عنه، و تركه في جهله بالوضعية الحقيقية للعزل و العزيب تجاه الدولة[1].

أما القل التي كان لنا بها تواجد مزدهرا جدا لم يعد لها وجود هذا التواجد قديم جدا و يعود إلى سنة 1450. فقد اشترى التجار الذين استقروا بها من العرب ملكية هذا الجزء من الساحل، عن طريق دفع بعض الإتاوات، مما أعطى لهذه الممتلكات إسم تنازلات. و عند استقرار الأتراك بالجزائر اعترفوا بصحة هذه التنازلات من خلال العديد من المعاهدات. و في عهد لويس الثالث عشر، كان لدينا خمس حصون على هذا الساحل، أهمها حصن فرنسا الذي كان يصل أفراد الحامية به إلى 800 رجل. و في سنة 1798، انتزع الجزائريون القل منا. قبل ذلك كنا قد أهملنا المواقع الأخرى. أعيدت لنا القل سنة 1810 ثم استعادها الجزائريون سنة 1806 ليعيدوها مجددا عام 1817. و أخيرا و في سنة 1827 خلال فترة القطيعة مع حسين باشا، أجبر الفرنسيون على التخلي عن القل للمرة الثالثة و قام العرب بهدم كل

(1) أدين بهذه المعلومات للكولونيل دوفيفي Duvivier

المباني التي أقمناها هناك. يتضح لنا جليا بأن آباءنا قد فكروا قبلنا بشأن شمال إفريقيا. فقد أراد لويس الرابع عشر احتلال جيجل و فأرسل حملة عليها بقيادة الدوق دوبوفور DeBeaufort. و تم الاستحواذ على المدينة بسهولة، و لكنه بعد مرور ثلاثة أشهر أجبر الأتراك و العرب كل الفرق الفرنسية على إخلائها.

الكتاب 11

المرحلة الانتقالية للجنرال آفيزار Avizard ـــ إنشاء مكتب العرب ـــ تعيين السيد دولامورسيار de la Moricière رئيسا لمكتب العرب ـــ أعمال الإدارة المدنية تحت حكم الجنرال آفيزار Avizard ـــ وصول الجنرال فوارول Voirol ـــ حملة قرواو ـــ معسكر الحميز ـــ تشكيل صبايحية الفحص ـــ تسليم حراسة التحصينات إلى الأهالي ـــ إحلال السلم في البلاد ـــ أشغال جسر بوفاريك ـــ أشغال الطرق و التجفيف ـــ معسكر الدويرة ـــ حملة بجاية ـــ أحداث عنابة.

غادر الدوق دوروفيقو Le duc de Rovigo إفريقيا في شهر مارس 1832 للعلاج بفرنسا، كان يأمل بالحصول على عصا الماريشال عند وصوله إلى باريس، لكن ذلك لم يحدث أبدا. الجنرال دالتون D'Alton الذي كان يقود القوات في عهد الدوق بصفته مفتش عام دائم و الذي لم يترك لنا فرصة للحديث عنه لأنه غادر الجزائر بعد فترة قصيرة، فتم تسليم القيادة إلى الجنرال آفيزار Avizard و هو أقدم ماريشالات المعسكر. خلال عهدته القصيرة و بمشورة منه قام الجنرال تريزيل Trézel بتأسيس مكتب العرب، و هي هيئة ضرورية ستعطي لعلاقاتنا مع القبائل نطاقا أوسع و انتظاما ينقصها لحد الآن. تمثلت مهمة هذا المكتب في تنظيم كل قضايا العرب، و جمع كل الوثائق و ترجمة الرسائل الأكثر أهمية بإشراف تام من الجنرال الذي يُخطر يوميا بوضعية البلاد.

كانت قرارات الجنرال المسؤول تُبلغ عن طريق المكتب الذي كان يتشكل من: رئيس، ضابط أو اثنين تحت إمرته و ثلاث مترجمين. أول رئيس لمكتب العرب كان السيد دولاموروسيار de la Moricière نقيب بكتيبة الزواف، و الذي تم تعيينه منذ ذلك الحين رئيس كتيبة بنفس الفيلق. و لم يكن بالإمكان القيام باختيار أفضل؛ هذا الضابط كان يتكلم العربية بشكل حسن يمكنه من التعامل المباشر مع الأهالي وهذه الوظيفة ستساعده بالضرورة على تحسين ذلك. و هو كذلك رجل مواقف، ذو أفكار خصبة، مثقف، كادح و يملك طموحا جامحا للتميز بشيء كبير ومفيد. و من خلال زياراته المتكررة و المنفردة للعرب، كان أول من أثبت أنه من الممكن التعامل معهم بصورة مختلفة عن حد السلاح.

من أهم إيجابيات إنشاء مكتب العرب هو تحرير السلطة من هوس المترجمين الذين لا يرون الأمور بمنظار صحيح، و يرجع ذلك لسببين: أولهما كونهم يفتقدون تقريبا جميعا للمعرفة [1]، و ثانيهما أن أغلبهم ينتمون إلى ذلك العرق المسيحي القادم من بلاد الشام المتشرب بكره عميق ضد المسلمين و هم غالبا كثيرو الشكوى منهم. الطريقة المثلى للضياع في هذا البلد هو التصرف وفق نصائح المترجمين أو حتى الأخذ بالوثائق المقدمة من طرفهم بثقة عمياء. لا أتهم هنا أي أحد بل أذكر

(1) على القارئ أن يلاحظ أنني لا أقول كل ما يجب قوله. لدينا داخل الجيش بعض المترجمين المثقفين و الجديرين بالاحترام و ما يجبرني على عدم ذكر أسماءهم هو أنهم جد مشهورين في البلاد و متأكد أنهم سيكونون من نفس رأيي في هذا الموضوع.

الواقع فحسب. هناك احتياطات لا يستغني عنها أكثر الناس ذكاء، فما بالك بالعقل الجاهل. و عندما تعيدنا ذكريات الطفولة باستمرار إلى صور الإهانة التي عانيناها و أهالينا من طرف عرق كامل، فإنه من الصعب الحكم عليها بحيادية، و هي الحالة التي يتواجد بها المترجمون تجاه المسلمين: فهم حذرين منهم و يجب أن يكونوا كذلك. و بذلك فالنصائح و المعلومات التي يوفرونها تتأثر بموقفهم منهم، و بذلك فعل الرغم من أنهم عاشوا أكثر من غيرهم وسط الأهالي إلا أنهم أقل دراية بهم، إذ يرفضون الاعتراف بأية صفة طيبة لدى العرب لأن علاقاتهم أو علاقة عائلاتهم بهؤلاء كانت دائما غير جيدة، و لكن الحكم على المسلمين حسب حكمهم ستكون أقل منطقية من الحكم على مستعمري سانت دومينغ Saint-Domingue من خلال حديث عبيدهم السابقين.

آخر أعمال إدارة الدوق دوروفيقو Le duc de Rovigo، المتمثلة في إعدام مسعود و العربي، زادت من الحيطة لدى العرب و لم يعد أي أحد منهم يتجرأ على المجيء إلى الجزائر. أصبحت أسواقنا خاوية بدأ اللحم ينقص لدى قواتنا، و للحصول عليه اضطر السيد دولاموروسيار M. de Lamoricière أن يمر على العديد من القرى و سعى جاهدا من خلال خطاباته و صراحته حتى تمكن من جلب بعض عرب الساحل إلى الجزائر. الطريقة التي تم استقبالهم بها، و الرعاية التي أبداها دو لاموروسيار M. de Lamoricière منذ الأيام الأولى لإدارته، المبادئ

المعاكسة للذين كانوا يسيرون الأعمال قبله، و فوق كل ذلك، غير مغادرة دوق دو روفيقو، قد طمأن أولئك من لم يكن لديهم ما يخشونه، و كل من كان مركزه سضعه في الواجهة استمر في التنحي جانبا و لم يستعيدوا ثقتهم سوى عدة أشهر بعد ذلك.

تم إصدار العديد من الأحكام الإدارية خلال الفترة الانتقالية للجنرال آفيزار Avizard. ففي الثاني من أفريل تم إصدار مرسوم مشترك بين الجنرال و الحاكم المدني يعدل القوانين الخاصة بالغابات السارية المفعول بموجب مرسوم 4 نوفمبر 1831، هذا المرسوم كان قد منع قطع الأشجار. و بما أنه يشير إلى قوانين و أنظمة قليلة التوافق مع البلد فقد تم إبطاله بالمرسوم الذي نتكلم عنه مع الاحتفاظ بمبدئه. يمنع مرسوم 2 أفريل كل الملاك و المستوطنين و المزارعين، من قطع أو اقتلاع الأشجار الغابية أو المثمرة في الهواء الطلق أو في حقل مسيّج، دون ترخيص من مدير الأملاك، تحت طائلة غرامة أو مصادرة الأشجار المقطوعة أو المقتلعة. تستثنى من ذلك الأشجار الواقعة في الحدائق والحقول المغلقة بأسوار و تلك التي لا يصل محيطها و كذلك طولها إلى ثلاثة ديسيمتر فوق سطح التربة. تدوم صلاحية التراخيص ستة أشهر و يتم تسجيل المخالفات في محاضر الدرك و الحرس البلدي. و يقرر الإدانات مدير الأملاك، فيما عدا تلك القابلة للاستئناف في محكمة الشرطة الإصلاحية.

تم إصدار عدة مراسيم أخرى في نفس اليوم تنظم وظيفة: السمسار و الخباز و الجزار ؛ من أجل تأسيس وظيفة قيم أو أمين لملأ الفراغ وسط الأوروبيين في كل من مدن الجزائر، عنابة و وهران. و اصدر عدد من المراسيم في عدة مواضيع أخرى الأخرى.

تم الإعتماد على قائدي أحياء القبة و دالي ابراهيم في ضبط المخالفات الريفية، اللذان كانا يشغلان، في عدة جوانب، وظيفة رئيس بلدية.

في أواخر شهر أفريل وصل اللواء بارون فوارول Voirol Baron إلى الجزائر كقائد و مفتش للقوات[1]. كان من المفروض أن

---

(1) السيد فوارول Voirol هو الأصغر سنا بين كل جنرالاتنا، كان يتمتع بمسيرة عسكرية حافلة. فحين كان لا يزال برتبة عقيد سنة 1815 قام بدفاع رائع عن نوجنت Nogent فكانت واحدة من أجمل حلقات تلك الحملة بالرغم من كونها مؤسفة. فقد قال الجنرال بوتورلين Boutourlin، المساعد الشخصي للإمبراطور ألكسندر، في المذكرات التي سجلها حول الأيام الثلاثة من الدفاع عن نوجنت Nogent: "هذه الأيام الثلاثة من حياة العقيد فوارول Voirol كفيلة بأن تزين كل مسيرته". و هذا ثناء مستحق وخاصة إذا كان يصدر من العدو فإنه يصبح ذو قيمة أكبر.
كان للجنرال فوارول Voirol بالجزائر منتقدون، قد يكونون قليلين و لكنهم موجودون. أسلوبه المتفتح و الصريح مكن من التعرف بسرعة و بسهولة على باطن الرجل، مما مكن العديد من الأشخاص الذين كانوا يريدون إنشاء سمعة طيبة عن قدراتهم على حساب سمعته، لكنهم وجدوا أنفسهم في وضع سيء حين انتبه الجنرال لذلك، فلم يرد تقديم نفسه كأضحية لأطماعهم.
لقد انتقد الجنرال فوارول Voirol في عدم وجود قوة إرادة كافية لديه. لكن هل كان يتوجب مهاجمة شخصيته أم منصبه الانتقالي؟ فمن المسموح طرح هذا السؤال. وفيما عدا ذلك، يتوجب على أعداء السيد فوارول Voirol أن يقللوا من شكواهم من ضعفه لأنه بسلوك أكثر صرامة كان سيسكتهم بكل سهولة. و كان بإمكانه أن يزيل عنهم كل امتيازاتهم عليه، إذا ما لبس معطف القائد عوض كونه صريحا و متفتحا مثل ما كان أثناء عمله كنقيب بالمتفجرات. بهذه الطريقة كان سيخفي كل نقائص طبيعته أو

يتسلم منصب القيادة العليا مؤقتا إلى غاية استبدال الدوق دوروفيقو le duc de Rovigo الذي توفي بباريس بداية شهر جوان.

كانت أولى اهتماماته إنشاء الطرقات التي تم إقرار مخططها في عهد الدوق دوروفيقو le duc de Rovigo و إنشاء أخرى جديدة. كانت الأشغال التي تم البدأ فيها و قريبة الانتهاء في عهده جبارة و يمكن ترتيبها كالتالي:

1- طريق البليدة عبر دالي إبراهيم و الدويرة، أنشأه الدوق دوروفيقو le duc de Rovigo، و أوصله إلى غاية أعالي حصن الإمبراطور على امتداد ميل فقط و لكن على أرضية جد وعرة. و مدّده الجنرال فوارول Voirol إلى غاية القرية العربية ولاد منديل في مدخل سهل المتيجة بستة أميال إضافية.

2- طريق البليدة عبر بئر خادم وواد الكرمة : قام الجنرال فوارول Voirol بتمديده كليا حتى جسر واد الكرمة و أبعد من ذلك قليلا. يوفر للمستوطنين منفذا سريعا و سهلا على السهل. كان التمديد بأكثر من ثلاثة أميال نحو الشرق و كان من المفروض أن ينشق عنه طريق فرعي من بئر خادم نحو بن شعاوة، لكن هذا المسلك الذي افتتح لم يتم

بالأحرى العيوب المشتركة للجيل الذي ينتمي إليه. استخدم خصومه وسائل لانتحال شخصية رجال كبار و غامضين بساء فهمهم و اضطهادهم من طرفه. و هناك من تصرفوا بأنفسهم في إفريقيا و تحت أعيننا. فماذا نتج عن ذلك؟

كان الجنرال فوارول Voirol يمتلك من بين صفات أخرى مداراة رائعة و لطفا كبيرا. لقد أعجب به الجميع منذ وصوله إلى الجزائر العاصمة، حتى أولئك الذين أعلنوا عداوته في وقت لاحق.

إكماله.

3- طريق الثغريين (تاقارا): يؤدي من باب الواد إلى باب القصبة و غير بعيد عنه يلتقي بطريق حصن الإمبراطور. بحيث يمكن للسيارات الآن أن تتجول عبر المدينة. لم يتعد تمديد الطريق نصف الميل.

4- طريق القبة: تم تمديد هذا الطريق الذي يقطع سهل مصطفى باشا بميل و نصف تقريبا. و من المفروض تمديده إلى غاية المتيجة.

5-طريق الحراش Maison Carrée: ينفصل عن السابق أسفل القبة، وصل التمديد إلى حوالي ميل تقريبا، ولم يتم إكماله بعد. يتم التواصل بين العاصمة و الحراش عبر الطريق الساحلية القديمة و هي طريق سالك.

6- الطريق المار أمام الحراش: يوصل إلى أوطان الخشنة و تم تمديده بميلين تقريبا.

7- مسلك من البرج البحري إلى الحراش: هو مسلك ذو ممر واحد ولكنه جيد.

أنشأت كل هذه الطرق من طرف أفراد الجيش تحت إدارة قسم الهندسة العسكرية. أما أشغال رصف الطريق فقد قام بها قسم الهندسة المدنية. و من أجل إكمال هذا الصرح الهائل حارب الجنرال فوارول Voirol صعوبات عدة؛ المنافسات بين قسمي الهندسة و معارضة رؤساء الفيالق الذين بشكل عام لا يحبذون أن تُغير عادات الجنود في

الثكنة، حيث لطالما أخطأ هؤلاء الضباط بتركيز أفكارهم. و عندما قُرب انتهاء الأشغال، أراد كل واحد أن يتبنى المشروع. فوضعت في كل الجهات أحجار تحمل أسماء الجنرالات و العقداء، حيث إذا ما وصلت إلى أجيال المستقبل فإن علماء الآثار سيجدون صعوبة في إرفاق التذكار التاريخي لكل تلك الأسماء. لكن اثنان من تلك النقوش ستبقى يقينا و ستكون مفهومة، و هي: اسم الدوق دوروفيقو le duc de Rovigo الذي وضع حجر أساس المشروع و اسم الجنرال فوارول Voirol الذي قام بتوسيعه. يمكن قراءة ذلك على عمود رخامي أنيق يوجد على طريق بئر خادم على أعلى نقطة من تلال مصطفى باشا.

لم تكلف أشغال تسوية الطريق التي قام بها الجنود الكثير، فيما عدا الحصص المضاعفة من النبيذ التي كانوا يكافؤون بها و الأدوات التي استخدموها. أما أشغال الترصيف فقد كانت أكثر كلفة من فرنسا، و مجمل القول أن النفقات الكلية كانت أقل بكثير مما كانت ستكون عليه في واحدة من الدوائر بفرنسا. تم حساب جميع المنحدرات بالجزء من العشرين و هذا يعني أن كل طريق متسلقة لا ترتفع إلا بمتر على عشرين. يبدو أن هذا التقرير مبالغ فيه في بلد لا خوف فيه من الجليد، و بذلك يمكن للمنحدرات أن تكون أكثر حدة دون عيوب خطيرة، و أدى ذلك إلى ضرورة تطوير أكبر في المسار و بالتالي زيادة كبيرة في العمل. وبما أن المهمة

قد تمت و طرقنا أصبحت جميلة جدا لدرجة أننا لم نندم على الوقت و الجهد المبذولين فيها. و لكن ما يجب الندم عليه ربما هو أن قسم الهندسة أراد تجديدا كليا و لم يعمل على الاستفادة مما كان موجودا أصلا.

فالطريق القديم للقبة مثلا كان عريضا جدا من جهة السهل مما يسمح بمرور عربتين و هذا أمر جيد عموما، لكنه تقرر توسيعها أكثر فتم قطع الأشجار الجميلة و النباتات التي كانت تحفه و تجعل منه نزهة ممتعة. يمكنني ذكر أمثلة أخرى. من المعروف أن قسم الهندسة سواء كان عسكريا أو مدنيا قليل الشاعرية فيما يخص الطبيعة و يقوم بالتضحية بكل سهولة بما هو ممتع لما يظنه ضروريا. و لكن الظل هنا مهم بقدر ما هو ممتع، فهل لم يكن باستطاعتنا التملص من قواعد الهندسة للحفاظ عليه؟ إن التطبيق المطلق لتلك القوانين أدى بنا، دون ضرورة واضحة، إلى الحصول على أراضي مردومة ستفقد صلابتها بعد 10 أو 12 سنة، بحيث أنه في موسم الأمطار تصبح الطرق غالبا غير عملية في مواضع كثيرة، فيصبح المسافر مضطرا للبحث عن اتخاذ الحقول المجاورة مسلكا له.

في العهد العثماني، كانت طرق الجزء الجبلي من الجزائر العاصمة معبدة في معظمها، لم تكن عريضة جدا، لكنها تكفي لاحتياجات حركة المرور في بلد كل عمليات النقل فيه تتم بواسطة الدواب. هذه المسالك المحفوفة بالأشجار و النباتات ستبقى وسائل للتواصل الجواري إذا ما تمت صيانتها.

و لكن منذ خمس سنوات لم تعد كذلك. علينا أن نأمل بأن تكون إحدى المزايا المترتبة عن تشكيل البلديات الريفية التي جرت في عهد الكونت ديرلون d'Erlon هي ترميم و تحسين سبل الربط تلك.

في عهد الجنرال فوارول Voirol، تم القيام بأشغال أقل استعجالا من أشغال الطرق، لكنها لا تقل أهمية و أعني بذلك أشغال التجفيف التي قام بتنفيذها قسم الهندسة العسكرية في شتاء 1833 و 1834 على أراضي المزرعة النموذجية و بالحراش. هذين الموقعين، كما نعلم، هما مستنقعان تنتشر منها روائح مقرفة، فكانت عملية التجفيف إجراءا زراعيا و صحيا في آن واحد. و تمت عبر تفريغ مياه الحراش في لارات Arath و مياه المزرعة النموذجية في واد الكرمة و لارات. عمل قسم الهندسة بحماسة و براعة. وبالرغم أنه لا نستطيع حاليا الثبات على رأي محدد عن جودة التنفيذ بما أن العملية لم تنته بعد، إلا أنه بإمكاننا أن نستبشر خيرا حسب ما يظهر من النتائج الجزئية المتحصل عليها. في هذه الأشغال تم استخدام العرب المحكوم عليهم بالأشغال العمومية و بعض الشركات المنضبطة. كان يُدفع للعرب 26 فلسا لليوم، فتقدم الكثير منهم للعمل، مما جعل المبالغ المخصصة لا تكفي للدفع، فاضطر كولونيل قسم الهندسة إلى ردهم و الاكتفاء بالمحكوم عليهم. لقد تم كذلك القيام بعمليات تجفيف بعناية.

بعد فترة وجيزة من وصول الجنرال فوارول Voirol، تم توجيه حملة ضد أهالي بوعقاب و قرواو في أوطان بني خليل الذين رفضوا الاعتراف ببوزيد بن شعاوة المعين بمنصب قايد عوض حمود الذي تخلى عن منصبه. كما أن أهالي بوعاقب و قرواو قاموا بأعمال نهب في حق العرب الخاضعين لنا. قاد هذه الحملة الجنرال تريزيل Trézel. حدثت مناوشات مع العرب تم خلالها إطلاق نار و ضربات سيوف. تم نهب قرى المتمردين و سلب عدد كبير من المواشي، تم توزيعها على العرب الذين عانوا من عمليات النهب من طرف أولئك الذين تمت معاقبتهم. هذا العمل الحازم و العادل في آن واحد كان بداية جيدة لإدارة الجنرال فوارول Voirol و أعطى للأهالي انطباعا جيدا حول شخصيته. و بعد بضعة أيام تم إنشاء معسكر على ضفاف الحميز لحماية عملية سقي المروج الجميلة التي يرويها و التي يبدو أنها تكفي احتياجات فرق فرساننا. لم يعارض عرب المنطقة هذه العملية، بل على العكس كانوا يأتون كل يوم لتموين سوق المعسكر. السيد دولاموروسيار de la Moricière كان دائم التواجد أينما كانت هناك متاعب لتهدئتها أو الحصول على بعض المكاسب المعنوية.

---

(1) كان تصرف إبن الدوق دوروفيقو le duc de Rovigo el - الذي كان ملازم بالفوج الأول لقناصي إفريقيا- جيدا في تلك الواقعة، لكنه أوشك على الموت عند سقوطه وسط الأعداء بعد مقتل حصانه، لولا تدخل النقيب دوكولون de Cologne من نفس الفيلق، الذي قتل بطلقة بندقية عربيا كان يضع اليطغان فوق رأسه.

القش الذي تم جنيه في الحميز وفير و ممتاز الجودة. تم نقله بحرا إلى العاصمة، لكن لم يصل منه إلى المخازن سوى نصف ما حصد، لأن الطريقة التي تم نقله بها ضيعت الكثير، و نظن أنه لا يتم عامة التصريح بكل ما نتحصل عليه، و نتج عن ذلك أن المصاريف قد خصصت لكمية معينة، وبما أن هذه الكمية انخفضت لأكثر من النصف عند تسجيلها الإداري في المخازن، بدت المصاريف ضعف ما كانت عليه بالفعل. فاستنتج البعض استنتاجا غير معقول و هو أن القش المحصود على بعد ثلاثة أميال عن العاصمة أغلى من ذاك الذي يرسل لنا من نانت Nantes.

قام بوزيد بن شعاوة قايد بني خليل- وهو رجل ذو نشاط غير مألوف- بعدما رأى مساندتنا له، بضم موطنه تحت سلطته وأعلن نفسه خادما وصديقا لنا بصراحة لم تصدر من أي شخص قبله. تم استبدال قايد بني موسى- الذي رفعت ضده بعض الشكاوي- بعلي بن الخزناجي، رجل حازم و مقتدر، كان لوقت طويل عدوا لنا و لكن منذ تعيينه خدمنا بإخلاص رائع. كان الجنرال فوارول Voirol يفكر بمنطق أنه من الأفضل كسب الأعداء عوض قتلهم و أن الضراوة التي حاربونا بها لا يمكن اعتبارها أساسا للاستبعاد عندما يعودون إلينا. بدأت الأحقاد بالاضمحلال شيئا فشيئا. و الانطباع السيء الذي تركه في الأذهان إعدام مسعود و العربي زال أمام الإخلاص المعروف للجنرال الجديد. فتم التفكير في تنظيم قوة عمومية عند العرب من خلال إعادة إنشاء الصبايحية القدامى مع التعديلات التي تتطلبها للوضعية الحالية.

تم البدء بالفحص. عبر مرسوم 24 جوان 1833، الذي نص على تكوين عدد معين من الفرسان في هذه المنطقة و تسميتهم صبايحية الفحص، مهمتهم تقديم يد مساعدة قوية لقوات الدرك و المشاركة في الدفاع المشترك. كان عليهم تنظيم و تجهيز أنفسهم بنفقاتهم الخاصة و تم تزويدهم بالأسلحة، و حدد راتب ثابت بـ 60 سنتيم لليوم، و تعويض 2 فرنك لكل يوم خدمة. كان هذا الراتب الذي نصت عليه تعليمة 17 نوفمبر 1831 التي سمحت بتشكيل هذه الفرقة، لكن وضعتهم تابعين لفيلق قناصي إفريقيا. و في 5 أوت صدر مرسوم يمدد هذا الإجراء على المناطق الثلاثة التي اعترفت بسلطتنا. كان التطبيق أكثر صعوبة، لأن المقاطعات المختلفة لهذه المناطق لم يكن لها شيوخ معترف بهم مثل الفحص. بالإضافة إلى ذلك قام الجنرال فوارول Voirol بتشكيل فرقة مشاة في الفحص لحراسة الحصون في فصل الصيف و كل المراكز التي يجعل منها موقعها الغير الصحي خطيرة على الفرق الأوروبية. هذا الإجراء ساهم بقوة في التقليل من عدد المرضى تلك السنة. كل فرد من هذه الميليشيات يتحصل على 1 فرنك لكل يوم خدمة.

حينما تمكنا - بكل الوسائل المختلفة- من ضمان هدوء و خضوع المناطق المحيطة بالجزائر، تم التفكير في تطبيق ذلك على الباقي. تم البدء بالسبت أين يتواجد الحجوطيون و هم ناس مشاغبون و مولعون بالقتال، فأردنا ضمهم إلينا. كان للسيد دولاموريسيار de la Moricière مقابلة معهم و التقى أيضا بشاوش قويدر بن رباح الرجل الأكثر نفوذا في القبيلة، و لكنه لم يتمكن

من الحصول إلا على ضمانات السلم دون تعهد بالخضوع. وكباقي القبائل طالب الحجوطيون بإلحاح إطلاق سراح مرابطي القليعة المحتجزين بالعاصمة منذ عشرة أشهر. و بما أن الجنرال فوارول Voirol كان راضيا من وضعية البلاد فقد قرر أن يمنحهم جزءا من مطالبهم و بذلك تم إطلاق سراح سيدي عبد الله و وعد بأن لا يتأخر في تحرير ابن عمه سيدي محمد إذا ما لم يتم تعكير السلام. قام السيد دولاموريسيار باقتياد سيدي عبد الله إلى القليعة.

على الرغم من الوضعية المرضية لعلاقاتنا مع العرب، كان لدينا إحساس بوجوب الحرص. تم إنشاء معسكر الدويرة مهددا بذلك البليدة و القليعة في آن واحد. و لم يصبح المعسكر دائما إلا في السنة الموالية. الطرق الجميلة التي يتم فتحها من كل النواحي ستوفر لنا قريبا منافذ متعددة وسهلة على السهل. أردنا كذلك التأكد من الممر المشجر و المستنقعي لبوفاريك و هو مسلك إجباري للتدخل في البليدة و الجزء الجنوبي لبني خليل. تم تشغيل عمال من الأهالي لكسر الشجيرات الغابية و تقوية دعامة الجسور و تقليل المياه بالمستنقعات. بعد وقت قصير، ترك السيد دولاموريسيار de la Moricière إدارة مكتب العرب لمتابعة حملة بجاية التي سينتهي هذا الكتاب بسردها. و لكنه من واجبنا أن نسبق ذلك بوصف قصير للبلد الذي كان مركز الأحداث.

هذه المنطقة جبلية تطل على البحر، يعبرها من الشمال إلى الجنوب نهر مشار إليه في خرائطنا باسم أدوس Adouse، يتفرع عنه في الجزء العلوي

من مساره مجرى الصومام و بالقرب من مصبه واد بن مسعود. تسكنه قبائل من القبايل، لا نعرف هذا البلد من الداخل و لكننا نعلم من خلال تقارير الأهالي أنه من الصعب الوصول إليه. و لا يمكننا أبدا اختراقه مع مجموعة من القوات إلا بإتباع واد الصومام. هذا هو المسلك الذي استخدمه الأتراك في حلاتهم التي لم تكن كلها ناجحة بل على العكس من ذلك.

تقع بجاية على ساحل البحر، على بعد ميل من الصومام، تم تشييدها بشكل مدرج على منحدر من جبل قوراية الذي يصل ارتفاعه إلى 670 متر، يقسمها منحدر عميق لحد ما إلى جزأين و الذي يتشعب إلى أعالي المدينة. في القديم كانت الأسوار واسعة جدا كما يدل على ذلك بقايا حائط قديم لا يزال يعطي بعض الاستمرارية من الجهة اليمنى، أما من الجهة اليسرى فلم يتبق منها سوى الأساسات مما جعل المدينة مفتوحة. تحميها ثلاثة حصون، يدعى الأول حصن موسى و هو في أعالي المدينة على يمين المنحدر، يسمى الثاني القصبة و هو مشيد على ساحل البحر على يمين المنحدر، أما الحصن الثالث فيسمى حصن عبد القادر يتواجد على يسار المنحدر على ساحل البحر. توجد أيضا عدد قليل من المدفعيات قليلة الأهمية. هكذا كانت بجاية قبل الاحتلال الفرنسي، لكن عندما استولينا عليها أضفنا إليها الكثير من الإنجازات.

هناك سهل على امتداد ميل، تحيط به على شكل نصف دائرة الجبال والبحر، يقع بين بجاية و الصومام. و تسقيه جداول صغيرة التي تكون

بعض المستنقعات. كل باقي المنطقة عبارة عن جبال.

خليج بجاية محصور بين رأس كاربون و رأس كافالو. المرفأ شاسع وآمن لحد ما، لكن ليس بالدرجة التي كنا نظنه عليها في البداية. الولوج و الخروج منه ليس سهلا نظرا للرياح التي تهب عادة على سواحل بلاد البربر. الميناء المعتاد هو بقرب المدينة، هو خليج واسع بين رأس حصن عبد القادر و رأس بجاية، يقع جهة الشرق ليس بعيدا عن راس كاربون. و يوجد إلى أعلى راس بجاية حصن صغير مهجور يسمى بوهاك Bouhac.

قبايل بجاية كثيرو العدد و محبون للقتال. تحيط بالمدينة قبايل المزاية التي تعتبر من أقوى القبائل. إلى شرق الصومام و بالاتجاه نحو جيجل نجد بني مسعود، بني ميمور، بني عمروس، ولاد ورث أوعلي، بني محمد، بني حسان، بني سغروال، ..إلخ.

إلى غرب بجاية و المزاية و باتباع الساحل نجد بني عمران، بني كسيلة، بني عيدل، ..إلخ.

و صعودا بمحاذاة النهر و أعلى من بني مسعود، نجد على الجهة اليمنى قبائل: توجة، بونجامن، الفناية، بني أورغليس ...إلخ. وعلى الجهة اليسرى نجد ولاد عبد الجبار، الصنهاجة، بني لمال ...إلخ.

في الأراضي الداخلية تسكن قبائل ولاد عمريو، بني برباش، بني سليمان، بني غراتيب، الكيفسر، بني جليب، المسيسة، العجاسة، بني شبانة، بني وجان، بني اسماعيل، بني عباس و الغربولة.

القبيلتين الأخيرتين هما أبعد القبائل عن بجاية. هما كثيرتا التعداد وقويتان. نجد على أراضي بني عباس مدينة القلعة المشيدة على صخرة عالية لا يمكن الوصول لها سوى بممرين وعرين و ضيقين. هذه المدينة محاطة بسور جيد و محمية ببعض قطع المدفعية. و لا تبعد سوى بأربعة إلى خمسة أميال عن سلسلة جبال البيبان.

الحكم بها مشترك و تقطنها من خمسة إلى ستة آلاف نسمة. يصنع بني عباس بنادق لها قيمة كبيرة في البلد، و يجلبون الحديد من عند بني برباش الذين يملكون مناجم عديدة مستغلة بشكل جيد.

غربولة أيضا قبيلة قوية جدا، تضم العديد من القرى من بينها الغريب ذات كثافة سكانية معادلة لتلك الموجودة في عنابة.

في الشمال الغربي لبني عباس، بين هذه القبيلة و قبيلة قلبة، نجد الزواوة و هي قبيلة قوية و كبيرة العدد، و كانت فيما مضى مركز مملكة كوكو القديمة.

يمكن لقبائل القبايل التي قمنا بذكرها أن تجمع أكثر من 20.000 رجل مسلح. كل واحدة منها تنقسم إلى أحياء أو قراروبة Graroubas و تنقسم كل قراروبة إلى مداشر أو قرى. و تتمتع بحرية مطلقة. القراروبة لها مشايخ منتخبين معينين من طرف مجلس عام و لمدة قصيرة. يدير مجلس المشايخ العدالة الجنائية في كل قبيلة، أما القضاة و الطُلبة أو العلامة فيديرون العدالة المدنية. و حين تقدم قبيلة أو عدة قبائل على الحرب، فإنها تقوم بتعيين قائد مشترك تكون

مهامه دائما لمدة قصيرة. يتم البث في المسائل المهمة في المجلس العام، و لا يوجد مثيل في أي مكان آخر لحكومة ذات ديمقراطية مطلقة من حكومة القبايل. و هم مرتاحون في هذه الوضعية للأمور و للبساطة الفظة التي يعيشون بها إلى حد أنه من غير الممكن إيجاد شعب أكثر تعلقا بأعرافه مثلهم. و مع ذلك فإن أغلبهم تقريبا يسافرون للعمل في باقي مدن الوصاية حتى أنهم يمتهنون وظائف الخدم بالمنازل. و آخرون يدخلون لخدمة قوى بربرية و عند تجميعهم للقليل من المال يعودون الى جبالهم للعيش أحرارا و مستقلين.

طموحاتهم محدودة، تنحصر في أغلب الأحيان في الحصول على زوجة، كوخ، بندقية، يطغان (سيف)، مجرفة، بغل و كلب و بهذا هم أسعد الناس. و من أحد عناصر سعادتهم كذلك مزمار صغير يعزفون عليه ألحانا وطنية بإيقاع بطيء و رتيب. و يعتبر أولئك الذين يملكون بيوتا من حجر و حصان و محاريث و ثيران للعمل قد وصلوا إلى ذروة السعادة البشرية.

ديانة القبايل هي الإسلام. لديهم مساجد و مدارس في أغلب مدنهم، لكنهم يخلطون مبادئ القرآن بالخرافات. ولقد قلنا سابقا أن لغتهم تختلف تماما عن العربية و رغم ذلك فإن أغلبهم يتكلمونها بطلاقة[1].

كانت بجاية و ضواحيها تابعة لإقليم قسنطينة بالاسم أكثر منه فعليا. تم

(1) - أدين بقسط كبير مما ذكرته عن قبايل بجاية للسيد دولاموريسيار.

احتلالها سنة 1510 من طرف الإسبان بقيادة بيير دونافار Pierre de Navarre و انتزعها منهم الباشا صالح رايس سنة1555.

و يبدو أنه منذ المغامرة المأساوية لمراد في عهد الماريشال دوبورمونت de Bourmont، نسي الفرنسيون هذه المدينة و قرر ثلاثة أشخاص ذوي أعراق و مراكز مختلفة تذكيرهم بها، بغرض تحقيق مصالح شخصية في عهد إدارة الدوق دو روفيقو le duc de Rovigo. هؤلاء الرجال الثلاثة هم : وليد أورباح أحد الرجال النافذين لقبيلة ولاد عبد الجبار، بوستة و هو أحد مغاربة بجاية و قبطان ميناء المدينة، و السير جولي le sieur Joly الفرنسي المقيم منذ سنوات بالجزائر العاصمة. كان مشروعهم وضع قنصل لنا ببجاية (رشحوا السير جولي لذلك)، و فتح الميناء للسفن الفرنسية. كانت مهمة بوستة تسليم السير جولي سلع التصدير التي تأتي إلى المدينة تحت رعاية وليد أورباح. و بهذا سيتقاسمون احتكار التجارة المتمثلة في الخشب المقطوع و خشب البناء، الشمع، الزيت و بعض السلع الثانوية الأخرى. هذا المخطط كان مصمما بذكاء و كان من الممكن اعتماده باستثناء الاحتكار. و كان من الممكن التعامل بِنِدِيّة مع قبايل بجاية فهم شعب حر و مستقل قانونا و فعليا، و يستحق ان يكون كذلك. و مجرد سفينة مراقبة ثابتة بالمرفأ كانت لتكفي لحماية التجارة الفرنسية و الأوروبية. و كان باستطاعتنا مع مرور الوقت وضع حامية في أحد الحصون مكونة

في البداية من بعض الجنود الأتراك أو من الأهالي تدفع المدينة أجورهم، و الذين نملك ألف طريقة لجعلهم تابعين لنا بصفة كاملة. وجه الدوق دوروفيقو le duc de Rovigo أفكاره نحو هذا الهدف، و رحب بالترتيبات التي قدمت له في هذا الإتجاه من طرف بوستة و وليد أورباح. و لكن بتضخيم الأهمية السياسية لهذين الرجلين[1] تأمل الوصول عبر مساعدتهم إلى الاحتلال الفوري للمدينة بقوات فرنسية، و بهذا عوضت مشاريع الغزو مشاريع العلاقات التجارية. و في غضون ذلك، تمت إهانة سفينة بريطانية في ميناء بجاية. الحكومة البريطانية قدمت شكوى بذلك قائلة أنه إن لم تكن فرنسا تعرف كيف تفرض احترام سفن أصدقائها على سواحل تعتبر ملكا لها، فإنها ستضطر الى استخدام أساليب أخرى حتى لا تتكرر الإهانة التي وجهت لها. الوزارة التي رأت في هذا التلميح تهديدا باحتلال بجاية و خشيت أن يكون لها بالقرب من الجزائر جيرانا مزعجين قررت الوقوف و التصدي لذلك. فتم أولا التعرف على المكان و كان السيد دولامورسيار de la Moricière مكلفا بهذه المهمة. و قد دخل بمساعدة بوستة، بيد أنه لم يتم استقباله جيدا و أحدق به خطر كبير، فلم يتمكن من البقاء طويلا. فاضطر بوستة إلى مغادرة المدينة معه، و بمجرد صعوده إلى السفينة، أضرم الناس النار بمنزله.

---

(1) - أرسل وليد أورباح قائمة طويلة لكل القبائل التي كان يزعم أنها تحت إمرته.

السيد دولامورسيار de la Moricière الذي يعرف بشكل جيد البلد، لكن الرغبة الطبيعية لضابط شاب في حدوث عملية حربية دفعت به إلى المبالغة في تسهيلها و كذا الوثائق التي وفرها كانت سببا في سوء تقدير كبير[1].

---

(1) - الاحتلال العسكري لبجاية لم يكن ذو فائدة لنا. فهي محاطة بمنطقة جبلية صعبة النفوذ إليها مما يعزلها تماما. و هذا الموقع دون أهمية للعمليات العسكرية التي يمكن محاولة القيام بها في المناطق الداخلية للبلاد. و يكفي إلقاء نظرة على خريطة البلاد للاقتناع بأنه لا يمكنها في أي حالة أن تساهم كقاعدة عمليات سواء كانت رئيسية أو ثانوية، و بذلك لا أرى أي فائدة من غزو هذا البلد المسكين و الحر إضافة إلى كونه صعبا. و قيل أن احتلال قبايل بجاية سيمنعهم من التدفق على مقراتنا بالعاصمة. هذا التفكير خاطئ من كل الجوانب؛ لأن قبايل ضواحي بجاية لم يفكروا و لن يفكروا يوما في البحث عن أعداء بعيدا عنهم بل مكتفين بحياتهم الحرة في بلدهم و لا يهتمون بغيرهم و ثانيا، أليس من الغريب أن يتم اعتراض سبيل 4000 رجل ببجاية حتى لا يتواجدوا بالجزائر؟ معناه اعتراض سبيل لمجرد الاعتراض. و لكن ليس لنا ما نخشاه منهم بالجزائر، وحتى و لو توجب على القبايل القدوم، فمن الأفضل أن يكونوا مستخدمين للدفاع المباشر و الفعلي لمركز مستعمراتنا على أن يكونوا هواجس خيالية .و بهذا التعزيز سنتمكن من احتلال مواقع ستجعلنا المتحكمين المطلقين في إقليم الجزائر و ربما في إقليم التيطري. من الواجب البحث عن كسب القبايل كحلفاء بربط علاقات جيدة بيننا و بينهم و علاقات تجارية إيجابية للكل عوض إزعاجهم بمستعمرة عسكرية تهدد استقلاليتهم. والآن و قد قمنا بتلك الخطوة الغبية فإن التخلي عن بجاية لن يكون ربما دون عواقب وخيمة. لا أعني بذلك عن الخوف الوهمي من رؤية المدينة في أيدي البريطانيين الذين يملكون أصلا خارج أراضيهم أكثر من مستعمرة ، لن تسمح لهم وضعيتهم المالية بالمحافظة عليها، و أظن أنهم بعيدون عن التطلع إلى هذا الوضع السيء. بل ما يمكن أن يحدثه انسحابنا من بجاية من أثر مؤسف لدى الأهالي الذين سيرجعون ذلك إلى العزيمة التي يملكها القبايل و التي مكنتهم من عرقلتنا منذ أكثر من ثلاث سنوات.

الجزء الأول

في الـ26 ديسمبر 1832، أعلن وزير الحرب للدوق دوروفيقو بأن احتلال بجاية فكرة راسخة في ذهنه، و لكنه لم يتم الاهتمام بوسائل التنفيذ إلا في عهد الجنرال فوارول. فهذا الأخير كان يرى الأمور بطريقة صحيحة. فالحملة - بالنسبة له- لا تبدو ذات فوائد مثل ما كان منتظرا، و لم يُبد حماسا كبيرا لها، لكنه لم يرد معارضة رأي الوزير أو رئيسه بهيئة الأركان و بعض الضباط الخانعين. ولم يبحث عن محاربة الحماس الحقيقي أو حماس قيادة بعض الأفراد الذين يتوجب عليهم أن يكونوا أكثر نضجا نظرا لعدم صغر سنهم. إلا أنه رفض محاولة إقناعه بأن 600 رجل منطلقين من الجزائر سيكونون كفاية لإحتلال بجاية و أصر على أن يرسل الوزير دعما من جيش إفريقيا لهذه الحملة.

عندما كان الوزير مقتنعا بأن كتيبة واحدة كافية للاستحواذ على بجاية، قام بتسليم القيادة لرئيس الكتيبة دوفيفي Duvivier و هو الضابط الذي كان يبدو الأكثر قدرة في جيش إفريقيا. و بعد أن توضح أنه يتوجب إرسال قوات أكثر مما ظن في البداية، قرر بأن تقاد الحملة من طرف ماريشال معسكر و إختار الجنرال تريزيل Trézel. كان من المفروض على هذا الأخير و بعدما يتمكن من الاستحواذ على بجاية أن يعود إلى مهامه كرئيس هيئة الأركان العامة و يسلم للسيد دوفيفي Duvivier قيادة المدينة.

تلقى الجنرال تريزيل Trézel خلال شهر أوت الأمر بالتوجه إلى تولون Toulon لتسلم قيادة الحملة و الانطلاق من ذلك الميناء إلى بجاية. تشكلت القوات من الكتيبتين الأولى و الثانية من الصف 59 و كل كتيبة تم خفض أفرادها من 800 إلى 600. هذا التخفيض لم يكن له سبب سوى إرادة قائد الحملة في حد

ذاته، الذي بالغ في تصوير العملية بالبسيطة، رغم أنه لم يكن يعرف إلا القليل عن هذا البلد، لدرجة أنه خلال الزيارة التي قام بها ضباط الصف 59 إليه، ألقى عليهم هذه الكلمات التي أعطتها الحقائق في وقت لاحق إنكارا رسميا: "جنودنا مطلوبون لتنفيذ مهمة زراعية أكثر منها قتالية، وسيستعملون أغلب الوقت المعول و المجرفة أكثر من البندقية، فبعرض فوائد حضارتنا للقبايل وبتعليمهم كيف يلبسون و كيف يسكنون بطريقة أفضل ستمكن من كسبهم تحت لوائنا".

في العشرين من سبتمبر، انطلقت كتيبتين من الصف 59 بقيادة الكولونيل بوتي دوتريف Petit d'Autrive، و فوجين من المدفعيين و سرية خبراء متفجرات و قسم للمعدات و قسم عمال الادارة. و أخيرا الجنرال تريزيل Trézel و هيئة أركانه و استقلوا السفن التالية: لافيكتوار la Victoire: فرقاطة تحت قيادة السيد بارسفال Parseval قبطان السفينة، لاسيرسي و لاريان: la Circée et l'Ariane: طرادات مسلحة، لواز l'Oise: طرادة هجومية، الدورانس و الكارافان Durance et la Caravane la: سفينة شراعية، و سين le Signe : سفينة شراعية بصاريتين.

لم يتمكن السرب الذي ضايقته الرياح من مغادرة ميناء تولون إلا في الثاني و العشرون من الشهر، و وصل إلى بجاية في التاسع و العشرين. وسرعان ما بدأ إطلاق النار من الحصون، لكن السفن الفرنسية تمكنت من إسكاتهم على الفور. بدأت عملية الإنزال بين الساعة الثامنة و التاسعة صباحا و تمت أمام باب البحري، بين القصبة و حصن عبد القادر. كان

هناك برنامج رتبت من خلاله كل التفاصيل، و كما هي العادة دائما لم يتم تنفيذ ما تقرر. تمت عملية إنزال القوات الأولى تحت إطلاق نار شديد للبنادق و رغم ذلك تمكن الفرنسيون من الولوج بسهولة إلى المدينة. في الجهة المقابلة لباب البحرية- الذي سرعان ما أصبحوا متحكمين فيه - يتفرع واد سيدي تواتي الذي يقسم المدينة إلى صفين. على يسار الواد توجد بريجة و على اليمين هضبة موسى المتوجة بالحصن الذي يحمل نفس الإسم. هذه الأخيرة كانت الوحيدة ذات أهمية و باحتلالها نجبر الأعداء على إخلاء الثانية و بهذا تم توجيه الهجمات الأولى نحوها عكس نوايا الجنرال. تم انتزاع حي البريجة واحتلال حصن عبد القادر من طرف الفرق التي يقودها الرائد ايسلين Esselin الذي تعرض لإصابة في هذه العملية. إلى اليسار قامت سرايا أخرى بمهاجمة هضبة موسى و تمكنوا من احتلال القصبة و حصن موسى. و بهذا دخلنا في معركتين عوض واحدة كنا سننتصر فيها إذا ما قمنا بمهاجمة هضبة موسى فقط التي باحتلالها كنا سنوقع البريجة بين أيدينا. أضفنا إلى هذه الغلطة الأولى، خطأ عدم احتلال المكان المنحصر بين باب اللوز و الحائط الغربي و قبة سيدي تواتي، و هو المكان الذي يتواجد به حاليا المعسكر المطوق العلوي. و بهذا بقي العدو مسيطرا على مدخل الوادي حيث يمكنه النزول لقطع الاتصال المباشر بين البريجة و موسى. وهذا ما قاموا به في الليل و وصلوا حتى السرية القابعة بباب البحرية وقتلوا ثلاثة رجال. كما أنهم

كانوا يحتلون كل المنازل في الأحياء العلوية. وبهذا و بعد اليوم الاول، لم يكن الفرنسيون أسياد بجاية تماما.

في 30 من الشهر، تواصل إطلاق النار في كل النقاط و كان القبايل يظهرون عند كل مداخل الأحياء، كانوا يدخلون الى المدينة بسهولة عبر الوادي و عبر باب فوكة الذي تم إهمال احتلاله بسبب جهلنا لتواجده حسب ما قيل. بعض قطع المدفعية التي كنا نقوم بنقلها إلى حصن موسى تمت مهاجمتها بشدة. فقمنا بالتمركز في منزل بمحاذاة الشارع الذي كان القبايل يصلون إليه من باب فوكة و لكن هؤلاء مروا عبر الشوارع الموازية و استمرت المعارك من شارع إلى شارع.

في أول أكتوبر، سمح الجنود المغتاظون من تلك المقاومة الضروس بتجاوزات مؤسفة. تم ذبح بعض البجاويين الذين ظلوا ببيوتهم. تم قتل 14 امرأة و طفلا في دار القاضي. و ترأس بوستة هذه المذابح حسب ما قيل لتصفية حسابات إنتقامية لديه. و سرعان ما تحصل على جزاء عادل حيث قتله أحد جنودنا بالخطأ ظانا أنه واحد من القبايل.

أصبح من الواضح أننا أخطأنا في طريقة التخطيط لحملة بجاية. لم يتم الدفاع عن الحصون من طرف عدو يريد البقاء سيدا و لكن كل قطعة من الجدران و كل منزل ذو مخرجين أصبحت حصونا له. نعترف بأننا لم نكن نملك القوة الكافية. فتم إنزال الفرق البحرية و تم طلب إغاثة من الجزائر.

في الأول من أكتوبر، تقرر احتلال قبة سيدي تواتي. بعد أن انتبه الجنرال إلى أن احتلال منزل باب فوكة لم يحقق هدفه المنشود، فقام بالاستيلاء على منزل آخر رأى أن موقعه أكثر فائدة، و لكن الضابط الذي أرسله إلى هناك عاد إلى الموقع الأول خوفا من الانقطاع السريع للاتصالات. فأعاد الجنرال إرساله إلى الموقع الثاني. و في كل ذاك الذهاب و الإياب تم أخيرا اكتشاف باب فوكة الذي تم سده. أصيب الجنرال في ذاك اليوم في قدمه، لكن إصابته لم تكن خطيرة إلى حد يجبره على تسليم القيادة التي احتفظ بها.

في ليلة الثاني إلى الثالث، تم احتلال موقع المعسكر المطوق العلوي من طرف أربعة فرق بقيادة السيد دولامورسيار. تم انشاء حصن و تم نقل القطع الموجهة إلى حصن موسى. بهذا الأسلوب سيطرنا على أعالي المدينة و مدخل الوادي.

في اليوم الثالث، تلقت بعض الفرق أوامر بالهجوم على الموقع المسمى الأبراج غرب المدينة و تمكنوا من احتلاله بسهولة. ثم تلقوا أوامر باحتلال موقع الأطلال و تم ذلك أيضا. و في الأخير تلقوا أوامر بالهجوم على قوراية و هناك تحطمت عزيمتهم القوية أمام صعوبات لم يكن في مقدورهم تجاوزها، فتراجعوا إلى المدينة، و هناك لم يفكر الجنرال تريزيل لبضعة أيام سوى في استعادة القوى. تم بناء حصن في الرابع من أكتوبر ببوعلي شرق المدينة. و في نفس اليوم وصلت إلى بجاية امدادات من الجزائر متمثلة في كتيبة الصف 4 و سريتين من الفيلق الثاني لافريقيا. و بهذا أصبح الجنرال أكثر قوة للتمكن من الاستحواذ على قوراية و لم يتم ذلك سوى في اليوم الثاني عشر من أكتوبر، قبل طلوع الشمس بدأ الهجوم

بثلاث دعامات. إستولت اليمنى و الوسطى على قمة قوراية دون إيجاد أية مقاومة كبيرة. أما الدعامة اليسرى المكونة من كتيبة الصف الرابعة بقيادة رئيس الكتيبة جنتل Gentil، فقد هاجمت معسكر القبايل الواقع بمطحنة الداموس. هذا الموقع تم احتلاله و طرد العدو إلى قرية دار ناصر المتواجدة في الأسفل. و دعمت هذا التحرك سرايا بحرية قام السيد دوبارسوفال de Parseval بإنزالهم داخل المرفأ، و ساهموا في عمليات ذلك اليوم مساهمة بطولية. عادت القوات إلى المدينة مع حلول الليل. تم احتلال مركز قوراية بشكل جيد و بدأ قسم الهندسة بتحصينه على الفور. العقيد لومارسيي Lemercier مدير التحصينات قام بعمل جميل.

ظل القبايل المستاؤون من انتصاراتنا في 12 أكتوبر دون رد فعل لعدة أيام. و في الـ25 من نفس الشهر و أثناء إنشاء معقل سالم لحماية الإتصالات مع قوراية، تقدموا للهجوم و تم صدهم متكبدين خسائر. و في الـ 26، تم إنشاء المعقل الروماني. و في أول نوفمبر، عاد العدو إلى مهاجمة مراكزنا. أوغل بعض أفراد الكتيبة الثانية لإفريقيا في التقدم منساقين وراء فرط الحماس، فقتلوا. و في الـ4، حدث هجوم جديد، لكن القوات بقت داخل جهتها نظرا لانتهاء الأشغال بالمراكز الخارجية و اكتفت بصد العدو بضربات المدافع.

انتهت مهمة الجنرال تريزيل، و أصبحت بجاية تحت سلطتنا، لكنها خاوية من سكانها و مدمرة من الحرب و عدم مراعاة الحفاظ على المنازل

التي كان جنودنا يهدمونها للحصول على الخشب. لقد احتلينا مجموعة من الأطلال، و زدنا عدد أعدائنا ورفعنا من صعوبات و نفقات الاحتلال لابد من القول، أن هذه هي نتائج حملة بجاية. من وجهة نظر عسكرية لم يكن لها من شيء مميز بل على العكس تم ارتكاب أخطاء كبيرة، كما أن جنرال الحملة اعتمد الاستقلالية عن القائد العام بطريقة قطيعة لن تزيد سوى من صعوبات مركزه المؤقت.

استلم السيد دوفيفي Duvivier في 7 نوفمبر القيادة العليا ببجاية، وتركت له كتيبة الصف 59 و الكتيبة الرابعة و الثانية من مشاة إفريقيا الخفيفة و سرية من الفوج الثالث لقناصة إفريقيا الذي كان في عنابة. عاد الجنرال تريزيل إلى الجزائر أين بقي مريضا لمدة طويلة جراء التهاب إصابته.

عم الهدوء كل ضواحي عنابة بعد الحملة ضد ولاد عطية. و كان العرب يأتون من كل صوب نحو سوق المدينة و كل الانطباعات التي أخذوها كانت لصالح الجنرال أوزير Uzer و السلطة الفرنسية. هذا الجنرال كان محبوبا و مرهوبا في نفس الوقت من طرف الأهالي الذين كانوا يعلمون أنه مهما عاملهم بلطف، فإنه لا يترك أية إهانة أو ظلم دون عقاب.

و في شهر سبتمبر 1833 جاءته فرصة لتطبيق جديد و مدهش لنظامه. فقد سمحت قبيلة مرداس لنفسها، و هي قبيلة كبيرة العدد تعيش على الضفة اليمنى للمفرق شرق عنابة، بنهب و سلب بعض التجار المتوجهين إلى المدينة، فطالبهم الجنرال بإصلاح الاساءة التي ارتكبوها. و حتى أنه

أرسل لهم عشرة من مواطنيهم الذين كانوا يستخدمون بعنابة كرهائن لكي لا يجبرونه على استخدام السلاح، و لكن المرداس أظهروا أذنا صماء لتحذيراته، و بدا من الواضح أنهم كانوا يضعون الحق العادل ضدهم، مما جعل الرهائن العشرة يعودون إلى عنابة لكي لا يشاركوا في ظلم قبيلتهم. أجبر الجنرال أوزير User على استخدام القوة و سار بقوات عسكرية ضد المرداس. و عند وصوله إلى الضفة اليسرى للمفرق أمام قبة سيدي عبد العزيز، أرسل لهم تحذيرات جديدة لم تكن أكثر فعالية من الأولى. و بما أنه استنفذ كل وسائل التسوية، أطلق العنان لكل فرسانه على الضفة الأخرى فتمكنوا في لمح البصر من سحق الخارجين عن القانون و سلبهم ماشيتهم. فجاؤوا يطلبون المغفرة جاثين على ركبهم، و منحهم إياها الجنرال بعد توبيخ شديد. و قد أفرط ربما في كرمه عندما لم يبق من الغنائم المتروعة لهم سوى ما كان ضروريا لتعويض التجار الذين تعرضوا للنهب. و منذ تلك الفترة، أظهر المرداس، الذي كان جزء صغير منهم يعيش منذ البداية تحت هيمنتنا، ولاءً لفرنسا.

أثناء هذه الحملة، حظي النقيب موريسMorris من الفوج الثالث لقناصة إفريقيا، بنزال فردي جد نادر في هذا البلد، ضد عربي ذو قامة عملاقة. فبعد أن فقد المتخاصمان سلاحهما في التصادم تخليا عن الخيول، تصارعا جسمانيا و تدحرجا على التراب. دامت المصارعة دقائق عديدة و لم يتمكن أي أحد من الطرفين إطلاق النار على تلك المجموعة المحتدة فيما

بينها خشية إصابة محارب من صفه. و أخيرا مرور أحد الضباط مسدسا لموريس الذي بدأ يتقهقر و أفرغه على عدوه الذي مات بين يديه. هذا المشهد التاريخي و الجدير بالذكر كان من النزالات الفردية النادرة و الأكثر تميزا التي حدثت بإفريقيا.

السرية التي ينتمي اليها موريس الباسل انطلقت على الفور إلى بجاية، أين وجد أكثر من مناسبة للتميز.

الكتاب 12

بداية الاضطرابات بين عرب المتيجة - اغتيال قائد بني خليل - جولة لجنة إفريقيا في السهل وفي البليدة - حملة ضد بني زكري الحجوطيين - حملة الخشنة - إقامة السيد فرجي Vergé بين العرب - المفاوضات مع توقرت - حملة حافظ حاج Havey Hadj - الحملة الثانية ضد الحجوطيين -استسلام الحجوطيين -الأمن العام - انتشار الأوروبيون في المتيجة- معسكر الدويرة - سوق بوفاريك - الاعتراف بمزارع البيلك - مكائد و ضعف - المفاوضات مع التيطري - ثورة شرشال.

أثناء تواجد السيد دو لامورسيار ببجاية، كُلِف الضابط جايار Gaillard من طرف الجنرال فوارول Voirol بتسيير أمور العرب. و لكن لأسباب صحية و شخصية، تم استدعاءه إلى فرنسا. فقام القائد العام بتعيين السيد دو لابورت De laporte المعين حديثا رئيسا للمترجمين، على رأس مكتب العرب. كان السيد دولا بورت - الذي كان سابقا نائبا للقنصل الفرنسي بطنجة - رجلا مستقيما و من المستشرقين المميزين و لكن تقدم سنه منعه من النشاط الذي كان يتطلبه منصبه الجديد.

كنا قد وصلنا إلى هناك عند تنصيبه. و في هذه الفترة من السنة يكون العرب قد أتموا حصاد زرعهم و لم يبدؤوا بعد بزرع البذور، فيكونون أكثر استسلاما لأهوائهم المغامرة و روح التجوال. فكان من الضروري على الرجل المكلف بتسيير أمورهم التواجد بينهم، لكن لسوء الحظ تعذر ذلك على السيد

دو لابورت، لأنه لم يكن بإمكانه امتطاء الحصان. تعرض عمال جسور بوفاريك، أواخر شهر أوت إلى الهجوم و التفريق. و اتُهم ناس بوعقاب وحُوش بن خليل بهذا العمل العدواني، الذين وجهوا بدورهم الاتهام إلى الحجوطيين الذين كانوا كبش فداء منطقة السهل.

تزامنت هذه الضجة مع وصول اللجنة الإفريقية إلى الجزائر، والتي ستتطرق لمهامها و أعمالها في أحد الكتب المقبلة. كان ممكنا إصلاح الضرر إذا ما استطعنا معاقبة المذنبين. و لكن لسوء الحظ، كان من المستحيل التعرف عليهم لأنه لم يتم إرشادنا بشكل جيد، حتى لا نقترف ظلما في حق أولئك الذين قيل عنهم للقائد العام أنهم الفاعلون دون دليل يذكر.

قامت الكتيبة الرابعة لجند المشاة بعملية استطلاع في مكان الاعتداء ولكنها لم تتوصل إلى أية معلومة. حتى أن الكولونيل المشرف على الكتيبة لم يكن على علم بما كان يجري في البلاد منذ أربعة أشهر، فقام بإطلاق النار على أفراد من الصبايحية[1] **Spahis**، الذين كانوا ممتطين خيولهم للالتحاق به و قام بتوقيف آخرين، هؤلاء لم يستوعبوا هذا التصرف وكيفية مكافأتهم على تفانيهم في أداء مهامهم. إنها ليست المرة الوحيدة التي تتزعزع فيها علاقاتنا مع "العرب" بسبب جهل و قسوة بعض القادة العسكريين.

نظرا لعدم جدوى الاستطلاع الذي قامت به الفرقة الرابعة للمشاة، كان من الضروري وضع فرق عسكرية ببوفاريك و استئناف الأشغال تحت حماية أسلحتنا، لأنه لا يجب أبدا التراجع أمام العرب أو التنازل لهم

---

(1) فيلق من الفرسان العرب تابع للجيش الفرنسي.

في أي شيء»، خاصة في كل ما هو جيد و شرعي و يساهم في الحفاظ على السيادة. عوضا عن ذلك قام الجنرال فوارول بتوقيف المشروع المنطلق، مخافة عدم استقرار الأوضاع، وهي مخاوف أثبتت التجربة منذ ذاك الوقت أن لا أساس لها من الصحة، فكبرت وقاحة أعدائنا و قلة عزيمة مساندينا، و بدا أن ذلك الموقف الضعيف ستظهر ثماره قريبا. و فعلا تعرض أنشط و أخلص الخادمين " قائد بني خليل بوزيد بن شعاوة " إلى السّب و التهديد ومن ثَمَ اغتياله في التاسع من سبتمبر في سوق بوفاريك. لقد مات شجاعا حيث لم يخضع أو يذعن للمنشقين وأسمعهم حتى آخر نفس له صوت قائد ساخط. و عشية وفاته، تم تحذير "بوزيد" من الخطر الذي كان يحيط به و لم تتمكن دموع أفراد عائلته من ثنيه عن الذهاب إلى السوق. و لكن بمجرد وصوله إلى بوفاريك، حاصره أعداءه و وجهوا له اللوم بسبب صداقته مع المسيحيين. فأجابهم بقوة و حزم أنه كان صديق القانون و النظام و أن المسيحيين لم يكونوا فوضويين و قتلة مثلهم و أنه يتشرف بخدمتهم لأنه بذلك يخدم العدالة و الصواب. بعد ذلك انسحبوا و تركوه لمشاغله. عمت هدنة بسيطة إلى أن همّ بالانصراف، و لكن أعداءه وجّهوا له اللوم من جديد و رد القايد بنفس الإجابات و القوة. إن الأشخاص الذين قصوا علي هذه القصة المؤسفة و التي جرت بحضورهم، لا يظنون بأن أعداء بوزيد كانوا يريدون قتله، و كان من الممكن أن ينجو بنفسه لو توقف عن إثارة غضبهم بكلماته. لكن القائد الشجاع كان من أولئك

الرجال الأقوياء الذين لا ينحنون إذا كان لديهم الحق. كان "بوزيد" محافظا على رباطة جأشه و محاطا بنفس الرجال. عندما تمكن من الوصول إلى أقرب جسر من السوق و تجاوزه، و نظرا لاستمرار مطاردتهم و مضايقتهم له، بدأ بتهديدهم من غضب الفرنسيين. حينها بدأ إطلاق النار، من طلقة واحدة إلى اثني عشر طلقة أوقعته من حصانه. مات المسكين وقد وضع أمانة ثأره بين أيدي من أخلص لهم. تقاسم القتلة الغنائم و ابتعدوا. سكان بوفاريك لم يكن لهم ضلع في هذه الجريمة النكراء التي كانت صنيع من يسميهم العرب بالكبار و بعض من قطاع الطرق. فالذين أقدموا على إطلاق الضربات الأولى أصبحوا الآن معروفين. سيدي علال مبارك الذي عرف لفترة طويلة أن له يد في عملية اغتيال بوزيد، تأكد فيما بعد أنه لم يفعل ما في وسعه من أجل منع ذلك، إما خوفا أو نظرا لشعوره بالضعف.

بينما كانت أرض بوفاريك تروى بدم الشجاع بوزيد، كانت جماعة من لجنة إفريقيا وعلى رأسها الفريق بوني Bonnet رئيس اللجنة، تتأهب لزيارة البليدة بمرافقة فيلق من أربعة آلاف (4000) جندي تحت قيادة الجنرال فوارول شخصيا. في طريقهم، وصل خبر مقتل القايد إلى القائد العام و أعلم أعضاء اللجنة بذلك. كان ذلك في اليوم الموالي لحدوث الجريمة. لم يتم استكمال الاستطلاع و مروا على بوفاريك دون الالتقاء بأحد، و ليس بعيدا عن البليدة التقوا بوفد ترجى من الفرنسيين عدم دخول المدينة. ظن

كل من السادة الجنرال بوني و الجنرال فوارول أنه من الواجب النزول عند رغبة هذا الوفد. فتوقف عدد كبير من اللجنة الموفدة نتيجة لذلك، و تقدم الجنرال فوارول و السيد بيسكتوري Piscatory أحد أعضاء اللجنة، مرفقين ببعض الضباط و بعض الفرسان و تمكنوا من الولوج إلى المدينة، و لم يمكثوا إلا بضع دقائق، و عادوا أدراجهم إلى باقي أفراد الجيش الذي أخذ طريق العودة إلى الجزائر على الفور، لأن السادة أعضاء اللجنة لم يريدوا رؤية المزيد. و بمجرد بداية طريقنا دخل الشتات من العرب في مناوشات و إطلاق نار مع مؤخرة الجيش و لكن من مسافة بعيدة، وجنودنا حسب عاداتهم السيئة أطلقوا رصاصا أكثر من اللازم. فمن جهة كان من المفروض أن ينحصر دور الجنرال بوني في الملاحظة و من جهة أخرى قام المارشال الذي كان يتحكم في القوات تحت أوامر الجنرال فوارول بحركات متناقضة و دون هدف، بما أنه لم يكن هناك عدو بمعنى الكلمة و لكن ذلك أدى إلى بلبلة و اضطراب في وسط القوات، مما أعطى انطباعا لبعض المدنيين الذين كانوا برفقتنا أنهم يشهدون معركة ما، وظنوا أننا منهزمون نظرا لمواصلتنا لحركة التراجع. هؤلاء الأفراد كانوا من أوروبيي الجزائر جاؤوا لزيارة البليدة و حاولوا إقناع أنفسهم و إقناع الآخرين بأنهم تعرضوا لخطر كبير و مثلوا تلك المناوشات كحادثة مهمة، و هو الشكل الذي وصفته الجرائد.

الجزء الأول

في الواقع لم يكن هناك في أية لحظة إخلال بالنظام في حركة التراجع أو بالأحرى العودة من جولة كنا نعرف من الأول أنها ستكون قصيرة. لم يصب رصاص العدو قافلتنا، حيث لم يتلق إلاّ اثنان من الرماة رضوضا خفيفة. كان السيد بوني يستمتع بالسيطرة على حركات السلاح، في حين كان الجيش يرى في تمضية الوقت هذا، عمل متعب له و وسيلة لاسترجاع هؤلاء الشيوخ لذكريات شبابهم.

في هذه الظروف، لم يكن الجنرال فوارول معفى من التوبيخ. لقد نسي تماما أنه كان من المفروض أن يكون المتحكم الوحيد و أن كل المسؤولية تقع على عاتقه.

فمن وجهة نظر عسكرية، هذه الحادثة التي أسالت حبر الجرائد وقتها لم تكن إلاّ بسيطة، و لكن من ناحية سياسية أخذت منحى خطيرا. فعند مرور الجيش ببوفاريك في طريقه إلى البليدة و جدوا جثتي صاحب مطعم و زوجته مقتولين من طرف عرب في مؤخرة القافلة عند توجهها نحو البليدة[1]. هذه الجريمة المزدوجة وتلك المقترفة بالأمس ضد القايد المسكين، كان يجب معاقبة مرتكبيها على الفور و بطريقة مثل. قرى مدينة بوفاريك، أين كان يتواجد

---

(1) نشر في الجرائد أن ولدين، هما ابني المقتولين تم شنقهما في أشجار بوفاريك من طرف العرب و أن كل الجيش شاهد ذلك. إنه من المؤكد أن الخبر قد انتشر في الصفوف، بشكل جعل السكان قلقين بهذا الشأن و ظنوا أنهم رؤوهم. لقد اعترف لي أحد السكان أنه رآهم لعدة دقائق. لقد كان خطأ بصريا، صعب تفسيره على كل حال، لكن من الثابت أنه خطأ. لم يكن لصاحب المطعم المقتال سوى فتاة في العاشرة من العمر، فرت إلى الغابة أثناء ذبح والديها، ثم احتضانها من طرف نساء عربيات فمن يأخذها إلى الجزائر العاصمة بعد أيام قليلة. تم تبني

المذنبون بكل تأكيد، لم تفرغ من كل سكانها. اتضح لنا ذلك من قبل أوروبيين اثنين تمّ توقيفهما و اقتيادهما من طرف العرب في إحدى القرى، و لم يتم إطلاق سراحهما إلاّ بعدما تأكدوا أن مدفعيتنا كانت ستطلق النار على منازلهم، أين يتجمع نساءهم و أطفالهم و كل ما يملكون.

كان من الضروري الاستقرار ببوفاريك و محاصرة القرى و الاستحواذ على القطعان و القيام بتحقيق ميداني فعاّل و مثمر، لأنه إذا لاحظ الموالون لبوزيد إصرارنا على التحرك بحزم، كانوا سيفيدوننا بالمعلومات اللازمة لتحقيق العدالة. و حتى غير المبالين أنفسهم كانوا سيسلموننا المذنبين خوفا من أن يتم الخلط بينهم. كان أفراد الجيش يتوقعون شيئا مماثلا لأنه من غير اللائق التغاضي عن تلك الأعمال الإجرامية. كان الجيش ينوي التوقف ببوفاريك ولكن ازداد غضبه عندما واصل طريقه نحو "الدويرة" حيث وصلوا هناك مساءا منهكين من التعب، غير راضين لا عن يومهم و لا مسؤوليهم. لقد انطلقوا صباحا بمؤونة يومين، لذلك كان من الممكن المكوث "ببوفاريك" دون خشية من نقص المؤونة لذلك اليوم و اليوم الذي يليه، و من غير المعقول أن يكون المكان يخلو تماما من الموارد، بالإضافة إلى أن معسكر الدويرة لم يكن يبعد إلا بثلاث أميال[1].

هذه الهيمة المسكينة من طرف السيد سابيتي Sapity مدير مستشفى كاراتين Caratine.

(1) وحدة قياس قديمة تساوي تقريبا 4 كيلومترات.

كانت القيادة جد منقسمة في اليوم العاشر من سبتمبر، مما أدى إلى أن تكون المسؤولية المعنوية كذلك، بالرغم من أن المسؤولية القانونية لا تقع إلا على عاتق الجنرال فوارول. فالسيد بوني يتحمل جزءا كبيرا من المسؤولية. في هذه الأثناء قامت اللجنة بإصدار بيان في الجزائر العاصمة بحجة توضيح أنواع و أشكال التظلمات الممكن توجيهها إليها، و أعلمت الناس أنها لا تساهم في العمل السياسي أو العسكري و بأنها تكتفي بمتابعتهم و الحكم عليهم.

كانت هذه الوثيقة موجهة بالطبع ضد الجنرال. لقد كانت بدون أهمية و كذلك مجحفة لأنها في الوقت الذي كان كل شيء ينذر باندلاع حرب، لم تكن تهدف إلا لفقدان الجنود الثقة بالقائد العام. كان باستطاعة فوارول معاقبة الذين وقعوا على الوثيقة، و لم يكن فقط باستطاعته بل من واجبه إنهاء مهام مسؤول الشرطة الذي سمح بنشر ذلك البيان الذي يعتبر داخل الجيش مثيرا للشقاق. في حين أنه ما كان يسمى في تلك الفترة مستعمرة الجزائر لم تكن عبارة سوى عن جيش.

و كما ذكرنا آنفا، لم تكن الفرق راضية عن جولة العاشر من سبتمبر، و لكن بسبب تقديرها للجنرال كان لديها إحساس كبير بالعدالة، لم تلق عليه أي لوم آخر، الذي تفرضه علينا حيادته المؤرخ بتوجيهه إليه رغم العاطفة التي تكنها لشخصه. وقع جلّ سخطهم و استيائهم على الذين أرادوا إنكار

فضله، و في ذهنهم، كان يمكن للأمور أن تأخذ مجرى آخر دون هذا الجنرال. لم يتأخر الجنرال فوارول، في الإعلان أن الثأر قد تم تأجيله فقط و سيتم معاقبة كل الجرائم التي تم اقترافها.

قام مكتب العرب - خلال الأسابيع القليلة التي مضت و الممتدة بين نشر الإعلان والحملة المعلن عنها- بالبحث عن التفاصيل المتعلقة بمقتل بوزيد و لم يتمكن من الحصول إلا على معلومات غير كاملة. كان يبدو أن الحجوطيين هم المذنبون الفعليون تم توجيه الحملة نحوهم بقيادة الجنرال تروبريون T'robriand.

لقد انطلق من العاصمة بقوات حاشدة، جاوز مزفران إلى مقطع خيرة و اخترق معاقل الحجوطيين الذين فروا عند اقترابه. تم حرق قراهم ولكن لم يتمكنوا من اللحاق بهم.

في طريق العودة، حدثت مناوشات من بعيد و لم يتضرر أحد. عاد جيش الحملة عبر طريق الغرب و بوفاريك بعد أن بقي خمس أو ستة أيام في الريف.

أثبتت هذه الحملة عدم نسياننا لحادثة اغتيال بوزيد، ولكن نظرا لأنها ضربت خطأ أناسا لا يمتون بأية صلة لعملية الاغتيال، فلقد أثارت غضب الحجوطيين الذين لم يتوقفوا منذ ذلك الحين عن مهاجمة أراضي بني خليل.

حاول الجنرال فوارول تقديم دليل آخر على أن خدمات بوزيد لا يمكن تجاهلها، فعيّن في شهر نوفمبر ابنه علال كقايد لبني خليل. هذا الأخير لم يكن بنفس نشاط و قوة أبيه و لكنه كان مخلصا. ومن أجل مساندته في هذا المنصب الحساس، تم تعيين بعد مدة، الرقيب فارجي Vergé من كتيبة الزواف[1] les Zouaves و هو شاب يتمتع بالشجاعة والمؤهلات، ويعرف جيدا لغة و أعراف العرب. اتبع بن بوزيد قدوته و استلهم من خطاباته فتشجع بعض الشيء و ذهب لرئاسة سوق بوفاريك. قام السكان بتعويضه عن قيمة الأشياء التي كانت بحوزة أبيه عند اغتياله. و منذ ذلك، بدا و كأن الجريمة قد نسيت. طلب الجنرال فوارول من الحكومة دفع منحة بسيطة بهائة ستيم 100 écus لعائلة بن شعاوة الذي لم يكن غنيا و لكنه ضحى بدمه من أجلنا. و نأسف لرفض هذا الطلب خاصة إذا علمنا أنه كان يدفع لبن عمر منحة تقدر بـ6000 فرنك و أخرى مماثلة منحت لبن زكري.

بن زكري هذا، لاجئ غامض من مدينة قسنطينة، و الذي بسبب ظروف كانت لصالحه، بدا للقائد العام، وكأنه شخص مهم قد يكون مفيد. إنه رجل مقدام قد يذهب إلى النار، و في ماعدا ذلك تافه. تم تعيينه بالبرج البحري مع بعض من المشاة و الفرسان من السكان الأصليين، و خلال سنة انحصرت مهامه في دور رقيب، فكان هو و أتباعه فقط يكلفوننا 18،000 فرنك. و هذا مبالغ فيه نظرا لقلة أهمية البرج البحري.

---

(1) فرقة مشاة من الجيش الافريقي التابع للجيش الفرنسي.

بقي السيد فرجي لمدة طويلة بقرب ابن بوزيد. و كان من الممكن التوصل إلى نتائج أهم من التي ذكرناها لو تم الاعتماد على بعض الفرسان المحنكين و لكن تم التخلي عن الصبايحية Spahis المهمين منذ شهر أكتوبر. ظننا أنهم غير مفيدين لأننا لم نحسن استغلالهم، الفكر الذي أدى إلى إنشائهم لم يعد نفسه الذي يسير أمور العرب. السيد فارجي لم يضع حدا لخرجاته إلى مواطن بني خليل بل تعداها إلى جبال الخشنة أين تم استقباله جيدا.

قاد الكولونيل شومبورغ Schaumburg قائد الفيلق الأول لقناصي إفريقيا في وقت سابق، حملة على تلك العروش بسبب أن أحد سكانها قد اختطف– بمحض إرادتها – عشيقة أحد فرسان بني زكري. ووفقا لسوء التقدير الذي يميزنا قمنا بمعاقبة تلك الهفوة الغرامية بدقة متفانية أكثر من جريمة مقتل المخلص بوزيد. استحوذ الكولونيل شومبورغ على الكثير من قطعان الماشية مما جعل القائد العام في حيرة مما سيفعل بها. وبعدما علم بتفاصيل عملية اختطاف العشيقة استغل فرصة الاستقبال اللطيف الذي حظي به الرقيب فرجي في المقاطعة، لكي يرد لهم نقدا قيمة الماشية كعربون رضا و دون أن يبدو متراجعا عما بدر من السلطة. تحمل السيد فرجي و لمدة أشهر، ثقل الجزء النشط من الشؤون العربية الذي انغمس فيه بقدر كبير من الشجاعة الواضحة و بعقل سليم و نير. بعد أن تبين أن الابن الصغير لبوزيد لم يكن يتمتع

بالمميزات المؤهلة للقيادة، فكر الجنرال فوارول في تعيين السيد فرجي قائدا لبني خليل. وقد ترك حرية اتخاذ القرار المناسب في ذلك للوزير. و لكن نظرا للنتائج التي كان من الممكن أن تؤثر على كل المستويات الهيكلية، لم ير ضرورة لتجسيد تلك الفكرة، في ظل المرحلة الانتقالية التي يتواجد بها. و قد تم لاحقا ترقية الرقيب فرجي إلى رتبة ملازم ثاني لمكافأته على خدماته.

شهدنا خلال شهر جانفي من سنة 1834، وصول مبعوث من أمير تقورت إلى الجزائر العاصمة- و لقد قمنا بالتعريف بموقع و ثروات هذه المنطقة التي تعتبر مركز ولاية مزدهر بالفعل عند تطرقنا إلى مقاطعة قسنطينة- أمير تقورت هو واحد من أعداء أحمد باي قسنطينة. في الأشهر الأولى لسنة 1833 زحف ببعض الكتائب عليه فهزمها الباي بفضل مدفعيته. و قد احتفظ الأمير بحقد عميق، وتبعا لنصائح فرحات بن سعيد قرر أن يتحالف مع فرنسا. الهدف من هذا التحالف الإطاحة بأحمد و تنصيب أمير تقورت بدلا عنه و الذي بدوره سيعترف بالسيادة الفرنسية و يدفع لها جزية.

وصل مبعوث تقورت إلى الجزائر عبر تونس، و عند تقدمه إلى مقر قنصل فرنسا هناك كان في حالة رثة وفسر ذلك بتعرضه للسلب من طرف قبائل أعالي القيروان، و بما أنه كان يحمل وسائل اعتماد مضبوطة قام القنصل بإرساله إلى الجزائر في أول باخرة متجهة إلى

هناك. كان العرض الذي تقدم به باسم سيده سخيا إلى درجة مبالغة، لذلك تم الرد عليه بطريقة تسمح بمواصلة المفاوضات. عاد السفير راضيا من الاستقبال الذي حظي به، و جاء مرة أخرى تحت إدارة الكونت ديرلون d'Erlon. و بما أن قضية قسنطينة لازلت عالقة و أن الدبلوماسية العربية مثل غيرها يجب أن تمتع بالسرية، سيفهم القارئ أنه لا يجب أن أدخل في تفاصيل المفاوضات التي لم تصل بعد إلى نهايتها و التي من خلالها قد تقرر الحكومة فرض سيطرتنا على مقاطعة الشرق.

لم يكن أمير تقورت العدو الوحيد لأحمد باي الذي كان على علاقة بالجنرال فوارول بهدف الإطاحة بهذا الرجل الشرس والحاذق والرهيب. ففرحات بن سعيد المستقر بالصحراء بولاد جلال، والحاج عبد السلام شيخ مرجيانة و الذي بفضل موقعه شكّل ممر البيبان أو أبواب الحديد و الحزناوي شيخ الحنانشة قبيلة قوية تحد مقاطعة تونس، و أبو الضياف بن حمد شيخ القبيلة القوية لبدو ولاد ماضي الذي كانوا يقطنون سهل حمزة، و أخيرا بن قاسم شيخ سكيكدة أو سطورا، هذه النقطة الجد مهمة من الساحل. كل هؤلاء توجهوا بعرض تعاونهم للقائد العام في حال القيام بحملة ضد قسنطينة. و ترجوه من أجل دعم جهودهم بتموينهم ببعض المدفعية و وضع

خطط للهجوم، و مساعدتهم بخبرة البعض من ضباطنا. حتى وإن خفضنا إلى النصف فرضية نجاح هذا النوع من عروض الصداقة و إن أعطينا للمزاج العربي مساحة أكبر. و أن نقر أيضا أن البعض من الاقتراحات التي عرضت علينا كانت بهدف استكشاف نوايانا، فإن الذين تابعوا هذه المفاوضات و الذين قاموا بممقارنة الأقوال و الأفعال، و سوابق الحالة الراهنة و تحليل المصالح المتوفرة، اتضح جليا أنه لدينا فرصة كبيرة خلال عام 1834 لفرض سيطرتنا على مقاطعة قسنطينة .

لم تستطع الحكومة التورط في شراكة من هذه الأهمية دون أن يكون لديها إلا تعهدات فقط، بل كانت تريد ضمانات و كان لها الحق في ذلك، هذه الضمانات كانت معروضة و لكنه استلزم أن تكون من عناصر قرار التدخل.

أما القائد العام بالطبع لم يكن باستطاعته إعطاء كل الأطراف مهلة – دون تسليمهم شيئا في المقابل- ليس احتمالات مداولات مجلس الوزراء و لكن قرارا و نصا يتوقف تطبيقه على الضمانات نفسها. و بالفعل هذه الضمانات لم تكن سوى: تسليم الأسرى، معدات الماشية و الأغذية و أخيرا إيداعات الأموال[1]. و لكي تكون المساعي ذات معنى يجب أن تضع كل من تعنيه في وضعية عدائية ضد أحمد و أتباعه. كانت الحرب ستنطلق مباشرة و بذلك

(1) عرضت عليه.

كان يجب عدم تأخير مساعدات فرنسا مهما كانت نوعيتها أو حجمها.

كان هناك حلقة مفرغة في تلك المفاوضات المنطلقة أفقدتها معناها. اضطر الجنرال فوارول استخدام مراوغات مع الذين كانوا متسرعين لختم الصفقة و الذين قد يبدؤون بالتشكيك بقوة فرنسا أو على الأقل في نيتها بالاستقرار في إفريقيا.

كل شيء كان هادئا بضواحي العاصمة خلال شتاء 1833- 1834 باستثناء الحجوطيين الذين لم يتوقفوا عن القيام بعمليات نهب متواصلة ضد سكان بني خليل و خاصة على حساب سكان الساحل الذين اعتبروهم أتباعنا المباشرين. هؤلاء وجدوا أنفسهم دون دفاع منذ أن تم رفع معسكر الدويرة نظرا لقسوة موسم الأمطار و لافتقاره للمباني. كنا نظن أن بعض رسائل التهديد و الوعيد ستكفي لإيقاف عمليات النهب و السلب، لكنها لم تأت بأية نتيجة. في منتصف شهر جانفي تقرر الانطلاق نحو مزرعة حوش الحاج أين قيل أنه يتجمع فيها قطاع الطرق الأكثر عزما. تم تشكيل ركيزة بقيادة دولا مورسيار و متكونة من أربع 4 فرق من الزواف و من مئات الأحصنة، انطلقت ليلة العشرين لهذه المزرعة التي تبعد بـ 14 ميلا[1]. كان يجب على فرقة مشاة أن تدعم الفرسان الذين يقودهم مساعد معسكر الجنرال فوارول. لكن هذا الضابط لا يزال محتفظا بأفكار الحرب النهجية قليلة الاستخدام في هذا البلد. اضطر هذا الضابط إلى أن يترك

(1) أي 65 كلم تقريبا حسب وحدة القياس القديمة.

كان يجب عدم تأخير مساعدات فرنسا مهما كانت نوعيتها أو حجمها.

كان هناك حلقة مفرغة في تلك المفاوضات المنطلقة أفقدتها معناها. اضطر الجنرال فوارول استخدام مراوغات مع الذين كانوا متسرعين لختم الصفقة و الذين قد يبدؤون بالتشكيك بقوة فرنسا أو على الأقل في نيتها بالاستقرار في إفريقيا.

كل شيء كان هادئا بضواحي العاصمة خلال شتاء 1833- 1834 باستثناء الحجوطيين الذين لم يتوقفوا عن القيام بعمليات نهب متواصلة ضد سكان بني خليل و خاصة على حساب سكان الساحل الذين اعتبروهم أتباعنا المباشرين. هؤلاء وجدوا أنفسهم دون دفاع منذ أن تم رفع معسكر الدويرة نظرا لقسوة موسم الأمطار و لافتقاره للمباني. كنا نظن أن بعض رسائل التهديد و الوعيد ستكفي لإيقاف عمليات النهب و السلب، لكنها لم تأت بأية نتيجة. في منتصف شهر جانفي تقرر الانطلاق نحو مزرعة حوش الحاج أين قيل أنه يتجمع فيها قطاع الطرق الأكثر عزما. تم تشكيل ركيزة بقيادة دولا مورسيار و متكونة من أربع 4 فرق من الزواف و من مئات الأحصنة، انطلقت ليلة العشرين لهذه المزرعة التي تبعد بـ 14 ميلا[1]. كان يجب على فرقة مشاة أن تدعم الفرسان الذين يقودهم مساعد معسكر الجنرال فوارول. لكن هذا الضابط لا يزال محتفظا بأفكار الحرب المنهجية قليلة الاستخدام في هذا البلد. اضطر هذا الضابط إلى أن يترك

(1) أي 65 كلم تقريبا حسب وحدة القياس القديمة.

جزءا من جيشه عند أحد المستنقعات الصعبة المرور، و لم يستخدم في حركة تنقله العجلة اللازمة، فلم يصل إلا في الصباح و لم يتمكن من الإمساك باللصوص الذين تفطنوا لمقدمه و تمكنوا من الفرار، و لم يتبق في حوش الحاج سوى النساء و الأطفال الذين لم يتم إيذاءهم. وفي طريق العودة من المزرعة أين أخذنا أسلحة و بعض الإبل، تعرضت الفرقة لهجوم من الحجوطيين، لكنها استطاعت العودة دون التعرض لخسائر في الرجال، فقط جرح بعض الخيول.

هذه الحملة الصغيرة، حتى و لم تحقق هدفها المسطر جعلت الحجوطيين على الأقل و لبعض الوقت أكثر احتراسا و طالبوا أكثر من مرة بالهدنة التي اشترطنا دوما لتحقيقها إعادة الماشية المسلوبة من بني خليل، و لكنهم لم يذعنوا أبدا. فاستغلينا حاجة هؤلاء إلى تأسيس هيكلة إدارية للمنطقة، فقمنا بتقسيمها إلى مقاطعات و على رأس كل واحدة تم تعيين شيخ و تم توسيع هذه الإجراءات على كل من الخشنة و بني موسى. كان الهدف إحياء فكرة النظام الضائعة منذ أربعة أعوام. كان القياد بحاجة لفرض سلطتهم لموظفين أدنى منهم. كان الجنرال فوارول ينوي أن يمنح القياد والمشايخ معاشا و يمدهم شخصيا ببعض الفرسان الأشداء من أجل تبني خطة الموقف السياسي الذي وضعناه تحت أعين القارئ في القسم الثاني من المجلد السابق. تم رفض طلب تخصيص منحة للقياد المعتمد على قرار

رسمي من الجنرال كلوزيل **Clauzel**، من طرف الوزير. و فيما يخص تشكيل قوات عمومية في المواطن تم صد الفكرة لأنها غير حكيمة دون أن يتنازل فخامته بشرح ما يجعلها كذلك. و الشيء الوحيد الذي وافق عليه للقياد والمشايخ المعينين حديثا هو السماح بامتلاك بندقيات و تم فتح قرض خاص لهذا الشأن.

رغم رفض الوزير لم يتم إيقاف التنظيم الذي شرع العمل به، فتحصل القياد و جزء كبير من المشايخ على راتب. و فيما يلي تفصيل كيف تم ذلك: تم إنشاء – حسب المرسوم الصادر في 17 نوفمبر 1831 و بالرجوع إلى نص القرار الرسمي الصادر في 5 أوت 1833 – قسم كبير من الصبايحية الذين يعتبرون في خدمة دائمة مما يشكل رصيدا بـ 80 فرنك في الشهر لكل رجل. و تم تسجيل أسماء القياد و المشايخ في ملفات. كل الحسابات المجمعة تم توزيعها بالطريقة التالية : 80 فرنك للقايد، 60 للشيخ و 30 للفارس البسيط و الذي تبين أن عددهم أكثر من المسجلين بالملفات. كان الجميع راضيا بهذا الترتيب والذي لم نر منه غير النتائج. إذا لم يكن هناك راتب للقياد و المشايخ كان سيوجد واحدا للصبايحية. فبمجرد تغيير في الأسماء تحصلنا على ما كان يمكننا الحصول عليه بتحكيم العقل. فيما عدا ذلك، على الرغم من رفض الوزير لاعتماد خطة العمل المقترحة، كان بوده أن يقوم أحد بعمل الشرطة في البلاد، بما أنه سمح بتشكيل الصبايحية. تم

تحقيق الهدف و لكنه كان سيصبح أحسن لو أعطينا امتدادا أكبر للإجراءات، و لكننا لم نرد تخطي بعض الحدود على أرضية صلبة من الجانب المعنوي و السياسي و لكنها خطيرة من الجانب الإداري. في سنة 1834 لم تتعد المصاريف لهذا المشروع 3،000 فرنك للشهر بالجزائر العاصمة و عادة لا تصل 2،000 فرنك. بعنابة أين يوجد منذ وقت طويل الصبايحية منظمين حسب مرسوم 17 نوفمبر 1831 تفوق 15،000 فرنك.

بعد دفع مستحقات القياد و المشايخ في المقاطعات المهمة بالنسبة لنا و تمكنهم من استخدام بعض الفرسان المدفوع أجورهم أيضا، بدأ إحساسهم بالارتباط التام بقضيتنا و قاموا بأداء واجبهم بنشاط أكبر. ألقوا القبض على المجرمين و كانوا سببا في دخول البوليس للبلاد. تم احتلال معسكر الدويرة ثانية وسط شهر ماي، نهائيا[1] و بصفة دائمة واستعاد الحجوطيون نشاطهم، قرر القائد العام إنهاء الأمر معهم. بما أن ناس بني خليل و بني موسى وافقوا الانضمام إلينا، تلقى قيادهم الأمر بالتواجد في ليلة 17 ماي بجسر بوفاريك مع أكبر عدد ممكن من الأفراد. توجه الجنرال برو Bro نحو نفس النقطة بـ 2000 رجل من المشاة و الفرسان و بعض المدافع. كان العرب ملتزمين بالموعد، و في صبيحة الثامن عشر اخترقنا أراضي الحجوطيين، مسبوقين بـ 600 فرد تابعين لنا بالبرنوس. توجه جيش

---

(1) هذا المعسكر تم وضعه في منطقة دون ماء، و تم تطويره بطريقة مبالغة مما جعل الخدمات فيه متعبة. هذا ما فعلته، بطريقة ليست جيدة، الهندسة العسكرية في إفريقيا.

الحملة إلى غابة كورازا Koraza المتواجدة بين واجر وبورومي أين علمنا أن الأعداء قد قادوا قطيعهم. وصلنا هناك مساء، و تحصلنا على غنائم مهمة تركناها للتابعين لنا كتعويض عن الخسائر التي تكبدوها منذ أشهر. الحجوطيون الذين اعترفوا منذ البداية بعدم جدوى المقاومة لم يفكروا حتى في المواجهة. بعض القبايل وسكان شنوة المتواجدين بمساكنهم أطلقوا بعض العيارات على أفرادنا عند فرارهم.تقدم إبن سيدي علال، و هو مرابط، للتفاوض على السلام باسم الحجوطيين، و بما أنه لم يلتزم بتسليم رهائن ولا إعادة الماشية المسروقة، أكمل الجنرال برو هجومه. و في الغد، عندما كان يهمّ بتمشيط غابة كورازا، تقدم فارس إلى مقدمة الجيش طالبا التشاور. تكلم معه السيد فرجي و السيد بيليسيPellissier – المعين حديثا بمكتب العرب –. قال باسم مواطنيه أنه إذا ما أردنا منحهم السلام فإنهم يتعهدون بتعويض بني خليل، بشرط أن تنقص الماشية المسلوبة بالأمس من هؤلاء المطلوب منهم إرجاعها و مرابط القليعة سيكون حكما في المسألة.و تعهد كذلك بأن الحجوطيين سيقبلون بتعيين قايد يترأسهم من طرف القائد العام، هذا الأخير الذي قد عيّن آنفا "قويدر بن ربيحة" لهذا المنصب. نقلت الاقتراحات إلى الجنرال برو. هذا الأخير أراد أن يرى المبعوث شخصيا، و بما أنه تردد في العودة ذهب السيد فرجي إلى الحجوطيين من أجل

تحفيز ثقته. وبقي هناك طيلة فترة المحاضرة التي جمعت الجنرال بالمفاوضين العرب. هذا الاجتماع كان دون نتيجة. لأن الجنرال أراد رهائن و الحجوطيين قالوا أنه نظرا لحالة الفوضى التي يتواجد فيها مواطنوه لا يمكنه فعل ذلك، لأنه وكما هو معلوم ليس لديهم قايد لتعيينهم و لا أحد سيتقدم تطوعا، لهذا السبب استأنفت العمليات الهجومية. تم تمشيط غابات كورازا بكل امتدادها وتحصل الموالون لنا على غنائم كثيرة فاقت قيمة تعويضات خسائرهم. تم حرق بعض القرى كما حاولوا حرق المحاصيل الزراعية و لكن لحسن الحظ كانت لا تزال خضراء فلم تشتعل.

في اليوم الموالي، تقدم مفاوض آخر ليس للتحدث عن السلام بل أحسن من ذلك، عن الاستسلام. اعترف الحجوطيون بقويدر بن ربيحة و تعهدوا بتحرير كل طرق الغرب. ولم تعد مسألة الرهائن واردة. تم الاتفاق على أن ما تم أخذه من جانب و من الآخر يكفي ومن الواجب نسيان الماضي. عاد جيش الجنرال برو إلى الجزائر، أطلقت عشرات العيارات على مؤخرة الجيش من طرف سكان حجوط المنعزلين والذين كانوا يجهلون ما يحدث مع القبيلة، ولكنهم بمجرد أن تم إبلاغهم بذلك انسحبوا و أرسلوا شخصا للاعتذار.

إن هذه الحملة هي الأولى التي تنتهي بمفاوضات مستمرة مع المنهزمين و التي كان مساعدينا فيها عربا و استعمال الغنائم كان استخداما مطابقا للسياسة الحكيمة التي تبناها الجنرال فوارول منذ البداية أوضح ذلك أن العدالة وحدها هي من كانت تدفعه لرفع السلاح . هذه الحقيقة الملموسة

من الجميع زادت من مساندينا.

أياما بعد عودة جيش الحملة إلى معسكره، تم تنظيم حفل كبير في البليدة، حضره كل من الحجوطيين و بني خليل لتقوية روابط السلام بينهما من خلال كل المعاملات المكرسة في الدين و العرف. لذلك قام القائد العام بإطلاق سراح سيدي محمد، أشهر مرابطي القليعة المسجون بالجزائر منذ معركة بوفاريك لدى الدوق دو روفيقو ومن حينها عمّ هدوء شامل كل السهل. ولتوقع الاضطرابات المحتمل حدوثها في مواطن بني خليل، أراد القائد العام تعيين مندوب لفترة، يتمتع بصلاحيات تفوق صلاحيات القايد. فتم اختيار الباي السابق للتيطري "بن عمر" الذي استقر بحوش كلاجي قرب الدويرة.

اعتبر الجنرال فوارول أن لا شيء يكفي لتعميم السلام بين العرب و لكنه كان يجب تعويدهم على رؤيتنا كأصدقاء بينهم. فقام بإرسال ضباط تابعين لمكتب العرب، دوريا إلى نقاط مختلفة من السهل من أجل معاينة وضعية البلاد، الاستماع إلى الشكاوى و دراسة حاجيات السكان. توجه مدير مكتب العرب و السيد إليجروAllégro و هو شاب تونسي يتمتع بالشجاعة والذكاء، إلى سوق بوفاريك، لأول مرة منذ ظهور سيدي محمد بعد القبض عليه. كان قويدر بن ربيحة موجودا مع عدد كبير من الحجوطيين، هؤلاء السادة عرضوا عليه التوجه إلى الجزائر التي لم تطأها قدماه منذ ثلاث سنوات. عند ذلك ردد

الجزء الأول

الحجوطيون إسم "مسعود" الذي قطع رأسه في عهد دوق دوروفيقو. فأخذ السيد أليجرو الكلمة ليقترح البقاء بينهم حين يذهب قويدر إلى الجزائر. فلقي كلامه استحسانا. استقبل قويدر بحفاوة من طرف القائد العام الذي كان معجبا بحكمته و وقاره و أسلوبه في الكلام. بقي لعدة أيام بالجزائر ثم تم نقله من طرف رئيس مكتب العرب إلى مقطع خيرة أين تواجد مرابط القليعة و خمسين من الحجوطيين. لقي السيد أليجرو أحسن احتفال من مضيفيه.

هكذا أصبحت الثقة متبادلة بين الطرفين و كل شيء بدا ممكنا. و الآمال المبنية – بحسبي أنا – للاستفادة من خدمة العرب للدفاع و النمو المادي للبلاد أدى بالقائد العام لإجراءات مستقبلية تم التخلي عنها في الأوقات التي تكرر فيها تقهقر العزائم و أقول أنها طبيعية عندما نعمل على دراسة عناصر جد صعبة مثل هذه الشعوب.

تم تفويض حراسة الحصون إلى السكان الفحص و تم تجميع قبائل العريب البدو المتفرقين في قبائل مختلفة من المتيجة في مزرعة للبيلك براسوطة Rassoutha والتي تبعد بثماني كلم عن الحراش لتشكيل مستوطنة عسكرية. سطر الجنرال فوارول مشروع هذا التجمع في صيف 1833، لكن تطبيقه لبن زكري و الذي فشل تماما في ذلك.

إن العريب، كما تم التطرق إليه في المذكرة الإحصائية للجزء السابق، هم عرب أصولهم من الصحراء. جاءوا للاستقرار في سهول حمزة أين

تم طردهم من طرف أولاد ماضي منذ بضع سنوات. الكثير منهم لجا إلى المتيجة. و بما أنهم لم يجدوا وسائل شرعية لمعيشتهم، أصبحوا في اغلبهم يمتهنون قطع الطرق و بشكل عام أصبح تواجدهم بشكل كارثة حقيقية. و بتجميعهم في نقطة واحدة و إعطائهم أراضي لزراعتها عل عاتق المصلحة العسكرية، تمكنا من وضع عناصر نظام لهؤلاء المتشردين الخطرين. تم ذلك في شهر جوان 1834 وسمح للبدو بالزراعة لحسابهم في الأراضي الشاسعة لراسوطة، و بشكل أقل مراعي حدود الحاميز و تم تموينهم بالمحاريث و سلفة عل شكل بذور. كان مشروع الجنرال فوارول يتمثل في إدخال طرقنا الزراعية شيئا فشيئا و جعلهم قبيلة مثلى بفضل الرفاهية التي تحظى بها فتعطي للآخرين الدليل على تميز طريقة عملنا و سلاسة قوانيننا. تم تعيين بن زكري قايد للعريب تحت إشراف مكتب العرب، تعهدوا من جهتهم بحمل السلاح كلما تطلبته حالة الدفاع المشترك و إقامة الحراسة بالبرج البحري و الحراش والقيام بدور الشرطة في هذا الجزء من السهل بواسطة إقامة دوريات بانتظام.

الى غاية الآن، قاموا بالالتزام بعهودهم مما جعلنا نهلل لذلك، و لكن من أجل التخلص من ماضيهم كان من الواجب العفو عن كل أعمال النهب الماضية و منع كل متابعة للأعمال السابقة لهم.

رغم أن استقرار البدو براسوطة لم يحصل على التوسع المرجو والمسطر حسب وجهة نظر الجنرال فوارول، إلا أنه يعتبر من بين الأعمال المميزة لإدارته. بينما بعض الأشخاص ذوي الأفكار الضيقة تمكنوا لفترة من التشكيك في قناعته من حسن هذا الإجراء. هؤلاء الأشخاص لم يفهموا كيف يستطيع الطموح من جعل أناس من لصوص العرب أشخاصا مستقيمين. إنه لمن المؤكد أنه بالنظر إلى ما يحدث في أوروبا فإن التغير في الإتجاه يتقبله العقل بسهولة أكبر.

نظرا لتوطد السلام و الثقة أكثر فأكثر، أعلن في قرار رسمي أنه من الممكن للأوروبيين زيارة هذه المروج للترفيه أو للأعمال دون مخاوف وأنه بالرغم من ذلك يجب عليهم التقدم إلى مكتب العرب الذي سيمدهم برسائل تزكية لمشايخ الأقاليم الذين سيمدونهم بدورهم بمرشدين مسلحين. هذا الإجراء رحب به الأوروبيون و العرب. قام الكثيرون منهم بالتجول في السهول في كل الاتجاهات، و قادت سيارات فرنسيين حتى سفوح الأطلس أحجار الرحى لمُرابط كان بصدد بناء مطحنة.

قام ناس من مواطن الخشنة بعملية سرقة، أدت بالدرك للتوغل بعيدا لإيقاف المذنبين. و أخيرا أراد النائب العام لملك الجزائر التنسيق في السهل، فقام بعملية اعتقال بنفسه في موطن بني موسى.

فاق كل ما توصلنا إليه منذ تعميم السلام مع الحجوطيين كل

التوقعات، ففكرنا في إقحام بعض الأوروبيين في الأسواق العربية. نتيجة لذلك، قضى رئيس مكتب العرب ليلته في الدويرة يوم 22 جوان ليتقدم في اليوم الموالي إلى سوق بوفاريك مع الكثير من المدنيين. ولكن هذه الخطوة لم ترق لبن عمر الذي كان يتطلع إلى منصب الآغا، الذي لقبه به أتباعه بشكل مسبق. كان يعاني من رؤية التأثير المباشر للفرنسيين على العرب، لذلك كتب للقائد العام بأنه يعرف بطريقة مؤكدة، أن الأوربيين الذين يذهبون إلى الأسواق معرضون إلى خطر كبير. و تبعا لهذا التقرير الخاطئ، أرسل الجنرال إلغاءا للقرار، تلقى ردا عليه من طرف رئيس مكتب العرب الذي ذكر فيه معلومات إيجابية عن الأجواء السائدة و عن النوايا السيئة لبن عمر.

كان محاطا منذ الرابعة صباحا بأكثر من 100 فارس عربي خرجوا لملاقاته و لكنه انصاع لأمر الجنرال و عوض ذهابه إلى السوق توجه إلى مزرعة قائد بني موسى أين قضى ليلته. خلال السهرة، جاء قايد بني خليل وثلاثين فارسا ليخبروه بانتظارهم له مطولا بيوفاريك و حين تقدم لهم بن عمر، تم استقباله ببرودة. وهو الذي ظن أن العرب سيعجبون به بعد الرسالة التي وجهها إلى الفرنسيين و لكنهم ردوا عليه بأنه كان مخطئا لأنه بما أن المسلمين مرحب بهم في أسواق المسيحيين فلم لا يحدث العكس و هذه النتيجة المنطقية أحبطت بن عمر. و لكن لسوء الحظ، أولئك العرب

الذين استسلموا لفكرة رؤيتنا وسطهم، بعد أن رأوا ترددنا وكذلك عند أهم أعواننا ميولا عدائيا للنظام الذي نحن بصدد تبنيه، استعادوا الأمل في إبعادنا من جديد. هؤلاء المعارضين كانوا عامة من كبار القبائل الذين كان من مصلحتهم أن لا نكون شهودا على بعض المضايقات التي كانوا يحملونها لأفراد شعبهم. لذلك في الاثنين التالي و بعد تأكد القائد العام من بهتان تقارير بن عمر، توجه رئيس مكتب العرب إلى سوق بوفاريك مع بعض الأوروبيين[1] الذين تم استقبالهم بشكل جيد. دام هذا لفترة.

أظن أن القارئ الذي وصل إلى هذا الجزء من كتابي قد تعرف بما يكفي على العرب لكي لا يتعجب من الأهمية التي أوليها بسبب التردد الحر والودي لأسواقهم من طرف بعض الأوربيين.

خلال شهر جويلية الجاري، بدأ الجنرال فوارول بعملية جد فعالة و هي الاعتراف بمزارع البيلك في مواطن بني خليل و بني موسى و الخشنة. إنها عملية أسفرت عن تحديد موضع 19 ملكية رائعة كلها قادرة على العطاء الكبير. قام بهذه العملية كل من السيد بيرنادي Bernadet مراقب الأملاك و رئيس مكتب العرب. موقع كل مزرعة تم تدوينها و الإشارة إليها على خريطة للبلاد من طرف المسؤول الطوبوغرافي. تمّ كراء أغلب

(1) هؤلاء الأوروبيون من المدنيين كانوا: السادة فيلار Vialar، تولناك Tolnac، قريلي Grillet، مونتاني Montagne و كوردوني Cordonnier. أذكر أسماءهم بكل سرور خاصة السيد فيلار Vialar الذي كان مثقفا و مستوطنا نشيطا و الذي كانت أفكاره و أفعاله ترمي لمصلحة البلاد.

هذه المزارع بأسعار زهيدة للعرب الذين كانوا يسكنوها سلفا دون وثائق رسمية، لمدة عام فقط من أجل تثبيت ملكيتنا لها في أعين الجميع. ومن المهم الإشارة، إلى أن سبعا من المزارع التسعة عشر تشغل منطقة تمتد على نحو 20 كيلومترا وسط المتيجة، و الذي يتمركز في وسطهم سوق بوفاريك و هي من الشرق إلى الغرب: حوش بن صالح، حوش بن خليل، حوش بوعاقب، حوش شاوش، حوش سوغالي، حوش بولاجورة، حوش ميمون و الذي لا يملك البيلك إلاّ نصفها. تتميز تربتها بخصوبة مميزة، مخضرة و غنية بالماء و كلها ذات حدائق شاسعة و مزارع برتقال ممتازة. و هل تضاهي تلك المحلات و الأكشاك بالجزائر العاصمة و الممتلكات الوحيدة التي تطرق إليها من سبقوني للإحصائيات الجزائرية هذه الخيرات؟ وبالتأكيد، هذه هي طريقة تأسيس مستوطنات عسكرية و زراعية جميلة و هذا دون التعدي على مصالح السكان المحليين، لأن هذه الأراضي ملك للحكومة فلا يستحسن انتزاعها كما حدث في القبة و دالي إبراهيم.

غير أنه من بين هذه التسع عشرة مزرعة، يملك البيلك حسب علمي، أربعة منها في حجوط وثلاث (03) بسوماتا وواحدة شاسعة ذات بناء حجري ضخم في يسّر. لا سبيل للشك بوجود أخرى في نقاط مختلفة من المقاطعة سنكتشفها مع توسعنا داخل البلاد و يوجد قدر كبير للبيلك بوهران، من جهتي، رأيت الكثير منها كان عبد القادر يستغلها لفائدة ملكيته. كان الأتراك

يستفيدون كثيرا من هذه الأملاك التي كان لهم فيها قطعان الماشية وكل ما يحتاجه الاستغلال الزراعي على العموم. كان للحكومة على كل واحد من هذه الأملاك وكيلا أو مسيرا. هذه الوظائف كانت أشرف و أحسن منح تقاعد للضباط القدامى.

طوال هذه العملية التي قمنا بذكرها و ما نتج عنه من استبعاد لرئيس مكتب العرب؛ استطاع بن عمر الذي كان لا يزال يشغل منصبه في مواطن بني خليل أن يقيل ابن بوزيد بن شعاوة الذي كان غير مؤهل، وعيّن بدله العربي بن إبراهيم شيخ بني صالح، الذي كان قايد فيما سبق. لقد كان رجلا ذو جدارة و لكنه كان يتمتع باستقلالية زائدة كان من اللازم أن تبعده من وظيفته. أول عمل لإدارته كان إعلانه للفرنسيين الذين توجهوا إلى السوق لأول مرة يرأسه فيها، أن تواجدهم ببوفاريك يعتبر إعلانا للحرب و أنه لا يمكنهم التواجد هنا إلاّ كأعداء. دعم مئات الفرسان كلام القايد، باستعراض أقل ما يمكن القول عنه، أنه كان عدائيا. يومين بعد ذلك كتب إلى القائد العام يشرح له أنه كان مجبرا على الظهور متبنيا شعور الأغلبية من أجل إنقاذ الفرنسيين و تفادي سوء أكبر. كان العربي يقصد بالأغلبية مشاعر بعض الكبار و نفسه. و في الباقي أضاف أنه إن أردنا أن نواصل التردد على سوق بوفاريك كل إثنين يجب إرسال فرق لتعمل عمل الشرطة. هذا ما كان يجب فعله و لكننا فضلنا التراجع خوفا

من نفور بعض العرب المدعومة بمكائد بن عمر. قام هذا الأخير، عندما ثم بصفة غير مباشرة طرد الفرنسيين من السوق، بلقاء سري مع العربي في الجسر الأول في بوفاريك. بعد عامين متتاليين، أفقدتنا الشتائم التي لم ننتقم منها كل ما توصلنا له بواسطة السياسة السلسة و المقنعة والتي أصبحت عاجزة منذ اللحظة التي أصبحت فيها بحاجة إلى استخدام القوة.

فما حدث في بوفاريك و صبرنا على تحمله قد أضحك أعداء تفوقنا، و أوقفوا بكل بساطة بحركتهم اللافتة للانتباه الذين كانوا من المتوقع انضمامهم إلينا. تحجج قويدر بن ربيحة من أجل عدم القدوم إلى الجزائر. كان من المحتمل كذلك استئناف الحجوطيين لقطع طرق الغرب لولا تدخل المرابط محمد و تهديده لهم بلعنتهم و انسحابه إلى الجزائر إذا ما تسوا بأي شيء قد يقضي على السلام السائد. لم يتجرأ الأوروبيون على التوسع داخل البلاد، مما يعني حدوث تقهقر محسوس. و أخيرا فهم القائد العام نوايا بن عمر الخفية، الذي اختفى من جديد عن الأنظار و لم يظهر، و لكن الأسوأ كان قد حدث.

و بطلب من السكان عيّن القائد العام، العربي بن قاية قايد الخشنة، بدلا عن الموكلي، الذي تزامنت وفاته مع هذه الأحداث.

---

(1) السيد جنتي دو بيسي Genty de Bussy الرجل العاقل الذي تميز في بعض الأحيان بالحكمة حينما لا تضيعه أهواءه، سمى هذه الواقعة واترلو Waterloo السياسة العربية و كان على حق.

مر شهر أوت و سبتمبر دون أحداث مهمة في ضواحي الجزائر. وبالتيطري، بذلت بعض الجهود للخروج من حالة الفوضى، و لكم ما حدث في تلك القاطعة. بالمدية، تمكن مناصرو أحمد باي ذوي الأغلبية المشكلة من الكراغلة من الاعتراف بحاكم للمدية و هو محمد الخاجي الذي كان برتبة ملازم لدى باي قسنطينة. أما الموالون لفرنسا فقد كانوا محبطين فلم يعترضوا علانية على هذا التنصيب و لكنهم أعلموا القائد العام كما كان هذا عدائيا لنا و تأملوا في أن نوضح و بشكل نهائي إذا ما كانت فرنسا تريد أو لا تريد المدية. و لفهم هذا الكلام، من الضروري معرفة أن بن عمر، الباي السابق للتيطرى، الذي وضعناه نحن، لا يزال لديه علاقات مع أصدقائه القدامى في المدية و الذي راعى توجيه أفكارهم نحو أن الفرنسيين لم يتخلوا عن فكرة فرض سلطتهم و سلطتهم على هذه المدينة. في الشتاء السابق، كانت قد بدأت فعلا بعض المفاوضات في هذا الاتجاه و لكنها لم تتوصل الى شيء و لا يمكنها ذلك بالعودة الى الأسباب التي شرحناها بالتطرق الى قضية قسنطينة.

أياما قليلة بعد وصول رسالة ناس المدية، تلقى الجنرال فوارول رسالتين من ضاحيتين تابعتين للإقليم. الأولى من العبابدة و الدوائر من البرواقية، الذين يئسوا من إقحامهم مع القبائل الأخرى فلم يعودوا يتمتعون بالمزايا التي تستحقها مرتبتهم عند البايات السابقين، فعرضوا خدماتهم على فرنسا في حالة ما إذا أرادت تشكيل حكومة من اختيارها

في التيطري. الرسالة الثانية كانت من عودة المختاري، شيخ أولاد مختار الذي اشتكى من حاكم المدية محمد الخاجي و قدم عروضا في نفس السياق بالاشتراك مع : جلول شيخ اولاد عيد، بن شارة شيخ النبان و هو نسيب الباي السابق بو مزراق، و جديد شيخ اولاد شايب، كل قبيلة مستقلة من وسط إقليم التيطري. تم الرد عليهم بضرورة الاتفاق للخروج باقتراحات يمكن استعمالها كقاعدة لمفاوضات رسمية. كان التفكير يصب من جانبنا في أن بن عودة المختاري هو من كان يجب تنصيبه بايا على التيطري، لأنه الشخص الذي يملك القدرة الفعلية مسبقا و هو من سيلاقي أقل الصعوبات. لكن هذا الرجل يعتبر أن هذا اللقب سيخلق غيرة عند الذين لا يزالون في نفس رتبته و أن ذلك سيجبره على الاستقرار في المدية أين كان يخشى وجود أعداء. و ربما أيضا عدم رغبته في الالتزام معنا ما جعله يقرر في اجتماع أقيم في بني بوعقاب و اقترح فيه على القائد العام" بن عمر" بايا، حيث أنه قد سبق له أن تعين في هذا المنصب من طرف الجنرال كلوزيل Clauzel مما لا يستدعي إثارة للغيرة، و أن هذا الباي سيستقر بالمدية و أنه لا يمكنه التكلف بالأمور الخارجية إلا بواسطة بن عودة الذي سيكون آغا تابعا له. و نتج عن هذا الاجتماع كذلك أن قبائل الدواير و العبابدة يستأنفون وظائفهم السابقة و أنه سيتم تسليم رهائن لضمان هذه الاتفاقية. و أخيرا، توسلنا للفرنسيين أن يأتوا

إلى مزرعة حوش شاوش بموزاية، من أجل استلام الرهائن و البقاء في هذا الموقع أثناء مجرى الثورة، بغية الفرض على المنشقين عن طريق هذا العرض.

لم تتم أبدًا مفاوضات مع الأقاليم بهذا الشكل الواضح، و لكن كان يجب توفر المال لإعطائه لبن عمر الذي بطبيعة الحال لن يخوض في هذا الأمر دون مبلغ مقدم. يُعرَف أن العرب يدفعون العشور و لكن كبداية، كان من اللازم تسليم دفعة أولى و هذا ما لم يكن متوفرا. بن عمر أراد اقتراض 30،000 فرنك باستعمال بعض الإمضاءات التي لم تكن تسمح بها تشريعاتنا المالية إعطاءها بهذا الشكل. هذا ما أعاق إتمام هذا الأمر. نحن على أبواب شهر سبتمبر، كان الكونت درلون d'Erlon الذي عين محافظا للممتلكات الفرنسية بشمال إفريقيا، على وشك الوصول و كان من الطبيعي أن يسلمه الجنرال فوارول مقاليد القيادة و أن يترك له استمرارية المفاوضات بالطريقة الملائمة بالنسبة إليه.

سأقوم هنا ببعض الملاحظات الجديدة عن علاقاتنا الدبلوماسية مع العرب، القارئ يمكنه إضافتها إلى تلك التي قدمناها آنفا. التعلق الكبير بهذا النوع من المفاوضات يؤدي غالبا إلى التعرض إلى أوهام، و لكن صدها كليا يسمح بمساوئ أكثر خطورة، وهي خسارة أسباب ظرفية

و مفيدة معروضة بنية طيبة من أجل فك ما هو زائف عن ما هو فعلي. يجب وضع أعوان في الميدان مخلصين، ذوي كفاءة، نيّرين و ماهرين في تغيير الرغبات الضعيفة للعرب في بعض الأحيان إلى قرارات راسخة و إظهار بطريقة واضحة و دقيقة فوائد التحالف معنا. و لكن للحصول على هؤلاء الأعوان و لتمهيد الطريق لهم و وضعهم في مكانة تسمح لهم بالتقدم بجدارة إلى الأقاليم التي سنرسلهم إليهم، يجب توفير الأموال، وفي إفريقيا لم تتوفر لمثل هذه الأشياء[1]. صحيح أننا ندفع للإدارة المدنية التي تكلفنا 500،000 فرنك كمعاشات من أجل تجمع سكاني لا يفوق الـ50،000 فردا، و لكن المصاريف الدبلوماسية يجب أخذها من رصيد بسيط بثلاثين أو أربعين ألف فرنك و الذي يجب أن يغطي حاجيات علاقاتنا مع القبائل الخاضعة. فبقليل من المال كان بإمكاننا تثبيت بالمدية و مليانة حكما تابعة لفرنسا، و تفادي تسلط عبد القادر و الابتعاد عن كل مصاريف تدفعها الدولة للتهجم على هذا الأمير.

(1) في الصف الاول من الاعوان الممكن استخدامهم اذكر السيد فرجي و اليجرو Allegro. هؤلاء لن يقبلوا سوى بالرتب و الأوسمة و لكنهم لا يستطيعون القيام بالدبلوماسية على حسابهم الخاص. معهم ستكون متأكدين من حسن نية العلاقات. و بالنسبة للأعوان أنصاف الدبلوماسيين و أنصاف المفاوضين فيجب فصل الأمور حسب مكانة كل واحد. و لعدم فعل ذلك، تم تظليل الكونت ديرلون d'Erlon من طرف اليهودي دوراند Durand، هذا لا يعني أنه ما كان يجب توظيف هذا الأخير فقد كان رجلا حاذقا. أحمد بو ضربة أيضا ممن يمكن استخدامهم إذا ما تخلى عن كل المكائد التي ستقضي عليه. و السيد بوشناق Busnac إسرائيلي، فرنسي أكثر منه جزائري و هو أكثر واحد من السكان المحليين الذين يمكنه إفادتنا.

و لكن لا يجب استباق الأحداث بل بالعكس يجب العودة بخطواتنا لتعريف القارئ بالأحداث التي عرفتها شرشال صيف 1834.

إستلم قائد هذه المدينة محمد بن عيسى البركاني منصبه من الجنرال كلوزيل Clauzel. كان رجلا عاقلا و له علاقات طيبة معنا و يدعم التجارة بين شرشال و الجزائر، أما بالنسبة لنا لم نهتم به كفاية، لأنه كان هناك شيء نستطيع القيام به في تلك الناحية و جعل العلاقات مكثفة و أكثر ودية. كان للبركاني أعداء رغم تعقله و اعتدال حكومته. هؤلاء كانوا ينتظرون بشغف بعض بذور الاستياء و وجدوا واحدة صيف 1834 :

قام القايد نظرا لاستعجال حاجيات الإدارة و خاصة بالإصلاحات على مستوى الميناء، بفرض ضريبة صغيرة على البواخر المعبأة التي تخرج من هناك و بسرعة انتشرت البلبلة بين الرياس[1] و عمت الفرحة عند أعداء القايد. تم دفع السكان إلى الثورة و لكنهم لم ينصاعوا فغيّر أعداء البركاني من خططهم و نشروا شائعات عن إقالته من طرف قاضي الجزائر و لم ينخدع بهذه الكذبة النكراء إلا القليل، و رأى الفوضويون أن لا وسيلة لديهم من أجل النجاح سوى إجبار عدوهم ببعض الحيل على التخلي بمحض إرادته عن الحكم. لذلك همسوا لبعض الأشخاص بغرض نشر الخبر أن شكاوى خطيرة قد قيدت ضده لدى القائد العام. عندما

(1) قباطنة البحر.

انتشرت هذه الشائعات جيدا و انتهى الوقت الضروري لتحصلنا على إجابة من الجزائر أذاعوا أن الجنرال قرر إرسال باخرة حرب إلى شرشال لإيقاف القايد. بدأ البركاني بالارتباك و في هذه الظروف أرادت الصدفة أن تمر باخرة بخارية كانت تعمل على خط الجزائر - وهران، ظهرت على طول الساحل و أقرب من العادة توحي و كأنها متجهة إلى شرشال و من هذا المنظر لم يشك القايد في حقيقة تأكيدات أعدائه فلاذ بالفرار إلى قبيلة بني مناصر التي ينتمي إليها و هو رئيسها. وجد المشاغبون أنفسهم المتحكمين في المدينة فطالبوا بإزاحة محمد البركاني من منصبه. و خشية من غضب قبيلة بني مناصر أين كان موقَّرا عندهم قاموا بتسمية فرد آخر من هذه العائلة كقايد. هذا الترتيب لم يوقف غضب بني مناصر الذين جاءوا لحصار المدينة. سكان شرشال دافعوا عن أنفسهم و لعدم توفر الذخيرة اللازمة أرسلوا إلى الجنرال فوارول للاعتراف بالقايد الجديد.

لم تلق هذه الإحداث الصدى الايجابي في العاصمة، و رأوا فيها عملية إخضاع لمدينة لم يكن لهم معنا أبدا علاقة من هذا النوع. في المقابل و على العكس، تم طرد القايد الذي اخترناه. تم تموينهم شيئا فشيئا بالذخيرة التي وُعِدُوا بها. كان الجنرال لودوقرو Doguereau، المفتش العام للمعدات، موجودا في ذلك الوقت بالجزائر. و تدخَل في هذه القضية،

لا أدري بأية صفة، ولكن بما أنه كان سيقضي بضعة أيام بوهران، كان متيقنا أنه عند عودته سيتوقف بشرشال من أجل معالجة الأمر كما يراه مناسبا. هذا الضابط العام الذي كان يتوهم أن هذه الأحداث تعتبر ثورة لصالحنا. أخذ من وهران قطعتي مدفع ليقدمهم لحلفائنا الجدد كهدية. و لكن عندما رست السفينة البخارية بمرفأ شرشال، رفضت السلطات الجديدة للمدينة التي جاءت إلى طرف السفينة أن يرسل الضابطين اللذان أراد إرسالهما على الأرض من اجل استطلاع الأمور في المدينة، تغيرت نواياه و تراجع عن فكرة عمله السخي.

بعد وقت قصير،عمّ السلام بين شرشال و بني مناصر المتعبين من انقطاع أعمالهم التجارية. كان البركاني أول من دفعهم شخصيا إلى وقف الأعمال العدائية. مع إبقائه لاتباع له بالبلدة لاستخدامهم و تغليط الفرنسيين. كتب في هذا السياق للجنرال فوارول رسالة متعقلة أين شرح فيها تصرفه و أنه كان بعيدا عن كل ملامة. جاء القاضي و مفتي شرشال اللذان رحلا من البلدة في نفس الوقت معه، شخصيا إلى الجزائر للدفاع عنه. اقترحا بأن قرارا صارما من الجنرال و مجرد عرض يكفيان لإعادة فرض سلطته.

وصلت الأمور إلى هذا الحد عندما وصل الكونت ديرلون d'Erlon للمستوطنة، و حسب التقارير المقدمة له، أصدر على الفور أوامر بإعادة البركاني إلى منصبه بشرشال بكل الوسائل اللازمة. لكن تم دفعه إلى تغيير

قراره و تم الاتفاق على إرسال ضابط إلى عين المكان من أجل معرفة النوايا الفعلية للأهالي. فتم إبلاغ سكان شرشال بذلك و أعلمناهم أن عملية تموينهم بتلك الذخيرة لا يجب أن تؤثر على القضية الأساسية. كان المتحكمون بالمدينة قد غيروا القايد الجديد و عينوا مكانه قايد ثالث عند و صول الضابط[1] المكلف بجس نبض السكان. كانت الأشياء مهيأة بصفة تكون الغالبية المكثفة تشكلت ضد البركاني داخل المدينة. كنا نعلم مسبقا أن الحملات كانت لصالحه و لكنه استسلم عندما اختار أهل المدينة غريمه. كان ذو ثقة زائدة في هذه القضية بحقه الشرعي، فلم يعرف كيفية يجند أتباعه اللذين كان عددهم كبيرا في الأصل و تقلصوا إلى ثلث مجموع الأهالي. أظن أنه كان بإمكاننا استغلال حاجته إلى دعمنا من أجل التمركز بشرشال بوضع بعض الكتيبات بالقصرين، بموافقة بني مناصر. فهذه المدينة ستكون نقطة إنزال مميزة لفرق تستطيع الانطلاق من هناك لأجل التغطية الكاملة لكل غرب إقليم الجزائر و كل الحملات المنطلقة من العاصمة يمكنها التوقف لإعادة التزود بالمؤن.

لقد قمنا – على حساب الأجزاء اللاحقة من هذا الكتاب- بالتطرق إلى الأشياء التي حدثت في حقبة الكونت ديرلون d'Erlon و لكننا أردنا إتمام ما له علاقة بشرشال.

لقد قمنا بتقديم الأعمال السياسية و العسكرية لقيادة الجنرال فوارول

(1) النقيب فورجون Gourgeon، رئيس القسم الطوبوغرافي.

و كل ما حدث تحت قيادته في إقليم الجزائر. في الكتابين التاليين سنتكلم عن أحداث بجاية و وهران، اللتان بقيتا غريبتان عنه و عن دور الأعوان الإدارة المدنية.

رغم كثرة الأخطاء، لا زالت تعتبر إدارة الجنرال فوارول من سمحت بالتقدم في علاقاتنا مع العرب مقارنة مع إدارة الدوق دو روفيقو، أثبتت أنه إن كانت مبالغة في الصرامة أو الضعف فان الثانية هي التي تحقق النتائج الأقل إيذاء لسلطتنا. هذه الحقيقة – التي لا يمكن نكرانها إلا من طرف الذين لم يتبعوا الأحداث – هي مواسية للإنسانية و تشرف الطابع العربي المشوه بطريقة غريبة. و لكن يجب استنتاج أن الطيبة ليست وحدها ما يجب استعماله: عقل، طيبة، قوة و عدالة يجب أن يكونوا أسس سياستنا.

الكتاب 13

الجنرال ديميشال Desmichels بوهران – حملة ضد الغرابة les Grabas – معركة تحت أسوار وهران – احتلال ميناء أرزيو – احتلال مستغانم – حملة طفراوي – لجنة إفريقيا بوهران – الغدر بقدور بأرزيو – حملة تامزورار Temezourar – مراسلات الجنرال ديميشال مع عبد القادر – معركة 6 جانفي – مفاوضات الصلح – معاهدة الصلح مع عبد القادر – حرب عبد القادر ضد الدواير و الزمالة – أتراك تلمسان – طموح عبد القادر في إقليم الجزائر و التيطري – أحداث بجاية.

وصل الجنرال ديميشال Desmichels، خليفة الجنرال بويير Boyer إلى وهران يوم 23 أفريل 1833 أثناء تولي الجنرال أفيزار Avizard الحكم بالنيابة بالجزائر، يعني في ظروف جد ملائمة لإتمام نظام الاستقلالية الذي اعتمده سابقه و الذي تبناه. ما عدا ذلك فلم يقلد الجنرال بويير Boyer إلا في ذلك. لأنه بعد بضعة أيام من وصوله أثبت أن نواياه لم تكن انتظار التعرض لهجومات من العرب في وهران و لكنه مصمم على الذهاب للبحث عنهم في عقر دارهم. فذهب في ليلة 7 إلى 8 ماي بما يقارب 2000 جندي و 4 مدافع للجبال، و توجه نحو قبيلة الغرابة في الجنوب الغربي لوهران. وصل عند بزوغ الفجر إلى وسط بعض مداشر هذه القبيلة و عندما باغتوا العرب على حين غفلة، هؤلاء لم يبدوا أية مقاومة. وقد تم

الجزء الأول

أخذ كمية معتبرة من الماشية، وبعض المساجين و بعض النساء اللواتي تم أخذهن إلى وهران و عوملن بالاحترام اللازم. في الوقت الذي كان الجيش يتأهب إلى الانسحاب تمت مهاجمته من بعض مقاتلي المداشر المجاورة اللذين هبوا لنجدة رفاقهم، و لم يتم إرباكها و لكن العرب تابعوها حتى مشارف وهران أين ولجت بالمساجين و الغنائم التي كسبتها. لقد ساهم لحم الماشية في التموين حيث كانوا يفتقدون للحم الطازج، منذ شهرين.

بعد سمع عبد القادر بالجولة التي قام بها الجنرال الفرنسي، جمع أكبر قدر من الأفراد و تمركز بمكان يسمى "الكرمة" يبعد حوالي 12 كيلومترا عن وهران. أين قمنا منذ ذلك الحين ببناء معسكر ذو خندق. لقد كان برفقة والده سيدي محي الدين، الذي كان -كما عرّفناه سابقا للقارئ- ذو قيمة و مكانة معتبرة عند العرب. و فور إعلام الجنرال ديميشيل بهذا، قرر التحرك ليلا لمباغتة معسكر الأفارقة. فخرج من الميدان في 26 ماي قبل الصباح من أجل تجسيد مشروعه الجريء، و الذي كان من الظاهر أنه سينجح. ولكن الأشخاص الأقل شجاعة أو دعنا نقول الأكثر حذرا قاموا بثنيه عن ذلك. و بما أنه كان جديدا في البلاد كان يظن وجوب الرجوع إلى نصائح الذين يُظهرون معرفتهم الكبيرة بالعرب بما أنهم كانوا يحاربونهم منذ مدة أطول. في الأخير، نتيجة لذلك تخلى عن مهمة كان من الممكن أن توقف التطور الذي بدأ يأخذه عبد القادر و أخذ مكانا في مقدمة الميدان على

طريق الكرمة و كأنه يتقدم لمنازلة الجنرال الإفريقي (الأمير عبد القادر). هذا الأخير اكتفى بإرسال عناصر استطلاع عند طلوع الصباح. فحدث تبادل إطلاق النار. كان الموقع الذي يشغله الفرنسيون تلاً عاليا أمام برج سانت اندريه في الجنوب الشرقي للمدينة، يغطي كل السهل مما يجعله جد مهم و ملائم لإبعاد العدو عن الميدان. لقد درسه الجنرال ديميشيل جيدا ثم قرر أن يضع حصنا هناك. شرعنا على الفور بالأشغال التمهيدية و لمّا انتهت، عاد إلى وهران مع فرقته.

قام في صباح 27 من نفس الشهر بإخراج عشر فرق مشاة و فيلق قناصة و اثنين من المدافع الجبلية من أجل حماية المعقل الذي بدأ المهندسون في بنائه. لم يتأخر المحاربون العرب في الظهور و الدخول في مشادات عنيفة مع هذه الفرق. منذ الطلقات الأولى، نزل الجنرال ديميشيل إلى أرض المعركة أين لاحظ أن جيش العدو يتقدم في ركيزتين نحو الموقع الذي يشغله الفرنسيون، واحدة منها كانت تبحث في الحقيقة الإحاطة بها و الاقتراب من المدينة. على إثر ذلك، أرسل إلى الجنرال سوزات Sauzet - الذي بقي بوهران - أمرا بمده بكل الفرق التي لم تكن ضرورية لحراسة الحصن و هذا ما تم تطبيقه مباشرة. و بمجرد وصول هذا الدعم حتى بدأ الهجوم الذي كان شديدا وقويا، لكن هجمات العرب كانت من دون جدوى ومن السهل قمعها. بدأت إحدى الكتائب باللف يمينا عن الخط الفرنسي ثم

قطع طريقها من طرف فيلق القناصة. دام الاشتباك ساعات طويلة ولم يكلف سوى ثلاثة قتلى وأربعين جريحا من الجانب الفرنسي. تكبد العدو الكثير من نيران أسلحتنا. دفع عبد القادر خلالها بشخصه ككل مرة، لكن اضطر للتنازل بسبب تفوق الأسلحة والعتاد.

خلال المعركة تمّ الإسراع في بناء الحصن، وكان جاهزا قبل حلول الظلام و عاد الجيش إلى وهران بعدما ترك فيه كتيبة تتكوّن من أربعين رجلا، كما انسحب العرب إلى معسكر الكرمة. أثناء الليل، أرسلوا من يستكشف هذا الحصن المرتجل و الذي رأوه يعلو بطريقة ساحرة ولم يجدوا له تفسيرا لاستخداماته. اقترب الذين تم اختيارهم لهذه المهمة، أولا بحذر من السياج الذي كان يحمي الحصن و قاموا بفحصه من كل الجهات، و أخيرا قام أحدهم الأكثر دهاء من الآخرين بتسلقه و تقدم لرؤية ما يحتويه هذا البيت الخشبي أين كان كل شيء صامتا لأن الجنود تلقوا الأوامر بعدم إحداث أي صوت و انتظار أن يكون عدد معين من العرب بين السياج و المعقل من أجل إطلاق النار. و في انتظار الوقت المناسب كانوا كلهم منبطحين على لوائح البناء بشكل لم يمكن للعربي رؤيتهم، و بدأ بالضحك و مناداة رفقائه و لكن في هذه اللحظة، قام أحد الجنود بإطلاق النار عليه فقتله، تبعتها 39 رصاصة أخرى، مما جعل العرب يفرون. بذلك عرفوا دور المعقل.

ألغت الأمطار الغزيرة في الـ28 و 29 كل عملية عسكرية. و في ليلة الـ30 هاجم العرب المعقل بقطعة مدفعية صغيرة لم تتمكن إلاّ من إطلاق ضربة واحدة فقط و هذا الهجوم كان دون نتيجة. في الـ31 رفع الأمير عبد القادر معسكره بالكرمة و أخذ طريق العودة نحو معسكر مقتنعا بعدم جدوى تقدمه نحو وهران.

رغم إنشاء المعقل الذي تحدثنا عنه و الذي أخذ إسم معقل "أورليون" و رغم النتيجة الايجابية لمعركة الـ27 ماي، أكملت بعض الفرق العربية الجولان حول وهران من أجل إبعاد الذين أرادوا جلب بعض المواد الغذائية و كذا القبض على الأفراد العزل. و بعد مقتل جندي من طرف أحدهم في طريق المرسى الكبير الذي يتواجد داخل أراضي قبيلة الدواير، أمر الجنرال ديميشيل، رئيس هذه القبيلة مصطفى بن إسماعيل بتسليمه المذنبين. و لعدم استجابته خرج الجنرال في الـ11 من جوان ببعض من كتيبته بهدف الحصول على ما بدا أنه تم رفضا لأوامره، عسكر في العراء ببريدية التي تعتبر محلا يقام به السوق لمدة يوم بغرب وهران باتجاه تلمسان. عاد في اليوم التالي إلى وهران نظرا لعدم التقائه إلا ببعض الفرسان الذين لم يتبادل معهم سوى بعض العيارات القليلة و هذه الحملة لم تعط أية نتيجة. لم يتم تسليم القتلة و لم تصبح ضواحي وهران آمنة مثل السابق. و لهذا لم يتجاهل الجنرال ديميشيل أي شيء مما كان يظن أنه سيجعله محبوبا و مرهوبا من طرف الأهالي المحليين؛ قام بتسريح الكثيرين ممن كانوا يقبعون

خطط للهجوم، و مساعدتهم بخبرة البعض من ضباطنا. حتى وإن خفضنا إلى النصف فرضية نجاح هذا النوع من عروض الصداقة و إن أعطينا للمزاج العربي مساحة أكبر. و أن نقر أيضا أن البعض من الاقتراحات التي عرضت علينا كانت بهدف استكشاف نوايانا، فإن الذين تابعوا هذه المفاوضات و الذين قاموا بممقارنة الأقوال و الأفعال، و سوابق الحالة الراهنة و تحليل المصالح المتوفرة، اتضح جليا أنه لدينا فرصة كبيرة خلال عام 1834 لفرض سيطرتنا عل مقاطعة قسنطينة .

لم تستطع الحكومة التورط في شراكة من هذه الأهمية دون أن يكون لديها إلا تعهدات فقط، بل كانت تريد ضمانات و كان لها الحق في ذلك، هذه الضمانات كانت معروضة و لكنه استلزم أن تكون من عناصر قرار التدخل.

أما القائد العام بالطبع لم يكن باستطاعه إعطاء كل الأطراف مهلة - دون تسليمهم شيئا في المقابل - ليس احتمالات مداولات مجلس الوزراء و لكن قرارا و نصا يتوقف تطبيقه على الضمانات نفسها. و بالفعل هذه الضمانات لم تكن سوى: تسليم الأسرى، معدات الماشية و الأغذية و أخيرا إيداعات الأموال[1]. و لكي تكون المساعي ذات معنى يجب أن تضع كل من تعنيه في وضعية عدائية ضد أحمد و أتباعه. كانت الحرب ستنطلق مباشرة و بذلك

---

(1) عرضت عليه.

بقيت الكتيبة الفرنسية بالمرسى، والذي نطلق عليه اسم "أرزيو" من الآن فصاعدا، حتى 13 جويلية. هذا المكان وُضع في حالة تأهب للدفاع، فتُرك فيه 300 رجلا و باقي الفرق عادت إلى وهران.

لذلك كان عبد القادر- دون أن ييأس من مغامرته الأخيرة بوهران- يعمل بفعالية جديدة على تجميع كل قوى العرب. لم يكن حكمه معترفا به إلا في محور 15 ميلا من معسكر، فقرر تمديده حتى حدود الإقليم. و في هذا الصدد وبعد أن تأكد من تعاون بني عامر، اتجه إلى تلمسان. هذه المدينة المقسمة إلى جزأين : الأتراك و الكراغلة كانوا يشغلون القلعة المسماة المشور و كل الأحياء التابعة لها و باقي المدينة كان للبرابرة أو الحضر. الأولون كان على رأسهم تركي يدعى بورسالي و الآخرون كانوا يعترفون بسلطة بن نونة رجل ثري، مثقف و جدير بالاحترام. هذين القسمين كانا في حالة نزاع دائم و لكن بما أنه كان عليهم التعايش فالأعمال العدائية كانت قليلة و غير ذات أهمية. هذه الظروف شجعت طموح عبد القادر فسار ببعض الفرق إلى تلمسان وأمر بن نونة بالاعتراف به كأمير، لكن هذا الأخير فضل المقاومة، و نتج عن ذلك معركة صغيرة انهزم فيها بعدما ساهم الأتراك و الكراغلة في خسارته بالهجوم عليه من الخلف أثناء معركته مع عبد القادر. كانت هزيمته كاملة إلى حدّ تخوفه من السقوط في يد عدوه، فانسحب إلى زاوية قريبة من تلمسان و هو ملجأ لا يمكن اقتحامه. و

خرج منها سرا في الليلة الموالية، فارا إلى المغرب للتواجد بالقرب من السلطان عبد الرحمن، الذي كان على علاقة به منذ مدة. عندما تمكن عبد القادر من تلمسان، عامل سكانها بإحسان و لم يتأخر في كسب ثقتهم و حبهم، و عيّن على رأسهم قائدا من بينهم يدعى "سيدي حمادي" الذي لا يملك جدارة و قوة تأثير بن نونة، لكنه كان رجلا مميزا. نظرا للأسلوب الذي اتبعه سكان "مشور" أثناء المعركة التي حدثت تحت أسوار تلمسان، كان يأمل أن يعترفوا بسلطته و لكن لم يحدث ذلك و تعهدوا فقط بالعيش بسلام معه و لم يقبلوا بفتح أبواب القلعة له. و بما أنه لم يكن يملك المعدات الحربية اللازمة لإجبارهم على ذلك، اكتفى بتأكيداتهم للسلم و تفادي الدخول في مواجهة غير ضرورية و عاد أدراجه إلى معسكر.

في الطريق، علم بوفاة والده سيدي محيي الدين و تأثر كثيرا بذلك. فبغض النظر عن تعلقه به فإنه لا ينكر بأنه يستمد جزءً كبيرا من قوته بفضله، نظرا للاحترام الكبير الذي يكنه العرب لأبيه. إنه لمن النادر سواء في إفريقيا أو أوروبا على العموم عدم ربط موت شخصية سياسية بجريمة قتل، فقد انتشرت شائعات بأن محي الدين قد تم تسميمه من طرف عميل من بن نونة، لأنه كان يأمل في القضاء على قوة عبد القادر بضرب مصدر النصيحة و الدعم له، ظنا منه أنه غير قادر على الحكم. إن كان هذا حدث فعليا، ولا شيء يثبته، فقد

قام بن نونة بتقديرات خاطئة، لأن عبد القادر بالرغم من فقدانه للذي وجه خطواته الأولى، أظهر كفاءته لتقلد هذا المنصب الذي كان مقدرا له.

أثناء تواجد الأمير بتلمسان، اتجه الجنرال ديميشيل نحو مستغانم. كانت هذه المدينة مأهولة منذ عام 1830 ببعض المئات من الأتراك العاملين لحسابنا وعلى رأسهم القايد إبراهيم الذي تكلمنا عنه سابقا. هذه الشخصية دخلت في الكثير من المعارك مع القبائل التي تسكن ضواحي مستغانم و التي قامت بمهاجمته في العديد من المرات. لكنه منذ بعض الوقت يعيش في سلام معها. فتحجج أعداءه بذلك لاتهامه ببيع البارود الذي يتحصل عليه من وهران للعرب ، الشيء الذي لم يثبت قط. و لكنه كان له تأثير على الجنرال ديميشيل الذي اعتبره من حينها رجلا خطيرا، مشبوها و لا يمكن الوثوق به و أنه يمكن ترك منصبه لصالح قيادة عبد القادر. تعززت هذه الشكوك برفضه استقبال ضباط فرنسيين و الذي أردنا إرسالهم في فترات مختلفة من أجل فحص المكان، و تحجج لرفضه ذلك بأنه لا يضمن سلامتهم. و لكن الجنرال ديميشيل استنتج بطبيعة الحال أنه كان إما ذو نية سيئة أو أنه لا يملك أية سلطة فعلية في مستغانم. و في كلتا الفرضيتين، يمكن للمدينة الوقوع في أيدي عبد القادر بين الحين و الآخر. نتيجة لذلك اتخذ القرار باحتلالها بواسطة كتيبة فرنسية.

في الـ23 جويلية، إنطلقت السفينة الحربية la Victoire و ست باخرات تجارية من المرسى الكبير هذه الحملة معبأة بـ 1400 رجل من المشاة و مدفعيتين للجبال. لكن حالة البحر السيئة أجبرت هذا الأسطول على الرسو بأرزيو و بقيت هناك ثلاثة أيام كاملة، لتستعيد مسيرتها في يوم 27. و لكن الرياح التي عاكستهم أجبرت الجنرال ديميشيل على الوقوف بمرسى الدجاج (Port aux poulet) عند مصب الهبرة . تم الإنزال دون صعوبات. في الخامسة مساءا توجه جيش الحملة نحو مستغانم و وصل هناك ليلا إلى ساقية سديدية، أين انتظر طلوع الصباح للانطلاق فورا. تقدم أفراد عرب نحو الجانب الأيمن من الركيزة، لكن هجماتهم كانت ضعيفة و لم تبطئ من مسيرتها و لو للحظة. عندما علم السكان بوصول الفرنسيين تخلوا عن بلدتهم مازافران، التي تبعد بضع كيلومترات عن مستغانم و فروا منهكين. و لم نجد سوى امرأة مسنة عمياء، قام جنود -لا يستحقون أن يكونون كذلك- برميها في بئر بعد انتهاكها.

كان القايد إبراهيم قلقا لأنه كان يعلم أن سمعته قد تم تشويهها لدى الجنرال، و بما أن وصوله لم يعلن عنه رسميا فكان متخوفا بأن تنصب له مكيدة، إلا أنه لم يفكر في المقاومة لأنه كان مخلصا لالتزاماته مع الفرنسيين. وبعد أن أرسل أحد ضباطه إلى الجنرال الفرنسي من أجل تأكيد استسلامه، تقدم اليه شخصيا و بهذا دخلت القوات الفرنسية

إلى مستغانم في الـ28 جويلية. أراد قائد البرج الشرقي الأقل جاهزية منه، أن يظهر في وضعية دفاعية، فأرسل له الأمر بفتح الأبواب. و هكذا اضمحلت الشكوك التي حامت حول القايد ابراهيم. و علمنا أن عبد القادر قدم له عروضا جد مغرية ولكنه رفضها بكل عز. ما عدا ذلك، فإن أحسن دليل قدمه لإظهار إخلاصه لنا، كان طريقة تصرفه في الظروف التي تشغلنا، فهو سيد مدينة مغلقة و مدججة بالمدفعية ذات العيار الثقيل و كان بمواجهة 1400 رجل فقط لا يملكون مدفعيات للحصار، فكان بإمكانه وضع الجنرال ديميشيل في موقف حرج، فيغلق الأبواب فقط كان بإمكانه إجبار الفرنسيين على التراجع بسرعة إلى مرسى الدجاج (Port aux poulet) أو إلى أرزيو و التي لن يصلها دون أن يتعرض له فرسان سهل سيرات الذين بدؤوا فعلا بالتجمع.

بعد سيطرة الجنرال ديميشيل على الأبراج ركّز جنوده بمعسكر خارج المدينة، وأخبر السكان أن السلطة الفرنسية ستقوم بحمايتهم وأنهم أحرار إن أرادوا ترك المدينة و أخذ ممتلكاتهم. الكل فضل الاختيار الثاني و في أيام قلائل أصبحت مستغانم خالية تقريبا، و القلة التي بقيت من الأهالي اضطروا إلى التمركز بالمدينة. و بذلك أصبح حي "المطمور" ذو الموقع الاستراتيجي مخصصا للحامية العسكرية.

في اليوم الموالي لوصول الفرنسيين إلى مستغانم جاء العرب للتشويش عليهم. ففي 29 و 30 من هذا الشهر كانت هجماتهم غير ذات أهمية، لكنها يوم31، أصبحت جدية على يمين المعسكر و حدثت يومها مشادات قوية خسر فيها العدو خمسون رجلا. وفي 2 أوت، اليوم الذي عاد فيه عبد القادر من حملته على تلمسان، تقدّم شخصيا إلى أسوار مستغانم بقوة معتبرة. ظن الجنرال ديميشيل حينها أنه من الأحسن رفع المعسكر التحصن في حي المطمور وفي الأبراج. تم تكليف حراسة مستغانم للأتراك. أما الجنرال فقد استقلّ سفينة لافيكتوار التي كانت راسية بالقرب من مستغانم و عاد إلى وهران بنية استغلال ابتعاد عبد القادر للقيام بتمويه في وسط الإقليم. ترك قيادة مستغانم للمقدم ديباراي **Dubarail** الذي وُضع تحت تصرفه منذ فترة قصيرة. لكنه سرعان ما أرسل بعد ذلك الكولونيل فيتز جيمس James-Fitz كقائد عام. أخذ إلى وهران القايد ابراهيم و جزء من الأتراك. دخل هذا الضابط في الحياة الخاصة و لم يخرج منها إلا تحت إدارة الكونت درلون.

هكذا تمّ احتلال مستغانم من طرف القوات الفرنسية التي قادها الجنرال ديميشيل بدون إبلاغ الجنرال فوارول الذي كان يستحق منه على الأقل تقريرا عن الأحداث الجارية و كذلك دون إذن من وزير الحرب. كان هذا الجنرال واثقا من نفسه وهي ميزة معتبرة في الحكم؛ و لكن هذا لم

يته من اللوم. كان احتلال مستغانم في نظر البعض غير ضروريا و يجب الاعتراف بكونه كذلك إلى حد الآن. رغم هذا فإن المدينة كانت ستكون قاعدة لعمليات جد مهمة من أجل التحرك في واد الشلف و هو الاتجاه الوحيد الممكن أخذه للالتفاف حول سلسلة جبال الأطلس. من وجهة نظر زراعية، تسمح أراضي مستغانم و مزغران للاستيطان. إنه بلد رائع ولكنا جعلناه قاحلا و الذي نقوم بسلب خيراته الخضراء الغنية كل يوم. فأينما استقرينا في إفريقيا، يهرب الأفراد و تختفي الأشجار.

في اليوم الموالي لعودته إلى وهران، في 5 أوت، أرسل الجنرال ديميشيل من هذه المدينة إثني عشر إلى ثلاثة عشر مئة رجل من المشاة و الفرسان للهجوم على قبيلة الزمالة و إيذائهم بشكل كبير من أجل ترهيب القبائل الأخرى، و إجبارهم على سحب مقاتليهم الذين أرسلوهم لمساندة عبد القادر في مستغانم خوفا من تلقي نفس المصير. سلمت قيادة هذه الوحدة العسكرية إلى الكولونيل ليتانغ L'Etang من الفيلق الثاني لقناصي إفريقيا. هذا الضابط السامي وصل في 6 من نفس الشهر، عند بزوغ الفجر بقرب العديد من مداشر الزمالة الغير بعيدة عن جبل يدعى طفراوي الذي يعد من أعلى القمم بالبلاد. هيأ فرق المشاة و قطعتي المتاريس التي كان يتوفر عليها و بدأ عملية هجومه على المداشر مع الفرسان المقسمين إلى ثلاثة أقسام و الأتراك التابعين لنا. تفاجأ العرب، مثل ما حدث في 7 ماي، فسمحوا بسلب عدد كبير من الماشية و الكثير من النساء و الأطفال

الذين تم اقتيادهم من طرف القناصين بعد تخريب كل المنازل. بمجرد بداية الانسحاب، احتشد عدد من العرب الذين فروا من قراهم و قاموا بإطلاق النار على فرساننا الذين تراجعوا مع الرد عليهم للانضمام بخطى صغيرة إلى فرق المشاة. و بعدها عادت كل ركيزة الجيش إلى وهران بعد زيادة مضايقات العرب الذين أصبح عددهم يتضاعف من دقيقة لأخرى. كانت الشمس تعلو الأفق و الحرارة الموسمية ترتفع مع هبوب رياح الجنوب الرهيبة و التي أصبحت لا تطاق. أصبح أفراد المشاة - الذين من قصر نظرنا أرسلوا دون مؤن و لم يجدوا قطرة ماء لشربها منهكين من التعب- يتقدمون ببطء. و تعطلت مسيرتهم كذلك بسبب الجرحى الذين كان من الواجب حملهم على الأذرع لقلة الوسائل اللازمة. العرب من جهتهم كانوا يفعلون المستحيل لأجل منع المجموعة من التقدم لإعطاء الوقت اللازم لمقاتلي القرى البعيدة للتجمع. سبق الكثير منهم إلى مقدمة الطريق الذي كانت تتبعه من أجل إشعال النار في الأعشاب و الحشائش التي كانت تغطي مساحة شاسعة مما ولد حريقا مهولا جاء للرفع من درجة الحرارة الساحقة للجو. فبعد أن التهمت النار بسرعة الطبقة الخفيفة من العشب المتوفر، خمدت ألسنتها لوحدها و لكن جنودنا كانوا مضطرين للسير لمدة طويلة فوق رماد ساخن الذي كان يفرز دخانا خانقا. و بدأت عزائم أفراد المشاة تنقص و رأينا رجال يرمون أسلحتهم و يرفضون المشي رغم توسلات مسؤوليهم بل كانوا يستلقون على الأرض طلبا لقسط من

الراحة على حساب حياتهم التي لن يتأخر السيف العربي عن نزعها. أما الذين لازالت لديهم القوة على المشي فلم تبق لديهم للقتال، فما كان على فرقة الفرسان إلا أن تواجه العرب لوحدها و فعلت ذلك بكل شجاعة و وفاء يستحقان الثناء الكبير. و بعد عناء وصلت المجموعة أخيرا إلى نبع الكرمة و لكن خطرا آخر كان يحدق بهم حيث أنه بعد شربهم ماء غير نقي و راكد سقطوا تحت الأشجار المجاورة و أصبح من الصعب تحريكهم.

في هذا الوقت العصيب و الذي ازدادت فيه شجاعة الكولونيل ليتانغ، أعلن لضباطه أنه يجب التأهب سواء للموت مع أفراد المشاة أو لإنقاذهم. الكل رحب بهذا الإصرار النبيل. و على الفور قام القناصة بإحاطة هؤلاء الرجال الشبه موتى الذين كانوا يترامون تحت أشجار الكرم و تأهبوا للتصدي بكل قوة للعدو. خشي العرب من رباطة جأشهم فلم يجرؤوا على القيام بأي عملية فعلية. لقد أتى الكثير منهم من مسافة بعيدة و بسرعة فائقة لدرجة أن أحصنتهم كانت غير قادرة على الزحف، ثم فرضت سيطرتها عليهم ضربات المدفعية التي ألحقت أضرارا كبيرة بهم.

في ذلك الحين، قام السيد دوفورج Deforges – الضابط المنسق للجنرال ديميشيل – الذي كان قد لحق بـ ليتانغ بالتضحية من أجل الصالح العام وذهب لإعلام جنراله بسوء تطور الأحداث. فتمكن من الوصول إلى وهران بفضل شجاعته و حظه. و فورا ظهر الجنرال ديميشيل بمؤونة معتبرة من المشروبات و وسائل النقل.

تفرق العرب عند قدومه، وتمكنت فرقة ليتانغ بعد الأكل والشرب من بلوغ وهران رغم المعاناة، ولكنها استفادت بنقل كل ما غنمته من أموال و أسرى.

بعد ذهاب الجنرال ديميشيل، ضرب عبد القادر بقوة ما يمكن أن نسميه حصارا على مستغانم. استقرت أغلبية فرقه في الضاحية المخربة بمكان يدعى تستيد و وجه ثلاث هجومات على المراكز الخارجية. و شكلت الزاوية التي تقع على شاطئ البحر و المحمية من قبل الفرقة 66 للصف هدف جهوده الرئيسية. كانت خطته دون شك قطع كل الاتصالات بين البر و البحر و لكنه لم يتمكن من تحقيق ذلك كليا. الفرق التي أرسلها إلى هناك تمكنت الفرقة 66 من صدها بعد تدعيمها بثلاث كتائب من البر و حملوهم خسائر معتبرة. في 5 من نفس الشهر تمت مهاجمة هذا المزار من جديد. كانت في ذاك اليوم سفينة شراعية في المرفأ، سحقت العرب بنيرانها و أجبرتهم على الانسحاب إلى مواقعهم ب"تسديد"، لكنهم خرجوا منها ثانية لمهاجمة الجيش الموجود بالميدان ذاته. قاموا بذلك ببسالة غير مألوفة. و بما أنهم كانوا دون مدفعية لهدم أسوار المدينة، فقد حاولوا تسلقها من الجانب الذي لن تصله نيران جنود الميدان إذا ما وصلوا إلى بداية السور. كان من الممكن نجاح الفكرة لولا تدخل الملازم "جيروندون Gérandon" و بعض من رماة القنابل بامتطاء الحائط لمهاجمة المخترقين الذين لم ينسحبوا إلا من بعد خسارتهم لعدد كبير منهم. و في 7 من الشهر

أصبحت هجوماتهم أضعف. أما في 8، و بعدما اضطرت السفينة التي كانت بالمرفأ على الابتعاد في البحر نظرا لسوء حالة البحر، تمت مهاجمة الزاوية دون فائدة. و في 9، ابتعد العرب عن الميدان و رفعوا الحصار. عاد عبد القادر إلى معسكر و كل مقاتل إلى قبيلته مخافة هجوم غير متوقع مثل الذي حدث ضد الزمالة.

هؤلاء لم يتأخروا في المطالبة بالسلام من أجل استعادة نسائهم و ماشيتهم المسلوبة في السادس من أوت. من أجل هذا، أرسلوا وفدا من بينهم للجنرال ديميشيل، الذي قبل سماعهم. و بعد مناقشات، تم الاتفاق على عدم إبقاء "الزمالة" تحت إمرة عبد القادر و أن يستقروا تحت الحماية الفرنسية في ضفاف وادي مسرغين الرائع الذي يبعد اثنتا عشر كيلومترا من وهران. ولاظهار حسن نواياهم، سلموا رهائن. و بهذه الشروط، تم إعادة المساجين و قطعان الماشية.

حوالي نهاية سبتمبر، وصلت لجنة إفريقيا إلى وهران، وفي الأول من أكتوبر قامت بزيارة وادي مسرغين بمواكبة جزء من الكتيبة. قام عدد كبير من العرب بمهاجمة الفرقة الفرنسية و تم صدهم بشراسة، مما أدى إلى خسارتنا لبعض القتلى و ثلاثين من الجرحى. لم يسع الجنرال بوفي للاستيلاء على السلطة كما فعله بيوفاريك بل قدم بنفسه مكتفيا بإعطاء دلائل على ميزاته الثمينة التي مجدته خلال شبابه. و في 2 أكتوبر

قامت اللجنة بزيارة موقع الكرمة. لم يظهر سوى قلة من العرب و لم يبادلونا سوى بعض الطلقات.

أثناء ذلك، لم تجد القبائل متدفقا لمحاصيلها و بدأت تعاني من هذا الوضع ومن التعب من مخلفات الحرب. بدأ أهل "مجار" بالتردد على سوق مستغانم، و أصبح سكان منطقة "البرج" يمونون أرزيو، وحتى الزمالة و الدواير أصبحوا يظهرون علنا في وهران. حتى عبد القادر لم يكن بعيدا عن السلام و لكنه أراد أن يكون صاحب المبادرة بذلك، فقد اتخذ إجراءات صارمة لأجل إيقاف هذه العلاقات الجزئية المعاكسة للوحدة الحكومية التي أراد تأسيسها عند العرب. استسلمت القبائل لنفوذه و حتى الزمالة أنفسهم لم يتمكنوا من تحقيق التزاماتهم معنا. من بين العرب الذين جذبهم المكسب إلى أسواقنا "قدور تبان" أحد شيوخ سكان منطقة "البرج" الذي كان يعلم أن الأمير يعتبره أحد المتمردين عن حركته التجارية التي يحاول تطبيقها، فقرر إهداءه بعض المسيحيين لإسكات غضبه. لذلك توجه إلى أرزيو ببعض محاصيله أين كان معروفا هناك، وبعد بيعها أظهر مخاوفه من بعض فرسان عبد القادر الذي زعم رؤيتهم يحومون في النواحي، وطلب بتأمين مرافقة له إلى مكان حدده ليس ببعيد. انصاع قائد أرزيو لطلبه ووضع تحت تصرفه أربعة قناصين برتبة مشير؛ و لكن على بعد

بضع كيلومترات من أرزيو، وقع المساكين في كمين مدبر، قيل من طرف قدور نفسه. واحد منهم قتل و الأربعة الآخرون تم اقتيادهم إلى السجن بمعسكر. كتب الجنرال ديميشيل إلى عبد القادر من أجل المطالبة بهم لأنهم أسروا ظلما.

أجابه عبد القادر أن هؤلاء الفرسان قد تم أسرهم خلال الحرب و برفقة أفراد عرب لم ينصاعوا لأوامره، وذلك بتوجههم إلى أسواقنا، و إن تم استغفالهم من طرف تعساء ينكرهم فهذا ليس من شأنه تماما و لن يغير شيئا في المسألة، و أنه سيستبدل كل أسير ب1000 بندقية. و بما أنه لا يمكن قبول العرض لم يتم النظر في هذه القضية لحد الآن.

لام الأمير - في رسالته - الجنرال ديميشيل على قيامه فقط بمباغتات إلى حد الآن و تحداه بأن يأتي لمقاتلته بعيدا عن وهران. بعد تلقي هذه الرسالة بشهر واحد، علم الجنرال أنه بعد عودة الأمير من مطاردة بتلمسان، عسكر بسهل "مليطة" على أرض الزمالة بمكان يدعى "تيمزورار". بهذه المعلومة، انطلق بكل قواته على السادسة مساء في الثاني ديسمبر و توجه لهذا المكان، و وصل إليه قبل الصباح. عوضا عن مهاجمة مخيم عبد القادر هاجمنا بعض المداشر حيث ذبح الكثير من العرب و اقتيدت خمسون امرأة و طفلا. فتراجعت قواتنا و استراحت على بعد مسافة دون أن يتم إزعاجها من الفئة المتبقية من العرب. و لكن سرعان ما تأهب معسكر

عبد القادر، و عندما تحركت ركيزة جيشنا وجدت نفسها محاطة بحشد من الفرسان. و قبل أن يبدأ الجنرال ديميشيل حركة التراجع قام بإرساله للعدو كل النساء و الأطفال الذين وقعوا بين أيدي جنودنا. لا أدري إن كان العرب قد رأوا هذا كإقرار بالضعف ولكن هجوماتهم ازدادت شراسة، وخرجت فرقنا بوهران لأول مرة بمدفعيات للريف، فلحد الآن لم يكن لديها سوى مدافع للجبال. هذه المدفعية الموجهة بشكل جيد سحقت العدو الذي رغم الخسائر التي كان يتكبدها كل لحظة، ظل متابعا للفرق الفرنسية حتى الليل. افتخر كلا الطرفان بالنصر المحقق ذلك اليوم، فالفرنسيون قاوموا ببسالة هجومات العرب و العرب لأنهم رأوا الفرنسيين يتراجعون أمامهم باستمرار. و الشيء المميز في هذه الحادثة، أن رهائن الزمالة الذين كانوا برفقتنا حاربوا في صفوفنا ضد رفقائهم. ساهم القايد إبراهيم كمتطوع و تصرف بشجاعة.

لم يحدث شيء مميز بوهران حتى السادس من جانفي 1834. في هذا اليوم، لاح للأنظار من الساحة حشد معتبر من العرب فتقدمت فصيلتين من القناصة بقيادة ثوريني de Thorigny و أناطوا أحصنتهم لاستكشاف ذلك. تقدم هذا الضابط المتحمس بشجاعة باسلة و التقى جمعا من الأعداء و قاومهم بجدارة، لبضع الوقت. لكن الكولونيل أودينو[1] Oudinot الذي وصل خلال هذه الأحداث متبوعا بثلاث

(1) منذ فترة قصيرة حل محل الكولونيل ليتانغ L'Etang الذي تم استدعاءه بقرار وزاري إلى فرنسا.

كتائب من فصيلته، ظن أنه يتوجب التراجع. تمت العملية بقلة نظام و تسرع كبير كلفت كتيبة السيد دي ثورني de Thorigny 17 رجل منهم ضابط.

لم يتوقف العدو إلا عند رؤية كتيبة ضخمة من فرق المشاة متجهة نحوهم. كان له الوقت لنقل رؤوس القتلى الذين قُتلوا، وفقا لطريقة بربرية، والتي أخطأنا في تقليدها في كثير من الأحيان. كانت هذه آخر حادثة مؤلمة. كان الجنرال ديميشيل - بعد معاينة النتائج المرية للحملات، حتى تلك الناجحة منها من وجهة نظر عسكرية - يرغب في السلام. بدأت الحاجة تمس وهران التي لم يعد يصلها شيء عن طريق البر. جعلت الاحتياطات التي اتخذها عبد القادر كل اتفاق جزئي[1] مستحيلا، فقرر القيام بعروض للأمير مباشرة من أجل الوصول إلى سلام عام. دعم قراره السيد بوشناق M.Busnac - الذي كان رجلا موثوقا فيه بشكل كبير ومتطلّع على أمور البلاد-؛ لكن من الصعب الشروع في ذلك دون دفع عبد القادر إلى التأكد من قوته و خلق لديه الشعور بالتفوق المبالغ فيه. و من أجل تجنب هذا الإزعاج قدر المستطاع، أرسل الجنرال ديميشيل رسالة من جديد لعبد القادر عن موضوع سجناء أرزيو. و بعد التطرق إلى المسألة التي كانت شكليا هي الرئيسية، قال له في نهاية الرسالة أنه بإمكانهما الالتقاء ببعضهما

(1) الجنرال ديميشيل حاول التفاوض مع مصطفى بن إسماعيل رئيس قبيلة الدواير و ابن أخيه المزاري و لكن دون التوصل إلى نتيجة.

ليضع الوقت من أجل التوصل ربما إلى اتفاق و إيقاف إراقة الدماء . في نفس الوقت ، كتب أحد يهود وهران المسمى "عمار مردوشي" لـ "بن حراش" أحد الضباط الأساسيين لعبد القادر، للقول بأن الفرنسيين في أوج استعدادهم لمواجهة الأمير و أن أفضل قرار لقواته يجب اتخاذه هو الاتفاق معهم. رغم المراوغات التي قمنا بها، تيقن عبد القادر أننا نطلب منه السلم و أنه سيكون سيد أرضية المفاوضات. ردّ على الجنرال الفرنسي بأن دينه لا يسمح له بطلب السلام من المسيحيين و لكنه لا يمنعه من منحه لهم و بذلك فانه يوافق على تلقي هذه العروض. و تجاهل عرض اللقاء الذي قدمه له الجنرال ديميشيل، وأرسل تحت أسوار وهران "ميلود بن حراش" و ضابطا آخر لكي يعرفوا من الجنرال - بوساطة من عمار - على أي أسس يريد التفاوض. نال هذا الأسلوب إعجاب الجنرال ديميشيل لأنه بدا و كأنه يضعه على قدم المساواة بينه و بين الأمير. وبالفعل، فمن جهة، إن كان هو من مهّد لهذه المفاوضات تستطيع القول أن عبد القادر انساق إلى الاقتراح. و بما أن المسألة كانت بالغة الأهمية، جمع حوله أهم موظفي الدولة بوهران من أجل طرحها عليهم. و تم الاتفاق في هذا الاجتماع بأنه لا يمكن التفاوض إلا وفق الأسس الثلاثة التالية: 1° خضوع العرب لفرنسا دون قيد ؛ 2° حرية التجارة التامة و الكاملة؛ 3° التسليم الفوري للسجناء. قدمت هذه الأسس لمبعوثي الأمير لتبليغها له. هذا الأخير طلب أن تكون مقترحات الجنرال الفرنسي مصاغة بطريقة

أوضح، و من أجل هذا أرسل "بن حراش" و كلفه بجلب مشروع اتفاق. فقام الجنرال بتحريره و تسليمه لـ"بن حراش" الذي غادر برفقة "بوشناق" والرائد "عبد الله اشبون"، مسيحي سوري في خدمتنا منذ حملة فرنسا على مصر. كان عبد القادر مستقرا بالهبرة أين استقبل بحفاوة مبعوثي الجنرال الفرنسي، قرأ بعناية المقترحات المعروضة ثم أعطى توجيهات لـ"بن حراش" و أعاد إرساله إلى وهران بكامل الصلاحيات من أجل إتمام الاتفاق. و لأنه أراد إعطاء الجنرال ديميشيل عربونا مسبقا للصداقة و ربما إبهاره بفعل بالغ الكرم، أرسل مع مبعوثه أسرى أرزيو. و في 26 فيفري، و بعد عدة أيام من التشاور - تارة مع الجنرال ديميشيل وحده و تارة أخرى بحضور المجلس - أقر "بن حراش" الأحكام التالية مع الطرفين و التي تمخضت عنها معاهدة السلام.

معاهدة السلام

شروط العرب من أجل السلام.

1° للعرب حرية بيع و شراء الذخيرة، الأسلحة، الكبريت، أي كل ما يتعلق بالحرب.

2° تكون التجارة بالموسى[1] تحت إشراف حكومة أمير المؤمنين كما في الماضي و فيما يخص كل الأعمال. تحميل السفن لا يتم إلا في هذا الميناء. و فيما يخص مستغانم و وهران فلن تتلقيا سوى البضائع الضرورية لسكانها و لا أحد يمكنه الاعتراض. و الذين يريدون تحميل البضائع يجب عليهم التوجه إلى الموسى.

3° إعادة الجنرال كل الفارين مقيدين بالسلاسل. لن يتحصل كذلك على المجرمين. الجنرال القائد بالجزائر لن تكون له سلطة على المسلمين الذين يلجؤون إليه بموافقة حكامهم.

4° لا يمكننا منع مسلم من العودة إلى دياره متى أراد.

هذه هنا شروطنا المختومة من طرف الجنرال القائد بوهران.

شروط الفرنسيين.

1° ابتداء من اليوم تتوقف الأعمال العدوانية بين العرب و الفرنسيين.

2° احترام ديانة و أعراف المسلمين.

3° تحرير الأسرى الفرنسيين.

4° حرية الأسواق.

5° إعادة العرب لكل الفارين الفرنسيين.

---

(1) أرزيو.

6° كل مسيحي أراد السفر برا يجب أن يحصل على تصريح مختوم من قبل قنصل تابع لعبد القادر و قنصل تابع للجنرال.

على هذه الشروط يوجد ختم أمير المؤمنين[1].

هذا الاتفاق ابتعد كما نرى عن الأسس التي حددها المجلس و كان كليا لصالح عبد القادر. و ضمن ظروف لا أسعى لتفسيرها تم إبلاغ الحكومة بالجزء الثاني فقط منه.

الجنرال فوارول الذي كان يجهل تماما هذه المفاوضات، تم إعلامه بما حصل بواسطة برقيات للجنرال ديميشيل أوصلها ضباط عبد القادر برا. و كانت مرفقة برسالة من الأمير الذي يبدو أنه تذكر قبل قائد وهران أنه يوجد جنرال مسؤول بالجزائر.

وعلى الفور بعد إبرام الصلح، أرسل الجنرال ديميشيل إلى معسكر الرائد عبد الله داسبون Abdalla d'Asbonne كممثل للمصالح الفرنسية و أرفقه بضابطين من القيادة العليا. الأمير من جهته عيّن وكلاء أو ممثّلين بوهران، مستغانم و أرزيو. الوكيل الذي أرسله إلى أرزيو كان خليفة بن محمود، و هو واحد من أكثر الرجال نفوذا في قبائل الغرابة. المنصب الذي منحه إياه عبد القادر كان ذو أهمية بالغة بما أن التجارة بأرزيو كانت من حق الأمير بصورة حصرية حسب بنود الاتفاق.

(1) هذا الاتفاق كما هو موضوع أمام أعين القارئ تمت ترجمته عن النسخة العربية التي بين يدي عبد القادر.

في هذه الأثناء، انتشرت أخبار الهدنة في إقليم وهران بسرعة كبيرة في كل الناحية. القسم الثاني للاتفاقية هو الوحيد الذي أعلم بها العامة الأوروبيون كان يجعلهم يظنون أن التجارة أصبحت حرة و بهذه القناعة اتجه بعض التجار من الجزائر ووضعوا متجرا بأرزيو و كم كان مفاجئا لهم عندما وجدوا أنفسهم خاضعين لاحتكار عبد القادر الذي مارسه هناك. لقد عين الأمير نفسه المفاوض الوحيد لدولته على غرار باشا مصر الذي درس سياسته أثناء سفره لمكة. كان من المحظور على العرب التعامل مباشرة مع الأوروبيين، كان يتوجب عليهم البيع لوكيل عبد القادر بأسعار يحددها بنفسه و هذا الأخير يبيعها للأوروبيين الذين يخسرون بذلك كل مزايا الأسواق المباشرة. أصبح السير العام للتجارة معاقا بسبب نقص حرية المنافسة. رفع ممثل الشأن الفرنسي بأرزيو شكواه إلى الجنرال ديمشيل الذي أجاب أن التجارة كانت حرة في القانون و الاتفاقية تنص على ذلك و أن هذه الشكاوى تنبع عن سوء فهم دون شك. نتيجة لهذا التصريح قام التاجر الفرنسي بالتعامل مع عربي من قبيلة حيان من أجل حمولة كبيرة من الشعير و التي تم تحميلها إلى باب مخزنه، و بعد إخطار خليفة بذلك نزل إلى عين المكان، أهان العربي و استحوذ على كل الشعير و دفع حقه حسب ما حدده عبد القادر. إثر هذا، طالب الفرنسي بالحماية من السلطات المحلية التي

صرحت أنه حسب أوامر الجنرال ديميشيل لا يمكنها الاعتراض عن الإجراءات التجارية التي يجدها وكيل الأمير مناسبة. هذا الأمر خطير، و تم إخطار القائد العام عنه. في نفس الوقت تقريبا ، وصل تقرير من السيد صول M.Sol نائب الحاكم المدني لوهران إلى السيد جنتي ديبوسي M. Gentil de Bussy ندد فيه بشدة بالاحتكار المطبق من طرف أعوان عبد القادر بأرزيو و ربطوه بالتنازلات المتهورة و السرية للجنرال ديميشيل لصالح الأمير. كما قيل أنه على عكس التشريعات الموجودة على الحبوب في المنطقة و التي تحظر التصدير، فإن عبد القادر سمح بشحن باخرتين من الحبوب نحو إسبانيا بميناء أرزيو. لم يستطع الجنرال فوارول بطبيعة الحال السكوت عن تلك التجاوزات فكتب مع كل التحفظات الملائمة للجنرال ديميشيل، الذي فند وجود احتكار و تدارى وراء تجاهله للقانون[1] الذي يمنع تصدير الحبوب فيما يخص الباخرتين. لابد من وجود شيء غير مفهوم في هذه القضية لأن الجنرال ديميشيل أنكر وجود احتكار طول مدة إدارته و لكن إنكاره هذا كان يصطدم باستمرار بواقع الأحداث .

بينما كان هذا الجنرال يتحمل نتائج قلة تفكيره في المصادقة على الاتفاقية مع عبد القادر، كان الأمير الشاب على وشك رؤية انهيار سلطته التي لا تزال هشة.

(1) مرسوم 51 جويلية 1832.

رغم الحب الكبير الذي يكنه له الشعب الذي يعتبره نوعا ما منبثقا منهم، إلا أنه كان لديه الكثير من الحساد على غرار كل الذين يمتلكون الشرف و الهبة عندما يضحك لهم الحظ صدفة. في واد الشلف، لامه سيدي العريبي رئيس القبيلة التي تحمل نفس الاسم عن تعامله مع المسيحيين رغم أنه شخصيا لم يأخذ إلا الجزء غير المباشر تماما في حرب كان الثقل فيها واقعا على كاهل عبد القادر. أما مصطفى بن اسماعيل رئيس الدواير الذي كان آغا تحت حكم الأتراك فلم يكن يمنحه لقب السلطان دون امتعاض و هو اللقب الذي منحه إياه اعتراف الشعب. في حين كان قدور بن المرفي، رئيس البرايجية الذي كان متعودا على حياة المجون و الترحال الدائم كان حزينا لرؤية النظام و السلم يسودان. هؤلاء الرجال ذوي النفوس المريضة كانوا ينتظرون المناسبة السانحة للانفجار و التي لم تتأخر في المجيء. بعد الهدنة ، توقفت قبيلة بني عمر، و هي القبيلة الأكثر كثافة في المنطقة عن دفع العشور بحجة أن انتهاء حالة الحرب جعلت الضريبة غير لازمة. فأمر الأمير على الفور قبائل الزمالة و الدواير بالتأهب للسير نحوهم عند أول إشارة، و لكنه رجل لا يحب استعمال العنف إلا في حالة فشل الحكمة فقبل الحرب كان يبحث عن إقناعهم. كان العديد من شيوخ بني عامر لا يزالون في معسكر و يوم تجمعهم في المسجد، ذهب إليهم بنفسه و من أعلى المنبر الذي يعتبر لديه منصة وطنية ألقى خطابا حول إلزامية مشاركة كل المواطنين في مصاريف الدولة للصالح العام. بلاغته لم تذهب هباء فقد وعد بني

عمر بدفع العشور و هذا ما قاموا به فعليا. و لكن الدواير و الزمالة -الذين كانوا من قبل لصوصا و الذين تعودوا تحت حكم الأتراك على استخدامهم كأداة للنظام في عمليات السلب- بدأوا بالعمليات العدائية. أرسل إليهم عبد القادر الأمر بالتوقف عن ذلك و لكنهم لم يعيروه اهتماما، و نظرا لجاهزيتهم قام رئيسهم بإسقاط القناع عن وجهه و شجعهم على التمرد على الأمير. سار عبد القادر نحوهم و أنشأ معسكره على أراضيهم، و نظرا لثقته الزائدة في قوته تمت مباغته من طرف مصطفى في ليلة 12 من أفريل و تمت هزيمته كليا، تلقى بنفسه عدة أضرار و قتل حصانيه أمامه . كان بإمكانه الهلاك أو الوقوع في الأسر كونه كان مترجلا و مجردا تقريبا من سلاحه، لو لا تدخل ابن عمه و نسيبه مولود بن سيدي بوطلال- رجل ذو قوة هائلة - لسحبه من البلبلة و وضعه فوق حصانه و عاد إلى معسكر تقريبا لوحده و لم يتجرأ عدوه اللحاق به. تعجب مصطفى من انتصاره، و سعى إلى التفاوض مع الفرنسيين و الحصول على تحالف معهم بنفس شروط عبد القادر و تم رفض عرضه. كتب الجنرال ديميشيل الى الأمير لطمأنته حول تواصل صداقتهم و دفعه إلى عدم الانكسار بعد هذه الانتكاسة الأولى. و أرسل إليه 400 بندقية و كمية معتبرة من البارود و التي دفع عبد القادر قيمتها في وهران. لقد سبق أن قدم له مجانا هدية من هذا النوع في فترة إمضاء معاهدة السلام.

و نتيجة لأخبار انهزام الأمير، رفع سيدي العريبي راية العصيان، و قام قدور بن المرفي بنفس الشيء، أما القوماري رئيس قبيلة الأنجاد فقد انضم إلى مصطفى بشكل جعل عبد القادر محاطا بأعدائه. تفاوض قائد تلمسان سيدي حمادي من جهته مع مصطفى و كادت هذه المدينة المهمة أن تفلت منه. الكثير من النكبات هزت روحه للحظة و لكن سرعان ما استعاد نشاطه الطبيعي. كانت الظروف جد خطيرة و تتطلب إرادة شديدة و يقظة. بعد صد الجنرال ديميشيل لمصطفى بن اسماعيل فكر هذا الأخير في التوجه للجنرال فوارول. و كان من المحرج للأمير أن تصل عروض خصمه إلى الجزائر في الوقت الذي عم فيه الانزعاج من التنازلات المقدمة لعبد القادر و أن يتلقاه الجنرال المسؤول و يوجه أنظاره إلى مصطفى لتكوين قوة موازية لابن محي الدين في ذلك الإقليم. الجنرال ديميشيل و حبا في إقرار الأمور التي صنعها، كانت له نفس الهواجس، لذلك دفع الأمير بشدة إلى القيام بحملة و راح ليضع معسكره بنفسه في مسرغين للتصدي لمصطفى من خلال هذا الاستعراض.

بعد تجميع القبائل التي لا تزال مخلصة له خرج عبد القادر من معسكر و حط رحاله على ضفاف سيق. كان من المنتظر رؤيته يهاجم مصطفى، لكنه فجأة غير مساره إلى الشرق و هاجم البرايجية متحديا إياهم كليا. استولى على القرية القوية للبرج و أجبر في أيام قلائل

كل هذه المنطقة على العودة إلى الرشد، و بعد إتمام ذلك توجه نحو مصطفى و التقى الخصمان في الـ 12 من جويلية. مجرد طليعة جيش الأمير تحت قيادة الآغا عبيد بوعلام كانت كفيلة بهزم جنود مصطفى و الذي أصيب بدوره إصابة بالغة. انهزم و مرض و تخلى عنه أتباعه، فتوسل بن اسماعيل الرأفة من غالبه الذي سامحه بكرم. آثار صرامة الأمير امتدت دون تمييز لتشمل كل المتمردين الذين لجأ جزء منهم إلى أسوار وهران لطلب الوساطة الفرنسية. لم يكن لهم إلا أن يندموا على الدم الذي أراقوه في المعركة، إذ لم يحصل أي تصرف انتقامي يلطخ انتصار الأمير.

مباشرة بعد انتصاره، انتقل عبد القادر إلى تلمسان. كان بجانبه منذ بضعة أيام بن نونة حيث صالح بينهما سلطان المغرب. و كان غاضبا بوجه حق من سيدي حمادي، فأقاله و أعاد بن نونة إلى منصبه السابق. سكان تلمسان استقبلوا الأمير بنشوة كبيرة و لكن أتراك المَشْوَر رفضوا دخوله إلى القلعة كما في زيارته الأولى. تألم وأحس بالإهانة لعدم استطاعته حتى إمكانية إجبارهم و بما أنه كان متمسكا بإخضاع الذين يتحدون سلطته بوقاحة، طلب من الجنرال ديميشيل مدفعين من أجل قصف المشور. قائد وهران لم يظن أنه من حقه إصدار قرار تقديم هبة كهذه، فوجه طلبا الى وزير الحرب الذي سمح له بتوفير المدفعين إذا ما تم طلبهما من جديد و لكن عبد القادر كان قد ابتعد

عن تلمسان قبل وصول الجواب إلى وهران. عاد الزمالة و الدواير إلى طريق الصواب و تمت معاملتهم بطيبة على غرار القبائل الأخرى. حتى أن أحد قادتهم و هو المزاري ابن أخ مصطفى تم تعيينه آغا؛ أما بالنسبة إلى مصطفى نفسه فلم يعد قادرا على العيش تحت حكم عبد القادر وانسحب بقرب أتراك المشور.

كان الجنرال ديميشيل يريد مقابلة الأمير عند عودته من تلمسان فعبر عن ذلك في رسالة بتعابير متملقة لهذا القائد الشاب. لكن هذا الأخير لم ير أن بإمكانه القيام بذلك و تحجج بأمور مستعجلة تضطره إلى العودة إلى معسكر على الفور. و كرر الجنرال نفس الطلب عدة مرات دون أن يحظى به. عبد القادر كان بعيدا عن الاحتراس من حليفه و تجنب الالتقاء به، كان تمسكا بمظاهر اللباقة (الايتيكيت) فقط. هذا الحاكم المؤمن، و بتلقيه هذا اللقب، كان يود لو أن الجنرال الفرنسي يقف تجاهه في منزلة دنيا. و بما أنه كان يعلم عدم استطاعته إظهار ذلك دون صدمه و هو ما أراد تجنبه. فكان إذن من مصلحته التهرب من مقابلة حسب ظنه ستوقعه في ضرورة إصدار تصرفات من الممكن أن تفضح أفكاره الخفية[1] مبكرا.

كحاكم لكل إقليم وهران الممتد من الشلف إلى مملكة المغرب، لم يضع عبد القادر حدا لطموحه و بنى فكرة إخضاع الجزائر و التيطري

(1) هذا التفسير لرفض الأمير لقاء الجنرال ديميشيل، قدمه الأمير بنفسه إلى شخص تحصل منه الكاتب على هذه التفاصيل.

لهيبته. و من أجل جس نبض الجنرال فوارول، أرسل له معلنا بأنه بعون الله قد تمكن من هزم كل أعدائه و نشر السلم في كل القسم الغربي للمنطقة و أنه في وقت قريب سيتوجه شرقا من أجل تنظيم قبائل هذه المنطقة. هذه الرسالة تم تسليمها إلى الجنرال فوارول بواسطة سيدي علي الكلاتي من مليانة، هذا الرجل الذي ينتمي إلى عائلة مرابطين قديمة جدا، تمكن من الحصول على كل السلطة في المدينة لصالح عبد القادر الذي كان من أشد المخلصين له. و زاد حماسه بصفة خاصة حينما كتب من جهته إلى الجنرال متفاخرا بقوة و حسن صفات عبد القادر، كما تشرف حسب قوله بقدرته على إخماد غضبه الذي اشتعل بعد الحملة التي وجهوها ضد حجوط و التي تكلمنا عنها في الكتاب السابق. وقال بهذه المناسبة انه إن أساء الحجوطيون التصرف تجاه فرنسيي الجزائر كان من المفروض على الجنرال فوارول عوض أن يحقق العدالة بنفسه أن يشتكي إلى الأمير عبد القادر الذي يعتبر الحجوطيون رعاياه. رد الجنرال فوارول كما يجب على هذه الرسالة الوقحة و الخرقاء. و فيما يخص عبد القادر فقد كتب له يهنئه على تمكنه من استتباب النظام لدى القبائل المفوض له حكمها، و دون شك فإنه بتأسيس مشروع للتوجه نحو ما أسماه قبائل الشرق لم يكن في تطلعاته تجاوز الشلف التي كانت الحدود التي سطرها الجنرال فوارول بصورة

لائقة. بينما كان بعض الأشخاص يقولون أنه مصمم على الذهاب أبعد من ذلك و كان هو يظنه أكثر حكمة على القيام برحلة قد تغير من طبيعة علاقاته مع فرنسا، و ما عدا ذلك فإن إقليم الجزائر كان يعمه الهدوء بعد العقوبة المسلطة على الحجوطيين. هذه الرسالة الصارمة و المعتدلة في نفس الوقت كبحت لبعض الوقت أطماع عبد القادر و لكن لسوء الحظ طموحه الذي كان بحاجة للإشباع باستمرار تشجع بفضل أولئك الذين كان من واجبهم إيقافه.

تأثر سيدي علي الكيلاتي كثيرا من الطريقة التي عامله بها الجنرال فوارول، أراد بشدة أن يلعب دورا في الدسائس السياسية في ذلك الوقت و انتقل إلى معسكر و قام بإفهام الأمير إلى أي مدى سيكون من صالحه التشويش بين الجنرالين الاثنين معا، بتشجيع كبرياء الأول للترويج لنظام كانت حكمة الثاني ترفض التطبيق الواسع له. و بالتالي، فإن سيدي علي الذي يعتبر رجلا متملقا و يقظ الذكاء رغم حماقة رسالته للجنرال فوارول، بدأ بالبحث عن مجالس ضباط الوفد الفرنسي بمعسكر محاولا إقناعهم بأن الجنرال فوارول يغار بشدة من السلام الذي حققه الجنرال ديميشيل مع عبد القادر و فإنه يبحث مدفوعا بإحساسه الحاقد عن كل الوسائل الممكنة لهدم العمل الدبلوماسي لقائد وهران.

وعندما تمكن من تغليط هؤلاء الضباط ، كتب إلى الجنرال ديميشيل رسالة[1] مطولة أعاد فيه ذكر تلك الافتراءات مع فائض من الكذبات،

(1) ها هي الرسالة:"سيدي علي بن الكيلاتي، إلى الجنرال ديميشيل.
الحمد لله الذي لا إله إلا هو
إلى سيادة الجنرال قائد القوات الفرنسية بوهران.
وصلت رسالتك إلى مبعوثك عبد الله قنصل معسكر. و حسب الأعراف
القديمة المعترف بها بين الحكام، قام بإعلامنا بمحتواها. الله وحده سيجازيك
عن الخير الذي قلتموه لنا. و قد رأينا فيها حكمتكم و حيطتكم. فأنت رجل
نصوح و ذو أفكار كبيرة و قيمة. و سلوككم أثبت ذلك. أنت رجل شريف و
تصرفت بقدر كبير من النزاهة.
عندما رأينا انه في بلادنا يوجد بين القبائل المختلفة أشخاص ذوي نوايا
سيئة، و أن هذه القبائل تتناحر فيما بينها و تعترض سبيل المراسلات مع
الجزائر و تسلب و تخرب أملاك الأفراد المرتبطين بفرنسا، و عندما رأينا
المعارك مع جنرال الجزائر، معارك متكررة منذ الاحتلال (و لكن الله لم
ينصر هذا الجنرال، و بقيت كلماته و كلمات أتباعه من العرب دون صدى)
. عندما رأينا كل ذلك، أخذنا المبادرة بالمجيء لملاقاة الحاج عبد القادر و
التوسل إليه للقدوم للبلد، و بوساطتكم عقد صلح بيننا و بين جنرال الجزائر
كما تم في هذا الاقليم. لقد كتبنا عدة مرات إلى الأمير قبل مجيئنا لدعوته إلى
بلدنا. أرسل رسائل لكل القبائل التي تسكن الجبال و الى سكان المدن في اقليمنا
لإعلامهم بأنه حقق هدنة مع كل الفرنسيين المتواجدين بإفريقيا مع الالتزام
بأحكام شريعتنا. و قد نبههم بأن لا يقطعوا سبيل المراسلات، لا تسلبوا و لا
تقتلوا أي فرنسي و تذكروا جيدا هذه الكلمات التي أكررها في كل رسائلي.
و حسب هذه الأوامر توقفنا عن الحرب مع الفرنسيين و لم نعد نسلب او
ننهب و المراسلات كانت حرة. و على الرغم من هذا، خرج جنرال الجزائر
و هاجم قبيلة الحجوطيين و نتيجة لذلك قام كل القبايل برفع السلاح و ساروا
ضده و أجبروه على العودة الى الجزائر.
إذن نحن الرؤساء، قمنا بالاجتماع و بعد المداولات بيننا كتبنا إلى الحاج
عبد القادر من أجل إعلامه بتصرف الجنرال. كتب الأمير للجنرال دون أن

و الأحداث و التفاصيل المفترضة، حيث يصعب علينا تصور كيف حدث و أن تم استغفال الجنرال ديميشيل.

يلومه على خرجته للحجوطيين، و لكن أعلمه بنيته في زيارة تلك القبائل و أنه
ينظر إلى الاتفاقية من ناحية الدين، و أضاف بعدم الاستماع للأشخاص ذوي
النوايا السيئة الذين يريدون نشر الخلاف بينهم. رسالة الأمير كانت تحوي
الكثير من الأقوال الأخرى الحاملة للسلام. لقد أجاب جنرال الجزائر و هذا
ملخص رسالته: (ملخص مشابه لرسالة الجنرال فوارول إلى عبد القادر و لكن
أضاف سيدي علي إليه الجملة التالية: حكومة إفريقيا لا تنظر إلى أحد غيري.
الجنرال ديميشيل ليس شيئا و غير مسموع به عند الملك الأعظم بباريس). هذا
باختصار ما جاء في رسالة جنرال الجزائر. أنا، سيدي علي، عبد لله، كتبت
للجنرال و أوصلت له رسالة الأمير بنية الوساطة بينهما. هذه إجابته) ملحق
نسخة من رسالة الجنرال فوارول إلى سيدي علي، لقد قام هذا الاخير قام بإيلاج
الكثير من جمل الازدراء للجنرال ديميشيل) هذه هي الإجابة على رسالتي أنا
سيدي علي.

وفي الوقت الراهن، سيدي علي و جه الاشياء التالية للجنرال ديميشيل و
أنتم الذين تتمتعون بالحكمة و البلاغة افهموا ما أكتبه لكم و علقوا على أقوالي
كلمة بكلمة.

يمكنني القول لكم أن جنرال الجزائر يغار منكم لأنكم أنتم من توصل
إلى الصلح و ما يثبت ذلك هو نيته بالكتابة إلى ملك الفرنسيين من أجل طلب
التصريح للتفاوض مع الأمير. يريد أن يفعل مثلكم أو بالأحرى إلغاء ما قمتم به
و لكنه يستحيل أن ينجح لأن سلوككم معروف من الشرق الى الغرب، و لولا
أن الحاج عبد القادر لم يرسل ثلاث أو أربع رسائل إلى العرب عبر وساطتي
لكانوا الآن لا يزالون في حرب مع الفرنسيين في منطقة الجزائر و كانوا كل
يوم و كل لحظة يعرفون معارك جديدة .
في كل رسائله، كان عبد القادر يقول بأنه سيأتي إلى بلادنا و كل القبائل
متشوقة و منتظرة بكل فرح وصوله. و نقول لكم أن أحمد باي قسنطينة، يرسل

لقد تم ذلك إلى درجة أنه لم يعد يشك في تفوق النظام الذي كانوا يقولون أنه يشعل لدرجة كبيرة غَيرة خصمه و لم يعد يفكر إلا في دفعه

في كل شهر رسائل إلى قبائل ضاحية الجزائر لحثهم على محاربة الفرنسيين. على اية حال هو بنفسه يتحضر كما يقول غلى مهاجمتهم، و أكد ان محمد علي ولي عهد مصر سيدعمه باسطول و لكن لا أحد في بلدنا يصدق أقواله. و لذلك كان من واجبي إعلام رجل مثلكم، تستحقون معرفة ما يحدث من أجل الا تتم مفاجئتكم من الماكرين. ذاع صيتكم لدينا كرجل عاقل و شريف، لم يتمكن أحد منذ الاحتلال من القيام بما قمتم به و هذا ما يثبت حكمتكم. و ما يثبتها كذلك هو إرسالكم لعبد الله و ضابطين إلى معسكر. عبد الله رجل يعرف العديد منهم و يعامل كل واحد كما يستحقه و تكليفكم لهذا الضابط بهذه المهمة يثبت حيطتكم.

كونوا متأكدين بأن سلوككم مع عبد القادر ألهب غيرة الجنرال فوارول، و ان لكم الكثير من الأعداء نظرا للصداقة التي تربط بينكم و بين الامير.

هذا قولي، علي بن الكيلاتي مرابط مليانة".

ها هي الرسالة التي قال عنها الجنرال ديميشيل في كتابه أنها كانت جد مميزة و أن التقاليد العسكرية تمنعه من وضعها أمام أعين القارئ. لا يوجد ما يميز هذه الرسالة سوى وقاحة سيدي علي و سذاجة الجنرال ديميشيل. إنه لمن الحزين لفرنسا رؤية استغلال أنصاف الوحوش و تلاعبهم بأهوائنا. وقبل إرسال هذه الرسالة إلى الجنرال ديميشيل، أخبره سيدي علي بواسطة أحد ضباط البعثة بمعسكر بأن الجنرال فوارول و بنية الانقاص من قيمة ما صنعه بوهران اراد ان يكون له عبد قادر من جهته أيضا، فاختار للعب هذا الدور الحاج محي الدين الصغير، المعين من طرفه اغا على العرب و لكن بما أن هذا الاخير لم يتم الاعتراف به فقد فر من الجزائر بالأموال التي منحها إياه الجنرال فوارول. هذه الكذبة كانت كبيرة لدرجة أنه لم يتجرأ على تكرارها في رسالته .و لكن الجنرال ديميشيل سجل ذلك و هو بدون شك ما لمح به في

إلى أغرب النتائج: فصرح لعبد القادر بأنه سيجعله أكبر مما تجرأ حتى على تمنيه، و كان لابد من أن يحكم في كل مكان من المغرب الى تونس.

لا بد من أن عبد القادر قد ابتسم بصمت عند سماعه لضمانات مماثلة تخرج من فم الضابط الذي جاء ينقلها له باسم الجنرال و لا بد أنه كان غير قادر عن تصديق هذا الافراط في الغفلة.

وفي انتظار تحقيق هذه الوعود المتملقة التي قدمها الجنرال ديميشيل و التي أجلها إلى غاية قدوم المحافظ في زيارته المعلن عنها منذ مدة، إهتم عبد القادر بالإدارة بعد صخب الأسلحة.

عين القياد و القضاة لكل القبائل التي كان ينقصها ذلك و رتبها كلها في خمسة أقسام رئيسية و على رأس كل قسم منها وضع آغا.

تثبت كل هذه النشاطات بأنه كان يرمي إلى تحسين المجتمع العربي دون الاقتباس من المجتمع الأوروبي. و يبدو أنه لم يكن يحسد هذه الأخيرة إلا في تطورها التقني.

ربما أنه عند رؤيته عن كثب للمشاعر الرقيقة لبعض الرجال الذين وضعتهم الظروف السياسية في علاقة معه، كون فكرة غير إيجابية عن حضارتنا أو ربما يكون كبرياءه الوراثي يبعده عن ذلك. مهما يكن، من

كتابه بالتسويات العرضية التي تم شراؤها بالاموال. إننا نعلم الآن بأي ثمن تم شراء ترتيبات الجنرال ديميشيل.

الأكيد أنه لم يسعى قط للتشبه بنا. و لا بد من القول أنه لم يكن إلى جانبه أوروبيون قادرون كفاية و في نفس الوقت أكثر تحكما في اللغة العربية لمنحه شروحات و أشياء كثيرة كان بإمكان ذكائه اليقظ و اللامع من فهمها.

و إلى غاية أن تأخذنا روايتنا إلى إدارة الكونت ديرلون، نحيد نظرنا عن وهران و معسكر لتوجيهه قليلا إلى بجاية. لقد قلنا في الكتاب 10 بأن الجنرال تريزيل Trézel عند مغادرته المدينة منح القيادة إلى السيد دوفيفيه Duvivier الذي عينه الوزير قائدا عاما عليها. السيد دوفيفيه كان قد عاد إلى فرنسا بعد حل الكتيبة الثانية للزواف Zouaves أين تم وضعه في الفرقة الـ15 للصف. بعد فترة وجيزة فهم الوزير بسرعة بأنه ليس بالرجل الذي يترك مطولا على الهامش فوضعه في موقع يمكنه من خلاله استعمال مواهبه و خبرته. هذا المنصب لم يكن سهلا إذ كان من الضروري القيام بالحرب من أجل الحصول على السلام. ساير القائد الجديد هذه الحرب و لكن الحرب لم تجلب قط السلام.

كان من المقرر إنشاء تحصينات على مداخل السهل. في الخامس من جانفي، بينما كنا نعمل على ذلك، قام الأعداء بإرهاب العمال. هذه الهجومات كانت أكثر في السادس و لكن بعد عدة ساعات من المعارك انسحب العدو بعد التأكد من عدم جدواها.

في ليلة السابع إلى الثامن عشر من جانفي، هيمن القبايل بحوالي 4000 رجلا على السفوح المتاخمة لمواقعنا الأمامية و التي هاجموها عند مطلع

الشمس. الاشتباك دام إلى غاية الثانية بعد الظهر، انسحب عندها العدو محملا بالمصابين و عند المرور من السهل وجدت الكثير من فرقهم نفسها تحت نيران البارجة لو لواري Le Loiret التي كانت في الميناء و التي كبدتهم خسائر كبيرة.

في الخامس من مارس، قرر القائد العام الأخذ بزمام المبادرة بعدما تم إبلاغه بأن القبايل يحضرون هجومات عامة، كما أن معرفته الجيدة بطبع الجندي الفرنسي جعلته يعمل على عدم تركه في موقف دفاعي دائما. فخرج من مقره بكل الفرق التي في متناوله و توجه نحو قلايلنا Klaïlna بقرية المزايا Mzaïa التي لا تبعد بكثير عن بجاية، فوجدها مهجورة من سكانها الذين فروا قبل قدومه، و ظن أنه يجب إحراقه. بعد قليل ظهر القبايل من كل جهة مطلقين صيحات عالية حسب عاداتهم و استعدوا لمهاجمة الفرنسيين الذين بدأوا بالتراجع. أمر الرائد دوفيفيه Duvivier انسحابا تدريجيا و الذي تم تطبيقه بنظام باهر. ألحقت الفصيلة الثالثة لقناصي افريقيا ضررا كبيرا بالعدو. و عاد الجيش إلى مقره دون التعرض إلى أضرار محسوسة. الطريقة التي ناور بها السيد دوفيفيه Duvivier في هذا اليوم و الأمثلة الكثيرة عن شجاعته الشخصية جعلته يكسب أكبر قدر من ثقة و حب جنوده.

حاول السيد دوفيفيه في الكثير من الأحيان الدخول في مفاوضات مع السكان المحليين عن طريق أخ بوسنة، السيرجولي Sieur Joly الذي

كان يلعب لوحده وسط القبايل و كان على علاقة مع وليد أورباح، ومع المسمى بن غرابدن إمام مسجد بجاية، هؤلاء الأعوان- في حقيقة الأمر كانوا يعملون لصالحهم أكثر من الصالح العام- و لما لم يتحصل على النتائج المنتظرة، قام بطردهم و خسر بتسرعه أعوانا كان من الممكن الاستفادة منهم لو وجههم جيدا.

في18 و19 و 24 من أفريل، قام القبايل بهجومات على مواقعنا بإصرار كبير. و لمعاقبتهم خرج القائد الأعلى في 23 و أحرق قريتي ديار نصار و قومرام. خسر القبايل 60 رجلا في هذا اليوم الذي لم يكلفنا سوى قتيلا و اثني عشرة جريحا .

في 29 أفريل أظهر العدو قوته بمطحنة الداموس أين كان القائد الأعلى يقف على أشغال تنظيف رأس جدول صغير تتدفق مياهه في البحر قبالة الحصن المقام في السهل. و سرعان ما نزل القبايل إلى السهل و قاموا بإرباك العمال. قام القائد الأعلى بصدهم بفضل كتيبة القناصين. نفذ النقيب هيربن دوسو Herbin-Dessaux، الذي كان يقود هذه الفصيلة، هذه العملية بقوة و ذكاء. هذا الضابط الباسل كان له شرف القيام بالعملية الأكثر تألقا و الأكثر إبهاجا في إفريقيا حيث قتل 50 من القبايل و لم يخسر سوى ثلاثة رجال.

قام القائد الأعلى بدعم هذه الحملة ببعض فرق المشاة و هو احتياط يتوجب

القيام به دائما في إفريقيا لأن خوف الفرسان من إصابتهم أو سقوطهم من أحصنتهم يقضي على همتهم ان لم يحسوا بالدعم. السيد دوفيفيه Duvivier الذي يعتبر ربما الرجل الأكثر معرفة بالحرب في إفريقيا لم يغب عنه هذا المبدأ أبدا. هذا الضابط الممتاز استخدم في كل معاركه في بجاية مواهب تستحق التقدير.

في الثامن ماي جاء القبايل لمهاجمة التحصينات العليا و بعد ساعات من الاشتباك، فرقتهم الأمطار الغزيرة.

في الخامس من جوان جاء العدو للتجمهر أمام بجاية في تنظيم حسن على العموم. الجانب الأيمن يستند إلى البحر و الأيسر إلى مطحنة الداموس، كانت دعوتهم للقتال مفتوحة، لكنه لتفوقهم العددي كان من الطائش قبول ذلك. فاكتفى الرائد دوفيفيه Duvivier بصد استفزازهم بضربات المدفعية. على التاسعة ليلا، قام البعض منهم بتسلق حواجز شرفات حصن السهل فجرحوا و قتلوا جنود المدفعية فوق أسلحتهم. لكن تم دفعهم إلى الخندق و إلقاء قنابل تم إضرامها يدويا فقضت على الكثير منهم.

في 23 جويلية، جاوز قطيع ماشية الادارة أسوار مدينة بجاية و تقدم أبعد من الحدود المسطرة للرعي فتم اختطاف جزء منه من طرف فرقة كبيرة من الفرسان كانت تتربص وراء سفوح مطحنة الداموس. فلاحقهم القائد الأعلى بكتيبة من القناصين مدعومة ببعض المشاة. وصلت هذه الكتيبة إلى

ضفاف واد بومسعود ووجدت نفسها أمام 150 فارس و هي لم تتعدى 40 في تلك الأثناء فاضطرت إلى التراجع خاصة و أن القطيع قد تم اقتياده إلى مكان بعيد. تم دعم حركة التراجع هذه من قبل صف من المقاتلين المشاة بقيادة نقيب القيادة العليا لاتور دوبان La tour du Pin. تكبدت هذه الحامية العسكرية ببجاية في هذا اليوم 5 رجال و 13 جريحا و خسرت قسما من أبقارها بما يعادل 357 رأس، و اكتفت لبعض الوقت باللحم المقدد، والأسوأ من ذلك أنها احصت في وقت قريب أكثر من ألف مريض.

أما الرائد الذي كان يقود حصن السهل فقد تمت متابعته امام مجلس الحرب بتهمة عدم فعل كل ما كان في وسعه من أجل حماية القطيع، و تمت تبرئته. كان رجلا شريفا و عانى أثناء هذه الحادثة من البؤس أكثر من الاتهام. قام مجلس الحرب بواجبه حين تبرئته وكذا الأمر بالنسبة للقائد العام حين قام باتهامه.

لقد عانت الحامية العسكرية ببجاية خلال سنة 1834 من الفاقة و الارهاق بشتى أنواعه. لكنها أثبتت تماسكها بشكل رائع. كانت المعارك بالنسبة لها أيام الاحتفال و التسلية الوحيدة.

لقد تلقى السيد دوفيفيه Duvivier دعما رائعا من أغلبية الضباط الذين هم تحت إمرته، فالنقيب دولاتور دو بين La tour du Pin الذي كان يشغل منصب رئيس القوات العليا ، قد تميز لدى رئيسه بحماسه الذكي و لدى الجميع بشجاعته.

تم تأسيس حصنين من طرف قائد بجاية. الأول أمام باب اللوز و المسمى الحصن الأعلى، و الآخر في الأسفل عند مدخل السهل و المسمى الحصن الأدنى. أدى السلوك العسكري الجيد للسيد دوفيفيه ببجاية إلى استحقاقه رتبة ملازم-عقيد و هذا جد قليل إذ كان من المفروض أن يرقى لدرجة أكبر.

الكتاب 14

طبيعة العلاقات بين الجنرال فوارول و السيد جنتي دوبوسي Genty de Bussy - هذا الأخير جعل نفسه المتحكم بقرارات مجلس الادارة - الأعمال الإدارية - العدالة، الأملاك، المالية، التجارة، الزراعة، الأشغال العمومية، الشرطة، الطرقات....الخ - لجنة الجزائر - لمحة عن أشغالها - خلاف الجنرال فوارول و الحاكم المدني - قضية صوفار - ارتداد مغاربية إلى الديانة المسيحية و تبعات هذه القضية - تعيين الجنرال دروي كونت ديرلون Drouet comte d'Erlon محافظا عاما للممتلكات الفرنسية في شمال إفريقيا والسيد لوباسكيي Le pasquier كحاكم مدني - مغادرة السيد جنتي Genty - المغادرة الظافرة للجنرال فوارول.

رغم أن الجنرال فوارول لم يهتم أبدا إلا بصفة غير مباشرة بالعلوم الادارية، إلا أن حسه اليقظ و ذكاءه السهل أعطوه مفاتيحها بسرعة. و لكن للأسف إحساسه الدائم بأنه في منصب مؤقت منعه من الدخول إلى ميدان غريب عنه. وكان هذا خسارة كبيرة لأنه كان رجلا جيدا و ذو ضمير و لو أنه تحصل على المعارف الخاصة التي كانت تنقصه لكان استحوذ على منصب المحافظ بيد صلبة و دون تردد و لكانت من المحتمل أن تمنحه إياه الوزارة، و لا كان لا يزال على رأس المستوطنة و لم تكن مرت على الإدارة المؤسفة للكونت ديرلون comte d'Erlon.

لقد رأينا في الأجزاء السابقة كيف أن الأخطاء و الأعمال الضعيفة و خشية القيام بتجاوز منصبه الانتقالي أدت بالجنرال فوارول إلى التعامل مع العرب. أما في العمليات الادارية، فقد جعله الانشغال بتلك الصفة المؤقتة في وضعية تبعية مطلقة للسيد جنتي دوبوسي. لو أن هذا الأخير كان ينقاد سوى بحب فعل الأفضل بدون التفكير في حب ذاته أو مكاسب شخصية لكان فعل الكثير من الأشياء الجيدة مع هذا الرجل المتواضع الذي أحس بحاجته لان يتم توجيهه في مهنة جديدة بالنسبة له. لكن رغم نقص معارفه المتخصصة إلا أنه كان يتمتع ببعد النظر و يتفطن عندما ينحرف عن الطريق المستقيم. و لسوء الحظ، كان هدف السيد جنتي الرئيسي من أعماله هو وضع نفسه في أعين الكل أعلى من رتبة ملازم جنرال أمام الرأي العام، رتبة لم تتحقق بعد في الحقيقة لكي يسهل الانتقال بعد ذلك من الخيال إلى الواقع. و لو أن جدارته كانت تفوق تلك التي يتمتع بها رئيسه لكان من الممكن الاكتفاء بعلو الشأن الفعلي، لكنه لم يكن يتميز على السيد فوارول في العلوم الإدارية سوى بالأفضلية التي استمدها من روتين المكتب و مصطلحات المهنة و ميزة الإسهاب بالكلام المطول في نفس الموضوع و بشكل محتمل. كل هذا لا يشكل تفوقا مميزا للسيد جنتي على العموم و الذي كان رجلا ذو دهاء ومن المؤكد أنه كان باطنيا يعرف نفسه جيدا و مليء بالرضا، فهم بأنه إذا كلف نفسه عناء التحدث مع الجنرال فوارول و طرح عليه مشاريع القرارات و حاول تلقينه مبادئ و متاهات الإدارة لخسر هذا الامتياز، لأنه لم يكن عليه

تلقينه الاجراءات الاساسية و الحيوية و التي يعود شرف إعدادها إلى الذين ابتكروا فكرتها الأولى. لذلك، عمل كل ما في وسعه لتركه جاهلا لكل هذه القضايا و لم يفكر سوى في الحصول على إمضاءات موثوقة.

خضوع السيد فوارول لإرادة السيد جنتي كانت مبررة بخضوع مجلس الإدارة الذي انساق خلفه. هذا الرجل البارع رتب الأمور بطريقة لم يتم فيها أبدا وضع جدول أعمال للفصل في أشغال هذا المجلس فكان الاعضاء يصلون الى الجلسة دون تحضير المواد التي كان من المفروض مناقشتها. و بما أن السيد الحاكم المدني الذي نظرا لمنصبه كانت له المبادرة بكل الاجراءات فقد بات المتحكم الوحيد في القرارات و كان يمرر كل ما يريد، و تعوّد كثيرا على فكرة سلطته المطلقة على فعل كل شيء لدرجة أصبح يتضايق حتى من الاعتراضات المحتشمة و كان دائما متحضرا لقول مثل روبسبيير Robespierre في المؤتمر الوطني: "هناك تهامس ، أظن ". لم يكن لديه نفس الوسائل التي كان روبيسبيير يرد بها على معارضيه، لكن ما كان يتحصل عليه هذا الأخير بالترهيب كان السيد جنتي يستحوذ عليه من خشية زملاءه من تحمل الإسهاب في فصاحته الإدارية بخصوص القضية الواحدة.

لو أن السيد جنتي قد نجح بتواضع ولو أنه لم يظهر علانية التفوق الثقافي الذي كان يظن امتلاكه عن الجنرال فوارول و تفوق نفوذه الإداري الذي لسوء الحظ كان حقيقيا و الذي وضع يده عليه كليا، لما فكر هذا الأخير في

إزاحة ثقل أبهكه، و لكنه عندما رأى أن الحاكم المدني لا يعمل إلا لصالحه الخاص دون الاكتراث البتة برئيسه، تفطنت حساسيته كرجل و كقائد و نتج عنها رد فعل كانت نتائجه وخيمة بعض الشيء على السيد جنتي و هو ما لن نتأخر في رؤيته.

سنقوم بتعريف القارئ، حسب كل فرع من الخدمات، على أهم التنظيمات الإدارية التي تمت تحت قيادة الجنرال فوارول.

العدالة: كثير من الأسباب خفضت من عدد القضاة في الجزائر. مرسوم 22 جوان 1833 خفض عدد قضاة المحكمة الجنائية إلى خمسة و كانت الأحكام تصدر بأغلبية أربعة اصوات. كان هذا المرسوم مؤقتا و لكن اجراءاته أصبحت دائمة بمرسوم 2 افريل 1834 في كل الحالات أو إذا كان عدد القضاة أقل من سبعة تحت أي عارض ما.

الأملاك: لقد رأينا في الكتاب الخامس لهذا العمل، أن الجنرال كلوزيل صادق في 8 نوفمبر 1830 على مرسوم يمنع بنقل الملكية لكل الأراضي و لا يسمح بالكراء إلا لثلاث سنوات. هذا الاجراء كان صائبا فالسيد كلوزيل كان يفهم كل المزايا التي يمكننا الاستفادة منها من خلال هذه الأملاك لصالح الاستيطان. ولم يكن يريد ان تتنازل الدولة عنها لأي من المضاربين. السيد جنتي قرر تغيير هذا التشريع و لا ندري لأي سبب. وبناء على ذلك جاء مرسوم 2 أفريل 1834 ليسمح بالكراء أو التنازل

عن المباني الريفية بالتراضي أو بموجب حكم قضائي يمكنه أن يمتد إلى 99 سنة. وفعل نفس الشيء بالأكواخ و المباني المهدمة و المحلات الأخرى ذات القيمة المتدنية. أما المنازل و المتاجر و المحلات فلا يمكن كراءها إلا لـ 3 أو 6 أو 9 سنوات و بموجب حكم قضائي. و لقد رأينا في الكتاب الثاني عشر أن الدولة تملك عددا كبيرا من المزارع الجميلة في المتيجة و من الأفضل ألا يتم منحها لسماسرة عقاريين و لكن إلى تعاضديات عمالية لن يكون من الصعب تشكيلها.

في 25 أفريل 1834، جاء مرسوم للتذكير بأن أي عملية نقل ملكية أو كراء المباني المحجوزة كان باطلا، و حدد عقوبة العزل ضد الموثقين، القضاة و الحاخامات الذين يصادقون على عقود من هذا النوع غير مصادق عليها من السلطات.

المالية: بموجب مرسوم 2 جانفي، حددت رسوم الاستيراد ب 6% لعدد كبير من السلع الأجنبية الخارجة من المستودعات الفرنسية والمستوردة تحت راية فرنسية. هذا المرسوم الذي خفض إلى 2% رسوم الاستيراد على هذه السلع كان بموجب قرار من وزير الحرب. في 27 فيفري حددت رسوم الإرساء بكل موانئ المنطقة ب 75 سنتيم للبرميل للسفن التي تحمل راية اجنبية و 50 سنتيم للبواخر الفرنسية.

التجارة: لقد أثارت التجارة العديد من الشكاوى الموجهة للسلطات من أجل التشريعات المطبقة على الحبوب و التي كانت تمنع التصدير لبعض الوجهات و التي أخذها السيد جنتي بعين الاعتبار و قرر بان

يكون التصدير مسموحا بعد التأكد من توفير الاحتياطي منها، و سيكون فقط بربع من الإجمالي المحدد ب 2،734 قنطارا للجزائر. تم اتخاذ اجراءات في نفس الفترة تقريبا لمنع احتكار سلع الاستهلاك اليومي.

في 9 جويلية 1834 تم تحديد ضريبة إضافية ب 15% على الرخص الرسمية من أجل تغطية المصاريف المتعلقة بغرفة التجارة. في 18 أفريل من نفس السنة تقرر أن تدوم هذه الغرفة سنة واحدة. المرسوم الذي أنشأها أثناء عهدة الجنرال كلوزيل حدد مدة تجديدها بستة أشهر.

الزراعة: أسس السيد دوبيسي بالقرب من الجزائر بالحي المسمى الحامة حديقة يقال عنها للأقلمة و التكيف تقام بها تجارب استنبات مختلفة. وهي فكرة سديدة ستمكن من حل الكثير من المسائل المهمة والمتعلقة بمستقبل البلد. في الواقع أثبتت التجارب أن كل من القطن، نبتة النيلة indigo و قصب السكر تتماشى مع تربة المستوطنة. القطن الذي تحصلنا عليه يضاهي في نوعيته أجود أنواع القطن الامريكي. المحاصيل التي تم جنيها سنة 1833 أعطت منتوجا أعلى من المستوى الأصلي ما هو إلا دليل على أن القطن بعيد عن الخسارة بالجزائر. النيلة وصل طولها إلى ثمانية أقدام في حديقة التجارب و هو أمر نادر حتى في البنغال، و النيلة المتحصل عليها مماثلة لتلك بكاراكاس. السيد دوبوسي كان لديه حماسة نشر الخنفساء[1] cochenille والتي

(1) حشرة يمكن التحصل منها على اللون القرمزي.

جلبها من الأندلس و خصص لها مستودعا بالقرب من الجزائر تحت إدارة عون خاص مكلف بالترويج لها. نشير هنا بإيجاز للأعمال المفيدة للسيد ديبوسي لدرجة أنها قد تبدو في بعض الأحيان للقارئ غير موالية.

الأشغال العمومية: لقد رأينا في الكتاب الثاني أن بعض أشغال التجفيف بدأت تحت إدارة الجنرال فوارول؛ هاهي الإجراءات الإدارية المتخذة في هذا المجال. مرسوم 17 أكتوبر1833 يلزم كل أصحاب الأراضي السبخة أن يصرحوا إلى مكتب الأملاك بالحجم الذي يملكونه و بنيتهم في القيام بأشغال التجفيف بأنفسهم.

إذا لم يتم القيام بهذا التصريح في أجل أقصاه 15 يوما و في حالة ما إذا لم تبدأ الأشغال خلال مدة شهر من الإدلاء بالتصريح، و مهما كانت الظروف الممكن تسجيلها فإنه تم تقرير أنه سيتم المزايدة على الأراضي السبخة من خلال مزاد علني على حساب و مجازفة أصحابها و يمكن بموجب أحكام قضائية للحكومة أخذ هذه الأراضي بالسعر المحدد في المزايدة. الحكومة أو من رسا عليهم المزاد المعوضين لأصحاب الأراضي الذين لا يريدون القيام بأنفسهم بأشغال التجفيف يمكنهم استغلال هذه الأراضي مدة 15 سنة ابتداء من اليوم الذي تنتهي فيه الأشغال.

وعملا بهذا المرسوم تقدم قسم الهندسة العسكرية و المكلف كما رأيناه بتجارب التجفيف و بدأ الأشغال بالمزرعة النموذجية و بـ

Maison Carrée و لكن ما حصل هو أن الإدارة لم تفي بشروط الإجراءات المحددة بالمرسوم الصادر منها، فقام أصحابها بنقض الجزء المتعلق بالسنوات الخمس عشر من الاستغلال و بما أن هؤلاء المُلاّك لم يكونوا من الأهالي البسطاء و الممكن صدهم بأسباب واهية كعدم التأسيس و لكن كانوا من الأوروبيين الذين يعرفون كيف يُسمعون أصواتهم، فكان لابد من إيجاد تسوية، و بذلك لم يتم تطبيق مرسوم17 أكتوبر كما هو شأن مراسيم أخرى.

مرسوم آخر بنفس التاريخ نظم أشكال المصادرات لأجل المنفعة العامة. هذه المصادرات كان يجب الإعلان عنها بقرار من الجنرال المسؤول و الحاكم المدني و يتم تطبيقها خلال 24 ساعة. يجب أن يتم تحديد التعويض المقدم للمالك المجرد من ملكيته قطعيا و دون نقض من طرف خبير مشترك؛ و تم تقرير أن كل ما يخص أشغال الطرق فإن القيمة المضافة للأراضي المتبقية نظرا لهذه الأشغال ستعتبر كتعويض كافي للتي كانت ستغزو الطريق. رغم أن هذا المرسوم يبدو قاسيا إلا أنه تمكن من إعادة النظام لأنه لحد الآن قمنا بالمصادرات دون أي شكليات أو إجراءات تحافظ على حقوق الملاك المجردين من أملاكهم. علاوة على ذلك، فمن الواجب القول أن الإجراءات الطويلة و المزعجة للمصادرات لأجل المنفعة العامة ستجعل كل تحسين بالجزائر غير ممكن. فكما قلنا سابقا، يوجد كم

هائل من الأوروبيين الذين لا يشترون إلا بنية ابتزاز الإدارة. عندما قمنا بإنشاء الطريق الجميلة لبئر خادم كل الناس العقلاء تعجبوا من المغالطات التي أثارها أحد الأشخاص الذين أردنا أخذ قطعة أرضية صغيرة منه. هذا الشخص كان موظفا عموميا براتب كبير. لا يجب أن نترك الإدارة تحت رحمة جشع بعض الأفراد عندما يتعلق الأمر بالمنفعة العامة. هذه الحقيقة تم لمسها في فرنسا و في الجزائر. و في هذا السياق تم تعديل التشريعات للمصادرات لصالح المنفعة العامة. و إذا لم يكن بإمكاننا لوم مرسوم17 أكتوبر مبدئيا، إلا أن تطبيقاته في غالب الأحيان تستحق ذلك. فالتعويضات الموعودة نادرا ما كان يتم دفعها قبل عملية المصادرة، و لولا بعض الملاك المعوضين من طرف قسم الهندسة العسكرية لكانوا في نفس وضعية السابقين أي أنهم ينتظرون و لكن منذ وقت أقل. كما تم طرد الكثير من الناس خارج منازلهم و لم يُترك لهم متسع من الوقت لإيجاد ملجأ جديد. فخلال سنة 1834 أراد السيد الحاكم المدني توسيع حديقة التجارب، مما جعل الجنرال فوارول يصادق على قرار تجريد أحد المغاربيين من بستانه الصغير الذي كان يعيله و عائلته، وعند طرد المسكين منه في اليوم الموالي حسب مرسوم 17 أكتوبر، جاء باكيا و ارتمى مع أطفاله عند رِجلي الجنرال الذي أرسله الى الحاكم المدني.

فأجابه هذا الأخير بأن قوانين المحاسبة لا تسمح بدفع تعويضاته المستحقة على الفور و بأنه سيتكفل بذلك. و لم يستطع هذا البائس- الذي جرد من ملكيته و الذي كان دون دخل - العيش معلولا إلا من إحسان الجنرال فوارول الذي ندم عقب إمضاءه مرسوما له مثل هذه التبعات. هل كان من الضروري أن يتم توسيع حديقة التجارب على حساب عائلة أجبرناها على التسول؟ و هل لا بد من وجود تماطل فيما يخص إجراءات التعويض بهذا و لا يكون كذلك عند المصادرة؟ نحن لا نظن ذلك[1].

نص المرسوم حول ملكيات الأراضي المؤرخ في 2 أفريل 1835 على أنه إذا ما دخل عقار جزئيا في مخطط البنايات المصادرة للمنفعة العامة فإن للمالك الخيار بين هجره كليا أو الحفاظ على ذلك الجزء.

الشرطة: الإجراءات الأمنية المتخذة من طرف الجنرال فوارول هي: إلزامية حصول كل العمال على دفتر صادر من محافظ الشرطة؛ تشكيل لجنات مكلفة بالحرص على النوعية الجيدة للمواد الغذائية إتلاف المواد التالفة أو المغشوشة. وأخيرا بعض الإجراءات الخاصة بالجوازات.

(1) يمكنني ذكر عدد هائل من الحالات المشابهة و لكنني سأنحصر في الحالة التالية التي فيها من الخطورة أكثر من حالة مغاربي الحامة. استحوذت الإدارة على مقطع حجارة جزء منه يقع في حديقة دون أن يتم الإعلان عن المصادرة و دون أن يتمكن المالك لست أقول الحصول بل حتى الترتيب لأقل تعويض. كل هذه الإهانات تقع على رؤوس السكان المحليين. و بسبب تغاضي عن حقوقهم المهضومة بشكل مخزي أصبح لدي أكثر من عدو حين كنت على رأس مكتب العرب.

و تقرر بمرسوم 27 جوان 1833 أنه لا يمكن لأحد الإقامة في المنطقة دون أن يكون حاملا لجواز صادر من السلطات الفرنسية إذا كان فرنسيا ومن طرف أعوان القنصلية الفرنسية إن كان أجنبيا. كما قام هذا المرسوم بتلخيص و تعديل الإجراءات المتخذة مسبقا في هذه المادة.

شبكة الطرق: أنشأ مرسوم 8 ماي 1833 مجالس لمصلحة الطرق[1] للجزائر، وهران وعنابة. في نفس اليوم جاء مرسوم ثاني حدد أن أصحاب المنازل التي تحتاج إلى ترميم و تهدد الأمن العام يتم أمرهم من طرف أعوان المصلحة بتصليحها و إذا لم يمتثلوا إلى الأمر فإن هذه المنازل ستوضع للكراء في المزاد العلني لحساب أصحابها تحت رعاية السلطات البلدية. صاحب الصفقة يتوجب عليه تطبيق التصليحات المقيّمة من طرف مهندس المدينة في الأجال المحددة بدفتر الشروط. مدة الاستئجار تكون حسب الوقت الضروري لكي يغطي سعر الكراء قيمة التصليحات بالإضافة إلى استغلال لمدة ثلاث سنوات يدفع خلالها الكراء لمالكها.

مرسوم 17 أكتوبر للمصادرات حدد فيما يخص مصلحة الطرقات، أنه إذا ما هدد منزل الطريق العام و لا يستطيع المالك هدمه على حسابه فسيتم هدمه على حساب الإدارة التي تبقي القطعة الأرضية كرهن حتى يتم تغطية كل التسبيقات.

(1) الذي قام بتأسيسه الجنرال كلوزيل لم يعد موجودا منذ مدة طويلة.

كل هذه الاجراءات استلزمتها حالة مدن المنطقة التي نشغلها. الفقر وعدم اليقين من المستقبل كانا متفشيان لدرجة أن السكان لم يستطيعوا أو لم يريدوا القيام بترميم مساكنهم. كل قطرة مطر و كل هبة ريح كانت تردم بعض المنازل. فالمباني في إفريقيا ليست متينة و هي بحاجة إلى صيانة دقيقة و دائمة، و أدى توقف الصيانة لمدة ثلاثة سنوات إلى تدهور الأمور إلى حد تهديد المدن بدمار عاجل و مؤسف. كانت عمليات الهدم من أجل توسيع الطرقات مستمرة و تتم بسرعة لأن الإدارة قامت باختصار كل الإجراءات المتعلقة بذلك و لكن إعادة البناء على العكس كانت تتم ببطء لأنه تم عرقلتها بالصعوبات الادارية. و تجدر الإشارة إلى أنه في الجزائر دائما ما تسير الإدارة بخطوات عملاقة فيما يخص الهدم و بخطوات سلحفاة حينما يتعلق الأمر بالتشييد. لقد خسرنا وقتا معتبرا من أجل تحديد المسارات و وقتا ثمينا حتى يتم المصادقة عليها في باريس. إنه من الجيد أن نعلم أن تقرير الشكل الذي ستأخذه الجزائر الجديدة يتم بباريس. بعد ذلك يجب انتظار تصريحات البناء لمدة شهور، و أخيرا و بجهود مضنية تمكنت هذه الصناعة الخاصة منذ نهاية 1834 من اعادة تشييد بعض الحطام الذي كدسته الإدارة.

تم تحديد أشكال الطلبات المتعلقة بالطرقات بمرسومين لـ 27 جوان و 27 نوفمبر 1833. هذا الأخير رتب الشوارع إلى شوارع ذات طرق كبيرة و أخرى ذات طرق صغيرة. القارئ سيلاحظ بأن السيد جنتي دوبوسي لا يصل أبدا إلى شيء كامل من الضربة الأولى في أي موضوع كان، و هذا يعود إلى أنه

الكتاب 14

كان يتوجب عليه دائما إعادة تكوينه الإداري و أن يستعمل كل العناصر ليس في دراسة البلاد و إنما في المجموعة الغليظة المسماة نشرة القوانين.

من بين الأعمال الإدارية للجنرال فوارول التي لا تدخل في الأقسام التي قمنا بسردها نذكر مرسوم 1 جويلية 1834 الذي ينص على إمكانية بيع البارود في مدن الإقليم المتواجدة به فرقنا العسكرية، و التنظيمات المؤقتة التي تمنع إلى إشعار آخر كل تحويل لملكيات المباني بين الأوروبيين و السكان المحليين ببجاية و مستغانم. ترتيب مماثل مسّ مدينة عنابة فور احتلالها من طرف السيد بيشون. هذه الإجراءات كانت متعقلة و ترمي إلى الحيطة من سوء الاستعمال و الاحتيال.

في منتصف شهر أوت 1833، شهدنا وصول لجنة مشكلة من الوصيفين Pairs[1] والنواب إلى إفريقيا، مكلفين من طرف الحكومة من أجل تفقد البلاد وتنوير فرنسا عن مزايا و مساوئ هذا الاحتلال. عند الوهلة الأولى من الفرح الذي سببه الاستيلاء على مدينة الجزائر لم يكن هناك إلا صرخة واحدة في فرنسا للحفاظ عليها و الاستيطان في مقاطعاتها البهية. يبدو أن الحكومة أرادت تحقيق هذه الأمنية المعبر عنها بغالبية الأصوات بإرسال الجنرال كلوزيل إلى هناك و الذي كان منذ البداية من أشد المناصرين لفكرة الاستيطان؛ لكنه سرعان ما بدأت مضايقات الوزراء لهذا الجنرال و من ثمّ إعادة استدعائه إلى فرنسا مما أدخل الشكوك حول نوايا الحكومة. تم الحديث عن الالتزامات السرية المتخذة مع قوات أجنبية فيما يتعلق بإفريقيا. صدم الرأي العام بذلك

(1) يعتبر لقبا يمنحه الملك لموظفين سامين لديه و هم في درجة الألقاب الملكية بعد الفيكونت.

و الحفاظ على الجزائر أصبح قضية شرف وطني. و مع ذلك فإن بعض رجال الحسابات بدأوا بدراسة القضية من وجهة نظر أخرى، إذ تساءلوا عن المكاسب التي يمكننا ربحها من الجزائر كتعويض عن الخسائر التي ستنجر عنها. و انطلق أغلبهم من سوء تقدير فلم يتوانوا عن التصريح بأنه عند الحفاظ عليها ستكون الخسائر أكبر بكثير من الأرباح. لم يتمكن أنصار الجزائر معارضة خصومهم في ميدان الحسابات المادية، و أصبحت القضية نوعا ما حسابية بحتة. الوزارة، التي كان معظم أعضائها لا يروا في الجزائر سوى إزعاجا إضافيا، فرحوا بأن يتم تصغير المسألة بهذا الشكل و أعلنوا عن إرسال لجنة معينة من طرف الملك للتقصي في عين المكان عن العناصر الأساسية من أجل الوصول إلى حل نهائي.

تشكلت هذه اللجنة - التي كان يرأسها الجنرال الملازم بوني وصيف فرنسا pair de France - من السيد دوبارسار MM. D'Haubersart وصيف فرنسا و السيد دولابانسونيير de la Pinsonnière، و السيد لورانس Laurence، و السيد بيسكاتوري Piscatory و السيد رينارد Reynard أعضاء في غرفة النواب، والنقيب دوفال دايي Duval d'Ailly قبطان سفينة، الجنرال مونفور Monftort المفتش العام للتهيئة.

قام أعضاء اللجنة بزيارة كل المدن المأهولة بفرقنا باستثناء مستغانم، و تم تزويدهم بمذكرات من طرف كل رؤساء المصالح، و طرحوا الأسئلة على الكثير من الأشخاص و كل عضو عالج بهذه العناصر الجزء الذي له علاقة بمعارفه و عاداته. كانت المسائل المبدئية المختلفة تناقش في جلسات. و كان

رأي الأغلبية يتم صياغته في محاضر. عمل السيد لورانس Laurence كان على العدالة و السيد دولابانسونيير de la Pinsonnière على الاستيطان و السيد رينارد Reynard على التجارة و الجمركة. و كل هذه الأعمال تم القيام بها بحرص و موهبة.

بعد أكثر من شهرين من الإقامة بإفريقيا عادت اللجنة إلى باريس و سلمت عملها إلى لجنة ثانية تحت إشراف الدوق دوكاز Decazes و الذي في تقرير طويل ومتقن خرج بنتيجة الحفاظ على الجزائر بأغلبية 17 صوتا ضد إثنين. كانت هذه اللجنة مكونة من 19 عضوا. و تبعا للنتائج المنبثقة من عمل اللجنة قررت الحكومة الحفاظ على الجزائر.

و نتيجة لذلك بدأ البحث عن محافظ و توفر ثلاثة مرشحين، الماريشال كلوزيل، الدوق دوكاز Decazes و الجنرال دامريمون Damrémont. كان ثلاثتهم يملكون ضمانات على القدرة التي تتناسب مع البلد. بالأخص الاول الذي كان مرغوبا جدا. ولكن اختيار الملك الذي وقع على اللواء الفريق الأول الكونت ديرلون أدهش الجميع، فهو مسن في السبعين من عمره و الذي لم تفكر في رؤيته بالجزائر و لا حتى هو فكر في ذلك أيضا خمسة عشر يوما قبل تعيينه.

شهدت الأشهر الأخيرة لإدارة الجنرال فوارول خلافات مؤسفة بينه و بين الحاكم المدني. الجنرال كان متعبا منذ بعض الوقت من الاستقلالية المطلقة التي تصرف بها السيد جنتي، كما كان مستاء من بعض أفعاله. و جاءت حادثة

غير متوقعة للتفريق بينهما دون رجعة. أحد اليهود يدعى صوفار Sofar والذي كانت له أعمال ذات مصلحة مع شركة يهودية و تمت إدانته من طرف الحاخامات بدفع ما تبقى من الحساب و العقوبة تنص على القبض عليه في حالة عدم الدفع. قدم هذا اليهودي إلى القائد العام عريضة و بعدما اشتكى من المعاملة السيئة التي تعرض لها بأمر من رئيس العشيرة اليهودية، طالب بمراجعة الحكم زاعما أنه تم الحكم عليه بدفع مبلغ افترض حكم الادانة أنه يدين به بعد تصفية حسابات الشركة اليهودية، و لكن على العكس كانت الحسابات المقيدة في سجلات الشركة تثبت أنه لا يدين بشيء، و أن الحاخامات نفسهم الذين حاكموه كقضاة قاموا بتبرئته كإداريين بوضع إمضاءاتهم على السجلات في أسفل غلق الحساب بصفتهم أعضاء المجلس العبري. طلب صوفار rafoS كان بطبيعة الحال شكوى عن مواربة. و نتيجة لذلك تسلم الجنرال فوارول الشكوى بموجب نص المادة 10من مرسوم 22 أكتوبر1830 و هو كالتالي: "كل شكوى بسبب سوء استعمال السلطة، مواربة ، كذب أو إنكار للعدالة ضد قضاة المحاكم الإسلامية و اليهودية ترفع لدى الجنرال المسؤول الذي يبث في ذلك". لكن ما رآه الجنرال فوارول مناسبا فعله كان إلغاء تطبيق الحكم و تقديم السجلات أين وجد المترجمون المعتمدون الدليل على ما قدمه صوفار. و أعلم الجنرال الوزير بذلك، لكن السيد جنتي دوبوسي كان في كل هذه القضية ذو رأي معاكس تماما لرأي الجنرال. و أصر أن لا شيء في المواد المدنية يمكنه توقيف تطبيق الأحكام الصادرة من المحاكم المحلية، تجاهل مرسوم 22 أكتوبر

و كل السوابق التي ووجه بها و تمكن من أن يقاسم الوزير قناعاته فأمر هذا الأخير بتطبيق حكم الحاخامات ضد صوفار. السيد فوارول قاوم هذا الامر، وما جعله بالتأكيد يصل إلى هذا الحد هو أنه كان مقتنعا بالظلم الذي كان ضحيته هذا اليهودي. لقد جادل لصالح رأيه مع العديد من الخبرات القانونية فيما يخص الحقوق و لكن دون فائدة. الوزير أصر و كان لابد من الانصياع. تم معالجة هذه المسألة المعقدة بحماس في المكاتب لأن الجنرال فوارول تم توبيخه رغم أنه بالنسبة إليه توجد الكثير من السوابق و أن روح التشريعات الجديدة التي سيتم تطبيقها في افريقيا ستكون طبقا لأعمال اللجنة.

الانتصار الذي ظفر به السيد دوبوسي de Bussy على الجنرال فوارول في قضية صوفار، تلاه انتصار آخر؛ إذ تم الطعن في قضية مدنية أمام مجلس الإدارة طبقا للتشريعات السائدة، و كان الجنرال فوارول مقتنعا بأن السيد ديبوسي له مصلحة لست أقول عنها مادية ولكن ميل لجعل طرف يفوز على آخر، مما أدى بالجنرال فوارول إلى إقناع مجلس الإدارة برفض الحكم فيها بحجة أن قانونا جديدا عن إدارة العدالة سيتم إصداره قريبا، و أنه حسب نصه فإن المجلس لن يكون له أية صلاحيات قضائية. هذا القرار بعدم القبول و الذي لا يمكن تصوره إلا في عقل عسكري كانت إنكارا حقيقيا للعدالة و تم توبيخه عليها من طرف الوزير بوجه حق بعد تحصله على تقرير السيد دوبوسي.

في الأيام الأولى من سبتمبر، جاءت حادثة جد مهمة لتزيد من حدة سوء التفاهم الحاصل بين الجنرال المسؤول و الحاكم المدني و وضعت هذا الأخير

في موقف سيندم فيه على كل المزايا التي لحد الآن حققها على رئيسه. في أحد الأيام ما، تقدمت امرأة مغاربية مطلقة إلى الجنرال فوارول و صرحت بأنها تنوي اعتناق الديانة المسيحية. و بعد أن تأكد الجنرال بأنها ليست على ذمة أي زوج، أرسلها إلى مفوض الملك لدى المجلس البلدي مع توصيته بالسهر على ألا تتم سوء معاملتها من قبل المسلمين الذين يمكنهم عدم تقبل تحولها. و بعد تأكدها من حماية السلطات بدأت المرأة بتعلم أولى مبادئ ديانتنا في انتظار تعميدها.

علم قاضي الجزائر السي عبد العزيز- وهو رجل مثقف و لكن متعصب- بما حصل فاشتكى إلى الجنرال المسؤول مدعيا أن المرأة لا تملك الحق في تغيير ديانتها، و أنها تستحق العقوبة لمجرد التفكير في الأمر. استمع الجنرال بصبر كبير و أجابه أنه شخصيا لا يهتم كليا إن كانت المرأة مسلمة أو مسيحية، و لكنه لن يسمح أبدا بأن تتعرض لأي عنف باسم الدين، و أن كل واحد حر في اتباع الديانة التي تناسبه، و أن هذا المبدأ احترمته السلطات الفرنسية التي لم تعترض على دخول الكثير من المسيحيين إلى الديانة الإسلامية و بالموازاة لا يمكنه منع أي معتنق للديانة المسيحية، و بما أن القاضي لم يكن لديه ما يعارض به هذا ترجى الجنرال أن يسمح له على الأقل برؤية المرأة من أجل نصحها ومحاولة إرجاعها الى ديانة آبائها. رد عليه الجنرال بأنه حر

كليا و لن يفكر أحد في منعه. رضي القاضي بهذا الجواب و يبدو أنه كان مقتنعا بتأثير نصحه لها، لكن الكاهن المسيحي الذي كان يلقنها المسيحية كان يتمتع بدافعين قويين: انجذاب المرأة إلى التقاليد الأوروبية و رغبتها في الزواج من فرنسي و بذلك أخفقت كل محاولات السي عبد العزيز. تخلى عن قوة الإقناع و أراد استعمال القوة فقام باختطاف المرأة بواسطة الشاويش. تلقى الجنرال خبر هذا العمل العنيف فأرسل أحد مساعديه إلى القاضي من أجل تذكيره بما كان متفقا عليه. لما رأى القاضي هذا الضابط - الذي تربطه به علاقة صداقة - يدخل مجلسه، قام من مقعده دون إعطاءه وقتا للشرح و خرج معلنا بأعلى صوته بأن عدالة محمد لم تعد حرة. كانت المرأة على وشك تلقي العقاب فسارعت فور تحريرها من جلاديها إلى الفرار إلى الكنيسة الكاثوليكية أين تم تعميدها على الفور دون أن ينتج أي رد فعل في المدينة. عند خروج القاضي من مجلسه توجه إلى المفتي المالكي السي مصطفى بن الكبابطي ليتفق معه حول ما يمكن فعله في هذه الظروف، و اتخذ كلاهما قرارا بوقف سير العدالة، و بالفعل في اليوم الموالي بقيت أبواب المحاكم مقفلة مما أثر في نفسية الأهالي أكثر من ارتداد تلك المرأة. و لكن الجنرال فوارول قام عاجلا بكسر هذا الاعتراض اللاعقلاني و المثير للفتنة. قام بأمر القضاة المسلمين بالرجوع إلى وظائفهم على الفور و بعد

رفضهم أقالهم و عين بدل القاضي المالكي سيد أحمد بن جعدون قاضي بيت المال، و في منصب المفتي سيدي عاود بن عبد القادر قاضي البليدة، كلاهما رجلان متفتحان و متفق عليهما. تمت الكتابة للثاني من أجل إعلامه بتعيينه و الأول تم تنصيبه على الفور من طرف مفوض الملك لدى المجلس البلدي. دعا هذا الموظف أعيان المسلمين لحضور حفل التنصيب و الذي حضره كذلك كثير من الأشخاص غير المدعوين و الذين تلفظوا بكلمات مستنكرة و منهم من شتم القاضي الجديد. و ما لبث أن تم استتباب الأمن بعد اعتقال اثنان أو ثلاثة أشخاص و انتهى الحفل بسلام.

في اليوم الموالي و بعدما رأى المفتي مصطفى ما آلت اليه الامور، جاء لتقديم اعتذاراته للجنرال المسؤول و طلب منه أن يسمح له باستعادة منصبه. وبما أن سيدي عاود كتب من البليدة من أجل الاستفسار حول الأسباب التي أدت إلى إقالة زميله قبل قبول استخلافه، وبعد رضاه عن سلوك السي مصطفى قبل الجنرال فوارول مطلبه بتركه في منصبه إلى حين قرار وزاري، و أبلغ السيد عواد بذلك. و قد علمنا فيما بعد أن هذا الأخير قد استقل طريق الجزائر فور علمه بتنصيبه و لكنه عاد أدراجه في منتصفه بعد تلقيه رسائل تهديد من بعض سكان هذه المدينة.

تم تعيين القاضي الجديد في العاشر من سبتمبر و ابتداء من الحادي عشر

عاودت العدالة سيرها العادي و لم يبق أي اثر للاضطرابات.

نعرج الآن الدور الذي لعبه السيد دوبوسي في هذه القضية، في اليوم الذي أغلقت فيه المحاكم الإسلامية، استدعاه الجنرال المسؤول و قال له: "طلبتكم، سيدي الحاكم المدني، من أجل اعلامكم بحدث اليوم" ــــ "أي حدث سيدي الجنرال؟" تساءل السيد دوبوسي ــــ "و لكن سيدي، أساف الجنرال، لابد و أنكم على علم، اعتناق المغاربية للمسيحية و تبعات هذا الحادث" ــــ "كيف هذا سيدي الجنرال، توجد مغاربية دخلت في المسيحية؟ أؤكد لكم أني لم اكن أعلم شيئا". غضب الجنرال فوارول من هذا التظاهر الساخر بجهل شيء كل من في الجزائر سمع به، و طلب منه الانصراف ببرودة و قال له أنه سيعلمه بأوامره لاحقا. ورغم ذلك كتب له عند المساء للاستفسار إذا ما كان لديه مرشحون لتقديمهم لمنصب القاضي والمفتي، و بما أن إجابته كانت سلبية صادق الجنرال على قرار تعيين سيد أحمد و سيدي عاود و أرسله إلى الحاكم المدني.

وفي ساعة مبكرة من نهار الغد توجه السيد دوبوسي إلى الجنرال فوارول للقيام ببعض الملاحظات حول هذا القرار و بعد بضعة دقائق أخذ النقاش مجرى أدى بالجنرال إلى التخلي عن موقفه كقائد و وقف تجاه السيد دوبوسي كرجل غيور على الشرف و يحس نفسه مهانا من طرف شخص ليس له

نفس أفكاره في هذا النوع من القضايا. هذا الموقف الصعب أنهى إدارة هذا الموظف بطريقة مخزية بالنسبة للسيد دوبوسي.

وجد الأهالي الساخطون على الإجراءات التي اتخذها الجنرال فوارول دعما صريحا من السيد دوبوسي و بدأوا بتنشيط أعمال الشغب التي ذكرناها منذ قليل، و عند رؤية عدم نجاح الشغب، قدموا عريضة ضد الجنرال فوارول قابلتها عريضة مضادة لأنه كان محبوبا لدى أغلبية الأهالي. وبذلك فشل الجدال والشغب و خُذِل المشاغبون.

وجهت إلى الوزير تقارير كيدية و لم تكن كلها من قبل الأهالي فقط فيما يخص هذه القضية وثبت الزيف رسميا من طرف إدارة الكونت ديرلون؛ الشيء العجيب أن السيد دوبوسي الذي كان يجد ما قام به الجنرال فوارول سيئا لعدم منعه ارتداد المرأة، عبّر في كتاب له عن الجزائر عن رغبته في أن يقوم المبشرون بنشر عقيدتهم بين العرب.

لم يتم إدراج السيد دوبوسي ضمن التنظيم الإداري الجديد للمقاطعة، فغادر الجزائر أيام قليلة بعد وصول خليفته السيد لوباسكيي Lepasquier الذي وصل الجزائر في 28 سبتمبر 1834 مع الكونت ديرلون. ترك القليل من الحسرة في إفريقيا أين لم يكن محبوبا. أما الجنرال فوارول فقد رفض بشدة قيادة الجيوش الفرنسية و سلمها إلى الجنرال راباتال Rapatel و غادر الجزائر في شهر ديسمبر. و كان ذهابه انتصارا عظيما. كل قياد القبائل اجتمعوا لتوديعه و

إهدائه باسم أفراد القبائل أسلحة من بلادهم. رافقه أغلبية السكان إلى الميناء معبرين له عن أسفهم لذهابه و أخيرا تم تقليده بميدالية ذهبية كشهادة اعتراف من مستوطنة سيبقى إسمها و ذكراها دائما غاليين و محترمين.

الكتاب 15

القانون التأسيسي للإدارة العليا للأملاك الفرنسية في شمال إفريقيا - تنظيم العدالة - وصول الموظفين الجدد - مؤامرات الأهالي - تأسيس المحاكم - التنظيم الجديد للمجالس البلدية و الشرطة - تشكيل الدوائر الريفية - عقود إدارية.

صدر في 2 جويلية 1834 القانون الذي نصب حسب قواعد جديدة، و التي نظنها دائمة، الإدارة العليا لمحافظة الجزائر و التي حصلت على التسمية التي تعني الأملاك الفرنسية في شمال إفريقيا. و سلم القيادة العامة و الإدارة إلى محافظ عام يمارس مهامه تحت أوامر و توجيهات وزير الحرب.

كُلف كل من القائد العام للفرق، الحاكم المدني، القائد العام للبحرية، النائب العام، الحاكم العسكري و مدير للمالية، بمختلف المصالح المدنية و العسكرية تحت قيادة المحافظ و في حدود صلاحيات كل واحد منهم.

يشكل هؤلاء الموظفون مع المحافظ مجلسا يستدعى إليه رؤساء المصالح المدنية و العسكرية الذين يخصهم موضوع المداولات و لهم فيه رأي استشاري.

يجب تسيير الأملاك الفرنسية في شمال إفريقيا بموجب الأوامر إلى غاية إجراءات أخرى. يحرر المحافظ العام مشاريع الأوامر الضرورية للبلد في المجلس و يرسلها إلى وزير الحرب، و لكن في الحالات المستعجلة يمكنه جعل الإجراءات تنفيذية عن طريق مرسوم.

في 10 من أوت، نظمت تعليمة من الملك العدالة بالطريقة التالية:

توجد محكمة ابتدائية في كل من إقليم الجزائر وعنابة و وهران، و محكمة تجارية في الجزائر و محكمة عليا بنفس المدينة، و لكن نطاقها يمس كل الممتلكات الفرنسية.

تتكون المحكمة الابتدائية بالجزائر من قاضيين اثنين، مدع عام نائب عام للملك، كاتب الضبط و مساعد كاتب الضبط. يستمع أحد القضاة إلى جميع المسائل المدنية في النطاق الأول أو الأخير ضمن الحدود المسطرة للمحاكم الفرنسية. و يستمع الثاني في النطاق الأخير إلى المسائل المتعلقة بمخالفات الشرطة و الطعون في المخالفات الأخرى و الجنح الجزائية. هذا القاضي مكلف بالبث في القضايا الجنائية. و يقوم القاضيان بمختلف الوظائف التي تمنحها القوانين في فرنسا إلى قضاة الصلح.

تتكون المحاكم الابتدائية بعنابة و وهران من قاضي، مناوب، مدع عام النائب العام للملك و كاتب الضبط. في كل جلسة كان القاضي يجمع بين صلاحيات قاضي(2) الجزائر و يستمع لكل القضايا التجارية و إلى النطاق الأخير من

المخالفات و الجنايات أو الجنح التي لا تتعدى عقوبتها القصوى في القانون السجن. كما يستمع إلى الجنايات الأخرى تحت الاستئناف.

تتكون المحكمة التجارية من سبعة أعيان يعينهم كل سنة المحافظ و تجدد الثقة فيهم لأجل غير محدد، و لا يحصلون على راتب أو تعويض.

و تتكون المحكمة العليا بالجزائر من رئيس و من ثلاث قضاة، النائب العام للملك، المدعي العام، كاتب الضبط و مساعد كاتب الضبط. تستلم الطعون بالنقض في أحكام المحاكم الابتدائية و التجارية، و فيما يخص الجنايات، تصدر أحكام الاستئناف في المواد الجزائية و كل القضايا التي تعتبر في فرنسا من اختصاص مجالس القضاء و كذا كل طعون الأحكام الصادرة بعنابة و وهران.

تنظر المحاكم التي قمنا بتعريفها في كل القضايا المدنية و التجارية العالقة بين الفرنسيين، وبين الفرنسيين و الأهالي أو الاجانب، و بين الأهالي من ديانات مختلفة، وبين الأهالي و الأجانب، و بين الأجانب، و بين الأهالي من نفس الديانة إذا قبلوا بذلك. في المواد الجنائية ينظرون في كل انتهاك لقوانين الشرطة و الأمن أيا كانت جنسية أو ديانة المتهم، و في كل الجنايات و المخالفات المرتكبة من طرف الأهالي المسلمين في حق الفرنسيين أو اليهود أو الأجانب و بكل الجنايات و المخالفات المقترفة من طرف الفرنسيين و اليهود و الأجانب.

في كل القضايا التي يكون المسلم طرفا فيها، يساعد مستشار مسلم القضاة بتصويت استشاري. هناك أربعة مستشارين للجزائر و إثنان لكل من عنابة و وهران.

يحكم القانون الفرنسي الاتفاقيات و الخصومات بين الفرنسيين و الأجانب. أما الأهالي فإنه من المفترض أنهم يتعاقدون فيما بينهم حسب قوانين البلد ما لم توجد اتفاقية معاكسة لذلك. في المنازعات بين الفرنسيين أو الاجانب مع الأهالي، يطبق القانون الفرنسي أو قانون البلد حسب طبيعة النزاع و شروط الإتفاق و في حالة عدم وجود اتفاقية حسب ظروف و النية المفترضة للمتنازعين.

في كل الحالات التي يقدم فيها المسلم للمحاكمة بسبب جناية أو جنحة، يساعد مستشار مسلم القاضي الفرنسي بتصويت استشاري فقط. و إذا ما اسندت القضية إلى المحكمة العليا يتم تدعيم القاضي بمستشارين لهما الحق في المداولة على الإدانة و تصويت استشاري فقط على تطبيق العقوبة.

تعليمة 10أوت تبقي النطاق القضائي للمحاكم الإسلامية و يسمح للمحافظ بتنصيب محاكم يهودية أينما تطلب الأمر ذلك مكونة من واحد إلى ثلاثة حاخامات معيّنين من طرفه.

في القضايا الجنائية، لا يمكن تطبيق أحكام القضاة المسلمين إلا بعد أن تصادق بختم النائب العام بالجزائر و من طرف المدعي العام بعنابة و وهران. يمكن للمتهم و أطراف الإدعاء الطعن في قرارات القاضي المسلم، و يمكن للمحكمة العليا القيام بالإصلاحات إن وجدت و لكن فقط في حالة ما إذا كان الدافع للمتابعة تم النّص عليه في القانون الفرنسي. إذا ما رفض القاضي

المسلم أو تجاهل المتابعة، يمكن للمحكمة العليا رسميا أو بطلب رسمي من النائب العام استدعاء متابعة للجنايات أو الجنح.

تنظر المحاكم اليهودية في المنازعات بين اليهود فيما يخص شرعية أو بطلان الزواج و الطلاق حسب شريعة موسى، و في مخالفة القوانين الشرعية حين لا تعتبر لا جريمة و لا جنحة ولا مخالفة في القانون الفرنسي. تقوم هذه المحاكم بالصلح بين اليهود الذين يمتثلون و تنظر في الاتفاقيات المدنية بينهم. و تحظر عليهم مهام أخرى قد تؤدي إلى تهمة سوء استخدام السلطة.

يمتد النطاق القضائي للمحاكم المُنظم بتعليمة 10 أوت على الأراضي المحتلة حتى الحدود المسطرة بمرسوم من المحافظ. و تبقى مجالس الحرب مختصة بالجنايات و الجنح المرتكبة خارج هذه الحدود من طرف واحد من الأهالي بحق فرنسي أو أجنبي، و من طرف واحد من الأهالي بحق واحد من الأهالي أيضا حينما تكون التهم تخص السيادة الفرنسية أو أمن الجيش، و من طرف فرنسي بحق واحد من الأهالي.

لا يمكن تطبيق أي حكم بالإعدام دون الترخيص المكتوب و الرسمي من المحافظ، الذي يمكنه الأمر بتأجيل التطبيق لكل الأحكام أيا كانت، و لكن حق العفو يبقى فقط من صلاحيات الملك.

اللجوء للنقض مفتوح لكل الأطراف لكن ضد قرارات المحكمة العليا فقط.

تنظم تعليمة 10 أوت كذلك طريقة الإجراءات المتبعة في المحاكم التي نصبتها، و النطاق الإداري للمجلس المشكل لدى المحافظ بتعليمة 22 جويلية. يلمّ هذا المجلس بكل المواد التي تمنحها السلطة في فرنسا للمجالس الولائية، والعقود الإدارية المتعلقة بمجلس الدولة. يمكن الموافقة على هذه المراسيم من مجلس الدولة و لكنها في جميع الحالات تكون قابلة للتنفيذ بصورة مؤقتة إلا إذا قام المحافظ بتعليق التنفيذ إلى حين صدور قرار نهائي.

عندما تطرح السلطة الادارية الخلاف، يتم الحكم فيه في نطاق الاختصاص الاخير من طرف المجلس الذي يجتمع تحت رئاسة المحافظ، يضاف إليه عضو جديد من الجهاز القضائي. كل القوانين المنصوص عليها سابقا حول الإدارة القضائية تم إلغاءها بواسطة تعليمة 10 أوت.

بعدما وضعت شروط التنظيم القضائي في الممتكات الفرنسية في شمال افريقيا، أرادت الحكومة الاهتمام بالقوانين التشريعية للبلد و لكنها لم تتحصل على الوسائل اللازمة لهذا العمل الهائل رغم كل ما قامت به لجنة افريقيا، فقررت إرسال مفوض خاص إلى عين المكان مهمته البحث و جمع كل الأعمال و الوثائق التي توضح الوضعية الحالية للتشريعات بالجزائر و كذلك التعديلات و التحسينات المناسبة لإضافتها. تم تكليف بهذه المهمة السيد لورانس Laurence عضو غرفة النواب و الذي كما رأينا كان عضوا مميزا في لجنة إفريقيا. اضطر السيد لورانس Laurence عند تواجده بالجزائر أن يشغل مؤقتا وظيفة النائب العام.

كما سبق و أن ذكرنا تم تعيين السيد الكونت ديرلون d'Erlon le comte محافظا عاما و تسلم السيد لوباسكيي Lepasquier مهام الحاكم المدني، و تولى السيد أميرال البروتونيار la Bretonnière قيادة البحرية. حددت تعليمة 10 أوت أن يكون تحت أوامره مساعد برتبة ربان فرقاطة أو طرادة[1] و مساعد ملازم، و ملازم مكلف بحركات الميناء. و تحت المصلحة الإدارية للبحرية إلى محافظ بحري مرفقا بمساعد رئيسي و مساعدين محافظين، دائما تحت أوامر العميد البحري. في كل من وهران وعنابة تم تكليف المصلحة البحرية تحت اوامر العميد البحري الى ملازم مكلف بحركات الميناء و مساعد رئيسي مرفقا بمساعد محافظ.

تم تعيين السيد بلوندال Blondel مديرا للمالية. و بقي السيد بوندوران Bondurand حاكما عسكريا إلى أن وافته المنية في فيفري 1835 فخلفه السيد ميلوسيون دارك Melcion d'Arc. عين السيد فالي دوشوفيني Vallet de Chevigny سكرتيرا للحكومة و كان عليه المصادقة على كل المراسيم بهذه الصفة.

وصل المحافظ العام و الموظفون الجدد إلى الجزائر نهاية سبتمبر 1834. كان رفقة الكونت ديرلون comte d'Erlon عدد كبير من مساعدي العسكر و ضباط التعليمات و أشخاص لتعيينهم. و كان للآخرين مهامهم أيضا. كل هؤلاء القادمون الجدد سواء كانوا مسؤولين

[1] سفن حربية قديمة.

أو موظفين عاديين، كانوا مقتنعين بأنه لم يتم بعد القيام بشيء جيد و مفيد في الجزائر، و أنه كان مقدرا لهم تصليح أخطاء الماضي. لا بد للإدارة أن تكون واثقة من قدراتها، لكن الثقة العمياء تكون خطيرة؛ و و لسوء الحظ حين تكون الأعمال غير متوافقة مع الادعاءات فإنها تتعرض لتوبيخ مضاعف ممزوج ببعض السخافة.

عاد الأغا السابق حمدان و المغاربي أحمد بوضربة منذ مدة إلى الجزائر بعد سماح الوزير بذلك. و كما نعلم كان بوضربة رجلا ذو حكمة كبيرة و تمكن من ربط صداقات قوية بباريس. تكلم بطريقة مميزة أمام اللجنة الكبرى لإفريقيا برئاسة السيد دوكاز Decaze و أعترف بأن المعلومات القيمة التي زودها بها، أعطت صورة جد إيجابية عنه. لقد عاد من باريس وهو متأمل في الحصول على وظيفة بالجزائر. لكنه لم يكتف بتلك الضمانات فأراد استغلال جهل الإدارة الجديدة لكل ما يوجد في إفريقيا من أجل الحصول على القسط الأوفر منها و وجه هجومه بصفة خاصة على مكتب العرب الذي كان طامعا في إدارته. كان حمدان و بن عمر طامعين في السلطة كذلك، لكنهما كانا أقل براعة منه، و بدأ يحومان حول المحافظ، و استعملا لشد انتباهه حيلا فضة تستحق أشد عقاب. و وصلت بهما الوقاحة إلى درجة أنهما قاما بتقديم بعض النكرة البؤساء على أنهم عرب من الأعيان الجد مهمين إلى المحافظ بعد أن ألبسوهم ثيابا مستعارة، و كاد الكونت ديرلون أن يقع في الفخ لولا تدخل

الجنرال فوارول. لم يعاقب هؤلاء المشاغبين، لكن المحافظ تعلم كيف يحتاط منهما و وضح لهما أنه سيبقى محتفظا بذكرى هذه المغامرة. سنعود للحديث في الكتاب المقبل عن أعمال شغب المغاربيين حينما نفصل في قضايا العرب.

تم تنصيب المحاكم الجديدة بوتيرة سريعة في شهر أكتوبر. ألقى السيد لورانس بهذه المناسبة خطابا رائعا حيث تمت ملاحظة مقاطع عديدة مشجعة لمستقبل المستوطنة. و توسع كثيرا حول واجبات القضاة و أكد على أن صرامة المبادئ ضرورية للحصول على الاعتبارات الشخصية التي تتطلبها وظيفتهم أكثر من أي وظيفة أخرى.

تدهور بصر القاضي بن جعدون -المعين من طرف الجنرال فوارول- إلى درجة عدم قدرته على فحص العقود التي يتم تقديمها له، فتم تعويضه بسيدي علوه بن عبد القادر الذي خصص له الجنرال سابقا وظيفة المفتي التي لا تزال في يد سيدي مصطفى بن الكبابطي. غادر عبد العزيز القاضي الأسبق الجزائر إلى الاسكندرية. كانت للوزير أو بالأحرى لمساعديه نية ضعيفة لإعادته إلى منصبه حيث أنهم كانوا مضللين ببعض التقارير الخاطئة فظنوا أنهم بإعادة إدماجه سيعطي للإدارة الجديدة شعبية كبيرة على حساب القديمة. و بما أنه كان من المستحيل عدم رؤية الحقيقة الواضحة وضوح الشمس، فإن الكونت ديرلون رأى أنه من غير المناسب أن يكون رأيه من رأي مكتب الجزائر.

سيد أحمد بن جدون الذي يهلل لوجوده تم تعيينه مستشارا لدى المحكمة

العليا. أما المغاربيون الذين تم تعيينهم في نفس الوظيفة فلم يحترموا الثقة التي وضعناها فيهم. و بن نيقرو واحد منهم، قد أذنب بعد وقت قصير من تعيينه بعملية احتيال ارتكبها في حق بن مصطفى باشا، ابن الداي الذي يحمل هذا الاسم. هذا الرجل تم تعيينه بتزكية من بوضربة، على الرغم من المعلومات المزودة عنه من طرف مكتب العرب الذي أعلم بمبادئه الفاسدة و سوابقه المخجلة و التي لا تليق بشرف من يجلس إلى جانب القاضي الفرنسي و بذلك وجبت إقالته.

مرسوم مطول من وزير الحرب في 1 سبتمبر 1834 حدد صلاحيات المحافظ العام و كبار المسؤولين المدنيين تحت إمرته و صلاحيات مجلس الإدارة. بدا حجم صلاحيات المحافظ أكثر توسعا في الظاهر و لكن هذه الكلمات في مرسوم 10 أوت المكررة في هذا المرسوم : "المحافظ يمارس صلاحياته تحت أوامر و توجيهات وزير الحرب، هل يعني هذا أن المحافظ يجب أن ينتظر في كل شيء تحفيز باريس أو أن حدود صلاحياته قد تم تسطيرها و يتوجب عليه التحرك في تلك الدائرة فقط كما يشاء؟ و القراءة الممعنة التي قمنا بها لمرسوم 1 سبتمبر الذي لم يتم نشره تؤدي بنا إلى الافتراض الثاني. في عهد إدارته لم يكن الكونت ديرلون من أصحاب هذا الرأي لأننا غالبا ما سمعناه يشكو من كونه مقيدا، و هي فيما عدا ذلك حجة جد سهلة و التي غالبا ما تستخدم في الجزائر. قلة من الناس من يقبلون تحمل مسؤولية أفعالهم و الأغلبية يحبون

التضحية بالتخلي عن حرية مواقفهم عوض تحمل المسؤولية. و بمعنى آخر أن قلة من الرجال ولدوا ليقودوا؛ لم يكن لدينا في إفريقيا سوى الماريشال كلوزيل الذي تحمل الكثير على عاتقه. و مع ذلك يمكنني تأكيد أنه كانت لكل جنرالاتنا حرية اتخاذ القرار لكي يقوموا بأكثر مما قاموا به، و لكنهم كانوا يميلون برؤوسهم إلى غطرسة و ظلم المكاتب، لا شك أن هؤلاء المسؤولون قد سخروا لأكثر من مرة لهذه السذاجة الذي حاولوا عدم إظهارها.

المرسوم الوزاري الذي تكلمنا عنه و آخر بنفس التاريخ ينظم أشكال الإدارة المدنية و الإدارة البلدية، استُعملا كقاعدة في هذه المواد للأعمال الرئيسية لإدارة الكونت ديرلون و التي لم تكن سوى إعادة صياغة لهم.

في 20 أكتوبر، قام مرسوم من المحافظ بالتعريف بصلاحيات ثلاث كبار مسؤولين مدنيين؛ فالحاكم المدني له صلاحيات موازية لوالي بفرنسا؛ النائب العام مكلف بكل ما له علاقة بالعدالة؛ أما مدير المالية فيجمع في صلاحياته كل من الأملاك، الجمارك، البريد، الضرائب، أي كل ما يخص الإيرادات العامة. لن ينسى القارئ بطبيعة الحال أن الجنرال كلوزيل قام منذ 1830 بتقسيم المصالح الإدارية للإقليم إلى ثلاث أقسام بنفس الشكل الذي نص عليه التنظيم الجديد.

المرسوم الوزاري لـ 1 سبتمبر يعطي للحاكم المدني جدولة كل النفقات العمومية ما عدا تلك المتعلقة بالقوات البرية أو البحرية، أو مصالح الإدارة

العسكرية أو البحرية و يفوض مدير المالية لتسيير الأرصدة المتعلقة بالمصالح التابعة لهذا الأخير.

الأعمال الثلاثة الأكثر بروزا للإدارة المدنية للكونت ديرلون هي تأسيس تنظيم بلدي في المحافظة، تقسيم ضواحي الجزائر إلى دوائر و إنشاء مدرسة بهذه المدينة، كل هذا تم النص عليه في المرسوم الوزاري لـ 1 سبتمبر.

اصدر المحافظ في 18 نوفمبر1834 مرسوما ينظم بلدية الجزائر. تتشكل هذه البلدية من رئيس بلدية و مجلس بلدي متكون من 19 عضوا: 10 فرنسيين، 6 مسلمين و 3 يهود. يتم اختيار المساعدين من بين أعضاء المجلس. و عددهم ثلاث أي واحد من كل عشيرة. يتم تعيين أعضاء المجلس البلدي من طرف المحافظ لمدة أجلها سنة.

المرسوم الوزاري المتعلق بالإدارة المحلية يحدد فروع إيرادات الدوائر و النفقات التي يتوجب عليها تحملها. تتكون الإيرادات من نتاج الرسوم المختلفة المماثلة أو المشابهة لتلك التي توجد بفرنسا وهي جزء من الدخل البلديات. مثل الضرائب وغيرها وإيرادات ثروات البلدية وبعض المنتجات الخاصة بالجزائر، مثل مزرعة مزوار و إيرادات التزويد بالينابيع.

النفقات المحلية هي نفسها تقريبا الموجودة في فرنسا وتضم كذلك معاشات رؤساء البلديات و مساعديهم اذا ما فرضت صلاحيات المجلس البلدي هي نفسها الممنوحة في فرنسا للهيئة المشكلة تحت نفس الاسم حسب قانون

(28 بلوفيوز عام 8)[1] وأحكامه اللاحقة، التي سبقت قانون 21 مارس 1831. وبلدية الجزائر هي الوحيدة التي لا تزال منظمة حسب قواعد المرسوم الوزاري لـ1 سبتمبر.

يتم إعداد ميزانية هذه البلدية من طرف المجلس البلدي سواء فيما يخص الإيرادات أو النفقات، ثم تتم دراستها على مستوى مجلس الإدارة وتتم المصادقة النهائية عليها لدى المحافظ العام.

يعتقد بعض الأشخاص أن أكبر جزء من النفقات المدنية للوصاية هي تلك المتعلقة بمدينة الجزائر وباختصار فإن هذه المدينة وضواحيها تعتبر من بين الممتلكات الفرنسية الأكثر ايجابية في شمال إفريقيا قِيلَ وطُبِعَ بأن فصل ميزانية الجزائر عن الميزانية العامة سيكون اعتبار لما هو ثانوي، على أساس أنه رئيسي، وهو ما سيعقّد دون فائدة من معاملات الإدارية. هؤلاء الأشخاص نسوا دون شك بأن هذه التركيبة ستوفر ميزة هائلة لإعفاء الجزء الأكبر من الأعمال المحلية من الرقابة، التي كانت دائما محرجة وقليلة الوضوح لباريس، وتسمح بتكريس جزء هام من الإيرادات التي كانت سابقا تدفع إلى الخزينة لاحتياجات البلدية. ولكن حصيلة مؤسفة لهيئة بلدية الجزائر، وهي نتيجة علاوة على ذلك لا تتعلق بالمؤسسة، أدت إلى تفكير السيد لوباسكيي M. Lepasquier في إنشاء رسوم عديدة لم تكن موجودة قبله من أجل المطابقة الصارمة

(1) هذا التاريخ حسب التقويم الغريغوري ويقابله في التقويم الميلادي تاريخ 17 فيفري 1800.

لمصطلحات الإيرادات المحلية المنصوص عليها في المرسوم الوزاري لـ1 سبتمبر، مسّت هذه الرسوم مواد استهلاكية يومية وزيادة غلاء معيشة الحيوانات، والتي كانت غالية أصلا. وبالفعل تم في عهد إدارة ديرلون فرض حقوق المكان في أسواق المواد الاستهلاكية الخشب الفحم القش والتبن وفي أسواق الماشية؛ حقوق وثاق دواب المزارعين الذين يموّنون المدينة وحقوق ربط السفن التي ترسو بالميناء رسوم صحية مهنية زيارة المباني... الخ. وما نستنبطه هو أن المستهلك وحده من يدفع ذلك وأنه ليس بالأسلوب الجيد الذي يجذب الكثير من السكان إلى الجزائر برفع هذه الأسعار.

تم تقسيم ضواحي الجزائر إلى تسع مقاطعات ريفية، حسب مرسوم المحافظ لـ 22 أفريل1835. هذا العمل تم تحضيره من طرف لجنة عيّنها المشرف المدني، والأغرب في الأمر أنها لا تحوي لا على رئيس القسم الطوبوغرافي ولا أحدا من أولئك الذين درسوا الخريطة الجميلة لمرتفعات العاصمة. والمقاطعات التسع هي:

لابوانت بيسكاد وهي الجزء السفلي لحي بوزريعة[1].

بوزريعة وهي الجزء الأعلى لنفس المقاطعة.

دالي إبراهيم ويضم حي بني مسوس وحي زواوة وجزء من حي أولاد فايت من الساحل.

---

(1) أنظر المادة 6 من الجزء الثاني للمجلد الأول.

مصطفى وهو نفسه حي الحامة وهي تسمية كان من المفروض الحفاظ عليها.

الأبيار ويضم الأراضي المحصورة بين حصن السلطان، دالي إبراهيم وبئر مراد رايس.

بئر مراد رايس و تضم قسم بئر خادم المتاخم لحي مصطفى.

بئر خادم ومشكل من الجزء المتبقي من الحي الحامل لنفس الاسم.

قادوس الذي يضم الجزء الأكبر من حي عين زبوجة.

القبة وتحوي الحي الحامل لنفس الاسم.

حسب نص مرسوم 23 أفريل، يوجد في كل مقاطعة ريفية رئيس فرنسي و نائبين من الضروري أن يكونوا من السكان المحليين. ومن صلاحيات رؤساء المقاطعة وضع سجلات الحالة المدنية، شرطة البلدية الشرطة الريفية، استخدام القوى العمومية للمقاطعة وكل التفاصيل التي تعتبر متعلقة بإدارة المقاطعات فعليا. ويجب عليهم مناقشة كل المسائل المتواجدة في فرنسا، مع النائبين الاثنين وهي من صلاحيات المجلس البلدي.

لم يوفر تنظيم المقاطعات الريفية الضمانات الكافية للسكان المحليين. والنواب لا يمارسون سوى الوظائف التي يحددها الرئيس. ومن الواضح أنه لا يعتمد سوى على أولئك الذين يريدون التقليل من شأن نائب السكان المحليين. ولكي تكون كفتي الميزان متكافئتين فمن المفروض أن يكون له الحق في اعتراض قرارات الرئيس إذا ما كانت مخالفة لمصلحة

الأهالي، بغض النظر عن الحالات الاستعجالية إلى حين إعلان السلطات العليا رأيها في ذلك الشأن.

في الـ23 من ماي حدد المحافظ خمس مقاطعات غير موجودة في الواقع، وهي حسين داي بئر توتة الشعاوة الدويرة ومزفران. وهذه المقاطعات لم تحافظ حاليا إلاّ على تسمياتها. لا يوجد من الجالية الأوروبية بحسين داي إلا القليل ومنعدمة ببئر توتة والشعاوة، ولا يوجد بالدويرة سوى من يعاشرون المعسكر الذي لا يزال هناك منذ دخولنا في حرب مستمرة مع الحجوطيين، ويمكن القول أنه لا يوجد أحد من مواطنينا في مزفران.

في ـ29 أفريل صدر مرسوم من المحافظ حدد كون عمل الشرطة الريفية بالتوازي مع الحرس البلدي الذي يمكن لاحقا تشكيلهم بأعوان قايد الفحص(قائد الضواحي)، وعلاوة على ذلك هو ما كان حاصلا من قبل[1].

تم تأسيس معهد الجزائر في شهر أفريل1835 . مشكلة من ثلاث أساتذة. يدرس بها التعليم الجامعي ورغم أن التعليم العمومي كان في الجزائر تحت إشراف رجل مثقف إلا أنه تمت متابعة كل الترتيبات القديمة للمعاهد الفرنسية. هذه الهيئة يتم تسييرها من طرف بلدية الجزائر التي تتلقى أجور الطلاب.

تم إعادة تنظيم الشرطة بموجب مرسوم 21 ديسمبر، الذي ألغى وظيفة رئيس قسم الشرطة الذي وجد تحت تسميات مختلفة منذ الغزو،

(1) أنظر المادة 6 من الجزء الثاني للمجلد الأول.

ونصّب مفتشين عاديين للشرطة تم تقسيم مدينة الجزائر في هذا القطاع إلى دائرتين. ولقد تناولت عدة مواد من قوانين إدارة الكونت ديرلون تنظيم الشرطة. والأكثر تميزا هي تلك التي القوانين هي التي تنص على حظر حمل السلاح وقد تم في إحداها إعادة سنّ تعليمات بيان الويس الخامس عشر Louis XV في 1728 أمام تفاجئ كبير لسكان الجزائر.

ولسوء الصدف هذه القوانين ظهرت في فترة كان العرب العدائيين يأتون لقتل المستوطنين داخل خطوطنا نتيجة للاتجاه الذي سيّرت به الأعمال. لا يقل ظهور بيان 1728 في المحاضر المطبوعة للحكومة وإن لم يعطي ذلك دليلا على روح دقة توقيت السيد لوباسكيي M.Lepasquier فعلى الأقل يثبت كفاءته الإدارية.

في السادس من ديسمبر ظهر مرسوم يأمر بإحصاء كل الأفراد دون وسائل إقامة محددة، للقاطنين في مدن الجزائر عنابة وهران بجاية ومستغانم، لأجل أن يتمكن المحافظ من إصدار الأمر بالطرد، كلها كان له الحق في ذلك. نفس المرسوم يضم إجراءات ضد ولوج أشخاص إلى المستوطنة ويمكن للسلطات أن تبعدهم في حالات الضرورة.

ودون شك من أجل التخفيض من عدد الأفراد دون وسائل إقامة محددة، وعدم تطبيق مرسوم السادس من ديسمبر تطبيقا شائعا، أظهرت إدارة الكونت ديرلون ميولها لصالح الصناعة البغيضة لبائعي المشروبات. نص مرسوم 5 جانفي 1835 على تخفيضات في الغرامات المفروضة عليهم لأجل المخالفات المتعلقة بمهنتهم، ومنح الترخيصات

تم بصفة دورية منذ وقبل هذا المرسوم، للذين أرادوا امتهان هذه الصناعة. ولا أظن أيضا أنه يوجد في الجزائر أقل من حانة أو مقهى لكل خمس منازل.

الإدمان على الخمر والفجور الذي قمنا بالإشارة إلي الإفراط الحاصل فيه، أصبح متفشيا في المدينة، أين يحميه الإقرار الضريبي الذي يتحصل منه على الرسوم التي يدفعونها كحقوق البيع والرخصة. إنها مصدر لا يتوقف للفوضى بكل أشكالها خاصة في أوساط الجيش. مجالس الحرب تكفي لقمع الجنح وحتى الجرائم التي كانت الثمالة سببا في ارتكابها من طرف جنودنا الذين لديهم ميول نحو النبيذ والمشروبات الكحولية الثقيلة والتي تحفزها سهولة إشباعه. إنه لمن الصعب رؤية وللأسف شخصيات ذات أهمية يكون لها اهتمام بهذه الأماكن الغير الطاهرة أين كان جنودنا والعمال يخسرون حياتهم وحبهم للواجب والعمل.

في 5 جانفي 1835 صدر مرسوم من المحافظ ينصب بعنابة ووهران لجان مقاطعات مكلفة بإعطاء رأيها حول مسائل البلدة وحتى حول مسائل المنفعة العامة وكذا تلك المتعلقة بالمنازعات الإدارية. هذه اللجان تتشكل من جنرال قائد للجيش رئيس نائب المشرف المدني نائب المشرف العسكري، قائم مقام النائب العام للملك، الوكيل العالي للأملاك والوكيل العالي للجهاز مرسوم ثاني في 5 جانفي حدد شكل الطعون المقدمة لمجلس الإدارة ضد قرارات المشرف المدني أو نائبه.

مصلحة المياه كانت دائما في وضعية مزرية، هذه المصلحة التي كانت في عهد الأتراك مسيرة بشكل جيد وهذا بفضل أمين العيون ولم نتمكن نحن بعد من فعل ذلك. وتم من جديد تمرير مصلحة المياه من إدارة الجسور والطرقات إلى يد ولاية الجزائر؛ ولكن هذا التغيير لم يقم بأي تحسين. في 1 جويلية، نصب مرسوم من المحافظ لجنة خاصة مكلفة بمراقبة وتسجيل كل أملاك الينابيع. نفس المرسوم يحمل عقوبات بالسجن وغرامات ضد كل المخالفات والجنح المتعلقة بالمحافظة على تلك الينابيع.

رفع مرسوم 30 مارس عدد أعضاء غرفة التجارة إلى تسعة بالجزائر، منهم 7 فرنسيين 1 مسلم و1 يهودي. وحدد بأن يتم تجديدها كل سنة من طرف ثالث وأن التعيينات تتم في مجلس مشكل من أعضاء من المحكمة التجارية، مكوّن من عشر مفوضين من طرف المجلس الولائي، ويأخذون من داخله أعضاء من الغرفة التجارية وسبع عشر من التجار العيان، عشرة منهم معينين من طرف المجلس الولائي، عشر من طرف المحكمة التجارية وسبعة من طرف غرفة التجارة.

أمرر في صمت على بعض القوانين والمراسيم ذات الأهمية الثانوية، الصادرة تحت اقتراح من السيد لوباسكي، والقارئ الفضولي لهذا النوع من التفاصيل يمكنه قراءة الجريدة الرسمية لأعمال الحكومة الصادرة بمرسوم من المحافظ العام في 20 أكتوبر 1834.

قامت تعليمة 10 أوت بتنظيم إدارة العدالة بشكل كامل على العموم، مما أدى إلى عدم إصدار تعليمات جديدة لمدة طويلة فيما يخص هذه المادة المهمة. ومع ذلك كان من الضروري ضبط ممارسة وسلوك مهنة المحاماة. كان من المرغوب ربما إبعاد هذا الشرخ المتواجد في المجتمعات الأوروبية عن هيئاتنا الجديدة بكل عناية كتلك التي تعطيها للقضاء على الطاعون، هذا البلاء الأقل خطورة بالمشرق. وبما أن عاداتنا المؤسفة لم تسمح بذلك كان لابد على الأقل التقليل من السوء قدر المستطاع. كان يوجد بالجزائر عدد هائل من المحامين المزعومين الذين لا يتوفرون حتى على ضمانات المعارف الخاصة للأعضاء الحقيقيين لنقابة المحامين ولم يكن لهم من نقاط مشتركة سوى شغفهم برؤية الجميع في دعاوى قضائية[1]. هؤلاء الناس قاموا كذلك بتمثيل أنفسهم وكلاء أعمال من أجل شراء المباني وكان يحدث لهم غالبا شراء حقوق المنازعات أو تمكنوا من جعلها تبدو كذلك لعملائهم. وهذا المجال الواسع المفتوح للتدليس في هذا البلد أين كانت سلسلة الأخطاء التي قمنا بالإشارة إليها في الكثير من الأحيان، تلقي بظلال عدم الوضوح في الملكيات وجلبت يوميا إلى إفريقيا حشدا من المحامين المتأملين في جمع على حساب المدعين، ثروة ومركزا لم تسمح به رداءة مواهبهم في فرنسا حتى بتمنيه. كل هذا لم يغب عن السيد لورانس

(1) أرجو من القارئ أن يعتبر بأنني لا أتكلم هنا سوى عن المهنة و ليس عن الأفراد. فكما يوجد فضائل للدولة يوجد ثمة رذائل. و هو خطأ المجتمع و ليس خطأ الفرد.

M. Laurence. هذا القاضي المحنك في ساحات القضاء كان يعرف أكثر من أي أحد آخر تجاوزات هذه المهنة. ولم يكن أحد غيره قادرا على وضع الحد الفاصل المناسب لمنعها. وهكذا فإن العجائز المهذبات هنّ من كنّ يعرفن كيفية الحفاظ على فضيلة بناتهن. ونتيجة لذلك قام بتحرير مرسوم صادقه لدى المحافظ العام في 27 جانفي والذي يضم الإجراءات التالية:

رجال القانون المكلفون بتمثيل الأطراف أمام محاكم الممتلكات الفرنسية بشمال إفريقيا لديهم لقب مدافعين. يجمعون صلاحيات المحامين والوكيل في الحدود المسطرة بنهج الإجراءات المستخدمة في تلك المحافظة. عددهم محدد باثني عشر للجزائر و أربعة لعنابة وثلاثة لوهران معينين ومفوضين من طرف المحافظ العام. يجب أن يكونوا حاملين لشاهدة أخلاقيات المهنة من سلطات المحل الذي كانوا يقطنونه قبل المجيء لإفريقيا. علاوة على ذلك يخضعون لسندات كفالة ب 8،000 فرنك بالجزائر و3،000 فرنك بعنابة ووهران. هذه السندات تبقى ملكيتها إلى أصحابها وينتهي سريان مفعولها بظهور ممول أو اعتراض أو قرار قضائي يخص نزاهتها. وتبقى سارية المفعول بالخصوص لضمان الديون والتكرار الناتجين عن تجاوزات أو الغش في ممارسة المهنة.

عندما رفعت النقاشات المتعلقة بنسبة الأجور الواجب دفعها لهيئة الدفاع، فإنه يسطر في غرفة المجلس من طرف المحكمة والتي تم ضم الوزير إليها. لا

يمكن نقل حقوق أو أي إجازات ناتجة عن تطبيقات الأسعار بفرنسا تحت أي مبرر. كل سنة يجب على النائب العام تعيين بالتناوب لمحامي مكلف مجانا بتوفير الاستشارات للسكان المحليين والدفاع عن مصالحهم المدنية.

إنه من المحظور على المحامي بصفة مباشرة أو غير مباشرة جعل أنفسهم أصحاب الأملاك المنقولة أو الثابتة التي هم مكلفون بمتابعة عملية بيعها أو أن يحصلوا على حقوق المنازعات، أو من أن يقوموا مع أطرافهم باتفاقيات من أجل أي مشاركة في نتائج الأحكام أو تشكيل أي اتحاد من أجل الدفاع فيما بينهم أو مع طرف ثالث. العقوبات المنصوص عليها للمحامين حسب درجة خطورة الحالة هي: التنبيه التوبيخ التعليق عن العمل لمدة ستة أشهر على الأكثر والإيقاف عن العمل. ومن أجل ترتيب بعض المواقف الفردية، سطر مرسوم 27 جانفي أنه لأول مرة فقط بغض النظر عن تحديد العدد، يمكن تفويض كمحامين الأفراد الذين يمارسون هذه المهنة في هذه المنطقة أثناء إصدار القانون إذا ما كانوا يحملون الشروط المطلوبة للقبول كوكيل دفاع في فرنسا أمام المحكمة الابتدائية، أو إذا ما كان امتهن كقاضي أو نائب خلال ستة سنوات على الأقل في محكمة استئنافية أو محكمة تجارية.

مرسوم 27 جانفي نص كذلك على تحديد ممارسة مهنة المحضر القضائي وأخضعها لسندات كفالة ب 4،000 فرنك للجزائر و2،000 فرنك لعنابة ووهران.

في الشهر الأول من إدارته، ظهر السيد الكونت ديرلون جد معارض لطموح عبد القادر والسياسة المتبناة من طرف الجنرال ديميشيل Desmichels تجاه هذا القائد العربي. وعلى ضوء الشائعات المنتشرة عامة فإن أمير معسكر يريد ربط علاقات تجارية مع جبل طارق وإسبانيا عبر خليج رشقون، فأصدر في 27 نوفمبر تحت اقتراح من السيد بلوندال M. Blondel مدير المالية، مرسوم يمنع كل عمليات الاستيراد والتصدير للبضائع الفرنسية الأجنبية أو الإفريقية عبر موانئ غير التي يحكمها عساكرنا إلا في حالة ترخيص خاص. والمخالفون يكونون عرضة لمصادرة البواخر والبضائع تطبيقا لإجراءات قانون 21 ديسمبر 1793. قوات البحرية تم تكليفها بحراسة الموانئ التي يتم منها محاولة التجارة المتطفلة. وقد حافظت القوارب[1] المغاربية على أحقيتها في الملاحة داخل المياه الإقليمية.

في 8 ديسمبر تم تكليف إدارة الجمارك بتحصيل كل الضرائب[2] بداية من 1 جانفي1835. هذه الإدارة أخذت تسمية إدارة الجمارك والضرائب المختلفة. وفي 5 جانفي تم تنصيب الجمارك ببجاية ومستغانم، وتم تحديد أن كل الاستثناءات المتعلقة بالمصلحة المالية لهذين الموقعين يتوقف سريان مفعولها، وكل الحقوق يتم تحصيلها حسب القواعد المتفق عليها في النقاط الأخرى من ممتلكاتنا. وبما أن لا وجود لأي نوع

(1) و هي بواخر صغيرة مشابهة لقواربنا الشراعية.
(2) لا يوجد في الجزائر سوى الحرفية و الضرائب الغير مباشرة.

من الحركة التجارية بمستغانم، لم تتأخر الإدارة عن الإدراك بأنه كان من التضليل أن يراد إقامة إدارة للجمارك لا تتمكن من تحصيل ما يكفي لتغطية مصاريف موظفيها، وبقي مرسوم 5 جانفي لبعض الوقت دون تطبيق فيما يخص هذه المدينة. وجمارك أرزيو التي تم تأسيسها تحت إدارة الجنرال فوارول لم تحقق سوى 15 فرنك في الأشهر الثمانية الأولى لتأسيسها وتكلف ما يقارب 300 فرنك في الشهر ولكن توجد مواسم لا يكون فيها الميناء دون أهمية تجارية.

جعل مرسوم أول في 5 جانفي الضرائب موحدة لكل من وهران عنابة والجزائر، هذه الضرائب كانت لحد الآن تظهر بعض الفروق في النسب وطريقة التحصيل في كل واحدة من هذه المدن، وتم إرجاع الكل إلى القواعد المحددة للجزائر. وأخيرا في 23 أفريل أعلن مرسوم للمحافظ العام ساري المفعول للممتلكات الفرنسية في شمال إفريقيا، التشريعات الفرنسية حول الجمارك فيما يخص الأنواع المختلفة للتزوير أو المخالفات، عملية رصدها لتحرير محاضر المخالفات، متابعة تلك المحاضر اختصاص المحاكم والغرامة أو في كل ما لم يسبق ذكره في مراسيم خصوصية. هذه الإجراءات تم جعلها مطبقة على الضرائب المباشرة.

وفي 4 مارس نظمت تعليمة من الملك نصت على أن سندات الخزينة يتم دفعها إلى صندوق الخزينة الدافع بالجزائر(ص 232)، وتكون

منتجة لفائدة 4 لكل مئة محددة بقانون 28 أفريل 1816 يتواصل دفع الإيداعات إلى إدارة الجمارك. هذه الإدارة التي خسرت بمرسوم 8 ديسمبر 1834 تحصيل الضرائب المختلفة ألزم عليها أخذ صفة إدارة التسجيلات والأملاك عوض إدارة الجمارك والحقوق مجتمعة حسب مرسوم السيد بيشون Pichon.

آخر عمل لإدارة السيد الكونت ديرلون كان مرسوم 12 جويلية، الذي يأمر كل سكان الجزائر الذين تتراوح أعمارهم بين 18 و50 سنة بالتسجيل في مصلحة الحرس الوطني، دون التفريق بين أوروبي ومحلين. هذا الإجراء الذي كان بحاجة للتحضير والدراسة، مرّ إلى المجلس باقتراح من السيد لوباسكيي M. Lepasquier دون مناقشة مدى تأثير هذا الإجراء. ولقد خلق بعض الاستنكار في المدينة. وعندما تم التحدث مع الكونت ديرلون على الأثر الذي أنتجه ظهر متفاجئا من ملحق هذا المرسوم الذي صادق عليه والذي لم يكن يظن أنه ساري المفعول على السكان المحليين. هكذا وللأسف يعالج الرجال ذوي المناصب الرفيعة باستخفاف الأمور الأكثر أهمية. أصبحت الآن عناية إعادة تنظيم الحرس الوطني من مهام خليفة الكونت ديرلون الذي حادثه الفكرة الأولى في ضم السكان المحليين سنة1830.

الكتاب 16

الأعمال الأولى لإدارة الكونت ديرلون في علاقته مع العرب - مكائد بعض المغاربيين بالجزائر - إرسال كتائب إلى سوق بوفاريك - النتيجة الجيدة لهذا الإجراء - الحالة المرضِيّة للبلد - حل مكتب العرب - العقيد الملازم ماري Marey يعيّن آغا للعرب- تغيير السياسة العربية - حرب ضد الحجوطيين- اضطرابات في نقاط مختلفة - أحداث بجاية - السلام المزعوم مع القبايل- الجنرال ديميشيل يغادر وهران-عبد القادر يغزو إقليم التيطري وجزء من إقليم الجزائر- التنازلات المقدمة من طرف الكونت ديرلون- جزء من الدواير والزمالة أتوا للدخول تحت حماية الجنرال تريزيل Trézel بوهران- استئناف الحرب - معركة مولاي إسماعيل - خسارة المقطع - مغادرة الكونت ديرلون.

أولى أعمال الكونت ديرلون تعطي الانطباع بأنه تبنى تجاه العرب نظام المصالحة للجنرال فوارول وتخلص مما أدخل هذا الخير فيه من ضعف وتردد. للأسف المحافظ الجديد كان رجلا سهل التحكم فيه، والتي كانت الأفكار تتغير باستمرار نتيجة تشوشها. كل واحد أراد الاستحواذ على عقله من أجل أخذ جزء صغير من العمال. كان ظاهرا أن الثقل كان ملائما للجميع ما عدا أولئك الذين كانوا مسبقا محمّلين.

لقد تكلمنا في الكتاب السابق على الحيل الفضّة المستعملة من طرف المغاربيين من أجل إعطاء أنفسهم أهمية في أعينه. و بعد فشل الهجمات الأولى

الموجهة لمكتب العرب، بدأ المشاغبون بالتخلي عن القواد واستبدالهم برجال لولائهم. حمدان الآغا السابق، أراد تعيين بورباح ببني موسى وهو رجل فاسق تمت إقالته من طرف الجنرال فوارول واستبدله بعلي بن الخزناجي. تم القيام بكل شيء من أجل أحداث تغيير، ولكن الخزناجي قاوم كل الهجمات مدعوما بالجنرال فوارول وانتصر في الأخير على كل مؤامرات أعدائه.

نتيجة لحدوث بعض الإنقطاعات في توريد زيوت "يسر" "آمال" و"واد الزيتون"، تم استغلال هذه الظروف من أجل مهاجمة قائد الخشنة العربي بن قاية. وكل واحد قدم مرشحه على أنه الوحيد القادر على تمكين هذه التجارة لاستعادة كل نشاطها. فوضع بن عمر للأمام رجلا غامضا ودون نفوذ، طبيب انجليزي مقيم بالجزائر وكانت له بعض الحسابات لدى الدوق دوروفيقو، أراد كذلك الدخول في هذه المسألة. ولكن توريد الزيوت استعاد طبيعيا نشاطه فتوقفت الدسائس. المرشح بن عمر قام بشتم القايد فتم سجنه وعادت الأمور إلى طبيعتها.

الكونت ديرلون الذي تخلص لبعض الوقت من هذه الهواجس بدأ بدراسة البلد بعض الشيء. رأي هذا الطاعن في السن لا يزال سليما عندما توفر له ذاكرته، التي بدأت تضعف عناصر التفكير تم إبلاغه بما حدث ببوفاريك في جويلية الماضي، وتم إقناعه بضرورة فرض احترام السلطة الفرنسية، فقام بإرسال كل يوم الإثنين بعض الكتائب التي

سهّل تواجدها تردد الأوروبيين على السوق. وقرر عاجلا شغل هذه النقطة بصفة دائمة حيث لقي هذا الإجراء العديد من الاعتراضات.

وصعُب على الوزير قبول المصاريف التي سيجرها رغم قلتها حتى في الجزائر. والبعض كان يراه ماحقا للسوق وبذلك لتجارة بني خليل. لقد قدموا موقع بوفاريك أيضا على انه الأكثر علّة في البلاد وأن الفرق العسكرية التي تستقر بها ستباد بالأمراض. الأحداث أثبتت أن كل هذه المخاوف لا أساس لها من الصحة ولا يتم هجر سوق بوفاريك، وتبين أن الموقع من أكثر المواقع معافاة من كل المواقع التي نشغلها. المعسكر الذي نصبناه هناك أخذ تسمية معسكر ديرلون، مشكلا من سور مستطيل محصن وكومات هائلة من قطع الحجارة التي تم استخدامها في بناء ثكنات وإسطبلات. تشييد هذا المعسكر لم يدم سوى أشهر قليلة. وهو الآن من أجمل منشآتنا العسكرية.

الإجراءات التي اتخذها الكونت ديرلون أوضحت للعرب أنه ينوي معاملتهم بصرامة ولكن بليونة. كل تلك الاضطرابات البسيطة التي حصلت كنتيجة طبيعية لأحداث شهر جويلية توقفت فجأة وعادت الأمور الى مجاريها. كما كانت أشهرا من قبل وانتشر الأوروبيون من جديد في السهل، وأخيرا استقرت الأوضاع السياسية للبلاد لبعض الوقت. وللحفاظ على حالة الأمور كان من الواجب تعيين آغا للعرب.

فاختار السيد ماري Marey الذي تم من جديد تعيينه عقيد مقدم قائدا لفصيلة الصفاحي النظاميين، وهي قيد التشكيل والتنظيم. هذا الضابط استقر مدة ثمانية أشهر بباريس وتمت الإشارة إليه عبر آراء أشخاص مهمين شاهدوه على أنه ممتاز لهذا المنصب، وهو ما حدد اختيار الكونت ديرلون. هذا الإجراء أدى بطبيعة الحال إلى حل مكتب العرب الذي اختفى عن الوجود في 20 نوفمبر 1835.

استغل رئيس مكتب العرب الثمانية أيام الأخيرة من عمله في التجوال بالبلاد دون أي مرافقة سواءا العرب أنفسهم، من أجل ملاحظة الحالة المسالمة للقبائل. أستضيف بالقليعة عند المرابط المحترم سيدي محمد واشتكى الحجوطيون الأساسيون من عدم فعالية قائدهم الذي أعماه عشق امرأة شابة عن واجباته. فتم التحضير لاجتماع جديد بمقطع خيرة بعد بضعة أيام من ذلك من أجل تقرير الوسائل الناجعة لمعالجة هذا الوضع، الذي ترك المجال مفتوحا للمجرمين وهو ما يلحق الضرر بكل القبيلة. وبالفعل تمت عملية سرقة الأبقار في منطقة الساحل ولا أحد كانت له سلطة متابعة المذنبين الذين كانوا معروفين، وتم تحديدهم من طرف الحجوطيين أنفسهم. وبما أن حل مكتب العرب كان قد تم تطبيقه بالتزامن مع ذلك، فإن متابعة هذه القضية تعود بطبيعة الحال للآغا الجديد، ولكن الكونت ديرلون ظن أن من واجبه تكليف السادة فارجي M.M Vergé وأليغرو Allégro بذلك، لخروجهما توّا (حالا) من مكتب العرب. هذين الضابطين تقربا من الحجوطيين وبعد تأكدهم أن عدم فعالية قويدر التي لا تسمح بمتابعة

مهامه، تم اقتراح استبداله بمحمد بن الحاج رباح صاحب حوش الحاج، وهو شاب كفؤ ومقدام وكان له العديد من المناصرين. القضية كانت على وشك أن تُحَلّ عندما تدخل أصدقاء للآغا، متحمسين أكثر من ذكائهم وأخبروا الجميع أن هذان الضابطين يتصرفان دون أوامر ولا يجب الوثوق بكلامهم. وظن الحجوطيون أنه لم يعد يوجد قيادة في الجزائر وأنه توجد نزاعات حول قيادة القضايا العربية. وعمد البعض إلى الطلب من الضابطين ما يمكنهم تقديمه لهم من مزايا ليكونوا في صفهم ضد الآغا. هذه القضية كان من الممكن ودون شك أن تُساقَ بطريقة نظامية مما آلت إليه، ولكن المهم هو أن يتم حلها أخيرا بطريقة أو بأخرى. تم إبلاغ السلطات الفرنسية مهما كانت اليد التي تحكمها، بأن الحجوطيين أصبحوا دون قائد في الوقت الحالي وأنهم يرغبون في الحصول على واحد حقيقي، وأنه من واجبها تزويدهم به، وهو الشيء الذي لم تقم به. الحجوطيون الذين كانوا متغطرسين ومتهكمين سمحوا بسخريات لا مبرر لها ضد الآغا، ومن جهة أخرى كثير من الأشخاص كانوا سائمين من الكون في سلام. فتم بسرعة كبيرة استغلال سرقة الأبقار في الساحل من أجل حل المسألة بالسلاح رغم أنه كان من الإمكان حلها بطريقة أخرى.

في 5 جانفي أربعة معارك من الزواف وصيادي إفريقيا والسباهيين النظاميين وأربعة مدافع للجبال وقطعتين للبراري، اجتمعت بأولاد منديل قبيل الدويرة. في نفس اليوم والذي كان يوم الإثنين توجه العقيد ماري إلى سوق بوفاريك مع بعض الكتائب واعتقل شخصين من حجوط كانوا

هناك. واحد منهم كان من الذين كانت له فرصة الحصول على خدمة من الجنرال فوارول والذي لم يفوت أية فرصة من أجل مساعدتنا. تم اقتياده إلى الجزائر مع رفيقه ووضعهما في السجن، وبعد شهرين من الحجز تمكنا من الفرار.

عملية اعتقال الرجلين التي كانت تعتمد على مصداقية الاتفاقيات الموجودة، كانت قليلة الوفاء دون شك ولكنها تجنبت أعمالا كانت ستكون أقل وفاءا، بمعنى مفاجئة سلام تام لقبيلة في اللحظة السانحة. وبالفعل بعد أن علم الحجوطيون بما حدث ببوفاريك إزدادوا تأهبا، وعند ولوج الفرق الفرنسية لأراضيهم في صباح السادس كانوا قد وضعوا كل قطعانهم وأفرادهم في مأمن. في اليوم السادس والسابع قسّم الجنرال راباتال Rapatel قائد هذه الجولة قواته إلى ركيزتين، وحارب البلد في كل الاتجاهات. في ليلة السابع سار ليلا وداهم قبيلة موزاية التي قيل أنه من الواجب أيضا توبيخه. وعند مطلع اليوم، هاجم إحدى قراهم الواقعة في إحدى مضايق الأطلس. وحدث تصادم شديد أين تم إصابة العقيد ماري Marey. ذهبت الركيزتين لقضاء ليلة الثامن على ضفاف الشفة لملاحقة الحجوطيين وأفراد من موزاية. وفي التاسع تمت عودة الفرق إلى بوفاريك من حيث تم إرسال في اليوم الموالي كل فرقة إلى معسكراتها.

وهكذا استأنفت الحرب ضد الحجوطيين، حرب فيها ما نخسر

أكثر مما نربح، ومنذ تلك الفترة تحدث هذه القبيلة التي لا تضم سوى 400 فارس سلطتنا وصاروا يقتلون منا أكثر مما نقتل منهم. ويسلبوننا ويسلبوا حلفائنا باستمرار ضعف الماشية التي نسلبها لهم في حملاتنا. ولم ينقص ذلك بل على العكس كان يزيد يوما بعد يوم خاصة بتدعيم أفراد من قبائل أخرى للغاضبين والذين توجهوا إلى أراضيهم[1].

شهرا بعد رحلتنا إلى الحجوطين أرادوا رد الزيارة لنا، وبذلك أرسلوا 150 فارس من بينهم هارب فرنسي. هذا الفوج مسح كالإعصار كل الطريق الرابط بين دالي إبراهيم والدويرة وقتل مسافرين وعسكريين وانسحب بعد تبادله إطلاق النار مع مخيم للعمال بيابا حسن من أجل أشغال الطريق. حصل بالساحل على غنائم معتبرة. وذهبت فصيلة استطلاع بقيادة الجنرال راباتال في ذلك اليوم لزيارة ضفاف المزفران أين نوي إنشاء مقر هناك. الصدفة كانت قادرة على ملاقاتهم بالحجوطيين الذين كانوا سيقعون في الفخ الذي نصبوه بأنفسهم، ولكنهم كانوا جد محظوظين باجتيازهم لمعبر مقطع خيرة ساعة قبل وصول الفرنسيين.

هذا الحدث وبعض عمليات النهب الأخرى التي قام بها العرب العداليون، نشرت الرعب لدى المستوطنين الأوروبيين وما زاد ذعرهم، هو ذلك النشر الغير الحاذق للعديد من جداول الأعمال التي كانت توصي بإجراءات كانت توحي بأن الخطر أكبر مما هو عليه في الحقيقة.

(1) الحجوطيون كانوا مادة عادية لنشرات الأخبار اليومية . المراقب الجزائري قال ثمانية عشر أكثر مما وجد.

رأى الكونت ديرلون أنه تورط في مسلك خاطئ، وردود الفعل التي قام بها في هذا الموضوع كانت دون شك من تعداد الأسباب التي دفعوه إلى التنازل في كل شيء للعرب في كل النقاط الأخرى لحكومته. فهكذا يحدث عند الرجال الضعفاء، فالاعتراف الباطني بخطأ لا يصلح إلا لدفعهم للقيام بخطأ جديد في إطار آخر.

أوضحت حملات الحجوطيين أن الطريق بين دالي إبراهيم والدويرة كان سيء الحراسة، ولتغطيته بشكل أفضل يتم تأسيس معسكر فصيلة "بمعلمة".

ومع ذلك فإن أفعال الإدارة قامت بتنفير عدد كبير من الناس غير الحجوطيين. العرب الذين كانوا يعاملون بطريقة لطيفة تحت إدارة الجنرال فوارول كأنهم أصدقاء أو رفقاء، تعودوا على هذه الحالة ولم يعودوا يأبهون للشكليات التركية التي كنا نستخدمها معهم. الكثير منهم توقفوا عن المجيء إلى الجزائر وأخذوا موقفا معارضا ضدنا. من بينهم قائد بني خليل العربي بن إبراهيم، الذي انضم إلى صفوف الحجوطيين في حملة شهر جانفي. تم استبداله بعلي بوشيشة شيخ أولاد شبل. تقريبا كل فرسان المرجية والعديد من بني موسى اقتادوا بالعربي. ووقعت تقريبا في نفس الفترة حادثة غرق سفينة سردينية أمام رأس بانقي Bengu، والتي تمكن طاقمها من الوصول إلى البر سالمين ولكنهم وقعوا بين أيدي ناس يسر D'Isser، الذين لم يريدوا إطلاق سراحهم دون دفع فدية كبيرة. هذه الوقاحة التي كانت تستحق عقوبة مثالية، مرت مرور الكرام على الكونت

ديرلون. دفع قنصل سردينيا المال المطلوب لتخليص أولئك المساكين، وتم نقله إلى ناس يسر D'Isser بواسطة ضابط من قيادة الأركان. من الإنسانية أن تقوم أولا بتخليص المنكوبين ومن ثم تلقين قبيلة يسر أنه لا يتم ابتزاز المحافظ العام للممتلكات الفرنسية في شمال إفريقيا دون عقاب. ولكن المحافظ لم يتعلم ذلك وبينما كان يضايق الحجوطيين من أجل سرقة أبقار، ترك ناس يسر بسلام وهم من قاموا بسرقة رجال.

قرابة شهر مارس جاء الحجوطيون بعدد 200 أو300 للقيام باستعراض أمام معسكر بوفاريك وبينما كان جزء يقوم بإشغال انتباه القوات بصدها الشجاع لضربات المدافع بضربات بنادق، كان الآخرون يسلبون الماشية لناس بني خليل حلفائنا. وبعد يوم من حملات السلب والنهب انسحبوا إلى ضفاف الشفة أين كان لهم معسكر صغير هناك.

في اليوم الموالي ليلا، توجه الجنرال راباتال Rapatel إلى ذلك المعسكر بخمس كتائب، وعند وصوله إلى هناك عند مطلع الشمس وجدوه خاويا. السباهيين النظاميين وصيادي إفريقيا بدؤوا بملاحقة الحجوطيين الذين لم يكونوا في انتظارهم. وبعد ساعة من السباق عادت الفصيلة إلى ركيزتنا التي عاودت أدراجها إلى بوفاريك. والحجوطيون عادوا لمهاجمة المؤخرة كعادتهم. وكانت هذه الجولة دون نتائج.

الأحداث العسكرية والسياسية الأكثر أهمية في عهدة الكونت ديرلون

حدثت خارج منطقة الجزائر. تمت ببجاية مهاجمة مقر قوراية في ليلة 9 أكتوبر، وتم صدها بالقبايل البدوية التي أبعدت العدو والاشتباكات الشديدة التي كانت في البداية توقفت بسرعة.

في العاشر ومنذ الصباح ظهرت الأفواج العديدة من القبايل من بعيد، وفي الثامنة مساءا أطلقت مفرقعات من معاقل السهل ومعقل الرمان للإعلان عن اقتراب العدو. وسرعان ما سمعت أصوات وابل من الرصاص الشديد في الحصن السفلي، ولكن بعد قليل من الوقت، نقل القبايل هجومهم إلى الحصن العلوي أين كان العقيد دوفيفي Duvivier موجودا. تصدت لهم مدفعياتنا فركزوا كل قواتهم على معقل سالم الذي تمت مهاجمته بشدة. صمد هذا المعقل أربع ساعات ونثر الموتى على الأراضي المحيطة به. بدأ القبايل بإشعال النار في الحشائش وأكوام التراب المحايدة للمعقل ولكن لحسن الحظ لم تصل النيران إليه، وعند الواحدة ليلا توقفت الهجمات وابتعد العدو. والعقيد دوفيفي الذي لم يكن يتوفر لديه سوى 600 رجل لم يجرؤ على محاولة الخروج، فقوى القبايل فاقت 6000 رجل.

لم يحدث شيء مميز ببجاية منذ مهاجمة معقل سالم حتى الخامس ديسمبر، ففي هذا اليوم ظهر العدو بعدد كبير على السهل وعلى أعالي المطحنة. سار العقيد دوفيفي مع جزء من قواته لمواجهة الذين كانوا في السهل وأمر الفصيلة الثانية لقناصة إفريقيا بالتحرك بطريقة تدير الموجودين في أعالي المطحنة وترميهم عليه؛

ولكن الأمور لم تسر على هذا النحو. القبايل الذين كانوا في مواقع أعالي المطحنة بقوا متحكمين في عملية تراجعهم والتي تم القيام بها من أعالي الموقع. أولئك المتواجدين في السهل تم سحقهم من طرف العقيد دوفيفي بعد تكليف فصيلة الفرسان بها والتي قتل منها بعض الرجال.

وبعد ثلاثة أيام أوز في 8 ديسمبر، خرج العقيد دوفيفي من بجاية ب 1500 رجلا تقريبا، وتوجه إلى واد بومسعود أين دخلها دون مقاومة. كان هذا الوادي رائع مزروع جيدا ومغطى بمساكن عديدة التي تم إحراق البعض منها. وبدأ القبايل المتمركزين في الضفة اليمنى من النهر بإطلاق نار شديد عند اقترابنا، ولكنهم ابتعدوا عندما قام الفرنسيون بعبور النهر. بعد استكشاف الوادي من الضفتين، بدأ العقيد دوفيفي يتراجع نحو بجاية. حيث تم ذلك بنظام رائع أعاد إظهار المواهب العسكرية لهذا الضابط المميز، ومع ذلك كتيبتين من الفصيلة الثانية لقناصة إفريقيا لم تستوعب ما يجب فعله، إذ أوشكت على تعريض نفسها للخطر.

في هذه الجولة الصغيرة، لم يعرّض العقيد دوفيفي ممتلكات القبايل إلا لجزء بسيط من الضرر المسموح به في قوانين الحروب. لكي يثبت بهذا أن قوة الشر لديه لم تكن مقيدة سوى بإرادة فعل الخير. ومنذ ذلك الحين تقيدت المزاية بنوع من الحياد. أظهر ابن أورباح القاطن بواد مسعود والذي أدرك أنه بإمكاننا الوصول إليه ميوله إلى السلم، ولكن مسايرة كبريائه لم تسمح

له يطلبه من الكولونيل دوفيفي. فوجه أنظاره نحو شاب ببجاية يدعى لوواسي Lowasy مفوض الملك لدى البلدية وغريب كليا عن المدينة. ودخل في علاقة مع هذه الشخصية بواسطة شخص يدعى مدني وهو عربي مخادع. السيد لوواسي كان فخورا بإيجاد شيء يفعله أخيرا ببجاية، فأسرع بالكتابة للمشرف المدني من أجل إعلامه بأنه يمسك بين يديه خيوط تهدئة الناحية. وأنه لم يحدث ذلك من قبل بسبب أحاسيس الحقد والإبعاد التي كان الكولونيل دوفيفي يعطيها للقبايل. بلّغ المشرف المدني بهذا الاكتشاف المحافظ العام الذي سمح للسيد لوواسي ودون التعمق في المسألة بالتفاوض مع أورباح إذا أمكنه ذلك. محملا بهذا الترخيص والذي من غير المعقول والغير اللائق أن لا يتم تبليغ قيادة الأركان ببجاية به. استقل السيد لوواسي قاربا من الميناء في 27 مارس وتوجه برفقة ذاك العربي إلى مكان من الساحل حيث كان أورباح ينتظرهما فيها. لم يتعدى اجتماعهما بضع دقائق حتى تمت مقاطعتهم بطلقات نارية من قبايل رافضين لما يجري. هاجمت الفرقة التي اصطحبها أورباح معه هؤلاء المقاطعين وقتلت ثلاثة منهم وقطعت رؤوسهم. في هذه الأثناء وبعد ارتباك السيد لوواسي M. Lowasy لعدم معرفته كيف سيكون المخرج من ذلك عاد إلى مركبه مبحرا. وعبثا أراد أورباح مناداته ملوحا بجوائزه الدامية والتي تعتبر ضمانات حسن نيته، ولكنه لم يسمع شيئا وأسرع بتجديفه إلى بجاية. ولكن

مارقا آخر كان ينتظره هناك، إذ تم إبلاغ الكولونيل دوفيفي بأن مركبا غادر الميناء ورأى من بعيد أوروبيا في اجتماع مع العدو دون تصريح وهو عمل عقوبته الإعدام في قانونا. فأرسل على الفور مركبا آخر لاعتقال ذلك الأوروبي. فتم توقيف السيد لوواسي وحجزه لساعات بسفينة مراقبة، وبعدما أبدى للعيان تصريح الكونت ديرلون، تم الإفراج عنه وذهب على الفور إلى الجزائر حيث وصل في نفس الوقت مع تقرير الكولونيل دوفيفي الذي كتبه حول هذه القضية للمحافظ.

وعندما تحصل الكونت ديرلون على تقرير كتابي وآخر شفهي دفعة واحدة ومتناقضين في نقاط عديدة أرسل إلى بجاية الكولونيل لومارسيي Lemercier مدير التحصينات، والذي كانت الطبيعة الخاصة لمهامه تجعله غريبا عن مثل هذه المهمات. كلّف هذا الضابط السامي بتفحص الأوضاع هناك والتفاوض مع ولد أورباح إذا ما ظلت استعدادات هذا الشيخ سلمية. وعند وصوله إلى بجاية تحاور معه عند مصب نهر الصومام. أعلن وليد أورباح أنه يريد بالفعل الدخول في هدنة إلا أنه يضع لها شرطا أوليا، وهو إبعاد الكولونيل دوفيفي عن بجاية دون التماس أي شكوى تجاه ضد هذا الضابط. هذا الغرور كان جد مفرط ومعاكس تماما للكرامة المناسب وضعها في علاقاتنا مع السكان المحليين، حتى أن الكولونيل لومارسيي Lemercier لم يرد التفاوض على هذا الأساس الحقير و فضّ

الاجتماع. ولكن الكولونيل دوفيفي الذي تم إبلاغه بما جرى، سخط على طريقة المحافظ وأعلن أنه لا يريد أن يكون عائقا في مسار السلام الذي تظهر رغبته بشدة، وطلب العودة إلى فرنسا مع تحذيره بأن هذا السلام لن يكون سوى خيالا والأحداث السابقة لم تفعل سوى إثبات ذلك. أرسل قارب بخاري على الفور إلى الجزائر لنقل طلب السيد دوفيفي والإنذار النهائي لوليد أورباح.

وقام الكونت ديرلون في نفس الفترة باستدعاء الجنرال ديميشيل من وهران لأنه كان يلومه على اتفاقيته مع عبد القادر والتي كانت فيها كرامة فرنسا غائبة، ويتناقض مسبق وبحجة محزنة أذعن للشرط الوقح لوليد أورباح. بمعنى أن ذلك المسن كان تعرض لعوامل تأثير مختلفة. العرض المقدم من طرف السيد دوفيفي لانسحابه إذا ما كان عائقا للسلام، تم تقبله وتم استبدال هذا الضابط السامي مؤقتا بالكولونيل لومارسيي. من المؤكد أن السيد دوفيفي كان بعيدا عن إحلال السلام المرغوب فيه، بل كان ضد التضحية برفاهية وتماسك مقرنا ببجاية. ولم يكن ملائما أن نقدمه كأضحية لمطالب العدو خاصة من أجل الوصول إلى نتائج جد سلبية كالتي تحصلنا عليها.

وبعد تخلص أرضية الهدنة من كل العوائق، حضر شروطها السيد لوواسي وأمضى كل من السيد لومارسيي ووليد أورباح معاهدة التي بمقتضاها

يتخلى هذا الأخير عن مدينة وحصون بجاية التي في الأصل ليست ملك له وسهول هذه المدينة المتواجدة على أراضي المزاية Mzaïa، وتعهدت فرنسا من جهتها بمساندة وليد أورباح في حروبه ضد القبائل التي ستعاديه[1].

وفي الحقيقة هذا وليد أورباح الذي جعلناه أميرا لم يكن سوى شيخ لولاد عبد الجبار Oulad-Abdel-Djebar، كان جد غني إذ تمكن من إبقاء بعض الفرسان لحسابه دائما ولكن ليس نافذا لدرجة فرض إرادته وحساباته مكان حقد ونزوات القبايل. إنه يزعم أنه سيستغل درجة نفوذه التي يظن أنه يتمتع بها. طول مدة قيادة السيد لومارسيي ببجاية قام بدفعه إلى الإسراع في الهجوم على أعدائه "سكان المزاية"، حسب بنود الاتفاق ولكن الكولونيل أعلن أنه لن يقوم بذلك إلا إذا رافق وليد أورباح الفرنسيين في هذه الحملة ضدهم، وعندها كان مجبرا على الاعتراف على أن هذه الخطوة ستحرض عليه كل أهالي الناحية. ولكن هذا اعترافا بأنه لن يكون ذو فائدة لنا مثل ما قام بالتنبؤ به جيدا السيد دوفيفي. ومن جهته لم يجني من ثمار تحالفه معنا سوى بعض الهدايا الثمينة التي قدمها له الكونت ديرلون.

وعلى الفور بعد مغادرة السيد دوفيفي، في الوقت الذي كنا نظن فيه أننا دخلنا في اتفاقية سلام مع أغلبية القبايل، تمت مهاجمة بجاية من طرف ثلاث إلى أربعة آلاف رجل. السيد لومارسيي بحث مطولا على إقناع

[1] إنه لمن الواضح أن رجلا مثل السيد دوفيفي كان يعرف التنظيم السياسي القبائلي لم يكن ليمضي هذه المعاهدة التي كانت بلا معنى كليا (انظر الكتاب 14).

نفسه بأن هؤلاء الناس مخطئون وأنه مجرد سوء فهم. أرسل إليهم بعض المجموعات ومترجما الذين تم استقبالهم بطلقات البنادق. فكان من المفروض الإعتراف بالحقيقة. وفي اليوم الموالي قطعت رؤوس ثلاثة من جنودنا على مقربة من المدينة، وما كان ذا معنى أعمق أنه لم يكن يأتي شيء إلى السوق الذي تكفل وليد أورباح بتموينه. وتم توضيح منذ ذاك الحين بأن معاهدة السلام لم تكن سوى استعدادات مثلما أعلنه الكولونيل دوفيفي. والأحداث كلها أبرزت تنبوات هذا الضابط السامي وكأنه قام من قبل بالالتزام معهم.

بعد بعض الوقت من الإقامة ببجاية عاد الكولونيل لاستعادة مهامه بالجزائر بعد أن رأى عدم تغير الأوضاع هناك، وحلّ محله السيد جيرو Girod وهو العقيد الملازم برئاسة الأركان ومساعد معسكر المحافظ. وتم تحت قيادة هذين الضابطين تشييد المبنى الممتد من قلعة عبد القادر إلى قلعة موسى، هذا الإنشاء جعل حراسة الميدان أكثر سهولة وأقل تعبا. لم يقم السيد جيرو doriG بأية حملات واكتفى بالتصدي من وراء خطوط الهجمات الفاشلة للقبائل إتباعا للتعليمات التي تلقاها. وكان لا يزال ببجاية عندما غادر الكونت ديرلون المستوطنة.

بعنابة وبعد وقت قصير من وصول هذا الجنرال إلى الجزائر، حدثت حلقة جد مهمة في 18 نوفمبر إذ وصل فرسان من قبيلة العلمة إلى المدينة

بسرعة فائقة، لطلب الحماية من الجنرال اوزار Uzer ضد عساكر باي قسنطينة الذين نهبوا أراضيهم تحت قيادة بن عيسى جنرال هذا الباي. في المساء انطلق الجنرال مع ثلاث كتائب مدفعية ثلاث أسراب من الفصيلة الثالثة لقناصة إفريقيا وجميع الكتائب. وصل في الصباح إلى فرق بن عيسى التي تولت الكتائب والقناصة القضاء عليها بحزم. تخلى فرسان الباي عن المشاة فقتل منهم 150 وأسر منهم 15.

لم تتدخل جنود المشاة الفرنسيين في هذه المسألة التي ظهرت فيها بالخصوص كفاءة القائد جوزيف Josef ونقيب رئاسة الأركان دلكومب Delcambe قائد الكتائب غير النظامية. وجدنا في معسكر القسنطينيين 10000 رأس من الماشية والتي أعدنا الجزء الأكبر منها إلى العلمة التي سلبت منها.

لقد قمنا بالتعريف بالأحداث السياسية والعسكرية لإقليم عنابة والجزائر تحت إدارة الكونت ديرلون. وبقي لنا الآن التحدث عن أحداث إقليم وهران التي كانت في هذه الفترة ذات أهمية إلى حد التأثير الكبير على مستقبل البلاد دون شك.

كان أتباع ومعارضو سياسة الجنرال ديميشيل ينتظرون بفارغ الصبر وصول الكونت ديرلون، ويأمل البعض منهم إنجاح نظام كانوا يظنونه دون شك ايجابيا للمستوطنة، والبعض الآخر يريد تنبيه الحكومة للنتائج

الوخيمة التي سيجرها بطبيعة الحال. الانطباعات الأولى التي قابلت المحافظ العام كانت سلبية تجاه عبد القادر. فلقد اعترض مكتب العرب سبيل رسائل أين كانت اعترافات الأمير الشاب ومشاريعه الطموحة واضحة. ولم يكن من الممكن رؤيته كما رآه الجنرال ديميشيل وسيلة سهلة الانقياد والتي يمكن لفرنسا استخدامها من أجل فرض هيمنتها في المقاطعة. وبمجرد إبلاغ الجنرال ديرلون بهذه الرسائل، وصل الجنرال ديميشيل إلى الجزائر مع ميلود بن حراش الذي قدم من أجل اكتشاف ترتيبات المحافظ الجديد. هذا الأخير لم يكن له بعد عن البلد إلا أفكارا مشوشة وكذا تأثير الرسالات المكتشفة[1]، والذي اختفى خلال لقاءاته مع قائد وهران والمبعوث العربي. تمت معاملة ميلود بقدر كبير من الاحترام وغادر الجزائر جد راض عن نتائج مهمته ومحملا بهدايا ثمينة لحاكمه. استطاع الجنرال ديميشيل تصديق أن نظامه انتصر ولكن قبل أن يتحصل كليا على المصادقة كان مضطرا للعودة إلى وهران التي بدأ انتشار داء الكوليرا بها. وهنا وقع الكونت ديرلون في يد تأثيرات أخرى والتي وللأسف لم تكن الخيرة التي قادت وعدّلت تعامله وأفكاره.

استعاد عبد القادر دون حيطة فكرة مشروع التوسع الذي أجبره الجنرال فوارول على تأجيله أشهرا من قبل وهذا بعد تحفيز الجنرال ديميشيل له ظنا منه أنه لا توجد أي معارضة من المحافظ. وكتب إلى قبائل التيطري

(1) هذه الرسائل تم الحصول عليها في الأيام الأخيرة من إدارة الجنرال فوارول و الذي أعطى الأمر بعدم فتحها حتى وصول الكونت ديرلون.

وحتى ضواحي الجزائر لإعلان اقتراب وصوله. وأحس الكونت ديرلون بغيظ كبير بعد علمه بذلك. فكتب بدوره إلى كل القبائل معلنا أنه إذا ما أنجز عبد القادر مشروعه فإنه سيعامله كعدو لفرنسا وكذا كل من يتحالف معه. وفي نفس الوقت أنذر عبد القادر بالعدول عن فكرته ليس فقط تجاوز منطقة الشلف بل حتى التقدم إلى ما وراء الفضة Fedda. الأمير كان بعيدا عن انتظار مغزى آخر كهذا. والغيظ الذي أحس به هو ما كان سيدفعه إلى عدم الإكتراث به لولا أن داء الكوليرا كان يبيد قبائله. فقد كان مجبرا على البقاء في حالة جمود جسدي إلا أن نشاطه الفكري كان ينصب في تحليل طبيعة علاقاته مع الكونت ديرلون. فرأى أنها تفتقد إلى الاستمرارية والأداء الموحد وهذا جراء التأثيرات المستمرة التي كانت ضده، والذي كان من الواجب مقاومتها بتأثيرات من نفس النوع. ونتيجة لذلك، قرر أن يكون له مكلف بالأعمال في الجزائر. واختار لهذا المنصب اليهودي الجزائري دوراند Durand وهو رجل مثقف رقيق وحاذق، ترعرع في أوروبا ويتقن عدة لغات بكل طلاقة خاصة الفرنسية. في الوقت الذي تم اعتماد هذا الرجل لدى الكونت ديرلون، كانت التجارة الفرنسية رفعت شكاوى حادة ضد الاحتكار الممارس من طرف عبد القادر المخالفة -حسب ما يقال- لبنود الاتفاقية. وطلب المحافظ تفسيرات من دوراند Durand الذي أجاب أنه حسب الاتفاق المذكور، فإن عبد القادر

كان حرا في إعطاء التجارة بأرزيو المنحى الذي يناسبه. هذه النقطة تم إنكارها وهذا طبيعي بما أن الكونت ديرلون لم يطّلع إلا على الجزء الذي تم الإعلان عنه رسميا. وكم كان تفاجئه كبيرا عندما وضع دوراند بين يديه الاتفاقية الكاملة مثلما قمنا بنشرها في الكتاب 13.

وبما أنه لم يستطع إيجاد تفسير يبرر تصرفات الجنرال ديميشيل الذي تركهم يجهلون وجود هذا الجزء، طلب على الفور من الوزير استدعاء هذا الضابط وأرسل إلى وهران الجنرال تريزيل ليحل محله كرئيس لهيئة الأركان.

قبل هذه الخاتمة بوقت قليل، بدأ الجنرال ديميشيل في البحث عن استبدال الاتفاقية التي كان وجودها الغامض يخلق الكثير من الشكاوى باتفاقية جديدة، لأنه كان يعلم أنه سيحين بالضرورة وقت للنقض، فأرسل إلى الأمير أحد ضباطه الذي اقترح عليه التنازل له عن مستغانم، وبعض المزايا الأخرى مقابل تخليه عن الاحتكار ودفعه جزية بسيطة لفرنسا. وأجاب عبد القادر بتعالي أنه يتمسك بالاتفاق الأول وأنه في حالة ما إذا أردنا استئناف الحرب عكس كل حق أو عدالة فأنه مستعد لتحملها.

ورغم هذه النبرة الواثقة، كان عبد القادر يهاب الحرب وقد تأثر كثيرا عند علمه باستدعاء الجنرال ديميشيل وهذا ما وضّح له التغييرات

(1) تفاصيل هذه العلاقة الدبلوماسية تجلب الفضول و لكن نظرا لطبيعتها فإنها تظهر أفضل في مجموعة من القصص الساخرة عوض عن كتاب جاد.

الجذرية في السياسة المنتهجة تجاهه منذ عشرة أشهر. ولكن خلال وصول الجنرال تريزيل إلى وهران تحت تأثير الأسباب التي دفعت إلى تنحية سلفه كان اليهودي دوراند يعمل بنجاح بالجزائر على إرجاع المحافظ العام إلى المسار الخاطئ لسياسة لم يتوقف عن إدانتها علنا. وبهذه الفرصة شجعت الظروف مهارة المكلف بأعمال الأمير. وكما قلنا في السابق فإن الكونت ديرلون قد أعلن أنه سيعامل كعدو سكان ضواحي الجزائر والتيطري الذين يشجعون المشروع الطموح لعبد القادر. وردّ سكان المدية على هذه التهديدات برسالة حكيمة قالوا فيها أنهم لم يرغبوا أبدا في حضور الأمير بن محي الدين عندهم بل كانوا متأملين في أن يخرج الإقليم من الفوضى التي كان يتخبط فيها منذ أربع سنوات، وإنهم توجهوا بنفس الطلب للفرنسيين وهم من ترفّعوا عن مدّ يد العون لهم. ومن الغريب أن هؤلاء الفرنسيين بحدّ ذاتهم وجدوا أنه من السيء البحث عن عون أحرى بما أنه تم رفضه بإصرار. هذا التحليل كان من النوع الذي له تأثير وأحسّ المحافظ العام باستقامته. ففكر بتشكيل حكومة بالتيطري ولكن عوض البدء في هذه القضية انطلاقا من النقطة التي تركها فيها الجنرال فوارول وقع اختياره لمنصب باي بالتيطري على القائد إبراهيم، الذي عاد إلى الظهور بعد إقالة الجنرال ديميشيل. وكان مخططه تخصيص له حسانة من الجنود الأتراك أو من الأهالي لتعيينه بالمدية أين سيبقى هناك

مع هذه الفرقة. وبما أن هذا المخطط لم يحصل على موافقة الوزير، فكر الكونت ديرلون أنه لم تبق له وسيلة لمواجهة أطماع عبد القادر وأن يستسلم للنتائج التي ستتمخض عن ذلك من الآن وصاعدا، وترك نفسه دون احتياط للانسياقات التي أراد دوراند إعطاءها له. وهكذا فإن الجنرال تريزيل الذي أرسل إلى وهران كممثل لسياسة مخالفة للجنرال ديميشيل وجد نفسه في وضعية غريبة واستثنائية في تناقض مع الكونت ديرلون نفسه الذي وضعه لتحقيق هذا الهدف.

أثناء ذلك وبعد أن قام دوراند بإعلام عبد القادر بما يحدث في الجزائر، لم يتجاهل أي شيء يجعله لطيفا عند الكونت ديرلون . كل الفرنسيين الذين كانوا يسافرون عبر أراضيه كانوا يُستقبلون بطريقة جيدة، وكان يضمن لهم الحماية الكاملة والفعالة. وكان يستخدم خاصة حكمته وأسلوبه المغري في جذب الإرادة الطيبة لبعض ضباط رئاسة الأركان الذين كان المحافظ يرسلهم إليه في مرات متعددة والذي كان يعرف شغفهم ببعض الأرصدة. وسرعان ما لم يعد هناك كلام في الجزائر سوى عن الأمير عبد القادر. حتى أولئك الذين كانوا تأسفوا على أخطاء سياسة لم يعودوا يتكلموا سوى بإعجاب عن خصاله الكبيرة. وبينما كانت شهرته تمتد بهذه الصورة وعبر اسمه البحار ووصل صداه في أوروبا، تمت مهاجمة قوته. فبعد أن أعلن سيدي العريبي خضوعه تآمر ضده، بعد تقديم الإثباتات المكتوبة بيد المذنب حكم عليه مجلس القضاة والعلماء بالإعدام. عبد القادر لم يسمح بتطبيق الحكم سواء بسبب كرمه أو خوفا من

إثارة استياء أسرة قوية. ولذلك تم وضع العريبي في السجن حيث وافته المنية بعد وقت قصير بداء الكوليرا. وبعد رفض ابنائه الاقتناع بأن ميتة أبيهم كانت طبيعية، رفعوا السلاح وساقوا معهم تقريبا كل قبائل الشلف. مصطفى بن إسماعيل هذا العدو اللدود لعبد القادر وبعد أن انساقت له هذه الأخبار أخرج رأسه من جحره في مشوار تلمسان، وقام بتقديم عروض للجنرال تريزيل إذ لم يكن بإمكان هذا الأخير قبولها تبعا للتعليمات. حقد شخصي مسموم كان الدافع الوحيد لمصطفى والتعصب أعمى كان يوجه كل القبائل التي استجابت لنداء سيدي العريبي. وهكذا بينما كان مصطفى يبحث عن دعم لثورته بالقرب من الفرنسيين، كانت قبائل الشرق تسرع إلى حمل السلاح معاتبين عبد القادر على تحالفه مع مسيحيين. حتى أخو الأمير نفسه القئد السابق للفليتة Flita الذي هجر الأعمال واستسلم لحياة التصوف، انضم إليها وراح يدفعها ضد من كان مفخرة العائلة وشموخ اسمها. وعاجلا ما التحق بهم من هو أكثر خطرا: موسى عمدة الصحراء الذي كان يتقدم من جهة الوسط بقوات معتبرة معلنا أنه سيقضي على الفرنسيين وأتباعهم وأولهم ابن محي الدين. ساق معه قبائل الصحراء تلك المعروفة في عهد الأتراك باسم الدرقاوي أو الأحرار، والتي هزت البايات في حقب زمنية مختلفة. وبعد أن رأى عبد القادر بداية تكون العاصفة قرر الانطلاق وخرج من معسكر في 12 مارس، ووصل عند أبناء سيدي العريبي بخفة كبيرة أجبرتهم على الخضوع قبل أن يتمكنوا من محاولة استخدام أسلحتهم. عندما تقدموا أمامه عاملهم بلطف واحترام وأخبرهم

بأن موت والدهم أنساه جريمته، وعين الأكبر سنا بينهم قائدا للقبيلة.
وبعد إتمام ذلك توجه إلى جسر الشلف. حاول الصبَّاح Sbiah Les مقاومة مسيرته ولكنه هزمهم كليا وأجبرهم على المجيء لطلب العفو. وواصل طريقه بعده فوصل إلى جسر الشلف. إذ كان اجتيازه ضرب عرض الحائط بحظر الحكومة الفرنسية، ولكنه فكر في أنه يمكنه التجرؤ على كل شيء. لذلك أرسل يعلم الجنرال تريزيل عبر قنصله بوهران بأن نيته كانت الذهاب حتى مليانة، وعند وصوله إلى الحدود المسطرة له، تردد لحظة لأنها قد تكون اللحظة الحاسمة التي تقرر مستقبله السياسي. وبعد سماعه أن موسى الدرقاوي قد دخل إلى المدية، استسلم لحظة ووصل إلى مليانة أين استقبله الأهالي ببهجة لا توصف. كان الأغا السابق للجنرال بيرتيزان Berthezen الحاج محي الدين الصغير ومحمد البركاني القايد السابق لشرشال جعلت منهم قلة الاحتياط أو الظروف المؤسفة أعداء لفرنسا، إذ تقدموا لمد يد العون للأمير الذي لم يتوان عن قبولها. سار معهم لمواجهة موسى الدرقاوي الذي لاقاه بالقرب من حوش عمورة على أراضي سوماتة. بعض قطع المدفعية التي احتاط عبد القادر بجلبها حددت هزيمة موسى. ووقعت أمتعته ونساءه اللاتي أخذهم معه كلها بين يدي المنتصر. وتابع الحاج محي الدين الذي كان يقود مقدمة جيش الأمير موسى حتى البرواقية

دون القبض عليه. هذا المغامر عاد إلى الصحراء وبعد وقت قصير أعاد له عبد القادر النساء اللواتي عاملهن بكرم ولباقة. تم استقبال الأمير في المدية مثلما كان في مليانة وعيَّن بن عيسى البركاني بايًا لإقليم التيطري.
وبذلك وجد الكونت ديرلون نفسه في موقف حرج للغاية.أمام رجل قرر بحزم عدم التصرف بدون أوامر من باريس، ولكنه يتذكر مع ذلك تهديداته التي قام بها لعبد القادر من أجل منعه من تجاوز الشلف. كتب الجنرال تريزيل من وهران يطلب الترخيص للسير نحو معسكر من أجل إجبار الأمير على العودة داخل الحدود المسطرة له من طرف الجنرال فوارول ومن طرف المحافظ عينه. ولكن الكونت ديرلون الذي كان خاضعا لهيمنة دوراند وبعد تردد، قرر أخيرا التنازل لعبد القادر عوض رفع السلاح. واليهودي دوراند تكفل بإنقاذ المظاهر ليس في أعين العرب، فهذا مستحيل ولكن في أعين العامة الأوروبيين الذين لا يمكن تضليلهم. ونتيجة لذلك انتشرت شائعات بأن الأمير لم يتحرك إلا بموافقة المحافظ، وفي نفس الوقت تمت الكتابة إليه لكي يقبل استقبال ضابط من هيئة الأركان سترسله الحكومة للتفاوض حول بعض المسائل وتقديم هدايا له. وبعد تلقيه هذه الرسالة لم يكن لعبد القادر سوى مباركة مهارة المكلف بأعماله، وبساطة المحافظ الفرنسي الذي لم يضع في الحسبان العواقب المؤسفة لهذه الخطوة. فرد

عليهم بطريقة تقنع الكونت ديرلون أن هداياه وسفيره سيكون مرحبا به ولإتمام الإذلال كلف الحجوطيين بإيصال الضابط الذي يريد إرساله إليه. الحجوطيون الذين أعلنا عليهم حربا غير عادلة ودون ذنب، والتي لا يمكن أو لا نعرف كيف نحلها قاموا وباعتزاز كبير بنقل المبعوث الفرنسي. هذا الأخير كان مرفقا بالسيد دوراند ولم يكن لديه مترجم غيره. فكان من الواضح أن مهمته ستنحصر في نقل أقوال مساندة وهدايا كان يراها إثباتا على الاستسلام. وعند ذلك سيفكر بأن الفرنسيين متنازلين عن مشروع الاستيطان، ولم يعودوا يفكرون على الحصول في إفريقيا سوى على بعض نقاط البيع تحت حماية من يعترفون به حاكما للبلاد بكل الرضا. اشترط أن يرفع الحظر على مائتي بندقية باقية من شحنة طلبها من تاجر أوروبي، وتم توقيف عملية تسليمها بعد أن أعلن الكونت ديرلون عداوته له. وطلب كذلك بضعة آلاف من الذخيرة. كل ذلك تم وعده بالقيام به. وبعد أن أعلن الحاجي محي الدين بابا على مليانة وعين قايدا للحجوطيين وآخر لبني خليل عاد أدراجه إلى الشلف، حاملا معه المبعوث الفرنسي الذي كان يبدو أنه لم يأتِ إلى جانبه سوى ليكون شاهدا على انتصاراته[1].

بينما كان الأمير على الضفة اليمنى لواد الشلف، تم اغتيال اثنان من ضباطه على أراضي قبيلة الفليتة Flita. وعند عودته اتجه لهذه القبيلة .

(1) كاتب هذا العمل كان يسافر في تلك الفترات بين عرب إقليم وهران كمجرد فضولي و سمع منهم عن وصول ضابط فرنسي إلى معسكر عبد القادر وسمعهم يتكلمون على هذا الحدث كدليل عن خضوع المحافظ العام

وبما أنها لم تتمكن من تسليم الجثث الذين قيل أنهم في حالة فرار تم الحكم عليها بدفع غرامة 150،000 قرشا (250،000 فرنك) التي تم دفعها لخزينة الأمير بعد أن تم اقتطاع مبلغ معتبر لعائلات الضحايا. هذا المثال للعدالة الصارمة قام باستعادة النظام في كل أرجاء البلاد، حيث توقفت عمليات السلب والنهب لأن كل قبيلة أصبحت تراقب المجرمين، والطرق أصبحت أكثر أمانا مثل ما يقال في المثل العربي : يمكن لطفل الجري فيها معتليا تاجا من ذهب. أدرك عبد القادر الذي لا يتوقف عقله عن التفكير، أن الهدايا التي كانت تسمح بها الأعراف للقضاة من طرف المدعين كانت تضر بالسير الحسن للعدالة، فأصدر تعليمة تمنعهم من قبول ذلك وحدد لهم راتبا تدفعه لهم الدولة. تعليمة أخرى ألغت عقوبة الإعدام لجرائم الزنا مع احتفاظ الأزواج بحق قتل زوجاتهم اللواتي يمسكن بالجرم المشهود، وهو ما تم فعله في جميع الأرجاء. والعبقرية الرائعة لهذا الرجل كانت تمس كل شيء وبما أنه كان محاطا فقط بأناس متوسطي المستوى، فقد كان مجبرا على الإلمام بكل التفاصيل. فقد نظم فرقة مشاة دائمة وبعض سريات المدفعية التي كان غالبا ما يعتز باستخدامها. كما جذب إلى معسكر بعض صناع الأسلحة الذين تمكنوا من صنع بنادق جيدة مأخوذة من تصاميم فرنسية، حيث خلقت الأسلحة الأولى التي خرجت من هذا المصنع الجديد أجواء من الابتهاج العام. كان يقوم بصنع الذخيرة كذلك. كانت الصناعة

تأخذ وقتا طويلا لأن كل عمليات الغرس كانت تعمل باليد. إذ قدم له مهرب ألماني تصميم مطحنة وأعجبه كثيرا، ولكن لم يسمح له الوقت لإعادة صياغته بحجم أكبر. وكان يفكر في إنشاء بحرية بأرشقون وتنس. هذه المدينة اعترفت بسلطته منذ جولته إلى المدية.

الأمور المالية كانت تجلب اهتمام الأمير، وكانت كل القبائل تدفع له العشور وهي ضرائب شرعها القرآن وهو الوحيد الذي من حقه فرضها. ومن أجل الرفع من مداخيله قام ببحث دقيق لكل ممتلكات البيلك القديمة، وسجلها على حساب الخزينة. وطمع بتلك الموجودة بوهران كذلك، ولكن الجنرال تريزيل قاومه كما يجب. وعبد القادر ككل أمراء المشرق كانت لهم أفكار خاطئة عن التجارة. كان يرى في الاحتكار مصدرا وفيرا للثروات، ونظرا لتأكده من عدم إزعاجه من طرف المحافظ العام في هذا الموضوع بدأ باستغلاله بحدة جديدة. اليهودي دوراند الذي قدم له خدمات كبيرة تحصل على الامتياز الحصري للتجارة بأرزيو وأرشقون، كما أنه عقد معه صفقة تخص بيع الحبوب المحصلة من العشور. وقام بتقديم عروض لتاجر فرنسي من أجل التجارة بمنطقة تنس ولكن لم يتم الاتفاق على الشروط.

كان عبد القادر محظوظا في كل مشاريعه وأحس بأنه أكبر مما هو عليه، وتجرأ على تجاهل قوة فرنسا لأنها كانت مؤقتا ممثلة في إفريقيا برجل هرم

طغت شيخوخته على نشاطه. بعد عودته من جولته الكبيرة إلى معسكر، أخذت علاقته الدبلوماسية مع السلطات الفرنسية نبرة متعالية أكثر وضوحا من ذي قبل. حيث كتب له المحافظ العام الذي زار وهران في الأيام الأولى من جوان 1835 معبرا له عن سروره بعودته إلى مملكته. وأرسل إليه في نفس الوقت بن حراش لطلب مدفعين ومدفع هاون لحصار حي المشوار بتلمسان. وقدم له احتجاجات كبيرة على طريقة تعامل العقيد ماري Marey مع عرب المتيجة. وعد المحافظ بالنظر في هذه الاحتجاجات عند عودته إلى الجزائر. وفيما يخص مدفع الهاون كان يظهر عدم اعتراضه للفكرة ولم يتراجع عن ذلك إلا بعد إدلاء الجنرال تريزيل بملاحظات كثيرة. بن حراش كان يحمل معه كذلك عروضا لاتفاقية أكثر تناسقا من الاتفاقية الموجودة، شرط أن تحوي عقوبة لمن يحاول اغتصاب سلطة الأمير وأن تعترف باستقلاله بوضوح أكثر مما في الاتفاقية القديمة. ونظرا للمعارضة الدائمة للجنرال تريزيل أجل المحافظ النظر في هذه القضية.

أثناء مسيرة الأمير إلى مليانة فكر الجنرال تريزيل أن هذا الخرق لحظر الحكومة الفرنسية سيجلب القطيعة، ولم يكن يظن أن الكونت ديرلون سيضع نفسه في تناقض مع نفسه، فقام هذا الجنرال -كما كنا نقول- بالبحث عن إثارة الإزعاج لعبد القادر. وبالفعل عمل على فصل الدواير

والزمالة عن قضيته والذين لا تزال لديهم شعلة من الثورة ضد الأمير، وتمكن من إقناع العديد من قرى هاتين القبيلتين باعترافهم أنهم رعايا فرنسا تحت شرط حماية ناجعة. ولكن الكونت ديرلون الذي كان مصمما على قبول كل شيء من عبد القادر، رفض قبول هذا الاتفاق. والأمير الذي كان على علم بكل ما يجري فيما يخص هذه القضية، وحتى بما كان يدور في المجالس المغلقة للمحافظ، علم بهذه المفاوضات وتوعد بعدم السماح بإتمامها. وبمجرد صعود الكونت ديرلون على متن الباخرة التي ستقله إلى الجزائر، حتى أمر[1] قسم الدواير والزمالة المتواجدين في نواحي وهران بالابتعاد عن المكان والذهاب للاستقرار في سفوح الجبال. وبعد عدم امتثالهم لأوامره أرسل إلى هناك الآغا التابع له المزاري El-Mzary ببعض الفرق، موجها له تعليمات باستخدام القوة إذا اقتضت الضرورة. وبعد إحساس الدواير والزمالة بالخطر المحدق بهم، أرسلوا على الفور ممثلا عنهم إلى الجنرال تريزيل لطلب الحماية الفرنسية في 14 جوان. وعلى الفور ودون تردد خرج هذا الجنرال من وهران بجزء من القوات المتاحة له وعسكر بمسرغين معلنا للعرب أنه جاء لمساندتهم ضد هجمات المزاري d'El-Mzary. وفي اليوم الموالي تم إعلامه أن هذا الآغا يتواجد في نواحي بريدية فأرسل لملاقاته مساعد المعسكر، مرفقا بسرب من القناصة

(1) نظن على العموم أن هذا الأمر تمت إثارته من طرف دوراند الذي رأى في ذلك مساسا بامتيازاته في التجارة التي ستتمكن الزمالة و الدواير من عقدها مباشرة مع الأوروبيين رغم حظر الأمير.

للتأكيد على وجوب انسحابه وترك الذين تحت حمايتهم في سلام. كان الآغا قد بدأ مسبقا بتطبيق أوامر الأمير بكل حذافيرها. وقد اعتقل ووضع الأغلال لابن أخيه إسماعيل ابن القاضي الذي تجرأ على مقاومته، ولكن عند اقتراب الضابط الفرنسي، أطلق سراح فريسته وابتعد دون أن يتمكن هذا الأخير من اللحاق به وبذلك تكلم معه. الدواير والزمالة الذين كانوا مصممين على الانفصال عن الأمير جاؤوا للتجمع بالقرب من الجنرال تريزيل، وعلى رأسهم عبدة بن عثمان وإسماعيل بن قاضي. وتبع الآخرون الذين كان عددهم معتبرا المزاري عن قرب وتوجهوا إلى جنوب بحيرة ايبكا Ibeka، لأنهم أرادوا البقاء أوفياء للذي كان في الثورة الأولى كريما ورحيما معهم. هذا الانشقاق تم في هدوء ودون أعمال عدوانية. كل واحد راح يأخذ المكان الذي كان يظنه مناسبا دون أن يحاسبه جاره عن اختياره.

في 16 جوان راح الجنرال تريزيل للاستقرار بموقع الكرمة في جنوب وهران، من أجل تغطية الجزء الذي كان يتجمع فيه الدواير والزمالة الذين انشقوا عن عبد القادر. وتم إمضاء اتفاقية تعترف فيها هاتين القبيلتين بسيادة فرنسا[1]. في التاسع عشر انتقل الجنرال إلى ثلاث مناطق

هذا نص الاتفاق

الشروط المقررة في 61 جوان 5381 في معسكر الكرمة، بين الجنرال تريزيل وبين الدواير والزمالة.

المادة 1: القبائل تعترف بسلطة ملك الفرنسيين ويحتمون تحت سلطته.

بعيدة وعسكر على ضفة غدير تليلات، وكتب إلى عبد القادر لإعلامه بأن الفرنسيين سيبقون في الموقع حتى الإقلاع التام عن فكرة اعتقال إسماعيل،

2: تتعهد بإطاعة الرئيس المسلم الذي يتم تعيينه من طرف المحافظ العام.
3: يدفعون بوهران في الفترات المتعارف عليها الضرائب التي كانت تدفعها للبايات السابقة للمقاطعة.
4: الاستقبال الجيد للفرنسيين عند القبائل وكذلك العرب في المناطق التابعة للقوات الفرنسية.
5: تجارة الأحصنة المواشي وكل السلع الأخرى، تكون حرة لكل واحدة من القبائل الخاضعة ولكن السلع الموجهة للتصدير لا يمكن إيداعها أو شحنها إلا في الموانئ المحددة من طرف المحافظ العام.
6: تجارة الأسلحة وذخائر الحرب لا تتم إلا بواسطة السلطة الفرنسية.
7: تزود القبائل الوحدات في كل مرة تستدعى فيها من قبل قائد وهران في بعض الحملات العسكرية في مقاطعات إفريقيا.
8: طول مدة هذه الحملات يحصل الفرسان المسلحون ببنادق ويالطان (سيف تركي محدب) على راتب 2 فرنك في اليوم. الرجال المشاة المسلحين ببنادق يحصلون على 1 فرنك. سواء هذا أو ذاك سيجلبون خمس خراطيش على الأقل وسيتم تزويدهم بعشرة إضافيين من ترسانتنا. أحصنة القبائل التي تقتل في المعارك يتم تعويضها من طرف الحكومة الفرنسية. وإذا ما كانت الفرق تتحصل على قوتها من المخازن الفرنسية، فإن الفرسان والمشاة لن يحصلوا سوى على 50 سنتيم في اليوم.
9: لا تقوم القبائل بأي عمل عدواني على القبائل المجاورة لها إلا في حالة ما إذا هاجمتها هذه الأخيرة، وعلى هذا يجب إبلاغ قائد وهران على الفور بذلك من أجل أن يساندهم ويحميهم.
10: عند مرور القوات الفرنسية عند العرب كل ما يطلبونه لحاجيات الرجال أو الأحصنة سيتم دفع ثمنه بسعر عادي وبحسن نية.
11: الخلافات بين العرب يحكم فيها القائد أو القضاة ولكن الأمور الخطيرة بين قبيلة وقبيلة يتم الحكم فيها من طرف قاضي وهران.
12: كل رئيس مختار لكل قبيلة سيقيم في وهران مع عائلته.

والتنازل عن كل حقوق السلطة على الدواير والزمالة وكتب في نفس الوقت إلى الجزائر لإعلام المحافظ بالخطوة التي ظن وجوب القيام بها، وطالبه في حالة رفض هذه الخطوة بإرسال التعليمات مع الذي سيحل محله، معلنا أنه لن يكون من الممكن أن يحتفظ بالقيادة في ظروف لا يراها تتماشى مع كرامة فرنسا. أجاب عبد القادر الجنرال تريزيل بأن ديانته لا تسمح بأن يترك مسلمين تحت الهيمنة الفرنسية، وأنه لن يتوقف عن متابعة القبيلتين المنشقتين حتى ولو كانوا داخل أسوار وهران. وأنهى رسالته بطلب إعادة إرسال قنصله بوهران ليتم مبادلته بقنصلنا بمعسكر، وبهذا أعلنت الحرب ولم يعد من اللازم من جهة أخرى سوى التفكير في القتال. الجنرال الفرنسي الذي كان مترددا قليلا حول ما سيفعله، بدأ بتحصين موقعه بتليلات لكي يتمكن عند الحاجة إخفاء الكتيبة والمتاع. أما بالنسبة للأمير الذي أرسل في طلب كل العرب التابعين له، فتوجه نحو ضفاف سيق أين حدّد لهم موعدا هناك.

بدأ العدوان في ال22 بمهاجمة موكب كان متّجها من وهران إلى تليلات Tlélat. هذا الهجوم كان فيما تبقى أقل حدة ودون نتائج. في ال25 تمت مهاجمة علف الماشية بالقرب من تليلات بفرقة مشكلة من 200 حصان. وأخيرا في ال26 عندما لم يتبقى سوى أربعة أيام من المئونة للجنرال تريزيل، قرر السير إلى عبد القادر الذي سمح له الوقت بتجميع قوى معتبرة. وجيش الجنرال لم يكن يضم سوى 25000 رجلا على الأكثر. كان يتشكل من كتيبة الصف 66 الكتيبة

الأول للمشاة الخفيفة لأفريقيا، كتيبة ونصف من الفيلق الأجنبي، الفصيلة الثانية لقناصة إفريقيا، مدفعي براري وأربعة قطع مدفعية للجبال. الموكب كان يحوي 20 مركبة. وبدأ هذا الجيش الضعيف بدأ بالتحرك على الرابعة صباحا في هذا الترتيب:

المقدمة: تحت قيادة الكولونيل أوديتو Oudinot مشكلة من سربين من القناصة وثلاث فرق بولونية ومدفعي جبال.

الموكب: محاطا من اليمين بكتيبة الصف 66 وفصيلة، ومن اليسار بكتيبة ايطالية من الفيلق الأجنبي وفصيلة.

المؤخرة: تحت قيادة الكولونيل الملازم بوفور Beaufort مشكلة من الكتيبة الأولى للمشاة الخفيفة لإفريقيا وفصيلة ومدفعين للجبال.

ترتيب هذه المسيرة كان له بعض العيوب وهي أنه يشتت الكثير من الفرسان، ولا يمثل ركيزة قوية كفاية وهذا خطأ وجب تجنبه في إفريقيا.

على الساعة السابعة تقدمت أركان إلى غابة مولاي إسماعيل وهي عبارة عن أدغال كثيفة الأشجار على أرض غير مستوية مليئة بالوديان. وعلى الساعة الثامنة لاحت لنا مقدمة جيش عبد القادر التي هاجمت مقدمتنا بعددها الكبير، وألحقت بها أضرار كبيرة دفعتها للتراجع الفوري. كتيبة الصف 66 التي افترقت عن ركيزة الجيش نظرا لحوادث الطريق، تمت مهاجمتها وتراجعت كذلك. على اليسار تمكن الفيلق الأجنبي الأكثر انضباطا من الحفاظ على موقعه وتصدى

للعدو، ولكن بعد مقتل الكولونيل أوديتو Oudinot الذي كان يبحث عن الالتحاق بالمقدمة تبعثر الفرسان الذين كانوا معه وعمت الفوضى في الفيلق الأجنبي الذي بدأ بالتراجع. وبما أن الموكب رأى نفسه مكشوفا من كل جهة، دب فيه الرعب وبدأت المركبات بالتراجع إلى الوراء باستثناء تلك التابعة لقسم الهندسة. وعلى الفور أرسل من المؤخرة إلى رأس الموكب فرقة من كتيبة إفريقيا التي انتقلت إلى الأمام بسرعة فائقة. وعند ذلك قام الجناحان بشن الهجوم وبحيوية قصوى أنساها لحظات الضعف التي عاشتها، وتمكنت من صد العدو الذي كانت خسائره فادحة. كانت خسائرنا 52 قتيلا و180 جريح. وكنا مجبورين على إفراغ المركبات من الخيام ومن بعض المؤن للتمكن من تحميل المصابين.

عند منتصف النهار توقف الجيش لأخذ قسط من الراحة في سهل سيق Sig خارج الغابات. وهنا حدث عمل فوضوي، حيث قام الجنود بخرق العديد من براميل صاحب الإطعام المملوءة بالنبيذ والخمور الثقيلة وسقوا أنفسهم منها. جعلهم السكر في حالة يرثى لها لم تسمح لهم بالمشي فلزم تكديسهم على المركبات المملوءة سلفا بالمصابين. وصل الجيش إلى سيق على الساعة الرابعة مساءا وعسكر في شكل مربع على ضفاف هذا الوادي. أنشأ عبد القادر معسكره بمقربة ثمانية كيلومترات عن معسكر الفرنسيين. وفي الساعات الأولى من اللّيل تم تبادل قنصل الأمير بقنصلنا الرائد عبد الله. وحمل هذا القنصل إلى حاكمه رسالة من الجنرال تريزيل

الذي أضاف فيها على شروطه الأولى : إن هذا الجنرال لا يفرض على عبد القادر الاعتراف باستقلال الدواير والزمالة فقط، بل كذلك قبيلة القرابا Garabas والكروغليس Kourouglis تلمسان، وكذا أن يتنازل عن كل الأطماع في الناحية الواقعة يمين ضفة الشلف. أجاب عبد القادر مثل إجابته الأولى، إلا أننا علمنا منذ ذلك أن الخسائر التي تكبدها في معركة مولاي إسماعيل كانت ستدفعه إلى إيجاد تسوية، لولا أن قنصله أعلمه بأن الفرنسيين كذلك خسروا الكثير وأن الجنرال خاصة مضطرب من كل المصابين. وبالفعل هذا الجنرال الذي وضع في البداية مشروعا للهجوم على معسكر الأمير، تراجع خوفا من زيادة عددهم. وبعد عبور نهر السيق في يوم 27 بدأ بتراجعه إلى أرزيو في اليوم 28.

كانت كتيبة المشاة الخفيفة لإفريقيا تتصدر رأس الركيزة، يأتي بعدها الموكب الماشي في ثلاث صفوف للمركبات ومحاطا من اليمين بالفرق البولونية وفصيلتين ومن اليسار الكتيبة الايطالية وكتيبة المؤخرة تحت قيادة الكولونيل بوفور Beaufort كانت تتشكل من كتيبة الصف 66 وفصيلتين. فعلى هذا الترتيب كان الجيش يتقدم داخل سهل سيرات Ceïrat محاطا بالمناوشين. فعبد القادر وبعد رؤيته لانسحاب الجيش أسرع للحاق به بثمانية إلى عشرة آلاف فارس واثنا عشر إلى ألف وخمسمائة من المشاة، وعاجلا ما أحاط به. وبدأ الاشتباك على الساعة السابعة وأصبح شديدا. ولكن النظام السائد في قواتنا لم يتوقف حتى منتصف النهار.

خشي الجنرال تريزيل أن يلقوا على الطريق المباشر إلى أرزيو صعوبات تضاريس المنطقة التي لا يمكن تجاوزها بمركباته، فقرر بعث الذين يعرفون البلد أفضل منه بالدوران حول تلال الحميان السهل الوصول إليها، والخروج من هناك في خليج مضيق الهبرة في المكان الذي يصب فيه هذا النهر خارجا من المستنقعات والمسمى مقطع Mocta. بعد تفطن الأمير لمخططه أرسل فرقا من الفرسان مدعمين بالمشاة لإشغال هذا الممر الضيق، أين وصلت القوات الفرنسية هناك في منتصف النهار ودخلته دون احتياطات، فلديها على اليسار تلال الحميان وعلى يمينها مستنقعات المقطع. وبمجرد ولوجها حتى لاح لها بعض مقاتلي العدو فوق التلال وعوض أن تدفع قوات معتبرة لمواجهتهم، لم ترسل سوى فرقتين تم صدهما من قبل مئات الفرسان الذين كانوا يغطون عن المقاتلين، وفرق أخرى وصلت كذلك وتم أيضا مقاومتها على التوالي. هذه الهجمات الناقصة والضعيفة لم تكن بالطبع تؤدي سوى إلى نهاية مؤسفة. وبعد أن دفع العرب بكل من أرادوا الصعود إلى التلال نزلوا بدورهم، والتقوا بالموكب الذي أجبرته نوعية الطريق على المرور مركبة تلوى الأخرى. والمؤخرة التي رأت نفسها معزولة دبّ فيها الفزع والتحمت برأس الركيزة للمرور بمسلك على يمين الموكب تم تحريره لبرهة من طرف الفرسان. وذلك بصد العرب ودفعهم إلى منحدرات التلال يسارا. ولكن عاجلا ما هربت مركبات قافلة الطاقم ومركبات التهيئة مما كان يحدث

على اليسار فاتجهت يمينا وتورطت في الأوحال. في هذا الوقت مرّ الآلاف من فرسان العرب للجناح الأيمن للأمير بالمستنقعات، مما كان يهدد الموكب على الجهة اليمنى. وباقترابهم قطع السائقون المرعبون المحركات بطريقة حقيرة وفروا على متن الأحصنة تاركين وراءهم المركبات تحت تحكم العدون وما كان أكثر فظاعة هو ما يخص المصابين. وتم إنقاذ مركبة واحدة فقط محملة بعشرين مصابا بهمّة من طرف المريشال ديلوجي فورنيي Des-logis Fournié الذي هدد بمسدسه السائقين لإتمام واجبهم والالتحام بالركيزة.

أما مركبات المدفعية التي كان يقودها ناس ذوي قلوب رحيمة لم يتورطوا في المستنقعات، وبذلك تم إنقاذها كلها رغم بقاء مدفع جبال بين يدي العرب.

أثناء ذلك عمت فوضى عارمة كل ركيزة الجيش واختلطت كل الفرق فيما بينها، ولم يعد هناك شيء يشبه تنظيما منسقا لحسن الحظ أن العرب انشغلوا بسلب المركبات وذبح المصابين دون رحمة، مما أبطأ هجماتهم وأعطى الوقت لبعض المتهربين للعودة والتجمع فوق تلة صغيرة منعزلة، أين تم جلب مدفعية لم تتوقف عن إطلاق النار على العرب. الرجال المتجمعون في هذه النقطة أخذوا شكل مربع وبدؤوا كذلك في إطلاق النار بشكل عشوائي بشدة على العدو، مع إنشاد النشيد الوطني الذي أصبح في أفواههم نشيد موت لا نشيد انتصار. وكتل الرجال المحبطين

كليا وما بقي من المركبات تجمّعوا وراء تلك التلة في خلفية كانت تظهر دون مخرج، لأن طريق أرزيو غير واضحة في هذا المكان وتتوجه فجأة إلى الغرب. الكثير ممن رأوا المقطع على يمينهم وفي البعيد شيء يشبه الطريق أسرعوا باتجاه النهر وغرقوا فيه. وآخرون ومعهم بعض المسئولين كانوا يصرخون بأنه يجب الوصول إلى مستغانم. وكان صوت الجنرال يتلاشى وسط الضوضاء وهناك غياب تام للقيادة فلم يتم إيجاد الطريق إلى أرزيو، إلا بعد ثلاث أرباع الساعة من تململ هذا التجمع الغير المتناسق من الأفراد. و لكنالجنود الذي بقوا فوق التلة لم يسمعوا أو لم يستمعوا إلى الأوامر التي كانت تعطى لهم ولم يفهموا قط أنه يجب الامتثال لعملية الانسحاب. وأصبحوا يسمعوننا كلمات مفككة وغريبة تدل على أن القوة التي مازالت تمكنهم من المحاربة، ما هي إلا الشجاعة أكثر من الحماس المحموم. والبعض كان يودع الشمس التي كانت مشرقة و يضيء مسرح الفوضى والمجازر والبعض كان يقبل رفقاءه.وأخيرا الفرقة 66 للصف التي كانت أكثر تماسكا من الباقين تمكنت من التحرك، ولكن الآخرين لحقوا بها مسرعين حتى أنه تم التخلي عن القطعة المدفعية للحظة. مع ذلك تم جرها وتمكن الرجال الذين كانوا فوق التل من اللحاق بأولئك الذين كانوا على طريق أرزيو. وهكذا لم يعد الجيش يمثل سوى مجموعة من الناجين الفارين. ولم تعد المؤخرة مشكلة سوى من 40 أو 50 جندي من كل الأسلحة دون ترتيب ودون قائد، حيث بدؤوا بإطلاق النيران

بشجاعة و40 من القناصة بقيادة النقيب بيرنارد Bernard، بعض قطع المدفعية المسيَّرة من طرف النقيب آلود Allaud والنقيب باستوري Pastoret كانت تدعم هؤلاء الصامدين الشجعان للقصف من فوق رؤوسهم. ولكن عددهم الذي انخفض إلى 20 وعودة العرب لمهاجمة مجموعة الهاربين مرة ثانية، فتصدى لهم النقيب برنارد Bernard الذي قاومهم بشجاعة ومفخرة كبيرتين دفعتهم إلى ترك فريستهم[1].

ومنذ ذاك الحين تمت عملية الانسحاب بسهولة أكثر وسرعان ما وصلنا إلى شاطئ البحر، حيث رفع منظر أرزيو من معنويات الجنود قليلا. وكان العرب متعبين من معركة طويلة ومثقلين بالغنائم فقلَّت هجماتهم وتوقفت تماما عند السادسة مساءا. وعلى الساعة الثامنة وصل ما تبقى من جيشنا إلى أرزيو بعد 16 ساعة من المسير و14 ساعة من القتال.

لقد خسرنا في هذا اليوم المميت 300 رجلا و200 جريحا وخسرنا جزءا كبيرا من معداتنا.وتم أسر 17 رجلا فقط عند العرب وباستثناء هؤلاء، فإنهم قد ذبحوا كل من وقع بين أيديهم خاصة المصابين.

عسكر جيشنا بأرزيو في فوضى عارمة ومرعبين من فكرة معاودة مهاجمتهم من عبد القادر، وعند رؤية الجنرال تريزيل لإحباطهم، لم يظن أنه يمكنه إرجاعهم إلى وهران برا. فأصدرت الأوامر بأن تأتي لأخذهم كل البواخر المتوفرة بالمرسى الكبير. وقد أثبت هذا الإجراء حجم الضرر الكبير.

---

(1) السيد موسيون Maussion قائد فصيلة هيئة الأركان و رئيس هيئة أركان الجنرال تريزيل تحمل من كل الأعباء و قتل أو جرح ثلاثة أحصنة تحت قيادته.

الكتاب 16

خلال تلك الأثناء، تلقى الكونت ديرلون رسالة من الجنرال تريزيل يخبره فيها بمسيرته نحو تليلات. القضية كانت مستعجلة وتتطلب حلا فوريا وبسيطا، ولا تتطلب سوى الإجابة بنعم أو لا. وبهذا إما أن يكون الجنرال تريزيل مأذونا له وبذلك مدعوما، أو كان سيتم توبيخه وفي هذه الحالة يتم عزله. وعوض أن يدلي بهذا أو ذاك ضيّع المحافظ ثمانية أيام في المداولات دون أن يقرر إن كان مع أو ضد هذه الفكرة، ويبدو أنه قرر ترك مسؤولية هذه الخطوة على عاتق المقدم. وبذلك أرسل إلى وهران الرائد لامورسيار واليهودي دوراند بهدف تفقد أوضاع الأعمال هناك، والدخول إن كان بالإمكان في تسوية مع عبد القادر. رسا المبعوثان بأرزيو وكانوا شاهدين على إحباط الجيش وكان معهم القايد إبراهيم. بعد التوقف لبضع ساعات بأرزيو واصلوا طريقهم إلى وهران. وبمجرد وصول الرائد لامورسيار حتى اتحد مع القايد إبراهيم، وجمّع 300 فارس من الدواير والزمالة وتوجهوا مع النقيبين مونتوبونMontauban وكافيناك Cavaignac إلى أرزيو، حيث وصلوا في 3 جويلية دون الالتقاء بأي عدو. كان تحميل المدفعية والمشاة قد اكتمل وتم الشروع في تحميل الفرسان ولكن وصول لاموروسيار أوقفه. فقد ارتأى أن الفرسان يمكنهم العودة برا وتم التخلي عن فكرة المسلك البحري، بشكل أن الجنرال تريزيل الشهم الغير الحذر والتعيس، لم يكن ملزما على تجرع كأس الثمالة المريرة لهزيمته، وعاد إلى وهران من الباب الذي خرج منه. كان تصرفه في الظروف القاسية

التي عاشها نبيلا، ولم يبحث عن إخفاء الضرر المتلقى أو تحميل فرقه مسؤولية ذلك في تقاريره وجداول أعماله، بل تقبل المسؤولية وأظهر تحضره لتحمل العواقب.

وقبل أن تصبح القطيعة مع عبد القادر معترفا بها في الجزائر، سمع الجنرال تريزيل بأن سفينة محملة بالذخيرة (البارود) والبنادق، موجهة للأمير انطلقت من هناك إلى أرشقون Harch-Goone حيث كان من المفروض تسليمها. بمعنى أننا كنا نزوّد عدونا بأنفسنا بالأسلحة، ولكن الجنرال قام بمصادرة سفينة المراقبة للمرسى الكبير وأوقف بذلك هذه التجارة القطيعة[1].

بعد وصول أخبار هزيمة المقطع إلى الجزائر، عاتب الكونت ديرلون بشدة الجنرال تريزيل بمجرد أن الحظ لم يحالفه، وهو الذي لم يرفض ولم يشجع كما رأينا في السابق تصرف الجنرال عندما كانت الأحداث غير أكيدة. وأمره بأن يعطي القيادة إلى الجنرال دارلونج d'Arlanges القادم حديثا إلى الجزائر، والذي جاء لقيادة الجيش الذي كان تحت قيادة الجنرال تروبريون Trobriant. وأرسل مع السيد دارلونج d'Arlanges إلى وهران اليهودي دوراند Durand الذي أصبح غير مرغوب فيه لدى الرأي العام بالجزائر منذ الأحداث

(1) الحكومة بالجزائر أنكرت في بيان رسمي عملية إرسال هذه الأسلحة و الذخيرة ولكن الأمر مثبت أكثر من أي شبهة وهو كذا عار مفضوح عند العموم. لقد تمت مصادرة السفينة من طرف النقيب بول Bolle والرائد لو لواري le Loiret كل وهران رأت و سمعت بذلك وكذا كل الأدلة المكتوبة والرسمية الموجودة.

الأخيرة ولم يشفع للكونت ديرلون سوى شيبه وإلا لكان حصل على استنكار صريح وعلني كونه قبله في مركبته.

والكونت ديرلون الذي كان خاضعا لسحر هذا اليهودي البارع، أراد إعادة علاقته مع عبد القادر مهما كان ثمن ذلك، ولترك قبائل الدواير والزمالة لثأرهم لولا الأداء النشيط لأغلبية أعضاء مجلس الوصاية وخاصة الجنرال راباتال Rapatel. وتقرر أن هاتين القبيلتين أصبحتا تحت سلطتنا للأبد. فتم تعيين القائد إبراهيم رئيسا لها والذي يعتبر لدى الكثير عدوا لدودا لعبد القادر. تم تجميع حوله الأتراك الذين بقوا في مستغانم عند مغادرته المدينة في 1833 والذين جنّدهم بنفسه، وذهب بهذه الفرقة للإقامة بمسرغين، ولكن سرعان ما أجبرته قبيلة بني عامر على المجيء للاحتماء في ظل مدفع وهران.

وتم إضعاف القوات الحامية لهذا الموقع العسكري بمغادرة الفيلق الأجنبي الذي تنازلت عنه فرنسا لصالح إسبانيا في صيف 1835.

ولقد تم إعلام الكونت ديرلون أن الظروف كانت جد ملحة لكي يحاول إلغاء مغادرتها، ولكن دون جدوى لأنه لم يرد سماع شيء وفضّل أن يهدد أمن مؤسساتنا على أن يؤخر لبعض الوقت تطبيق قرار الوزير. إنه لمن الصحيح القول أن الكونت ديرلون كان يغذي أمل استعادة السلام مع عبد القادر. كان الأمير محرجا من انتصاره كان يحس بأنه

من مصلحته أن يجعلها تنسى.، ولم يكن يجهل أن فرنسا جد حساسة في هذا الموضوع ولا تبقى مدة طويلة دون معاقبة إهانة مست قواتها المسلحة، إذ أظهرت رغبته في التفاوض، ولكن المشهد تغير بعد ذلك. حيث تم استبدال الكونت ديرلون وكان اختيار خلفه يوضح للأمير بأن فرنسا قررت بأن لا تعترف في تلك الوصاية بحاكم آخر غيرها.

فبعد وقت قصير من عودة الكونت ديرلون من رحلته إلى وهران، فكر في تنصيب بن عمر في منطقة البليدة ولا أدري بأي لقب. وتم إقناعه بأن لا شيء أصبح الآن مفيدا ولا سهلا. وتم اقتياد بن عمر إلى البليدة وسط دعامة قوية بقيادة الكولونيل ماري ولكن سكان هذه المدينة رفضوا استقباله. وقد فكّر الآغا بأنه ليس من المناسب إجبارهم فأعاد بن عمر إلى الجزائر بهدوء. ومن خلال مثل هذه التدابير والأقل تمعُّنا يحدث إضعاف لهيبتنا عند العرب. ولكن الجانب الأكثر تعاسة من هذه القصة الحزينة هو أنه في نفس الوقت الذي كان يتم فيه صد بن عمر في البليدة، كانت رسالة في طريقها إلى باريس تعلمهم أن بن عمر تم استقباله جيدا وأنه بعد مدّة من الوقت سيذهب إلى المدية. وقد رأى الكونت ديرلون ما تم تقديمه له شيء سهل للقيام به.

بعد وقت قصير من هذا الحدث اخترق جزء من الحجوطيين منطقة الساحل وفاجأ عند مورد مائي سربا من قناصة حامية الدويرة فقتلوا

البعض وسلبوا بعض الأحصنة. وفي نفس الوقت تقريبا اختطف جزء آخر من الحجوطيين قطيعا من حوش بني مراد غير بعيد عن بوفاريك. وقام علي بن الخزناجي وهو الذي تم تغيير قيادته لبني موسى حديثا بقيادته لبني خليل[1] بمحاولة الالتقاء بالحجوطيين لمحاولة استرجاع ذلك القطيع ومحاولة عقد الهدنة. ومرّ اللقاء الأول بسلام وتم الاتفاق على الالتقاء مجددا. ولكن عند عودة الخزناجي أخبر بعض الأشخاص أنه سيتم تنصيب فرقة من العريب في حوش بوعاقب لكبح لجام الحجوطيين. وتم نقل هذه الأقوال إليهم وظنوا أن الخزناجي يريد التلاعب بهم، لذا في اللقاء الثاني خطفوه وتركوه يقتل ببشاعة أمام أعينهم على يد خادم سابق له لطالما اشتكى منه.

هذا الحادث المأساوي تزامن مع مغادرة الكونت ديرلون. أخذ القيادة المؤقتة الجنرال راباتال Rapatel وبعد علمه بما حدث، سار بعض الفرق التي يقودها الكولونيل شاونبورغ Schauenbouerg. هذا الضابط السامي لم يجد أحدا لمقاتلته فالكل هرب باستثناء مزارعي المرابط الكبير للقليعة سيدي محمد، المتعودون على رؤية مزارعهم كميدان محايد. والكولونيل شاونبورغ Schauenbouerg الذي كان يجهل طبيعة هؤلاء الرجال وطبعهم المسالم أطلق عليهم النار وسلب قطعانهم.

(1) حل محله أخوه ببني موسى.

وقد تأثر بذلك محمد الكبير تأثرا كبيرا لأنه كان يحبهم كثيرا. هذه الحادثة والكثير من أمثالها جعلوه يظن أن مشاعر النية الطيبة التي أظهرها له الجنرال فوارول، قد تم التنكر لها لدى الإدارة الجديدة وخشي أن يتم اختطافه من القليعة كما حدث في عهد الدوق دوروفيقو، ففر من هذه المدينة للجوء إلى بوعلوان Boualouan، لكنه مات في الطريق من جرّاء التعب والإرهاق لأنه كان طاعنا في السن.

غادر الكونت ديرلون الجزائر في الثامن أوت، وعند رؤية هذا المسن الطيب والمحترم مغادرا نست المستوطنة عجزه وكل أخطائه. إنه ملام لأنه وضع نفسه مؤقتا على مسرح لم يصنع له خاصة لأنه لم يصاحب أشخاص حكماء ومخلصين لمنعه من الصعود على خشبته.

الجزء الثاني

1.

من الديانة.

الديانة هي الرابط المشترك الذي يجمع بين أفراد المجتمع. هدف المجتمع مهما كان، لا يمكن أن يكون هذا الرابط لأن كل فرد من هذا المجتمع أيا كانت طبيعة هذا الأخير أو المكان المتواجد فيه، يظن باستمرار تمكنه من الوصول إليه بمجهود فردي و هذا ما يؤدي منطقيا إلى تفكيك الروابط.

هل هدف المجتمع هو الرخاء المادي لكل أفراده؟ في هذه الحالة، كل فرد سيتصرف بطريقة منطقية إذ بعد استفادته من العمل المشترك لمدة معينة سيسعى إلى التقدم وحده إلى درجة أن الذين كانوا يشتغلون معه سيصبحون مجبرون على العمل لديه. أليس ما نسميه حرية هي الهدف الحقيقي للمجتمع؟ و بما أن الوسيلة الحقيقية لجعلنا متحررين

كليا هي أن نصبح أسياد الآخرين، فكل رجل حيوي و مثابر سيسعى إلى الطغيان. كل ذلك سيؤدي إلى تدمير أو على الأقل تشويه الروابط إذا ما كان الأفراد الذين يشكلونها لا يفكرون بشكل مشترك إلا الرغبة في الوصول للهدف.

إن المدرسة المادية تخطأ على نحو مبتذل حين تؤمن بأنه يكفي الشرح الجيد للأفراد بأن جهودهم المنعزلة لا تنتج شيئا يسمح لهم بالعيش في أجواء من الأخوة و الأخلاق، و بذلك علاقة شراكة حقيقية. و تثبت لنا التجارب أنه دائما تقتنع فئة من هؤلاء بأنه من الأفضل العمل لحسابها الخاص من القبول بتقاسم الأرباح مع الآخرين. و لا يمكننا اعتبار الاحتيال في التجارة و الجرائم في المؤسسات الصناعية و المكر السياسي و السرقة الموصوفة باستخدام العنف أو الاحتيال، سوى طرق مباشرة يتخذها بعض الأفراد للوصول بصفة منفردة لتحقيق أهداف المجتمع المادي. فإذا كانت هذه الأمثلة قليلة الشيوع و إذا كان المجتمع لم يحطم بعد بهذه الرغبة الجامحة للوصول إلى الهدف، فهذا يعني أن الأفراد يتداولون أفكارا عامة وسخية مستقلة عن هذا الهدف. هذه الأفكار هي العقيدة. هناك أصناف عديدة للعقيدة: عقيدة الصداقة، عقيدة العائلة، عقيدة الشرف، عقيدة الوطن، عقيدة الحرية و العقيدة الإلهية.

عقيدة الشرف عقيمة و رائعة فقاعدتها الكبرياء، يمكن أن تؤدي إلى الجريمة و كذا إلى الفضيلة و إنما كل شيء فيها مبالغ فيه. العقائد

الأخرى تقوم على الإحسان، بمعنى انصهار الكثير من الأرواح في روح واحدة. العقيدة الإلهية هي من تضم و تحوي جميع العقائد الأخرى. إنها الفكرة الأكثر شمولا و الأكثر غنى. فالرابط الأقوى هو ذاك الذي يؤدي إلى التطبيق الأشمل للإحسان. و هو مكان للفضائل كما الفضاء مكان للأجساد.

العقيدة الإلهية، أو بكل بساطة الدين، معرض للعديد من التعديلات التي تعطي امتدادا للفكرة الأساسية، المتمثلة في الإحسان، و التي توسع أو تقلص الروابط الاجتماعية.

يؤدي الإيمان بآلهة متعددة إلى تقسيم الأفراد إلى مجتمعات متعددة، والإيمان برب واحد يؤدي إلى توحيدهم في نفس المجتمع.

وبما أن الناس كانت تؤمن و لمدة طويلة بأن الشكل الخارجي لعلاقتهم بالله كانت تقريبا بنفس أهمية الباطن، و بما أنهم أرادوا تفسير ما هو من مجال القناعة البديهية باستخدام لغة العقل الفاشلة، نتج عن ذلك نقاشات مؤسفة حتى بين أولئك الذين يعترفون بوحدانية الإله. فتشكلوا في طوائف غالبا ما تكون متعادية. و لكن بشكل فردي كل واحدة من هذه الطوائف تشكل مجتمعات كاملة، لأن أفرادها كان لهم رابط مشترك و هو الاعتقاد الديني.

و بعدئذ، مل الفكر من الصدامات غير المجدية و التي كانت نتائجها في بعض الأحيان دموية، و بدأ بالتمرد على تعسف الاعتقادات

الدينية. لكن الفلسفة المتكبرة لم تكتف بمهاجمة التعسفات بل وصلت إلى جوهر الاعتقادات، و نتج عن ذلك رد فعل معارض للدين و الذي كان يرمي لكسر الرابط الاجتماعي. تم ضرب كل العقائد في الصميم، فبغرض زعزعة العقيدة الإلهية، تتم زلزلة البنية التحتية لجميع العقائد حتى عقيدة الشرف التي تبدو الأكثر استقلالية. في فرنسا، كانت هذه الهجمات أكثر قوة و كان لها نجاحا كبيرا؛ لبست المعصية قناع الحرية من أجل تضليل الناس و كان لها سجلاً ناصعا. فكل شيء تم زعزعته، هدمه و رفسه بالأرجل. و عندما و جد الناس أنفسهم أمام هذه الفوضى اتضحت لديهم صورة ما يسميه الفلاسفة بالواقع، و هلعوا و أرادوا الارتماء فيما أطلق عليه الفلاسفة إسم الأوهام.

لكن لن تكون العقائد المقدسة أوهاما و هي تحمل في ثناياها الخصوبة و الحياة. الحقيقة هي الوجود، هي ما ينتج و ما يتحرك و ما يخلق، هي الدين. المادية هي النفي: لا تعيش و لا تتحرك و لا تخلق شيئا و معنى هذا الموت. فهل يمكنكم تفسير الموت بغير الخصائص السلبية؟ الحقيقة هي الديانة، و الأوهام هي المادية، أوهام سوداء و يائسة. لا ثم لا، فالحقيقة لا يمكن أن تكون مع الضعف و الموت. لا بد من وجود المعتقدات لصنع المجتمعات و للحفاظ عليها. فلا توجد مؤسسة اجتماعية متينة بشكل دائم إلا و كان أساسها المبدأ الديني. لا يوجد عمل كبير و سامي، و لا مؤسسة خالدة بمنتوجها، إلا و كانت

مستوحاة من المشاعر النبيلة، التي يدعوها رجال الأرقام بالبعيدة المنال، لأنها تنتمي إلى صنف من الأفكار لا يمكنهم فهمها.

لا شيء يثبت غطرسة المادية أحسن من ضعف رجال الأرقام، ففكرهم يستسلم عبثا لحسابات هائلة تنطوي على كل الاحتمالات، و عبثا ما يتكفل تفكيرهم بمعرفة كل الوقائع، إذ لا يمكنهم أن يبدعوا أو ينشئوا شيئا. و بفعل صوت بعض الأثمين الجاهلين غيّر العالم ملامحه؛ و بأي مكان و في كل زمان، فإن الرجال ذوي الإيمان الحي و المشاعر الحيوية هم الذين يقودون أمثالهم إلى دروب جديدة[1]، و إن الشعوب التي لا تحسب أبدا لكنها تؤمن و تتحرك هي من تعاقب و تطيح بالملوك.

فكل شيء عظيم حدث في دنيانا كان يقوم على أساس فكرة أخلاقية، فالناس متعطشون للإيمان. و عندما تمكن الفيلسوف من تدمير معتقدات،

---

(1) السلطة الحكومية في فرنسا هي بين أيدي الذين كنّا ندعوهم في الماضي بأصحاب الذكاء الثاقب، و الذين ندعوهم اليوم بالرجال الايجابيين، رجال الأرقام. يوجد البعض القليل منهم الذين لا يزالون محتفظين بما يكفي من الشعلة المقدسة من أجل الوصول - رغما عنهم - إلى نتائج فيها القليل من الأخلاق والعناية الإلهية؛ و لكنهم يشعرون بالعار من الخروج من الطريق الصخري للمادة فيسرعون بالعودة إليه. كانت لجنة إفريقيا و منظوعة بحجم هذا الموضوع في بعض الأحيان في تقريرها على وشك الانغماس في أفكار من هذا النوع و لكنها سرعان ما تتحلى على الركب أمام الشعب و تتوسل إليه الا يصدق بأنها قادرة على أن يكون لها مثل هذه الأفكار. هذا الشعور بالعار من الخير و ارضاء الذات من الواقع هي عيوب سخيفة و وخيمة.

أصبح يرى باشمئزاز و بذاءة ذلك العدم الذي أغرق نفسه فيه، و كررها الواحدة تلو الأخرى. و هذا ما نقوم به كل يوم في فرنسا. بدأ رد الفعل الديني عند روبيبار Robespierre، هذا الرجل صاحب الإسم الرهيب، الذي تراكمت لديه الكثير من الأحقاد، كان رجلا كاملا و منطقيا. أدرك أن الثورة لم تقم سوى بالهدم. كان يريد إعادة البناء فبدأ بالدين. و لكن الأسقف كان محليا فما كان بالإمكان إقامة الكنيسة الجديدة. تمت بعده الكثير من المحاولات في نفس الاتجاه أي في مسار الديانة العالمية الشاملة و لكنها لم تفلح بالتوصل إلى نتيجة. و لكن الكهنوت الجديد لم يتلق قط الروح القدس فكان من اللازم العودة إلى المعتقدات القديمة و التي ارتفعت مذابحها في مأمن من سيف قاطعة.

لقد كسر هذا السيف و هذا ما كان يجب فعله. عاودت السلطات القديمة الظهور و معها جزء من الاستغلال السيء، و أصبح مفسرو الدين متواطئين معهم. عارض الشعب ديانة التحرر، هذه الديانة المشوهة للديانة الإلهية من طرف القسيسين الضالين. كان من الواجب الكفاح و انتصرت الحرية. و استحوذ رجال الأرقام على النصر، لكن لفترة قصيرة. تبادل الغالبون و المغلوبون النظرات مندهشين، و رأوا أنه تم تغليطهم، تبسموا بمرارة و تصافحوا. فهمت ديانة التحرر الديانة الإلهية، لكن الديانة الإلهية لم تفهم ديانة التحرر. و نتج عن ذلك في داخل كل القلوب القوية أفكار مشوشة ذات امتداد واسع. ليس في فرنسا فقط و لكن في كل

مكان. العالم كان في حالة من الترقب و الانفعال و التي تسبق دائما وصول نبي.

النبي هو الشخص الذي ترسله العناية الإلهية لصياغة الاحتياجات المبهمة و الأفكار المشوشة التي تربك الأشخاص في زمن معين، و صياغتهم بطريقة جلية إلى حد أن كل واحد يمكنه القول: "نعم، هذا ما كنت أريد و هذا ما أومن به". النبي واحد، تتنوع أشكاله فقط. النبي قديم قدم خلق الكون بما أنه ليس سوى أثر الإله على الإنسان المتخلق. النبي سيعود، النذير الذي يجب أن نمهد له الطريق المستقيم قد ظهر، و هو يعيش بيننا.

من بين الأفكار الجديدة التي يجب على النبي صياغتها، هناك واحدة تبدو محددة و سهلة الاستيعاب. هي تلك التي ترمي إلى التقارب بين الأديان و دمجها في دين واحدة. و فيما يخص ماهية هذا الدين الجديد فإن النبي هو من سيخبر بذلك. و ستكون نتيجته توحيد العباد في كنف الله برابط مشترك ألا و هو الإحسان.

المسيحية و المحمدية هما من أقوى الديانات التي تتقاسم العالم و الأكثر تنافسا. هاتان الديانتان التقتا في الجزائر، فهل تشكلان عائقا لتقارب العرقين اللذين تمثلهما؟ لا أظن ذلك. فقابلية التلاحم الديني جد مميزة عندنا للدرجة أنه لا يمكن تجاهلها، و انتظار النبي ليست بالشيء الغريب عند العرب و الشيء الأكثر تميزا هو أنهم ينتظرون عيسى المسيح من تراثهم تقول إحدى الروايات أنه سيبعث مرة ثانية في سوريا و

سيجول العالم مدة أربعين عاما و ينشر الغنى و الوئام. يجب عليه أن يجمع كل العباد في نفس العائلة، و هاهي إذن فكرة مشتركة بين المسلمين و المسيحين الجدد. أما فيما يخص المسيحيين القدامى و المسلمين غير المتقدمين فسترى إن كانت معتقداتهم تجعلهم بالضرورة أعداء.

الإنجيل يدعو إلى التسامح تقريبا في كل مقطع منه. بالإضافة إلى ذلك فإن الإيمان بالمسيحية القديمة قد ضعف، لدرجة أنه لا يمكن التصديق بأنه لدى المسيحيين القدامى كل اختلاف في الدين يجب أن يخلق مشاعر الحقد و التنافر.

أما بالنسبة للمسلمين، فلن يصعب أن نبرهن لهم بأن رمزهم الديني لا يرقى إلى الخصوصية التي يعتقدونها، فالقرآن يعترف بعيسى على أنه أعظم الأنبياء و يراه على أنه مسلم، و يعتبر أن الله و هبه معجزات يفتقدها محمد. وأن ولادته، كما في الإنجيل، محاطة بالمعجزات، كما أن الأخوة بين أتباع المسيح وأتباع محمد مسموح بها في الآيات الكريمة الآتية:

" و لا إكراه في الدين" سورة البقرة الآية 256.

" و لا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن"سورة العنكبوت الآية 46.

" آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه و المؤمنون كل آمن بالله و ملائكته و كتبه و رسله لا نفرق بين أحد من رسله....."سورة البقرة الآية 285.

" قل آمنا بالله و ما أنزل علينا و ما أنزل على إبراهيم و إسماعيل و

إسحاق و يعقوب و الأسباط و ما أوتي موسى و عيسى و النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم و نحن له مسلمون"سورة آل عمران الآية 84.

"إن الذين آمنوا و الذين هادوا و الصابئون و النصارى من آمن بالله و اليوم الآخر و عمل صالحا فلا خوف عليهم و لا هم يحزنون"سورة المائدة آية 69.

الإنجيل هو شعلة الإيمان، وهو يضع الختم على الكتب المقدسة القديمة. هذا الكتاب ينير و يعلم الذين يخافون الله. المسيحيون سوف يحاكمون وفق الإنجيل، و من يحاكموهم بغير ذلك فهم مغالطون.

يمكننا الاستشهاد بما لا نهاية من الآيات في هذا السياق. لكنني أعرف جيدا أنه لدى المسلمين كما لدينا نحن، يوجد مفسرون لم يكونوا متسامحين مع الشريعة. هؤلاء المفسرون ليسوا معروفين من قبل عامة الناس الذين يقرأون القرآن و قليلا مل يفهمونه حق الفهم. و بذلك، عندما كنا نلفت انتباه أحد العرب إلى هذه المقاطع الرائعة التي تدعو إلى التآخي بين الأديان كان يفكر لبرهة و ينتهي به المطاف إلى قول: معكم حق. السيد أليغرو Allégro[1] الذي أمضى بعض الوقت عند الحجوطيين دخل في مناظرات عديدة في هذا الموضوع و ضم أكثر من واحد إلى رأيه.

سيكون من المفيد جدا نشر كتاب صغير من شأنه تسليط الضوء على كل هذه الحقائق للجمهور المسلم و الذي يهدف إلى نشر فكرة أن أتباع

(1) الضابط التونسي الذي تكلمنا عنه في مواضع كثيرة.

القرآن و المسيحيين إخوة فرّق بينهما سوء فهم مؤسف لمدة طويلة. يجب أن يؤلف هذا الكتاب من طرف مسيحي، لأنه إذا ما كان بريشة مسلم سوف يُظن أنه استوحاه من إغراءات السلطة. لكن قبل إصداره، من المستحسن أن نمرره على بعض المرابطين الذين سنستخدمهم بوسائل ملائمة لدعم ذلك في الوقت المناسب ببراعة و حيطة. يجب أن يسلط الكتاب الضوء على فجر الإيمان الذي سيجمع كل الطوائف في عقيدة واحدة، و سيدعم هذا بنبوءة عودة ظهور عيسى المسيح التي تكلمنا عليها قبل قليل، و بآيات عديدة من القرآن التي تثبت أن أنبياء آخرين يمكنهم إتباع الذين جاءوا قبلهم. هذه الآيات العديدة منها آية تتحدث عن التجمع العالمي، بمعنى اندماج كل الطوائف. نجدها في السورة رقم 18[1] بصورة غامضة بعض الشيء و لكنها بالاقتران مع آيات أخرى ستعطي النتيجة المرغوب فيها.

هذا الكتاب سيكون عملا جديرا بالتقدير، و سيكون طريقا مستقيما يجب تمهيده للنبي، و كاتبه سيستحق العرفان من الناس. و سيتبع تعاليم القرآن التي تمنع البقاء مكتوفي الأيدي دون فضيلة و دون مجد. فالحكومة التي لديها العديد من المستشرقين المميزين ينبغي لها أن تعطي دفعا لهذا الكتاب، و لكي تجني ثمارها كاملة لا بد أن يكون المكلف بالعمل رجل إيمان و مستقبل و مفعم بأهمية و قدسية هذا العمل.

---

(1) سورة الكهف.

الجزء الثاني، 1.

العرب هم رجال ذوي إيمان حي، و هم مقتنعون أنه من الأجدر اعتناق ديانة حتى و لو كانت سيئة على أن لا يكون للشخص ديانة أصلا. و اللامبالاة التي نظهرها في هذا السياق تدهشهم، و حتى إن كانوا يروا في ذلك ضمانا للتسامح، فلابد من القول أنه من جانب آخر هي أحد الأسباب التي تضعف تقديرهم لنا. و لكن لنقل أيضا، و بالموضوعية التي نبحث عن وضعها في كل شيء، بأن هذه اللامبالاة المستنكرة التي لا نتقاسم فكرتها أبدا، هي التي أفرزت مع ذلك نتائج ايجابية في مصالحة العرب مع فكرة المسيحية نوعا ما. لأنه عند تكلمهم عن الفرنسيين لا يقولون: " للأسف هو مسيحي". بل يقولون: " للأسف هو ليس حتى مسيحيا". أي أنهم يتوقون لأن يكون لنا وازع ديني. هذا المبدأ يجب توفيره لهم و بما أنهم وصلوا إلى نقطة تمني أن يكون هناك على الأقل مسيحية سوف تكون مفاجأة سارة أن يروا لدينا الظهور التدريجي لعقيدة التلاحم. العلاقات المستمرة التي حدثت لبضع سنوات بين العالم المسيحي والعالم الإسلامي وسعت من دائرة التفكير الإنساني. أوروبا باعتزازها العلمي لم تعد تؤمن بأنها الجزء الوحيد الأذكى من الكرة الأرضية، و شعوب المشرق باعتزازهم البربري لم يعودوا يفكرون لنفسهم أنهم الوحيدين الذين يستحقون أن يصونهم الله. يوجد من جانب و من آخر، حدس و حاجة إلى التقارب. و بتلاشي الضغينة و

الجزء الثاني، 1.

العنف سيولد النبي من زواج مختلط و سيكون من أب مسيحي و من أم مسلمة. و في انتظار مجيئه لنصنع له دروبا مستقيمة. لا يجب أن نصدم بعد الآن الأهالي في معتقداتهم، و لا يجب أن نظهر بعد الآن اللامبالاة التي أنتجت القليل من الخير الذي أم كنه إنتاجه و التي إذا ما تمادينا فيها أكثر أصبحت خطيرة.

2.

من الإدارة.

لا يجب البتة الخلط بين الحكومة و الإدارة. الحكومة هي القوة الإجتماعية و الإدارة هي تنفيذ لهذه القوة. فالحكومة هي المبدأ و الإدارة هي التطبيق.

إن كان لدى الأفراد حكومات فهذا لا يعني أنهم يعيشون في مجتمعات. بل لديهم حكومات لأنهم يعيشون في مجتمعات. هذا التمييز جد ضروري. فهي تحدد فجأة درجة الأداء الذي وجب عل الحكومة ممارسته. هذا الأداء يجب أن يكون هدفه الوحيد حماية التطور الاجتماعي الحر. ليس فقط أنه يجب أن لا تعيقه بشيء بل وجب عليها الحيطة لرفع القدرة عل توجيهه. فلتكن كل السبل خالية من كل الحواجز و بذلك تسير المجتمعات بنفسها. فالإدارة المثل هي تلك الإدارة التي تقلل من التحكم و بالقدر الكافي لكي ينعم كل واحد بالتمتع الأكثر بالحرية الكاملة بشخصه و بعمله.

لم تقم الإدارة الفرنسية على هذا الأساس؛ فهي كثيرة الانشغال، مزدحمة، مزعجة و مشتتة. و يبدو أننا لا يمكن أن نمشي أو نتنفس دونها. تريد أن تتدخل في كل شيء و أن تقحم نفسها في كل شيء، كأولئك الرجال المتعصبين الذين لا يجلبون في منازلهم سوى اليأس لزوجاتهم و أطفالهم وخادميهم بطبعهم الصعب و الدقيق.

تواصلت عيوب هذه الإدارة في إفريقيا، بل أنها أخذت امتدادا أكبر. لم يقدم لنا جيل بإعطائنا: حرس بلدي، دولة، رسالة، قوانين. لدينا: محافظ، سبعة وزراء[1]، نواب الولاة، رؤساء البلديات، محافظي شرطة، مدراء، مراقبين، مفتشين، مساعدي المفتشين، مدققين، و أخيرا: لوائح و تعليمات متعبة. وكأن ذلك لم يكن كافيا، تمت مكافأتنا بمدير للاستيطان وهي هيئة غريبة وعجيبة و التي من المستحيل تفسير وجودها.

تكلف إدارتنا المدنية 1.800.000 فرنك. و أداءها يشمل كثافة سكانية تقدر بـ 40.000 نسمة على الأكثر. فبمقارنتها مع تلك التي في فرنسا والتي تغطي 32.000.000 نسمة نجد أن التكاليف بإفريقيا تمثل بالنسبة لتلك في فرنسا ما يمثل 9 بالنسبة إلى 2 مع استيعاب كلا الجانبين كل المصالح التي ليست من اختصاص الدفاع و البحرية.

---

(1) الحاكم المدني، وزير الداخلية، النائب العام، وزير العدل، الجنرال القائد للقوات، وزير الحربية، أميرال البحرية، وزير البحرية، مدير المالية، وزير المالية، آغا العرب الذي يمكن اعتباره وزيرا للعلاقات الخارجية. و أخيرا محافظ عام للشرطة، منصب جديد مبتكر هو وزير الشرطة.

نريد قدر المستطاع ألا نقوم بهجمات شخصية على رجال لم يقوموا في الأساس سوى بأخذ ما يقدَّمُ لهم. و لن أدخل في تفاصيل كل الوظائف العاطلة التي تم خلقها بالجزائر. و مع ذلك ، و لكي أعطي للقارئ فكرة عما تم في هذا السياق إنه لمن الجيد القول أنه تم تعيين مفوض للملك لدى بلدية بأرزيو. و أرزيو لا يوجد بها أي أحد من السكان سوى أفراد الحامية. و الشخص الذي وجهت له هذه الوظيفة السلبية كان جد محتاطا من خلال رفضها.

كل ما قلناه في الجزء الأول يمكّننا من معرفة تشكيلة الإدارة الجزائرية. ربما يكفي فقط مناقشة التكاليف، بمعنى أن نتفحص إذا ما كان محافظ الممتلكات الفرنسية في شمال إفريقيا يستحق حقيقة 100.000 فرنك، الحاكم المدني 30.000 فرنك، و هكذا بالنسبة للباقي. بالإضافة إلى هذا، فإن هذا الإجراء يدخل في منطق الاستنتاجات بالأرقام و التي حسب مفهومنا لا تثبت كفاءتها بالدرجة التي يظنها البعض جيدة، بل تبدو أكثر شبيهة بمصارعة مباشرة. و مع ذلك، فإنه من المستحيل إنكار أنه سيكون من السهل تركيب الإدارة على أساس اقتصادي و أفضل على كل المستويات. بالتأكيد، مع كثرة القوانين -التي لدينا- يمكننا أن نجعل للجزائر قانونا إداريا، سيسمح بساطة قواعده من حذف جزء كبير من المساعدين و من المكاتب. لدينا في فرنسا ثروات خاصة أكثر أهمية من الموجودة في هذه الأثناء بالوصاية، و التي نسيرها بتكاليف أقل.

الجزء الثاني، 2.

إذا ما كان مَلِكُنا- المعروف بطبعه المقتصد و المنظم- يريد أن يعطي أمرًا لذلك فسيجد عاجلا قانونا لهذا الأمر. فبالتأكيد لا تكلفه إدارة أراضيه بقدر ما تكلف إدارة فرنسا للأراضي الموجودة بإفريقيا و هي الأكثر إنتاجية. و دون أن نكون أكثر دراية منه في هذا الموضوع، فإننا نتحدى أنه بإمكاننا أن ننصب الإدارة الجزائرية بأقل من 200.000 فرنك في السنة، مع الاحتفاظ بأشخاص متمكنين على رأس المصالح المختلفة. نحن في بلد جديد، في بلد يبتدئ، فليكن لدينا رجال جدد و رجال يبتدئون كذلك. لن يطالبوا بأجور ضخمة و لا بقصور. سيقال أنهم دون خبرة إدارية و هذا أفضل حتى يكونوا أيضا دون أحكام مسبقة. و إذا ما أردنا الانحصار في النقاط التي نحتلها في هذه الأثناء، فإن كل ما يلزم لقيادة القوات هم؛ ماريشال المعسكر بالجزائر العاصمة، عقيد بوهران و عنابة و رئيس كتيبة ببجاية. و إن كل ما يلزم للإدارة المدنية بقواعد بسيطة و سهلة هم مشرف و مساعد مشرف مع بعض الكتاب.

الرجال الجدد، و الرجال في المناصب الصغيرة سيتعلقون بالبلد و يدرسونه بتمعن، بينما الرجال الكبار الذين ترسلهم لنا فرنسا يتطلبون مناصب عالية و وصلوا إلى مرحلة لا يمكن فيها تعلم أي شيء. و لكننا على أرضية جد زلقة لكي نتمكن من الثبات فوقها. فرنسا ستفعل ما تراه مناسبا، إذا ما كانت لا تلوم المستوطنة على مصاريف الترف الإداري الذي تفرضه عليها. فصرف 1.800.000 فرنك من أجل الإدارة لـــ 40000 نسمة هذا قمة الجنون.

الجزء الثاني، 2.

ولكن غلطة من هذه ؟ لن أخوض هنا في مصاريف الاحتلال العسكري لأنه سيكون موضوع المقال التالي.

يوجد بفرنسا تجاوزات سيكون من الصعب اقتلاعها، و لكن هنا لم يسنح لها الوقت بعد لكي تنمو لها جذور عميقة. فعوض أن تعطينا إدارة صورة طبق الأصل عن إدارتها، وجب على فرنسا السعي إلى إبعاد المستوطنة عن الأشياء غير الضرورية للإدارة و التي هي مجبرة نوعا ما على تحملها في عقر دارها. كل شيء سيكون على ما يرام و ربما المثال البسيط للإدارة في المستوطنة سيتبع لاحقا في المدن الفرنسية.

فلو كانت الإدارة المدنية قد أنتجت أي شيء في إفريقيا لكنّا سكتنا عن كل عيوب تنظيمها؛ و لكن في الحقيقة، مهما كانت مزاعمها فلابد من الاعتراف أنها لم تصنع شيئا. فليس المهم أن تكون هذه المكاتب مشغولة بل ما هي أشغال هذه المكاتب؟ لقد فرضت الإدارة معظم الوقت على نفسها الحاجة للتقيد، و أبدا لم يكن هدفها التنمية و التقدم. فالإدارة تتدخل في كل شيء و لكن كأداة إحراج و إعاقة. فعندما يتشارك بعض أصحاب الأملاك لتمهيد طريق مشتركة، يصل قسم الهندسة العسكرية لفرض شروطه ثم التهيئة العمرانية لتفرض شروطها كذلك و المكاتب التي تكبح المضمون وراء الشكليات، و لا شيء يتم بشكل كامل. و الشيء الذي يستحق أن يشار إليه هو أن الإدارة تبدو و كأنها حضرت كل شيء. أعلم أن أفراد المكاتب يملكون تفسيرا لكل هذا و بحسن نية ، فهل هذا هو الهدف من تنصيبها؟

كل شخص أراد خلق أي شيء بإفريقيا- ماعدا الملاهي و أماكن السوء- يجب عليه أولا محاربة معارضة الإدارة. و سأذكر مثالا من ألف: في شارع لامارين الذي لم يكن مرسوما في 1834 سوى بخط طويل من الأنقاض، أراد أحد الأوروبيين أن يرفع جزءا من هذا الحطام و بدأ ببناء منزل. و بعد بضعة أيام أسست البنى التحتية و ارتفعت جدران المبنى على بضعة أقدام فوق سطح الأرض. و في هذه الأثناء، مر السيد دوبوسي de Bussy، الذي كان حاكما مدنيا آنذاك، من أمامه و رأى أن بعض الأحجار قد تجرأت على الاصطفاف في شكل متناسق و تباينت مع الدمار الذي كان يحيط بها. وبسرعة كبيرة مد يده الإدارية و تم توقيف الأشغال لمدة ستة أشهر. كانت الحجة تخطيطات يجب إتباعها و تراخيص يجب الحصول عليها أي بمعنى كل ما هو ضروري -إذا ما أردنا قول ذلك - و لكن كان من المفروض عدم المماطلة في ذلك. الإدارة المدنية في إفريقيا و حسب التعبير التصويري لتقرير لجنة الجزائر إدارة ليس لها سوى نشاط بدون نتائج ضرورية. لا تعرف البلد و لا تريد معرفته. تقوم بصياغة التقارير و القوانين و لا تبالي البتة بالباقي.

3.

من الجيش.

جيش إفريقيا يتشكل من فرقة مأخوذة لبعض الوقت من الجيش الفرنسي، ومن فيالق خاصة، موجهة خصيصا للدفاع عن المستوطنة. و هذه الفيالق هي:

فيلق الزواف؛

فوج قناصة إفريقيا؛

فيلق الصبايحية النظاميين؛

كتائب المشاة الخفيفة لإفريقيا؛

سرايا حراس السواحل لإفريقيا.

تم تأسيس فيلق الزواف بموجب مرسوم من الجنرال كلوزيل على أسس مقررة بتعليمة 21 مارس 1831، كان يتشكل في البداية من كتيبتين مشكلتين من ثمان سرايا لكل واحدة. الأفراد في الأساس هم من السكان المحليين و لكن يمكن قبول فرنسيين و أجانب. في نهاية 1832، تم دمج الكتيبتين في واحدة مشكلة من عشرة سرايا نظرا للضعف الذي واجهته بسبب صعوبة عملية تجنيد الأهالي. رتبت تعليمة صادرة بـ 7 مارس 1833 هذه العملية. إذ حسب هذه التعليمة ، فإن فيلق الزواف يجب أن يحتوي على سريتين من الفرنسيين و ثمانية من السكان المحليين. كل سرية من المحليين يجب أن تحوي على اثنا عشر جنديا

فرنسيا. و تم منع تجنيد أجانب أوروبيين في الفيلق. يتم التجنيد بصفة تطوعية و يمكن مع ذلك جلب عسكريين فرنسيين من فيالق أخرى عند الحاجة.

لقد حددت التعليمة المذكورة آنفا أنه يتم التعاقد مع الجنود الفرنسيين حسب الأنماط و الشروط المحددة في القانون.

التعاقد مع السكان المحليين يكون لمدة ثلاث سنوات، و هذا بعد اقتراح من مسؤول الفيلق و بعد موافقة الجنرال الذي يكون الفيلق تحت إمرته. و يتم استقباله من طرف نائب الحاكم العسكري المكلف بالمراقبة الإدارية للفيلق.

و بتعليمة من الملك صادرة في 25 ديسمبر 1835، أتبع فيلق الزواف إلى كتيبتين تحت قيادة مقدم و كل كتيبة مشكلة من ستة سرايا منها اثنتان فرنسيتان و أربع عربيات. و لكن عدد السرايا في كل كتيبة يمكن رفعه إلى عشرة إذا ما كانت مصادر تجنيد الأهالي تسمح بذلك. و قد أبقت التعليمة على كل إجراءات تعليمة 7 مارس 1833.

ضباط الصف و العريفين و جنود فيلق الزواف يلبسون البدلة التركية والضباط يحتفظون بالزي الفرنسي. في المبدأ، البعض منهم تبنوا فكرة الثياب الإسلامية و لكنهم كانوا يجدون أنفسهم غريبين في هذا الزي فتخلوا عنه. وكانت السلطة متعقلة فتركتهم على راحتهم في هذا الجانب، و منذ ذلك نرى ضباط الزواف يقودون بزيهم الأوروبي سراياهم إلى القتال. لقد كان لذلك وقعا طيبا. لا يجب الظن بأننا نريد إغواء العرب

بتنازلات صبيانية للأزياء و الطباع، بل على العكس: فبشكل عام الطريقة السيئة التي كنا نرتدي بها تلك البدلات كانت لا ترمي إلا لجعلنا محل سخرية في أعينهم.

قدم فيلق الزواف -الذي كان دائما حاذقا و متهيئا- خدمات كبيرة في إفريقيا و لسوء الحظ يتم التجنيد فيه ببعض الصعوبة في وسط الأهالي الذين يفضلون في الأغلبية خدمة سلاح الفرسان مقارنة بمصلحة المشاة.

صدرت تعليمة ملكية في 17 نوفمبر 1831 تأمر بتشكيل فوجين من القناصة على الأحصنة بإفريقيا. واحد بالجزائر و الثاني بوهران، و بعد احتلال عنابة تم تنظيم فوج ثالث من نفس السلاح في هذه المدينة. هذه الأفواج الثلاثة كانت تحوي في ذلك الوقت أربعة وحدات عسكرية حربية ووحدة لتدريب المجندين بفرنسا و التي تم نقلها إلى إفريقيا بإجراء حديث، ما لم يُبق سوى على مركز تدريب واحد بفرنسا للأفواج الثلاثة. قناصة إفريقيا منظمون مثل الأفواج العسكرية الأخرى لسلاح الفرسان الفرنسي. تعليمة 17 نوفمبر 1831، تضمن الرتبة العليا بعد سنتين من الخدمة في إفريقيا للضباط الذين يلتحقون بها برتبة تصل إلى نقيب ابتداءا من اليوم الذي يتم فيه استيفاءه لشروط الترقية. و هذا الوعد لم يتم الوفاء به. صحيح أن هذه الميزة كانت باهظة، لكن لم يكن ضروريا تقديم عهود بذلك.

زي قناصة إفريقيا هو الزي البولوني (Polonais). وهذه إحدى التصورات الغريبة التي لا يمكن أن تنشأ سوى في المكاتب. تعليمة 17

نوفمبر سلحتهم ببنادق. و لبعض الوقت تم استبداله بالرمح و هو سلاح غير ضروري في إفريقيا. ثم أعيدت إليهم البنادق التي يحملونها الآن.

يتم تجنيد قناصة إفريقيا من كل أفواج سلاح فرسان الجبهة و أفواج سلاح الفرسان الخفيفة من الجيش الفرنسي، إما بشكل تطوعي أو بشكل إجباري. قبل تأسيس الصبايحية النظاميين، كان من الممكن قبولهم للسكان المحليين و الآن الفوج الوحيد الذي يحوي هؤلاء هو فوج وهران.

تدين فيالق الصبايحية النظاميين بتواجدها إلى تعليمة 10 سبتمبر 1834، يجب أن يتشكلوا من السكان المحليين و مع ذلك يمكن قبول الفرنسيين بنسبة الربع. و ما عدا ذلك فتنظيم هذه الفيالق لا يزال مبهما؛ فتعليمة 10 سبتمبر 1834 اقتصرت فقط على التشكيل دون الدخول في أية تفاصيل عن التنظيم. فلا يوجد لحد الآن في هذا الجانب سوى مشروع طويل من التعليمات غير المحررة و التي لم يبحث فيها سوى عن التنسيق بين ملائمات شخصية. يحوي جيش إفريقيا إثنان من هذه الفيالق واحد بالجزائر تحت قيادة مقدم و مشكل من أربعة أسراب و الآخر بعنابة بقيادة رئيس فوج ومشكل من سربين. و لن نتأخر بالتأكيد عن تشكيل ثالث بوهران.

زي الصبايحية النظاميين هو الزي العربي الأصيل. يلبسون برنسا أحمر ومسلحين مثل القناصة. الضباط الذين هم في غالبيتهم فرنسيين يرتدون كذلك الزي المحلي. هذه الفيالق تشكل سلاح الفرسان الأكثر تحركا الذي حصلنا عليه في إفريقيا.

الجزء الثاني، 3.

صدرت تعليمة من الملك في 3 جوان 1832 تأمر بتشكيل كتائب مسماة سلاح المشاة الخفيف لإفريقيا، المخصصة لاستقبال كل العسكريين الذين لهم حكم قضائي بعقوبة غير مشينة، و شكلنا ثلاثا من هذه الكتائب على التوالي و هذا التنظيم كثير العيوب. فهو يثقل عاتق الخزينة بسبب التحويلات المستمرة داخله، لأن التجنيد في هذا الفيلق يتم بصفة مستعجلة، أين يتم تفريغ كل السجون العسكرية و كل ورشات المُدانين، و للحفاظ على عدد أفراد مناسب للفيلق يتوجب إعادة إرسال كل العسكريين الذين في الجبهة الذين أمضوا بعض الشهور في كتيبة إفريقيا مع حسن السيرة و بشكل نظامي. و ينتج بالإضافة إلى ذلك أنه لا يوجد أي شكل من النظام لهذا السلاح. و إذا ما وجد فلن يكون سوى منبوذا لأنه لا يتكون سوى من الأفراد السيئين و الناس غير المنضبطين الذين نرى أنهم لا يستحقون التواجد في مكان آخر. و من حسن الحظ أن الضباط فيه يعتبرون عامة من النخبة المميزة و يستطيعون الحصول على بعض الخدمات من هذه العناصر السيئة، هذه الفيالق تساوي أكثر من هذا إذا ما كان المستخدمون فيها لا يتغيرون بصفة مستمرة. فمن بين هؤلاء العسكريين الذين يتعرضون لقسوة القوانين المتطلبة كثيرا في بعض الأحيان، يوجد رجال نشطون و أذكياء و هؤلاء هم من يدخلون إلى الجبهة دوريا.

تم تنظيم سرايا المدفعيين حراس السواحل بتعليمة صادرة في 1 أوت 1831. يمكن فيها قبول سكان الجزائر مهما كانت أصولهم، و لكن بنسبة الثلث فقط من مجموعة المستخدمين. توجد خمسة من هذه السرايا و هي: الثنتان

بالجزائر، واحدة بوهران، واحدة بعنابة و واحدة ببجاية.

من الايجابي الحصول في إفريقيا على فيالق خاصة بالبلد. الجنود متأقلمون و الضباط راضون عن المواقع التي أخذوها باختيارهم. أما الأفواج العسكرية التي تصل من فرنسا، فهي تعاني - على عكس الباقين- من المناخ الصعب في كثير من الأحيان، و الضباط لا يعرفون دائما الإذعان لموقف شائك إذا ما استسلمنا إلى أول نفور نحسه تجاهه. و مع ذلك -من جهة أخرى- فإنه لمن الأفضل أن تأتي الكتائب الفرنسية على التوالي لقضاء بعض السنوات في إفريقيا فهي مدرسة سيكسبون منها الكثير.

تنظيمنا العسكري مكلف للغاية. و التجاوزات التي تنتج عنه بشكل عام تتكرر بإفريقيا. لكنه من المجحف اتهام المستوطنة بذلك فهي بريئة تماما. هذه التجاوزات جعلت الجيش بعيدا عن المعاملة الجيدة على الرغم من أنه يمثل عبئا لثقيلا على عاتق الخزينة. فليس عسكريا بميزة خاصة ذلك الذي، بالتأكيد في وظيفة أخرى غير وظيفة السلاح، لم يتحصل على مركز أكثر تميزا من ذلك الذي يشغله.

ليست هذه هي النقطة التي سنهاجم منها تجاوزات نظامنا العسكري، و لكن بما أن فرنسا قبلت بإنشاء فيالق خاصة بإفريقيا، فإنه من واجبنا أن نبين أن هذه الفيالق يمكن تنظيمها بشكل اقتصادي جدا و وهب كل المزايا للذين ينتمون إليها. و إذا كانت الحكومة الفرنسية تفكر فيها بعد، - كما أظن- أنه سيكون من الأفضل تكوين البعض من هذه الأفواج في إفريقيا، و هي ستندفع

لهم بالجزائر مثلما ستدفع لهم بفرنسا دون التمكن من اقتطاعهم من ميزانية المستوطنة بشكل معقول.

يجب أن تتشكل قوات المشاة الجزائرية من كتائب منفصلة تتكون من عشرة سرايا ذات مئة رجل لكل سرية. و يتم التجنيد فيها عن طريق:

1- انتماء تطوعي مفتوح للفرنسيين، للأجانب و للسكان المحليين.

2- بفرق عسكرية مزودة من طرف فيالق المشاة الفرنسية سواء بشكل تطوعي أو بشكل إجباري.

3- بالتسجيل بالإكراه للسكان المحليين.

سيتم تركيز كل السكان المحليين من نفس الكتيبة في سريتين بشكل حصري حتى إجراء جديد. و سيتم توزيع الفرنسيين و الأجانب الأوروبيون على السرايا الثمانية المتبقية و لكن بطريقة يشكل فيها الفرنسيون ثلثيها على الأقل لبعض الوقت. مدة الخدمة ستكون ثلاثة سنوات للالتزامات التطوعية للفرنسيين، للأجانب أو المحليين، و كذا المسجلين قصرا من الأهالي. أما بالنسبة للعسكريين القادمين من فيالق أخرى إما بشكل تطوعي أو بشكل إجباري فيجب عليهم إتمام مدة الخدمة المفروضة في القانون، ماعدا التخفيف الذي سنتكلم عنه لاحقا.

يعتبر تشكيل المشاة في كتائب جد عقلاني، فالكتيبة هي وحدة المناورة ويجب أن تكون وحدة تنظيم. في الجبهة، يختفي الفوج و لا نجد و لا نرى سوى كتائب. هذا التنظيم بالإضافة إلى ذلك أكثر اقتصادا و مناسبا

جدا لنظام الدفاع للبلد. و مع ذلك، إذا كانت الكتائب التي نقدمها ستبقى مشكلة مثل تلك الموجودة، الاقتصاد سيكون أقل حساسية. لكنه يجب تغيير هذا التكوين الداخلي بالتحديد بصفة مستعجلة. أولا، لا يلزم لكل مدينة في المستوطنة سوى متجر واحد للأزياء و ورشة عامة لكل عمليات الخياطة التي تعطى للمؤسسة. و سنتيقن أنه مهما كانت أرباح الخياط العام فلن تعادل أبدا المصاريف التي تكلفها المتاجر و الورش المنفصلة. تستلم الأزياء المصنوعة بالمحال لجان مكونة من ضباط و ضباط صف و جنود. سيكون في كل كتيبة حارس أو مراقب خاص بالثياب برتبة رقيب أول تحت الأوامر المباشرة للضابط ال مسؤول عن الدفع. هذا الأخير سيكون ملازما أو ملازما أول. و سيتكفل بكل وظائف أمين الخزينة. يجب تبسيط قواعد المحاسبة قدر الإمكان، فهي معقدة و كثيرة جدا في هذه الأثناء لدرجة أنها تمثل مجموعة هائلة تحير كل رجل واع و تبعث اليأس في رؤساء الفيالق. ففي نهاية المطاف لا يتطلب الأمر سوى تسجيل ما نتحصل عليه و ما ننفقه. و كتابات مماثلة لتلك المستعملة لدى التجار قد تفي بالغرض.

سيكون زي كتيبة المشاة لإفريقيا مماثلا لزي جنود بحريتنا بمعنى السترة الصغيرة المستديرة و القبعة من القماش المشمع، فهو خفيف و يتأقلم بشكل جيد مع المناخ و جد اقتصادي.

يمكننا إن أردنا ذلك الحصول على فيلق موسيقي في عاصمة كل إقليم ولن يكلف ذلك سوى ما يقارب 30 ألف فرنك.

لنضع 16000 رجل لقوات المشاة التي من المناسب تركها في إفريقيا، هذا يمثل تقريبا ستة أفواج من ثلاث كتائب و سيكون مجموع رواتب هذه الأفواج الستة مفصلا كالتالي:

رواتب كل الكولونيلات و المقدمين والرائدين.......................77.400 فرنك

رواتب 18 رئيسا للكتائب.........64.800 فرنك

رواتب ضباط المحاسبة[1] ....39,600 فرنك

رواتب ضباط الصحة.............53.622 فرنك

رواتب ضباط الكتاب..............717.000 فرنك

رواتب الفرقة العسكرية..........2.223.394 فرنك

المجموع..........................3.175.816 فرنك

و يجب الإضافة إلى هذا :

الكتل الفردية و العرض الأول .....702.342 فرنك و 00 سنتيم

ألبسة، تسليح و معدات...........469.173 فرنك و 36 سنتيم

كتلة الصيانة.....................90.000 فرنك

أغذية و تدفئة....................1.997.759 فرنك و 64 سنتيم

تعويضات تأثيث للضباط..........93.240 فرنك

الثكنات..........................300.000 فرنك

المجموع..........................6.918.330 فرنك و 97 سنتيم

---

(1) يوجد في كل فوج أمين خزينة و مساعده نقيب للثياب و مساعده

الجزء الثاني، 3.

و إذا ما نظمنا ال15000 رجلا من المشاة في كتائب منعزلة يجب اقتطاع من ذلك المبلغ:

رواتب الكولونيلات، المقدمين و الرائدين............77.400 فرنك

رواتب ضباط المحاسبة.........................39.600 فرنك

الفرق بين الزي الحالي و الزي الذي نعرضه............117.339 فرنك

المجموع.......................................234.399 فرنك

سيتبقى إذن 6.683.991 فرنك من أجل رواتب صيانة فرقة المشاة المشكلة من 16000 رجل. و لكن لا تنحصر إمكانية التوفير في الكتائب الخمسة عشر في هذا. بل أن نصفها فقط يمكن أن يكون في خدمة دائمة برواتب كاملة، أما النصف الثاني فيتم توزيعها بنصف الراتب على ملكيات الأراضي أو في أراضي غير محددة و التي يمكنهم استصلاحها و زراعتها لحسابهم الخاص. ستتكون الفيالق الاحتياطية من كل العسكريين الذين أتموا نصف المدة الواجبة عليهم في الكتائب في خدمة دائمة، و بعد نصف المدة الثاني سيجدون أنفسهم كلهم مستقرين و متعلقين بالبلد للمصلحة. نقترح في المقال 9 طريقة جد بسيطة للقيام بتجارب في هذه المستوطنة العسكرية، التي حتى تكون جيدة يجب أن تكون مشتركة بين الأوروبيين و السكان المحليين. الضباط الذين يريدون الاستقرار بالبلد سيحصلون على تنازلات تتناسب مع رتبهم. كل جندي من كتائب الاحتياط سيكون

ملزما بإعطائهم عدد معين من أيام العمل. و ما عدا ذلك لابد بقدر الإمكان أن يتم العمل بشكل مشترك . فإذا ما نجح الأمر، و لا نرى شيئا يعيق نجاحه، فإن قوات المشاة لن تكلف الدولة سوى 5.000.000 فرنك إلى غاية الوقت الذي لن تصبح فيه المستوطنة بحاجة إلى ميليشيات.

و فيما يخص الأسلحة الخاصة، فإنه من الصعب النظر فيها في الوقت الراهن، و لكن حين تصبح هيمنتنا أكثر استقرارا، فمن الممكن جدا ألا يكون لدينا إلا فيلق دائم مكون من 500 جندي في سلاح المدفعية و جنود الهندسة ونواة من سلاح الفرسان الدائم. و الميليشيات ستوفر الباقي. و بضمان فرسان القبائل الخاضعة الذين يستلمون 60 سنتيما[1] كعلاوة يومية بالإضافة لملحق إضافي بـ 2 فرنك لكل يوم خدمة، سنتحصل على سلاح فرسان غير نظامي يقدم لنا خدمات هائلة في حملاتنا و لا يكلفنا إلا القليل من الصيانة غير المكلفة، إذ أن 1000 رجل في هذا الفوج من الفرسان سيكلف 401.500 فرنك إذا ما افترضنا استخدامه ربع سنة؛ و 1000 رجل من الفرسان الدائمين تكلف أكثر من مليون فرنك.

نرى إذن أنه بعد استقرارنا بالبلد مثل ما نحن بصدد القيام به، سيكون من السهل الحصول على قوات عسكرية بحساب جيد إذا ما أردنا ذلك. و فيما يخص عددها فسيتعلق بالهدف الذي نرسمه، و لكنني أظن أن التوجيه الجيد للأعمال سيؤدي بنا قريبا إلى عدم الحاجة إلى فيلق ثابت بكل إقليم،

(1) هذه العلاوة مخصصة لصيانة الأسلحة و الأحصنة.

مماثل لذلك الذي قدمناه في المقال الخامس من القسم الثاني للجزء الأول.

و باختصار، يجب أن ترمي مجهودات الإدارة إلى جعل الجيش استيطانيا؛ أولا، لأنه بالبلد الذي يصبح فيه الجنود عمالا يمكنه الاستغناء عن الجنود، وثانيا لأن الجيش هو عادة الجزء الأكثر صلاحا في سكان المستوطنات.

4.

من البحرية.

إنه لمن المكاسب الهائلة لفرنسا أن تملك قبالة سواحلها بالبحر الأبيض المتوسط سواحلا على امتداد 600 ميل، و التي مهما قيل عنها فإنها توفر مراسي جيدة. سيكون من الصعب على الأجيال القادمة تصديق أنه تم التشكيك في هذا المكسب - ومكاسب أخرى- و أنه خلال العديد من السنوات قام العشرات من المحامين الثرثارين و الجاهلين بكل ما يخرج من نطاق اختصاصهم برمي قضية الحفاظ على هذا الفتح المهم إلى حظوظ تصويت خاضع للأهواء.

و بالتجول على سواحل الجزائر من الشرق إلى الغرب نجد القالة حيث كانت توجد بعض منشآتنا القديمة، تقع بين رأس الأحمر (cap Roux) والرأس الكبير (cap Gros) و تعد مرسى مفتوحا و غير محمي بشكل جيد لكنه فيما عدا ذلك بحالة جيدة. تحتوي القالة على ميناء صغير.

بين الرأس الكبير (cap Gros) و رأس وردة (cap Rosa) يوجد المرج البحري لفرنسا المحمي من الرياح الغربية.

ساحل عنابة محمي من رياح الغرب و من رياح الشمال بواسطة رأس

الخارس (le cap de Garde) و لكنه مفتوح للرياح الشرقية. المرفأ الأقرب من المدينة يسمى القصرين و ليس بحالة ممتازة. على شماله يوجد مرفأ الخروبة و هو بحالة جيدة و قريبا من رأس الخارس يوجد حصن جنوة الذي يعتبر الأحسن من بين الثلاثة.

منذ سنة ضربت أمواج عاتية و كسرت حاجز السيبوس، فأصبحت بإمكانها البواخر التجارية الرسو بهذا النهر و بذلك أصبح في عنابة ميناء تجاري. و لكن البحر الذي فتحه بإمكانه إعادة غلقه في أي وقت و ذلك بإعادة تكديس الرمال التي سحبها من جديد. و حتى لا تخضع لدلال هذه القوة العمياء، وضعنا مشروعا لحفر قناة تجعل السيبوس مصب بالقرب من المدينة بواسطة صخور لا يمكن للرمال الوصول إليها. تطبيق هذا المشروع حسب ما يبدو لن يكلف الكثير و سيقوم بتجفيف مستنقعات البوجمعة و بهذا يقدم لنا فائدتين.

يعتبر مكلأ سطورة في الخليج الذي يحمل نفس الاسم ممتازا على مستويات عدة.

فهو محمي من الرياح الشرقية و الشمالية الشرقية براس الحديد و الأراضي المتاخمة. و هو محمي كليا من الغروب بالبر الذي في هذا المكان يعلو نحو الشمال، بشكل يجعل الرسو بالقرب من البر ممكنا دائما في هذا المكلأ، لأنه يمكن للسفن الاحتماء من الرياح الشمالية. مكلأ سطورة بحالة جيدة و كذلك مكلأ القل الأبعد عنه بقليل و لكنه أكثر عرضة للرياح الشرقية.

مكلأ جيجل مفتوح كثيرا و لكنه بحالة جيدة. و تحوي المدينة ميناء صغيرا و ليس سيئا أبدا.

مكلأ بجاية معرض مباشرة لرياح الشرق، الدخول و الخروج لا يتمان دائما بطريقة سهلة. المرفأ الذي أمام المدينة لا يساوي شيئا، و لكن مرفأ سيدي يحي ما بعد برج عبد القادر جيد جدا. و عند الرسو بالقرب من البر قدر الإمكان يمكننا الاحتماء من كل الرياح. ففي فيفري 1835، خلال الإعصار الرهيب لم تتعرض السفن التي كانت موجودة هناك لأضرار كبيرة، حتى أن القوارب بقيت على المراسي الخاصة بها و ظل بالإمكان الاتصال من ضفة إلى أخرى. و السفينة التجارية التي غرقت في هذه الفترة كانت راسية بالقرب من المدينة.

بين بجاية و الجزائر، نجد موانئ مرسى الفحم و دلس و هما دون أهمية.

مكلأ الجزائر غير معرض للرياح الغربية و قليل التعرض للرياح الشمالية، لكنه مضطرب بالرياح الشمالية الشرقية. و رغم ذلك و بما أنه بحالة جيدة فإن السفن الحربية تمكنت من تجاوز أسوء الأحوال. في سنة 1835، قاومت سفينة المراقبة الرياح الشديدة التي بقيت محفورة في ذاكرتنا. لكن سفينة بخارية غرقت نظرا لظروف خاصة. العديد من السفن التجارية الأقل جودة من السفن الحربية غرقت كذلك. استغل -أولئك الذين كانوا يرفضون الإبقاء على المستوطنة- هذه الكوارث، لكن الكوارث من هذا النوع يمكن أن تحدث في أي مكان.

في عام 1828 خلال احتلال القوات الفرنسية لكاديز الاسبانية، غرقت 19 سفينة بالمكلأ الممتاز لهذه المدينة، و في نفس الفترة غرقت 51 سفينة كذلك في مضيق جبل طارق و لا أحد في انجلترا فكر في مجرد استعمال ذلك كذريعة لإخلاء هذا الموقع المهم.

الجزء الثاني، 4.

الجزائر لديها ميناء مشكل بواسطة جزيرة صغيرة تم ربطها بالبر بواسطة سد بحري. هذا الميناء في حالة متدنية و معرض لأثار الرياح الشمالية الشرقية. يتطلب حاجز الأمواج المتواجد بطرف الجزيرة إصلاحات مستمرة و هذا ما كلف مسبقا مبالغ جد معتبرة.

يوجد مكلأين بسيدي فرج غرب الجزائر مفصولين بالنتوء الخليجي الصغير الذي يحمل نفس الاسم. مفتوحان للرياح الشمالية، و محميان بواسطة النتوء الخليجي الذي يلعب دورا مزدوجا، فمن الشرق ضد الرياح الغربية و من الغرب ضد الرياح الشرقية . يمكن بسهولة المرور من جهة لأخرى حسب جهة هبوب الرياح.

غرب سيدي فرج يوجد الميناء الصغير لتيبازة أين يمكننا رؤية آثار مدينة رومانية. و هو محمي من الرياح الغربية بواسطة جبال شنوة. و القوات البحرية لم تتعرف عليه حتى الآن.

مكلأ تنس مفتوح كليا من الشمال، يبدو أنه محمي من الرياح الشرقية أكثر من كل مكالئ الوصاية، و القوات البحرية لا زالت لا تعرفه بشكل كامل حتى الآن.

سنتحدث الآن عن أحسن مكلأين بالوصاية و هما مكلأ أرزيو و مكلأ مرسى الكبير. الأول محمي تقريبا من كل الرياح و يوجد في بعض النقاط من امتداده أماكن لا يمكن منها لمح أعالي البحار و يمكن أن نظن أنفسنا في بحيرة لأنه محاط جيدا. حالته جيدة و لكن مستوى الماء منخفض حتى

الجزء الثاني، 4.

تمكن السفن من الرسو بالقرب من البر. الطرف الأقصى الذي يغلقه عند برج أرزيو يمثل امتدادا لصخور مفرقة بمضايق تقريبا بنفس امتداد هذه الصخور، إذا ما ملأنا هذه المضايق و هذا شيء سهل سنجعل من أرزيو من أجمل موانئ البحر الأبيض المتوسط. و يمكن للبواخر المجيء للرسو عند هذا السد البحري.

أما بالنسبة لمكلأ المرسى الكبير المفتوح بعض الشيء من الغرب، فهو مرفأ ممتاز و يمكن أن يوفر ملجأ للقوات البحرية الأكثر تعدادا. و قربه من السواحل الإسبانية و قربه من مضيق جبل طارق يجعل منه موقعا بحريا ذو أهمية بالغة.

مرفأ جزيرة رشقون الذي احتللناها منذ أشهر قليلة سيء جدا، لكنه رغم ذلك فإنه كانت تتم في عهد الأتراك -عبر هذا الموقع- تجارة معتبرة للحبوب التي كانت تجلب السفن الأوروبية في المواسم الجيدة.

هذه هي الملاجئ التي تهديها الطبيعة لبواخرنا على السواحل الإفريقية و التي كان لدينا اتصال مؤسف بها قبل معرفتها جيدا. و هي ليست أكثر خطورة من تلك الموجودة ببروفونس Provence و أقل بكثير من تلك الموجودة بلامانش la Manche حيث تمكن العلم البشري من حفر موانئ ممتازة و سيحدث نفس الشيء بإفريقيا.

من بين ضباط البحرية الذين ساهموا بنجاح كبير في التعريف بسواحل ممتلكاتنا في بلاد البربر هما السادة: بيرار Berard و قارنيي Garnier

الذين ندين لهما بخرائط ممتازة في هذا المجال.

خدمة المراسلات بين فرنسا و المستعمرة كانت تتم من خلال الجزائر و تولون، بواسطة سفن بخارية تسافر مرة كل ثمانية أيام. و كانت سفن بخارية تنقل المراسلات كل خمسة عشر يوما مع وهران، بجاية و عنابة. يوجد كذلك سفينة شراعية للمراقبة في مكالئ عنابة، بجاية، الجزائر، أرزيو و المرسى الكبير.

5.

المالية.

أثرت إدارة الأتراك سلبا على إيالة الجزائر، حيث جعلتها فقيرة رغم عوامل الثراء. لم يستطع الدايات جني أكثر من 1.800.000 فرنك في آخر عهدها. و كانوا يتسلمون الضرائب العينية. وفي الإجمال كانت مداخيل الدولة لا تتعدى 3 ملايين.

و على الرغم من أن العرب لم يدفعوا بعد، على الأقل بصفة قانونية، فقد تحصلنا تقريبا على هذا الرقم. فمداخيل عام 1835 ارتفعت إلى 2.593.472 فرنك و 58 سنتيم موزعة كما يلي:

المتلكات.......................157.862.98 فرنك

التسجيلات.....................133.294.59 فرنك

ضريبة المهن...................70.155 فرنك و81 سنتيم

رخص الحانات..................82.541 فرنك

الجمارك........................1.102.678 فرنك و 68 سنتيم

البريد...........................75.653 فرنك و41 سنتيم

مصاريف مختلفة

من طرف صراف الرواتب.......365.155 فرنك و 97 سنتيم

الجزء الثاني، 5.

المشاريع المنجزة في بجاية.............52.090 فرنك و 40 سنتيم

المشاريع المنجزة في مستغانم..........91291 فرنك و59 سنتيم

منتجات البلدية.....................462748 فرنك و 15 سنتيم

المجموع.........................2.593.472 فرنك و 58 سنتيم

6.

الزراعة.

منذ الأزل عمل الإنسان على كسب قوته بيده و جمع غذاءه من الأرض طيلة حياته. وعندما عاش ضمن إطار القوانين السديدة و المنظمة أصبح مسرورا بعمله في الأرض و أحس بقيمة النعم التي وهبها الله له[1]. و عند انتشار قوانين استبدادية، أجبر على العمل لصالح سادة متسلطين أكثر من عمله لحساب نفسه.

في أيامنا هذه يعمل المجتمع على إعادة تنظيم نفسه حتى يلغي أي تفاوت فاضح في عملية توزيع العمل، و كذا الأعباء، وبهذا تصبح الواجبات لكل واحد كالعبء الخفيف. و مهما سيكون شكل المجتمع المستقبلي فإن الزراعة دوما ستكون أولى و أهم انشغالات الإنسان. فهي من تموّن بطريقة مباشرة الجزء الأكبر من حاجياته، و بطريقة غير مباشرة تموّن مجالات أخرى. مهام الذين يمارسونها صعبة بكل تأكيد، و لكنها

(1) قمت بتغيير و تلخيص مفهوم الفقرة التي تكلم فيها المؤلف بشكل خارج عن

تتمتع بامتيازات هائلة إذا وجدت في دولة منظمة جيدا. في كثير من البلدان التي أغلبية مزارعيها يعملون لحسابهم الخاص، أو على الأقل أسعار الإيجار منخفضة فيها و عقود الإيجار طويلة الأمد، الطبقة المزارعة تمثل الجزء الأكثر نعالية، الأصح و الأكثر أخلاقية و بالتالي الأكثر سعادة في المجتمع. و لكن لسوء الحظ، المزارع في أغلب الأحيان هو مجرد أجير، بمعنى أنه مستعبد من طرف الأرض الزراعية. و بذلك لديه كل موبقات العبودية. فعند التفكير مليا، يظهر أن الذي لا يملك حتى أداة صناعته يكون مجبرا على وضع نفسه تحت تصرف أحد آخر؛ فهو مستعبد مهما كان الإسم الذي نعطيه إياه. أما الأرض فهي أداة صناعة المزارع، و من المفروض أن لا تكون ملكا سوى لمن يزرعها، أو أفضل من ذلك، يجب أن تكون الأملاك غير القابلة للتجزئة لكل الرجال المشتركون في زراعتها. و سيأتي وقت تصبح فيه الحقوق الحقيقية لبعض الكسالى على أراض لم يروها أبدا و آخرون يسقونها بعرقهم، بنفس درجة تعسف حقوق رجل على آخر؛ بمعنى الرق الاستعبادي. هذا الوقت آت و نحن نقترب منه.

نحن نتوجه بصفة أكيدة لدرجة الاعتراف كل يوم باستحالة خلق منشآت زراعية جديدة عبر نظام المزارع. و لا يمكننا تشكيل هذه المنشآت إلا بتقسيم التربة أو باعتماد التعاضديات العمالية التي لا تعتبر سوى أحد سبل العمل الجماعي. هذا النظام الأخير يجمع كل المزايا الإنتاجية للأنماط الزراعية الكبرى و كذلك الصغرى، و هذه المزايا ناقشناها لمدة طويلة. كان هناك اتفاق

ماً على إعطاء الأهمية للأنماط الزراعية الصغيرة في الأراضي ذات المنتجات المتنوعة وفي تلك التي تربتها متحدرة و متصدعة. وفي بعض بلاد السهول والتي طبيعة منتجاتها تتنوع قليلا فتبقى القضية محل خلاف وجدل. فحسب "ج ب ساي" J. B. Say [توجد حسابات قام بها في هذا المجال "آرثر يونغ" Arthur Young توضح أنه في بلاد السهول و لزراعة مقاطعة من 4000 هكتار من طرف شركات أو مزارع ذات ثلاث محاريث، يجب توفير 555 رجل و 681 حصانا، في حين أن المساحة نفسها من الأراضي المستغلة من طرف مزارع بمحراث واحد تتطلب 666 رجلا و 1000 حصان. و في كلتا الحالتين المنتجات هي نفسها مما يرجح كفة الميزان نحو الأنماط الزراعية الكبيرة بما أنه بتكاليف أقل نتحصل على نفس النتائج. يعترف "ساي" Say بدقة هذه الحسابات، لكنه يتردد رغم ذلك في إبداء رأيه، لأن هذا الرجل المثقف لم يكن يجهل المزايا المعنوية للأنماط الزراعية الصغيرة رغم أن التساؤلات الاجتماعية الكبيرة كانت أقل تقدما مما هي عليه الآن عندما كتب في هذا الموضوع. يمكن تحقيق الانسجام إذا ما طبق الملاك الصغار مبدأ التعاضد في تسيير أراضيهم. سنعود في المقالات القادمة لنظام التعاضد، و لكن علينا أن نحصر في هذا المقال في الجانب المادي للزراعة المطبق في إفريقيا.

على الرغم من أن العرب هم أبعد ما يكون عن الكسل الذي يعتقده عامة البعض، فهم لا يزرعون إلا جزءا صغيرا من البلد، أولا لأنهم ليس لديهم سوى احتياجات قليلة و ثانيا لأن عددهم لا يتناسب مع المساحة الشاسعة

لأراضيهم. القبايل اللذين يتكتلون في تجمعات أكثر من العرب يتركون مساحات غير مستغلة من الأراضي أقل. عند هؤلاء الملكية محددة بشكل جيد عكس الحال عند العرب التي تكون فيها مبهمة. و مع ذلك نجد لديهم مزارع تشكل ملكية ثابتة و التي تعود ملكية بعضها إلى نفس العائلة منذ عصور قديمة. و باقي الأراضي مبهمة الملكية و تبقى ملكية مشتركة في القبيلة. الحق في المراعي يكون بعد موسم الحصاد و في الممتلكات غير المغلقة. و الطريقة التي يتم بها طريقة مضرة لنمو الأشجار، و أغلب الغابات يجعلها مجموعة من الشجيرات أو أيكة صغيرة الأشجار. و مع ذلك نجد بعض الغابات في البلد. تفوح عطور شجرة الطرفاء tamarisque في السهول وعطر أشجار البلوط الفلينى في الجبال. و نجد كذلك أشجار الخروب ،أشجار المصطكي، وأشجار الزيتون التي هي رائعة الجمال، وعطور من أوروبا. أما النخيل فينمو بوفرة وراء جبال الأطلس.

التربة في الوصاية جد متنوعة. الأراضي المهيمنة هي ذات تربة صلصالية غنية خفيفة و بأكسيد الحديد. و يظهر ذلك من لونها المحمر. هذه الأراضي إذا لم تزرع تصبح كالمناجم و تغطيها الشجيرات و المصطكى و النخيل القزم الذي ينتشر بوفرة في البلاد. تآكل هذه النباتات يؤدي إلى تشكيل طبقة من التربة العضوية السطحية التي تخفي في بعض الأحيان طبيعة باطنها. الأراضي التي قمنا بوصفها تنتمي إلى الهضبات و الجبال الثانوية. الجبال الكبيرة ، في كل مكان أمكننا ملاحظتها هي ذات قمم صخرية و قاعدة جيرية. السهول

التي جباها توفر تربة ممتازة للزراعة. هذه الأراضي تكون تارة قوية و سوداء و تارة أكثر خفة و لكنها في الغالب دوما خصبة جدا. أجزاء السهول التي لا يتم زراعتها تغطيها نباتات سنوية تجففها أشعة الشمس كل عام. لم تسنح لنا فرصة رؤية الرمال التي تغطي سطح المنطقة حسب السيد دوبان Dupin. فالرمال جد نادرة لدرجة اضطرارنا لاستخدام التربة لصنع الملاط.

العرب يزرعون القمح ، الشعير، الذرى، التبغ و بعض الخضروات. لا يعطون سوى حرثين للأرض على الأكثر، و في غالب الوقت مرة واحدة بمعنى أنهم يضعون البذور قبل جني المحصول و يقومون بعد ذلك بتمرير المحراث لتغطية البذور و فتح الأرض. و يتصرفون هكذا خصيصا للشعير. يزرعون البذور مع الأمطار الأولى بمعنى في نوفمبر و ديسمبر. المحراث الذي يستعملونه ذو طية معكوسة و هو مستدير عوض مدبب. هذه الأداة غير دقيقة وتكفي فقط لأراضي خفيفة. يقوم العرب بفرز حقولهم بعناية كبيرة و لذلك تكون سنابلهم في الصيف تسر الناظر و لديهم اهتمام خاص بإبعاد الطيور عنها والتي تتواجد بأعداد كبيرة إلى درجة أن مجرد نقص حيطة المزارع قد تؤدي إلى نهب نهار عمل عائلة بأكملها في بضع ساعات. و عند حلول موسم الحصاد، يقطعون الغلال بمناجل مشابهة لمناجلنا و يقومون برميها للرفس تحت أقدام الأحصنة لفصل الحب عن السنابل كما نفعل نحن لحد الآن في وسط فرنسا. ويجمعون الحبوب في مطمورات و يقومون بذلك بفن رائع ثم يتم حفظها بجودة. أكوام القش يتم تكديسها عادة فوق مخازن الحبوب التي يحفر منها

العديد في نفس الناحية. كل عائلة لديها مطمورة أو العديد منها حسب أهمية محاصيلها. العرب لا يستعملونها فقط لحفظ الحبوب بل و كذلك كل مؤنهم المنزلية مثل الزبدة، الزيت، الدهن، العسل، المربى، الملح ...إلخ. كانوا لا يدخنون أراضيهم بل يقومون بتعديلها بالحرق الزراعي. و هم بارعون في مجال الري. حقوق استغلال المياه هي من الأسباب العادية في نزاعاتهم أو حروبهم. رغم جودة محاصيلهم لا يتحصل العرب سوى على نسبة عشرة إلى إثنى عشر من الواحد من مجموع حصادهم في سهول الجزائر العاصمة. و في سهول سيرات بإقليم وهران تكون النتائج أفضل و تصل النسبة إلى أربعة عشر إلى خمسة عشر من الواحد.

عند قبائل المناطق الداخلية، يقوم العرب بالتشارك طوعا لزراعة بعض المساحات من الأراضي. أصحاب المزارع يقومون باستغلال المزارع بأنفسهم بتشغيل مزارعين يحملون إسم "الخماس" بمعنى أنه يجني المحاصيل و يتحصل مقابل ذلك على خمس الإجمالي. و بطبيعة الحال يتحمل صاحب المزرعة تكاليف كل العملية الزراعية. يقع على عاتق الخماس كذلك رعاية القطيع و لا يدين لصاحبها سوى استحقاقاته من الحليب و نصف كمية الصوف، وله نصف كل ما مزروعات الحديقة. طريقة الاستغلال هذه شائعة كثيرا في ضواحي المدن في ملكيات تابعة لقاطني المدينة. و يحدث في أغلب الأحيان أن يؤجر هؤلاء مزارعهم و تكون الأسعار دائما منخفضة جدا.

العرب و بالأخص القبائل يصنعون الزيت؛ و بما أنهم يستعملون عامة

ثمار الزيتون غير الملقّمة و التي يتركونها تختمر فينتج عن ذلك زيتا قوية و سيئة الجودة. يضعون في جُرَرٍ ما يخصصونه لاستهلالكم الخاص؛ و الباقي يتم نقله في قِرَب إلى نقاط التجارة. أشجار الزيتون جميلة جدا بكل الوصاية لكنها أكثر روعة بتلمسان أين يتم رعايتها بطريقة مميزة. و يتم تلقيمها ما عدا تلك الموجودة في الغابات حيث تعتبر شجرة غابية. ففي هذه المقاطعة الغنية، هذه الشجرة الثمينة التي تصل إلى أحجام خارقة تشكل بساتين شاسعة. في إقليم الجزائر، يوجد أشجار زيتون برية أكثر منها مطعّمة. و تحت حكم عمر باشا الذي كان أميرا مثقفا، أمرت الحكومة بتلقيم كل أشجار الزيتون و أعطى الداي المثال بتلقيم أشجار أراضيه. و لكن هذا الإجراء الذي لم يبدأ سوى في نهاية حكم عمر لم يتم تطبيقه إلا جزئيا.

أما في حقبة قوة السلطة العربية، فقد كان يتم تربية دود القز بإقليم الجزائر. و نجد لحد الآن بعض أشجار التوت العتيقة في ضاحية الجزائر و بالمتيجة، أين توجد الكثير من البلديات التي أخذت إسمها من إسم تلك الشجرة و التي أصبحت الآن نادرة و غير منتجة. العرب كانوا و لا يزالون يزرعون القطن و لكن بكمية ضئيلة في بعض المواضع. تملك عائلة مبارك من القليعة مزرعة بين هذه المدينة و المعالمة، زرعت فيها لبعض الوقت القطن. كما أنه وجد بها البلد حقول قصب السكر وكانت توجد مطحنة للسكر بحي الحامة بالقرب من الجزائر. وسكان البلد يؤكدون على أن انجلترا قد اشترت من نعت لأحد الدايات بسعر 300.000 فرنك من أجل هدم هذه الصناعة

خوفا من منافستها لمستعمراتها. لم أتمكن من الحصول على اسم هذا الداي البغيض. فإن كانت الرواية صحيحة، فقد قام بالتطبيق الحرفي لبنود الصفقة المشينة، لأننا لا نجد الآن سوى القليل مما تبقى من قصب السكر المتواجد بنوعية جيدة بالحدائق.

دودة القرمز منتشرة في الوصاية خاصة بإقليم وهران و لا تنتظر سوى من يجمعها. نعلم أنها تنتج من لسعة حشرة تأتي على شجيرات البهشية. تستخدم في الصباغة القرمزية، و تجارتها جد مربحة مثل الحنة و هي نبتة تستخدمها النساء و الأطفال لصباغة الشعر، الأصابع و الأظافر. و هناك نبتة ملونة أخرى كثيرة الشيوع في الوصاية و هي نبتة الفوة التي يتم جنيها في محافظات متعددة بينها بني جعد بإقليم الجزائر.

يقوم المغاربة، العرب المستقرين و القبايل بأعمال البستنة بشكل ناجح وبذوق كبير. قبل وصولنا إلى البلد كانوا يزرعون أغلب أنواع الخضر الأوروبية و ما كانوا يفضلونه هو عائلة القرعيات مثل البطيخ و الدلاع و القرع....إلخ و يستخدمون بكثرة الطماطم و الباذنجان. و بدؤوا بالاستمتاع بمذاق البطاطس.

حدائق السكان المحليين ممتعة جدا بظلالها و برودتها. و لا يضحون مثلنا فقط للزينة بل يعرفون كيف يجعلون كل ما هو ضروري جد فاتن. و تسمح درجة الحرارة المرتفعة بنضوج المنتوج حتى في الظل لذلك هم غير مجبرين كما نفعل نحن في البلدان الباردة بالتعرية الكاملة لبستان الخضر

الجزء الثاني، 6.

حتى لا يعبق شيء أشعة الشمس. و ينتج عن كل هذا أن الحديقة المغاربية هي في آن واحد: روضة، بستان خضر، حديقة و بستان فواكه؛ و الأشجار التي يزرعونها هي أشجار البرتقال، المشمش، اللوز، التفاح، التين، البرقوق، العُناب، الموز، الليمون، النخيل و بعض الأشجار المخصصة للزينة. لديهم الكثير من الشجيرات المزهرة مثل الورد و الياسمين، و التي يستغلونها لصناعة المياه و الخلاصات العطرية. ماء ورد الجزائر أقل شهرة من ماء ورد تونس، و لكن ماء الياسمين لا يعلو عليه أحد. أرملة الأغا ياغا كانت تملك بالقرب من الجزائر منزلا ريفيا باعته لأحد الأوروبيين و بداخله كان يوجد من الياسمين ما يُدر عليه مدخولا ب 15 فرنك يوميا لمدة ثمان أشهر في السنة.

كل ضواحي الجزائر و على مسافة 10 كيلومترات، كلها مغطاة بحدائق و أرياف رائعة الجمال كان المغربية و الأتراك يستغلونها بكل عناية قبل مجيئنا. في المتيجة، و رغم معاناتها نتيجة سوء التسيير فإن الزراعة كانت توفر بعض النشاطات خاصة في المنطقة المجاورة للأطلس. و نفس الشيء كان يحدث في المقاطعات الأخرى. الأشياء لم تكن بخير و كانت بدأت بالتراجع و لكنها كانت تسير رغم ذلك. و ما قمنا به في هذا المجال: لمدة ثلاث سنوات و أكثر استحال على الأهالي استغلال أراضي ضواحي الجزائر. والأراضي التي تم شراءها منهم في السهل أصبحت غير منتجة، فور

اتساع رقعة الاحتلال التي أوقعت هذه الأراضي في أيادي الملاّك الجدد الذين كانوا تقريبا كلهم، كما رأينا سابقا، يشترون بغرض إعادة البيع و ليس للاستغلال الزراعي. و كذا الحروب و أعمال السطو اللتان نتجتا عن حالة الفوضى التي غرق العرب فيها نتيجة غزو الجزائر، فانخفضت قيمة المنتجات الزراعية من الداخل[1] إلى النصف .

عادت الزراعة للانتعاش في ضواحي الجزائر في العام الثاني من إدارة الجنرال فوارول، و في نفس الفترة أصبحت المزارع البعيدة غير منتجة، و هذا ما سمح للكثير من الأوروبيين من التمكن من شرائها و امتلاكها. و أذكر على سبيل المثال حوش زميرلي بولاد منديل الذي اشتراه السيد باربي Barbé رئيس بلدية رُوان Rouen سنة 1834 و كانت حينها مزروعة، و بإنشاء المعسكر الدائم بالدويرة في نفس السنة، استطاع السيد باربي زيارتها من حين لآخر. أصحاب الحقل القدامى هجروا المزرعة، و لكن صاحبها الجديد لم يحل محلهم مما جعل هذا الجزء من الأراضي الممتازة تذهب هباء.

(1) كنا في شهر ماي 1835 في السهل الشاسع للمهل بين الميناء، الشلف و ارزيو، تعجبت من رؤيتي لبقايا نشاط زراعي فقال مضيفي:" آه منذ مدة طويلة و نحن في حالة حرب و لا أحد يتجرأ على الزراعة مخافة أن لا يتسنى له جني ثمار عمله، و لكن الآن و بعد أن قام السلطان عبد القادر بإعادة السلم و النظام سوف نعود إلى انشغالاتنا الزراعية".

أثناء إدارة الكونت ديرلون، أدى إنشاء معسكر بوفاريك إلى نفس النتائج الزراعية بتلك المنطقة. و لا نريد اللوم على إنشاء هذين المعسكرين و الروح العامة التي أدت إلى تأليف هذا الكتاب تثبت ذلك. لكننا يجب أن نغتنم هذه الفرصة لإظهار خطر السماح بامتلاك الأراضي لأشخاص محتالين من الواجب إدانتهم و القضاء عليهم لأنهم من أكبر المصائب على المستعمرة. و لا يمكننا دمج كل الأوروبيين في خانة واحدة فمنهم من يبحث عن مصلحته بالعمل و ليس بالاحتيال. فليسوا فقط من أنبل الأشخاص بل من أكثرهم علما؛ لأن الاحتيال وحده يفلس من يستعملونه كعقوبة عادلة لجشعهم السخيف. الأوروبيون الذين عملوا بكل نجاح على إعادة دفع عجلة الزراعة بنواحي الجزائر هم السادة كوبو Coupu، روش Roche، كولوميون Colombon، إيلي بوتي Petit Elie، دوشاسان Duchassin، بوتان Boutin، تولناك Tolnac و فيالار Viallar. هذا الأخير كان صاحب ثروة معتبرة بفرنسا تعلق بإفريقيا شغفا بها أكثر منه حبا في مضاعفة رخائه. و هو من بين الأوروبيين قليلي العدد الذين وحدوا القضية الإفريقية. و رغم حماس السادة فإن الزراعة لا تزال متباطئة. الفحص و الساحل لم يعودوا تماما إلى نقطة الازدهار الذي وجدناهم عليها في عام 1830، و رغم ذلك يوجد تطور و هو أساسا نتيجة عمل المغاربة الذين استعادوا الثقة بعض الشيء منذ الإدارة الأبوية و العادلة للجنرال فوارول. في عام 1833 لم يكن يوجد سوى 2000 هكتار من الأراضي المستغلة في الفحص، أما في مارس 1835 فكان يوجد أكثر من 6000 هكتار. و ارتفع هذا العدد منذ

ذلك الحين. و يجب أن نأمل أن تعود الأمور في ضواحي الجزائر إلى المستوى الذي تركها عليه الأتراك بعد ستين.

لا تصلح أراضي الفحص إلا للأنماط الزراعية الخفيفة و للبستنة. يجب أن نقف على الأشغال في كل مكان و إذا ما اهتممنا بالأمر هكذا فإنه سيوفر الاحتياجات الاستهلاكية لأكثر من 80.000 نسمة. لكن هذه الأرض تستغل بحرية و لا توجد بها ملكيات كبيرة. قام الأوروبيون الأوائل الذين استقروا هناك باستغلالها بتكاليف كبيرة و بهذا قاموا بصفقات خاسرة في أغلبهم. فبعد أن قاموا بتقليب التربة بعمق كبير كانوا يتخيلون أنهم سيتحصلون في البداية على محاصيل رائعة، و لكن بما أنهم وضعوا البذور في تربة خرجت حديثا إلى السطح و التي بقيت دوما دون الاحتكاك بالهواء فان المنتجات كانت سيئة في معظمها. و هكذا أفلس الكثير من الأوروبيين الذين ظنوا أنهم يجب أن يقوموا بعكس ما يقوم به السكان المحليون للحصول على الأفضل. أفادت هذه التجربة أولئك الذين خلفوا المزارعين الأولين و أولئك الذين لازال لديهم بعض المال لاستغلال هذه الدروس. فتركت التربة المحروثة في تلامس مع الهواء قبل نثر البذور بها و هكذا تحصلوا على بعض النتائج. السادة: كوبو Coupu، بولان Boulin و دوشاسان Duchassin هم الذين نجحوا في زراعة الحبوب، هذا الأخير أكد أن السنابل أعطته من 20 إلى 22 من الواحد بالقبة. ارتفعت تكاليف الاستغلال إلى أكثر من النصف تقريبا من الإنتاج و ماعدا ذلك فإن الأوروبيين لم يميلوا إلى زراعة الحبوب بالفحص. وجدوا أن المنتوجات الاعتيادية للأراضي

التي يمكنهم بذرها هي الأكثر إنتاجية. و لهذا قاموا بهذه الطريقة بجني قش جيد و قاموا ببيعه للإدارة العسكرية؛ و بما أنه كان مسموحا لهم استخدام بعض الجنود كعمال لتيبيس القش، و يدفعون لهم أجرا قليلا، فإن هذه العملية لا تكلف الكثير و كلها لصالحهم. القليل من السكان الأصليين من يستخدم هذا الشكل من المضاربة و البعض الذي استعاد نشاطه الزراعي عاد إلى طباعه القديمة للعمل الذي يكفي لاحتياجاتهم.

قام الأوروبيون بتلقيم عدد كبير من أشجار الزيتون في الفحص و بعد بضع سنوات سنحصل على وفرة من الزيت. حاولنا القيام بصنع الزيت من الزيتون البري العام الماضي و لكن تكاليف المعصرة فاقت قيمة الزيت فتخلينا عن الفكرة. هذه الصناعة لم تبدأ نشاطها إلا بعد6 أو 7 سنوات. لم تثمر التجارب القائمة على النباتات المدارية سوى بحديقة التجارب التي تعد الابتكار الجيد و المفيد للسيد جانتي دوبوسي و الذي تكلمنا عنه في موضع آخر.

عند قدومنا إلى الجزائر، و جدنا الكثير من الكروم (أشجار العنب) أكثر مما يجب إذا ما قارناه بامتناع المسلمين عن الخمر المحرم في ديانتهم. كان المتشددون يكتفون بأكله كفاكهة أو لصنع الخل و لكن اتضح أنه كان هناك من يصنع النبيذ أو يكلف اليهود بصنعه. صنع القناصل الأوروبيين أنواعا ذات جودة عالية، مثل قنصل السويد الذي كان لديه واحدا يشبه نبيذ مالاغا Malaga، كان قبو منزله الريفي يعج به و كان جنودنا يقومون بزيارته غالبا خلال حصار حصن الإمبراطور و ترك لديهم ذكريات عربدة. منذ الغزو، قام الأوروبيون بصنع

النبيذ بكميات صغيرة من باب التجربة و ليس من باب المضاربة.

منذ سنتين، حدث تطور حساس في البستنة عند الأوروبيين بالجزائر. و كان البستانيون الذين يعملون لحسابهم الخاص يقومون بصفقات جيدة كان من الممكن أن تكون أحسن لولا اضطرارهم لبيع أراضيهم للمضاربين الذين استفادوا منها. كان الاسبان و الماهون (les Mahonnais) و بعض سكان لابروفانس من أحسن البستانيين، يارعون مثل المغاربة في زراعة كل خضراوات أوروبا و حتى أشجار الفواكه. أغلب الحدائق سواء كانت ملك الأوروبيين أو الأهالي كانت تسقى بواسطة الآبار ذات العجلات الدوارة.

قام بعض الأوروبيين بزرع أشجار التوت مما يعني إمكانية العودة إلى مشروع تربية دودة القز. الدكتور شوفرو Chevrau كان أول من أعطى الأولوية لتجارب من هذا النوع. قمنا بتجربة تربية هذا الدود على تلك الأشجار بحديقة التجارب، كانت النتيجة جيدة، لكن الطيور قامت بالتهامها. و فيما عدا ذلك فإن دراسة بسيطة للمناخ تثبت إمكانية الحصول على الحرير في هذه الوصاية. إنه مصدر ثراء يتوجب الحفاظ عليه.

سيعتمد الازدهار المستقبلي للمستعمرة أساسا على الزيت، الحرير، و ربما القطن و هما ثلاثة فروع من التصنيع الزراعي وجب على العاصمة الفرنسية تشجيعها، بما أنها في هذا الجانب تابعة للخارج. البامبو كذلك نجح في حديقة التجارب و إذا ما انتشر فإن ذلك سيكون جد مفيد للصناعة في البلد الذي يعاني من ندرة الخطب المخصص للإنشاء.

منذ بضعة أشهر، بدأ الأوروبيون بزراعة موضعين أو ثلاثة من المتيجة و لكن هذه المنشآت قليلة التقدم حتى يمكننا الحكم عليها. و مع ذلك فمزرعة الأمير دومير de Mir، لاجيء بولوني براسوطة، تستحق أن يشد الانتباه لها. هذا الأجنبي يستخدم في المعظم العرب الذين كان يعيش وسطهم دون خوف. فهم هذا الرجل الحكيم أنه وجب علينا الاستفادة من العناصر الموجودة بين أيدينا. فبدأ بزراعة المنتوجات المحلية ثم بدأ بإدخال شيئا فشيئا التعديلات التي كان يحس العرب بضرورتها نظرا لكسبه ثقتهم و صداقتهم، و هو في هذا الجانب على المسار الصحيح. فبما أن هؤلاء الرجال متوفرون هنا فلم لا نستخدمهم؟ و هل نعلم إذا ما كنا سنحصل على غيرهم؟ إن إبعادهم هي فكرة مؤسفة. ماذا يمكن أن نقول عن رجل يملك حقلا من البطاطس المزروعة و الذي قام باقتلاعها قبل نضوجها بأمل وضع محلها قصب السكر لا يملكه؟من المؤكد أنه مصاب بالدوار، و مع ذلك هذا ما يريد الكثير فعله بإفريقيا.

في عنابة، باعتبارها مكانا قابل للاستيطان، تمكنت الإدارة الحكيمة للجنرال دوزير من إحكام النظام، استطاعت الزراعة بها أن تتطور قليلا، لكن لسوء الحظ فإن السمعة بغير ملائمة المدينة أبعدت الكثير من الناس الذين كانوا جاهزين للاستقرار هناك. أما بوهران فإن الزراعة منعدمة.

يغذي إقليم الجزائر كمية كبيرة من قطعان الماشية. فأغلب القبائل ليس لديها ثروة أخرى غيرها، و لكن التكاثر يتم بمحاسن الصدف دون أن يراعي المنعم تقاطع السلالات، لذلك هي أكثر رداءة. الثيران أقل حجما من تلك

التي بأوروبا. نجد خرفانا جميلة على العموم و هي ما تبقى من سلالة تنطفئ كل يوم و التي يكون من الضروري الحفاظ عليها لأنها تعطي صوفا ذو نوعية جيدة.

أما الخيول فليس لديها شيء مميز. و من الصعب إيجاد واحد جميل و لكن عند تفحصهم عن قرب نجد فيهم خطوط تشابه مع الحصان العربي، و نرى أنه مع بعض الرعاية ستحسن هذه السلالة. و الناس الأكثر خبرة في هذا الموضوع يظنون أنه من الممكن الحصول على عرق ممتاز بمزاوجة حصان محلي مع فرس أندلسية.

يملك العرب عددا كبيرا من الإبل أكثر من حاجتهم الفعلية و ما يفسر ذلك هو سهولة إطعامها. أجملها يوجد بإقليم وهران. هذه الحيوانات تنتمي إلى فصيلة أحادية السنام أي الجمال بحدبة واحدة بينما الجمال الحقيقية تملك اثنين.

اقترح السيد جتي دوبوسي إنشاء مزرعة استيلاد و قطيع نموذجي من أجل تصحيح سلالة الأحصنة و الماشية و هذا سيكون إجراءً جيد.

7.

التصنيع.

يستخدم التصنيع حسب عرفنا كل المنتجات الطبيعية و تلك التي توفرها الزراعة. فالفرينة تصنع من القمح و الأقمشة من الحرير و الصوف و الكتان. و يقوم بكل التحويلات الضرورية حتى تتمكن من سد جميع حاجياتنا.

الصناعة في حالة حرجة في الجزائر. و رغم هذا فمن الصعب إيجاد شعوب أكثر دقة و ذكاء من الشعوب التي تسكنها. و لكن حكومة محطمة للعزائم أرهقت كاهلها لمدة طويلة، أو أن الفوضى الأكثر تخطيا كذلك هي من التهمتهم أو على الأقل أوقفت كل مصادر الثروة. ففرنسا احتفظت لنفسها بمجد إثراء هذه الصناعة و التجارة. لكن و للأسف لم نقم بشيء لحد الآن من أجل الوصول إلى هذا الهدف. بل على العكس كانت نتائج كل عملياتنا هي دهورة الحالة المزرية للأمور. و لكن جهد و حماس بعض الخواص يهدف إلى إصلاح الضرر الذي فعلته الإدارة أو سمحت بفعله.

يحيك سكان الوصاية أقمشة من الصوف لصناعة البرانس و الحيّاك التي يكون بعضها على مستوى كبير من المهارة. كان يصنع الكثير منها بالبليدة قبل الأحداث التي أصابت هذه المدينة الحسناء. و ماعدا ذلك فإن كل خيمة عربية تعتبر ورشة تحيك بها النساء كل أنواع الأقمشة الضرورية لملابس العائلة.

صناعة الطرز الذهبي و الفضي بالجزائر مطلوبة جدا في كل المشرق و تستحق ذلك. هذا الفرع من الصناعة عانى الكثير منذ وصولنا و انمحت من الوجود بمستغانم أين كانت منتشرة جدا. و نفس الشيء حصل مع صناعة الجلود التي انخفضت بشكل محسوس منذ 1830 في كل النقاط التي كنا نتزود منها فيما مضى.

أقمشة الحرير، الحرير و الذهب، الحرير و الفضة، الموسلين المطرزة بالذهب، الفضة أو الحرير لأجل الحزامات و الأوشحة، تمثل كذلك فرعا من الصناعات المحلية و التي تم تفقيرها منذ بعض الوقت. هذه الأقمشة الرائعة و لكن باهظة الأثمان. يمكن لأوروبا صناعتها بثمن معقول و لكنها لن تكون بنفس الإتقان و الدقة اللذان لا تنتجهما سوى صناعة مطولة و يدوية أصيلة. المغاربة هم الأكثر حذاقة في هذا النوع من الصناعة، ينقصهم فقط الطلبيات. الرأسمالي الذي يوجه رأسماله نحو هذه الصناعة التي ستزول إن لم يتم إنقاذها، سيقوم بصفقات جيدة و سينقذ عائلات محلية كثيرة من الفقر و يمنع بنات مسكينات من الغرق في أماكن السوء.

صناعة زرابي الصوف هي صناعة ثمينة و من المناسب تشجيعها. فيما

معي كان يصنع الكثير منها بوهران، مستغانم و القالة. أما الأن فإن المدينة الصغيرة للقالة هي المكان الوحيد تقريبا الذي لاتزال تصنع فيه الزرابي. لرسوم المفروضة عليهم عند دخولهم إلى فرنسا أغلقت عليها أبواب السوق الأوروبي المفتوحة لزرابي تونس و بلاد المشرق. و مع هذا يجدون نقاط تدفق سهلة داخل الوصاية أين يتم استعمالهم بكثرة. إنها جميلة و جيدة النسج و الصباغة. فن الدباغة عامة في حالة جيدة في الوصاية، و المدينة الصغيرة دلس تبدو النقطة التي تتحكم في هذا المجال.

ما ينقص العرب و المغاربة هو العناصر و التشجيع من أجل العودة إلى نقطة التقدم الصناعي لأجدادهم، فلديهم مع ذلك الذكاء و البراعة المناسبين للقيام بالأعمال الميكانيكية و كذلك روح الابتكار و الملاحظة الخاصة بالإتقان.

لا يوجد في البلاد أي مصنع، باستثناء بعض المطاحن المائية المبنية بطريقة بدائية و جد بسيطة. نرى العديد منها بناحية تلمسان و كان البعض منها موجودا بالجزائر في عهد الأتراك. و قد اضمحلت بعد الغزو. و أردنا استبدالها بالمطاحن الأوروبية المائية و الهوائية و لكن بنجاح باهت.

المطاحن المائية المبنية من طرف السيد ماران Marin على الجدول الصغير الذي يصب بالبحر من أمام باب الواد نادرا ما تعمل فالماء ينقصها، و الخزانات التي تم حفرها لتجميع المياه تنسد بسرعة كبيرة، و يعود هذا لطبيعة الجدول الوحلة. المطاحن الهوائية التي بنتها الإدارة لا تساوي شيئا و مواضعها سيئة. أحد المستوطنين السيد كوبو Coupu قام بإنشاء واحدة لحسابه

الخاص على طريق دالي إبراهيم و هي في نشاط كامل لأنه تم وضعها بطريقة ذكية.

بوهران قامت الإدارة العسكرية بإنشاء مطحنة رائعة في حي البحرية تعمل جيدا و توفر الخدمات، و يوجد بكل المدن مطاحن للاحتياجات الأسرية و لدى كل عائلة مطاحن صغيرة يدوية.

و يُزعم أنه بامتداد منشآتنا بالمتيجة فإن هذا السهل الجميل سيمتلئ بالمصانع و هذا لغناه بالمجاري المائية التي تدعونا لذلك. المزفران، الحراش، واد رغاية، واد الكرمة، واد بوفاريك و جدول حوش بابا علي وهي مزروعة يملكها الماريشال كلوزيل. و كلها تبدو بشكل بارز صالحة لمنشآت من هذا النوع. و يوجد على هذا الجدول الأخير مطحنة قديمة و التي يمكن إعادة نشاطها بإصلاحات بسيطة و هي في موقع رائع و لا ينقصها الماء أبدا. و في الأخير، تملك مدينة البليدة الكثير من الثروات المائية مما يمكنها في المستقبل من أن تكون مدينة صناعية غنية جدا لأن هذه المنطقة رائعة جدا و كل عناصر الازدهار مجتمعة فيها.

لقد قلنا أن بعض مناجم الحديد ببجاية كان يستغلها القبايل و هو ما يدفع إلى التأكد من وجود مناجم لمعادن أخرى بالوصاية. ففي سنة 1835 قدمت للأمير عبد القادر قطعة من الذهب المحلي وجدت في نواحي فرندة. تم اكتشاف منجم للرصاص حديثا بالقرب من خريستل Kheristel. ويوجد منجم للنحاس بين البليدة و المدية على أراضي قبيلة موزاية. و قال السيد روزي tezoR نقيب رئاسة الأركان

وجيولوجي قدير، أنه وجد خامات الذهب بسطاوالي. و لكن المناجم الحقيقية لهذه الوصاية تكمن في خصوبة تربتها وهناك يجب البحث عن الثروة الحقيقية.

8.

التجارة.

بعد أن غيرت الصناعة المعملية (أصحاب المعامل) تحت تصرفنا المواد الممنوحة من طرف الزراعة، تأتي التجارة لتضعها في متناول كل واحد وبهذا ترفع القيمة. وعلى سبيل المثال قطعة من الموسلين الهندي mousseline de l'Inde ليس له قيمة عند المستهلك الأوروبي إلا إذا جلبتها له التجارة. والتاجر بالتقسيط الذي يبيع لنا السلع التي نحتاج إليها في الحين والذي يقوم بإعفائنا ولكن يزيد من نسبة السلع التي نشتريها منه. التجارة تزود بالإضافة إلى ذلك للفرعان الاقتصاديان الأخران المواد والأدوات التي يقرضها الواحد عن الآخر فهي تعتبر الوسيط الإجباري بينهما.

هذه الفروع الثلاثة للصناعة تشجع بعضها البعض. والقوانين لا يجب أن تضع فوارق امتيازية للحماية التي توفرها لهم. وإذا ما تركناها تعمل لوحدها فإن الصناعة ستستخدم ما تنتج الزراعة، والتجارة تنقل ما ينتج التصنيع وهذا بنسبة متوافقة مع نسبة الاحتياجات.

ولا يجب الاعتقاد أبدا بأن الصناعة ستبقى راكدة إذا ما وصلنا إلى التوازن التام لان هذا التوازن غير ساكن. على سبيل المثال إذا ما اكتشف مزارع في نبتة ما خاصية عطرية جديدة ويقوم بزراعتها، فإنه يقوم بخلق منتج جديد يستخدم بعد ذلك في التصنيع وبهذا يختل التوازن، ولكن لفترة وجيزة لأن الصباغ الذي لن يتأخر عن اكتشاف هذه النبتة يصبح يستخدمها في عملياته وبهذا يأتي دور التجارة لنقله، ويعود التوازن إلى وضعه الطبيعي. وسيحدث نفس الشيء إذا ما وجدت الصناعة طريقة جديدة لاستخدام أو جعل منتجا مفيدا زراعيا. سيتم مضاعفة الطلب على هذا المنتج أكثر من ذي قبل وهو ما يعيد التوازن من جديد. معناه إذا ما وجدت التجارة الوسائل لنقل عدد أكبر من المنتجات فإنها ترفع من عدد الأشخاص الذين يستهلكونها وبذلك يزداد الطلب عليها بالضرورة. و نرى من كل هذا أن السلع تزداد دون أن يختل التوازن الموجود بين الفروع الاقتصادية الثلاثة وأن أي انتعاش لأي فرع يعود بالإيجاب على الفرعين المتبقين وهكذا بتركهم في حرية كاملة فإننا لا نخاطر بأي شيء تماما.

بما أن التجارة هي من النوع الذي يعتمد على التبادل، فإنه لا توجد أمة يمكنها الاستغناء عنها، فكل واحدة تحتاج إلى هذا أو ذاك مما لا تنتجه هي. ويمكن التعمق بالقول أن كل أمة يمكن أن تزدهر بالتجارة مربوطة بواحد من الفرعين الاقتصاديين الأخريين ويمكنها حتى الازدهار بالتجارة لوحدها.

وبطبيعة الحال إن كانت أمة زراعية فقط ستحتاج إلى التجارة لاستبدال المادة الخامة بمواد مصنعة، وإن كانت مصنعة فقط ستكون كذلك بحاجة إلى التجارة لتوفير المواد الأولية وترويج موادها المصنعة. وفي الحالتين يمكنها الحصول على مكاسب مهمة للازدهار. وإذا ما كانت تجارية فقط فإنه يمكنها الكسب من هذا الفرع لوحده بلعبها دور الناقل للشعوب الأخرى[1].

والأمة التي تكون بها الفروع الثلاثة هي المتطورة وهي بدون شك الأمة التي يكون لها الحظ الأوفر لأن تصبح ثرية، أما إذا كانت طبيعة تربتها أو موقعها الجغرافي والأعراف لا تجعلها سوى قادرة على التجارة بالإضافة إلى أحد الفرعين الأخريين فإنه سيكون من الخطأ المحاولة عبثا أخذها نحو مجالات لا تكون مناسبة لها. وهذا أيضا يطبق على الشعوب الصناعية، بمعنى أنه على سبيل المثال إن كان بلد معين لا يكون متخصصا أو أقل تخصصا من بلد آخر في شعبة صناعية معينة، وتقوم حكومته الغير الحكيمة بدفعه لامتهان هذه الشعبة الصناعية، فتصبح هذه الحكومة مرغمة بهدف الوصول إلى مبتغاها على منع استيراد كل السلع القادمة من الخارج، وهو التصرف عكس مصلحة المستهلك أي كم هائل من الناس.

ومع هذا فإن التجارب مسموح بها وحتى جديرة بالثناء في هذا الجانب، ولكن عندما أثبتت التجارب بطريقة قاطعة بأن الصناعة لا

(1) مثال: هولندا، البندقية، جنوة.

يمكنها مساندة نفسها وأنها بحاجة لكي تحيا إلى الاستناد عل نظام يحظر المنتجات الأجنبية من الأسواق، فكان من الواجب التخلي عنها دون تردد. ونعلم جيدا أنه بدعم تلك الصناعة فإننا نخدم مصلحة بعض الخواص الذين يظنون منذ بضع سنوات أنهم يشكلون لوحدهم الأمة، ولكن كمّ من المستهلكين يعانون والتجارة الخارجية لا تربح شيئا. لأن المنتجات التي لا يمكنها في أسواقها شد التنافس مع منتجات الشعوب الأخرى، لا تستطيع فعل ذلك في الأسواق الخارجية.

ولذلك كل شعب يجب أن يقوم بإتقان نوع الصناعة الخاصة به والقيام بقفزات صناعية قدر الإمكان ولكن لا يجب عليه التصلب ضد صعوبات لا تقهر.

الجزائر بلد زراعي وتجاري في المقام الأول. في هذه الأثناء هذان الفرعان قليلي التطور بالتأكيد وهذا نظرا لأسباب يسهل تفسيرها.

في عهد الأتراك كانت الدولة تحتكر كل التجارة وتصدير عدد كبير من المنتجات كان محظورا بشكل لم يكن يشجع العمل. رسوم استيراد كل السلع الأجنبية كانت محددة بـ 5 و نفس الرسوم كانت مقدرة بـ 10 إذا ما كانت عملية الاستيراد من طرف اليهود الذين كان عليهم دائما استثناءات إما مرهقة أو مهينة. الدايات لم يقوموا بشيء لجذب نحو البلد تجارة السودان التي تقام عبر تونس ، طرابلس و المغرب. ورغم هذا كانت تصل بعض القوافل من تومبوكتو إلى وهران.

وحسب شالر Shaler نقدم جدولا للاستيراد والتصدير سنة 1833 يقول أنه وضعه اعتمادا على وثائق أصلية.

الواردات

من بريطانيا العظمى: مصانع الهند و انجلترا	2.700.000
من اسبانيا : الحرير، قماش البروكار، الفلفل، القهوة للمصانع الألمانية و الفرنسية	1.620.000
من فرنسا: السكر القهوة فلفل أقمشة الفولاذ وسلع أخرى	1.080.000
من المشرق: الحرير الخام والحرير المصنع	540.000
من فرنسا و ايطاليا : الحلي، الأحجار الكريمة، الألماس،الخ	540.000
المجموع	6.480.000

الصادرات

لمرسيليا، ليفورنو و جنوة:

20000 قنطارا من الصوف	864.000
10000 قنطار من الجلود	432.000
600 قنطار من الشمع	97.200
ريش النعام و سلع صغيرة أخرى	81000
المجموع	1.474.200

الحبوب لا تظهر بتاتا في هذا الجدول لأن تصديرها كان عادة ممنوعا.

وعادة ما كان التصدير محظورا ومع هذا تم منح فرنسا حق تصدير 16000 وحدة من القمح عبر ميناء عنابة وكذا صيد المرجان على السواحل الشرقية والتصدير عبر هذا الجزء للصوف الجلود والشمع، والرسوم المحددة لذلك كانت 60.000 فرنك في 1817 تم رفعها اعتباطيا إلى 200000 فرنك. اشترى باي وهران حقوق التصدير عبر موانئ إقليمه ب 81.000 فرنك. تصدير الزيوت والجلود المحضرة كان ممنوعا باستثناء التصدير لمختلف أنحاء السلطنة العثمانية.

بمقارنة الجدول الذي وضعه شالر Shaler مع الحركة التجارية لسنة1832 مثلما ينتج بجرد سجلات الجمارك، أوشكت لجنة إفريقيا على استنتاج أن التجارة بالوصاية كان تحت الهيمنة الفرنسية أقل حركة مما كانت عليه في عهد الأتراك. وهذا بالفعل ما كان موجودا سنة1832. ولكن منذ تلك الفترة أخذت التجارة بالنمو أكثر ونموها التصاعدي ينبأ بمستقبل زاهر. وفيما يلي جدول للصادرات والواردات سنة بسنة منذ 1832. إنه من الأشمل والأدق مما تم نشره وندين به إلى اللطف الواعي والحريص للسيد بلوندال M. Blondel مدير المالية.

الواردات

1832	6.956.920
1833	7.599.158
1834	8.560.236
1835	12.164.064

الصادرات

1832	850.659
1833	1.028.410
1834	2.376.662
1835	2.503.544

تمثل الواردات في المقام الأول المواد الغذائية : نبيذ قرينة المشروبات الروحية زيوت وحتى الخضر وسلع أخرى للاستهلاك الغذائي. مما يدل وللأسف على أن المستوطنة لا تعيش الآن من مواردها الخاصة. تأتي بعدها الأقمشة بكل أنواعها خاصة الأقمشة القطنية الانجليزية السلع الاستيطانية العقاقير وأدوات الخياطة الحرير الصافي خشب البناء والمعادن المختلفة

ولا تتشكل الصادرات لحد الآن سوى من منتجات السكان المحليين مثل زيت المعامل الشمع الأصفر الصوف ريش النعام دودة القرمز عطور الأقمشة الحريرية الزرابي الصوفية والصناعات الجلدية. وتتجه السلع الخمسة الأخيرة نحو تونس والموانئ الأخرى للمشرق، أما الباقي فيتجه نحو أوروبا.

والصادرات قابلة للارتفاع المحسوس ونموها متعلق بالهدوء في البلد. إذا ما كان العرب تحت قيادة رجل حكيم وإذا ما كان بإمكانهم القيام

بأعمالهم في أمان وإذا ما كانت الطرق جميعها حرة، فإن المزايا الايجابية التي يجدونها في تعاملهم معنا سيجذبهم بكثرة إلى أسواقنا. والسلام المبرم مع عبد القادر أعطى دفعا قويا للتجارة رغم تناقضه مع فرض هيمنتنا في إفريقيا ورغم عيب الاحتكار الذي تم التنازل عليه له والبلد لا يبحث سوى عن التطور.

وفي الظروف الراهنة العرب المبعدين يخبئون الكثير من المنتجات أو يصدرونها عبر تونس والمغرب. فإنه لمن المستحسن أن نتمكن من سد للمنافذ داخل الوصاية التي يوفرها هذين البلدين ولكن ذلك صعب جدا. ولن يكون صعبا ربما الحصول على قرارات بالحظر من ملوك تونس والمغرب ولكن بسبب عدم امتلاكهم لخطوط جركية على حدودهم البرية فستصبح هذه القرارات مجرد خيالا ديلوماسيا وحتى ولو كان لديهم الإرادة لتطبيقه. وفيما عدا ذلك ستقع التجارة بين أيدينا بطبيعة الحال ليس فقط داخل الوصاية ولكن كذلك بالجزء الأكبر من السودان. نعلم أن التجارة بهذا البلد الغير المعروف لحد الآن تتمثل في بودرة الذهب ، ريش النعام جلود الأسود والنمور المطاط والعاج. يمكننا جعله جد إنتاجي إذا عرفنا إدارة الأمور، ولجلب تجارة هذا البلد إلى أسواق الوصاية يجب التغلب على بعض العادات التجارية العتيقة ونشر المعارف الجغرافية لاكتشاف خطوط جديدة للتواصل مع تومبوكتو وقبرة الاسبانية. ورغم مبادئنا المعارضة لفكرة العلاوات إلا

لا نفكر أنه من المكيب أكثر، لو نعد بعلاوات كبيرة للقوافل الأولى التي تصل مباشرة من السودان إلى الجزائر. يجب كذلك القيام باستكشاف الصحراء في كل الاتجاهات سواء من طرف سكان محليين أذكياء أو من طرف أوروبيين متقفين ومتقنين للغة العربية. بهذه الطريقة سنكتشف أشياء كثيرة لم نكن نعلمها بعد وسيكون مهما اكتشافها كاملة. يجب تتويج من يقوم بهذه الجولات الخطيرة بجوائز قيمة وراقية، وسينتج عن ذلك توافد كل التجارة الداخلية لإفريقيا على موانئ ممتلكاتنا وبهذا لن يكون هناك قيود تحد نمو مستعمرتنا الجزائر.

في هذه الأثناء يقيّم التجار المتمرسين بمليون فرنك رؤوس الأموال المتداولة بالجزائر عاصمة ومركز مؤسساتنا. ويجب القول أنها في المقام الأول مشكلة من مرتبات الجيش ويظهر ذلك من تزامن فترة المدفوعات مع دفع رواتب الضباط وموظفين آخرين. ومع هذا جزء كبير من رؤوس الأموال وربما النصف خارج هذه الحركة بعناية وبوهران رؤوس الأموال هي أقل ندرة.

الثروة التجارية بالجزائر تقيم بـ 12.300.000 فرنك مقسمة كما يلي:

60 تاجرا يملكون بمتوسط الأجل 50.000 فرنك...300.0000

50 تاجرا يملكون لمتوسط أجل 20.000 فرنك......1.000.000

800 بائع أوروبي بـ 2.000 فرنك لأجل متوسط.....1.600.000

400 بائع يهودي بـ 2.000 فرنك لأجل متوسط......800.000

900 بائع مغاربي بـ1.000 فرنك لأجل متوسط......900.000

ديون.. 8.000.000 فرنك

المجموع.. 15.300.000

نطرح ما يذهب للأثاث و الأملاك العقارية.............. 300.000

الباقي 12.300.000

إن مصلحة الفائدة بالجزائر مبالغ فيها وتحدد تعليمة حديثة، النسبة القانونية بـ 10 % الفائدة المتعارف عليها حسب الاتفاق ليس لها حدود. هذا الثمن الباهض للمال يعود إلى أسباب من السهل تقديرها. المماطلة المستمرة للحكومة تصنع مسألة تواجد المستوطنة، ولم يكن سوى كطعم كبير ومصلحة عظيمة حتى تمكن الرأسماليين من تقرير استخدام أموالهم في المستعمرة. وارتفاع قليل للثقة في المستقبل أدى إلى انخفاض محسوس منذ وصول الماريشال كلوزيل فانخفض معدل الفائدة العادية من 24% إلى 18 أو 20. جزء من رؤوس الأموال يستخدم في التجارة أما الجزء المتبقي فيذهب إلى بناء المنازل وشراء الأراضي.

تبدو الإنشاءات على العموم أكثر مكسبا فقط بالنسبة لأولئك الذين يدخلون الميدان بأموالهم الخاصة. وما هو أكثر من مجرد الشك هو أن الذين يقومون بالاقتراض لفعل ذلك لا يمكنهم الخروج من الورطة التي يضعون أنفسهم فيها، كانوا مبهرين بارتفاع أسعار الإيجار، ولكن من المستحيل أن يظل السعر على حاله دون انخفاض في ظل المنافسة.

وبهذا فإن المنازل لا يمكنها تحمل نسب الفوائد المترتبة عن عملية بنائها وتعود بالمصادرة للذين وفروا رأس المال. ويوجد أكثر من مثال عل ذلك. رؤوس الموال المشغلة في مجال الراضي لم تعطي سوى بعض الخدمات للزراعة، لأنهم لم يستخدموها سوى للمضاربة التسويق وإعادة البيع. وما عدا ذلك فإن نجدة الرأسماليين كأصحاب رؤوس أموال هي زائفة للزراعة، وفي الحقيقة من هو هذا الرأسمالي البسيط والأصيل الذي كان آباؤنا الذين يسمون الأشياء بأسمائها يسمونه المرابي؟ هو رجل يملك مبالغ مالية ويقوم باقراضها بنسب عالية من الفوائد للعمال الذين لا يملكون المال لكي يتمكن المرابي من العيش دون عمل مع أخذ القسط الأفضل من ثمار عمل الآخرين. في التجارة مساعدة أصحاب رؤوس الأموال قد تكون فعالة لأنه يمكن الحصول على أرباح جيدة يمكن مقاسمتها. ومهما كانت فائدة الأموال فالتاجر الذي لا يملك رأسمال عامل يجد ضالته بالاقتراض حتى لا تفوته بعض الصفقات التي يبدو مكسبها مضمونا. ولكنه ليس بنفس القدر بالنسبة للمزارع فأرباحه جد محددة حتى يتمكن من تحمل أي فائدة. من المؤكد أن أصحاب رأس المال الأكثر اعتدالا لن يطلب من المزارع أقل من الفائدة القانونية بمعنى10 % ومع هذا فإني أتساءل إن وجد أي مزارع يريد أن يقوم بأعماله الزراعية تحت شروط كمثل هذه الشروط؟ فأصحاب رأس المال لن يكونوا ذا أهمية إلا إذا ما قبلوا فكرة الدخول

معهم في شراكة الخسارة أو بالربح[1]. وبالفعل الفلاح يستطيع الالتزام للحصول على رأس مال بتحمل تخفيض في أرباحه، ولكنه لا يمكنه دون الإفلاس الالتزام بتوفير قسط سنوي مستقل عن كل احتمال للربح أو الخسارة. في نقاط كثيرة لفرنسا انجذب الفلاحون للقيام بعمل غير حذر حبًّا في ممتلكاتهم، فقاموا بصرف كل أموالهم لإضافة بعض القطع الأرضية لميراثهم. ونتج عن ذلك أنه في كل سنة سيئة يجدون أنفسهم تحت رحمة المرابين الذين يفلسونهم. في الأساس قاموا باستغلال كبير للفلاحين حتى تم إصدار مرسوم من الإمبراطور سنة 1808 يجبرهم على القيام بخصم جزء من المستحقات لاجتناب إفلاس الزراعة في هذه المقاطعة الجميلة. لذلك يجب الحيطة من مساعدة الرأسماليين بما أنهم لا يريدون أن يكونوا سوى كذلك. فقد تم تشكيل مسبقا بالجزائر شركة يقال عنها زراعية لم تقم سوى باحتكار أراضي هي متزعجة منها الآن. السيد باربي M. Barbet رئيس بلدية روان Rouen وعضو مجلس النواب من الليبراليين وهو صاحب رأسمال ثري جاء إلى الجزائر سنة 3381 ويبدو أن وصوله قد نشر المنّ حول المستوطنة فما الذي فعله السيد باربي M. Barbet ؟ قام بشراء وإعادة بيع الأراضي وربح بهذه اللعبة بعض القطع النقدية.

---

(1) مشروع شركة لاستغلال الأراضي تم خلقه بالمعنى الأوسع و الأكثر ليبرالية و على أسس مبادئ مشابهة لمبادئنا تم اقتراحه من طرف السيد توبليز للرأسماليين الذين لم يقوموا لا بفهمه و لا بتبنيه.

لقد قمنا في الجزء التاريخي بالتعريف بالأعمال المتتالية للتشريع التجاري في مقاطعة الجزائر منذ الاحتلال ولكن هذا التشريع تم تغييره كليا بتعليمة 11 نوفمبر 1835 وفيما يلي أهم إجراءاته:

كل عملية نقل بين فرنسا والممتلكات الفرنسية في شمال إفريقيا لا تتم سوى بسفن فرنسية. الملاحة بين ميناء وآخر من الوصاية لا يتم إلا بسفن فرنسية أو افريقية المسماة الصنادل sandales، التي لا تتجاوز حمولتها 03 طن. وحتى تقوم هذه الصنادل بالملاحة يجب أن تكون ملكا للسكان الفرنسيين أو المحليين بالأماكن المحتلة من طرف القوات الفرنسية. هذا البند الأخير المطبق بصرامة أغلق الطريق لموانئنا على صنادل تنس شرشال دلس وجيجل. وتظهر على أنها ذنب، لأنه بالإضافة لمكسبها التجاري لها مكسب سياسي كبير لربط علاقات مباشرة مع النقاط التي لم تحتلها بعد. السفن الفرنسية والمراكب الإفريقية التي تستوفي كل شروط التعليمة معفية من كل الرسوم في موانئ الوصاية. السفن الأجنبية المحملة أو غير المحملة تدفع عند دخولها لنفس الموانئ 2 فرنك للبرميل. حقوق جواز السفر ورخصة التحميل والتفريغ محددة بـ50 سنتيم. لا توجد ضريبة على الجولات الاكتساب أو الشهادة.

المنتجات الفرنسية باستثناء السكر والمنتجات الأجنبية الموطنة بفرنسا بواسطة دفع حقوق محددة مقبولة في لائحة الإعفاء الضريبي في موانئ الوصاية.

وكذا السلع الأجنبية مثل الحبوب الفرينة الخضر خشب البناء والنجارة الكلس الجير حجر السبورة الأجور الحديد المنصهر، أي كل ما هو من مواد الاستهلاك الغذائي أو البناء.

السكر الخاضع لرسم يتغير حسب المقاطعة من 10 فرنك لكل 100 كيلوغرام إلى 20 فرنك، تفرض على القهوة ضريبة ب 12 إلى 15 فرنك لـ100 كيلوغرام كذلك. ولسبب ما السكر والقهوة الآتيين من فرنسا هم الأقل خضوعا للضريبة. السلع الأجنبية غير المحظورة في فرنسا تدفع عند دخولها إلى الوصاية 1/5 من الحقوق المحددة بسعر عام بفرنسا إذا ما كانت قادمة من موانئ فرنسا و1/4 إذا ما كانت قادمة من موانئ أخرى.

السلع الأجنبية المحظورة بفرنسا غير السكر المكرر مقبولة في موانئ الوصاية وتدفع رسوما بـ 12 من 100 من قيمتها عند خروجها من ميناء فرنسي و15 من 100 إذا ما قدمت من ميناء أجنبي.

السلع المصدرة إلى فرنسا من موانئ الوصاية معفية من كل رسوم التصدير. السلع المصدرة للدول الأجنبية تدفع عند خروجها رسم محدد بسعر الخروج في فرنسا أو 15 من 100 من قيمتها إذا ما كان حسب هذه التسعيرة خروجهم من فرنسا محظورا. الحبوب والفرينة مستثناة من كل رسم.

السلع القادمة من الممتلكات الفرنسية إلى شمال إفريقيا المعفاة وتلك السلع المستحقة لحقوق تم دفعها يمكن أن يتم نقلها بإعفاء من ميناء إلى آخر داخل الوصاية، عندما تكون تلك الموانئ تحت السيطرة الفرنسية وبالنسبة للموانئ التي لا توجد بها هيئة فرنسية المحافظ العام وبمرسوم معتمد من مجلس الإدارة يمكنه تحديد موانئ المقاطعات المعفاة من الضريبة فيما يخص المواد الآتية:

الحيوانات الحية وقرون الماشية، جلود طرية وجافة شحم الصوف زيت الزيتون بالإضافة إلى الشمع العسل دودة القز، فواكه طازجة التين المجفف خضر طازجة حليب زبدة جبن طازج بيض الدواجن والطرائد.

كل سلع أخرى قادمة أو خارجة من هذه الموانئ تعامل كأنها قادمة أو خارجة لموانئ أجنبية.

يمكن إنشاء مخازن حقيقية بالجزائر عنابة ووهران وهذه المدن تتحمل مسؤولية تزويد المتاجر الضرورية. وإلى حين تأسيس هذه المخازن يتم إيداع السلع في مخازن افتراضية. ومدة المخزن الافتراضي محددة بستة أشهر ويمكن تمديدها لستة أشهر أخرى.

نرى بالتحليل الذي قمنا به أن تعليمة 11 نوفمبر تشجع التجارة الفرنسية والتي لا تشتكي منها المستعمرة لأن هذا الامتياز يعتمد في المقام الأول على إعفاء للرسوم التي يعود لصالحها في الأخير.

بما أن تكاليف الإبحار مرتفعة جدا للسفن الفرنسية ولا يوجد غيرها

للقيام بعمليات النقل بين الوصاية وفرنسا فإن الإعفاء من الضرائب ليس بالأمر المعتبر كما نظن. ففي الواقع إنه لمن غير المهم لدى المستهلك أن يكون سبب غلاء السلع التي يشترونها هو حقوق الجمركة أو ارتفاع سعر الشحنات. وفيما عدى ذلك تعليمة 11 نوفمبر دخلت حيز التنفيذ منذ وقت قصير، حتى نتمكن من معرفة تأثيرها. ولا يمكن إخفاء أن هذه التعليمة ترمي إلى وضع الجزائر وفقا لتقدير التجارة المرسيلية، ولكن هذه الأخيرة تعترف بالتأكيد أنه إذا ما أراد تجاوز بعض الحدود فإنه سيعطي فرصة أكبر لمنافسته التجارة الأجنبية رغم الرسوم المفروضة عليها. فسيكون من المفضل ربما أن يتم فرنسة السفن التي يكون طاقمها مشكلا من بحارة جزائريين فيصبح النقل بين إفريقيا وفرنسا أقل كلفة، وستقوم بدعم سلالة من البحارة الممتازين و التي تنمحي يوما بعد يوم حتى تنقرض عن الوجود. وباختصار من المستحيل إيجاد أكثر سوءا من أن تتخذ فرنسا إجراءات تجعل من الممتلكات الفرنسية في شمال إفريقيا وتتخذ معها عاداتها التجارية بل يجب العمل أن لا تعاني المستعمرة كثيرا. فبالتأكيد كان هذا هو هدف تعليمة 11 نوفمبر وهو إعفاء السلع الفرنسية من كل الضرائب عند الدخول.

منذ عام يقوم السكان المحليون باستهلاك أقل لمنتجاتنا مقارنة بالسابق وبذلك فإن للأجانب الأفضلية علينا في هذا الجانب فالحمولات تقريبا كاملة لبواخر قادمة من ليفورن **Livourne**، جبل طارق وانجلترا تتجه نحو للغرب. الكاليكو **Les calicots** الصافي والموسلين التي نبيعها إياهم تأتي كلها من الخارج.

9.

الإشعارات، السير الذاتية.

الحاج[1] عبد القادر وليد محي الدين: عبد القادر الذي أضحى اسمه الآن مشهورا ينتمي إلى عائلة عتيقة من المرابطين، والتي تعود أصولها إلى الخلفاء الفاطميين ولد بقطنة **Guetna** سيدي محي الدين بنواحي معسكر على أراضي الهاشميين. هذه القطنة **Guetna** هي عبارة عن ملتقى يجمع فيه أجداده المرابطين الشباب لتلقينهم الأدب، علم أصول الدين والقانون، وهي تقع على أطراف الجبال في موقع فاتن وخلاب أين كل شيء يدعو للدراسة وهدوء البال. لقد تلقى عبد القادر تربية أحسن مما يمكن لعربي أن يتلقاها من طرف أبيه الذي أوجد فيه صفات الذكاء والصرامة فاستغلها. ففي مقتبل عمره كان يحفظ القرآن الكريم ولا تفوته آية أو تفسير وكان في ذلك يتفوق على أمهر المفسرين. وقام كذلك بدراسة التاريخ والبلاغة بحماس كبير وهل هذا ما يجعله في الوقت الحاضر الرجل الأكثر بلاغة في البلد وهو امتياز كبير لدى العرب، هل يعرف جيدا تاريخ أمته والنقاط المشتركة

(1) الحاج هي الصفة التي يأخذها المسلمون الذين قاموا بالرحلة إلى مكة.

التي تجمعها بأمتنا؟ ولم يهمل كل التمارين الجسدية التي تفوق فيها، فقد كان من أحسن فرسان بلاد البربر وباختصار تمكن في سن العشرين من أن يتميز بجمع كل صفات الرجل الذي يحبّذ العرب أن يتولى إدارة شؤونهم.

سلط الجزء التاريخي من هذا الكتاب الضوء للقارئ على الطريقة التي وصل بها عبد القادر إلى السلطة، وكيف قام بالتصرف فيها وسنتقيد هنا بإعطاء بعض التفاصيل عن شخصيته.

بلغ عبد القادر من السن 28 سنة في الوقت الذي أكتب فيه هذه الأسطر وهو ذو قامة متوسطة نحيف سماته لطيفة روحانية ونبيلة عيناه جميلتان، لحيته نادرة وسوداء وأسنانه غير مرتبة وبها علامات بقع زرقاء، يداه جميلتان ويرعاهم رعاية خاصة ورأسه يميل قليلا نحو الكتف الأيسر، أسلوبه ودود ومليء بالتهذيب والعفة لا يغضب إلا نادرا ويبقى دائم السيطرة على نفسه، شخصيته مغرية كاملا ومن الصعب معرفته وعدم التعلق به.

يتميز عبد القادر بشجاعة كبيرة وتفكيره أكثر تنظيما من تنظيمه عسكريا. ومع هذا فإن روحه قد تم تضليلها في الكثير من الأحيان في الظروف الصعبة التي طالما وجد نفسه فيها. عاش بعض لحظات القهر، مبادئه أصيلة وجدّ صارمة، له زوجة واحدة إذ يحبها كثيرا، وتتكون أسرته من فتاة تبلغ أربعة أو خمس سنوات وابن ولد أياما قبل دخول

الفرنسيين إلى معسكر. عندما كان بالمدينة كان يسكن مع عائلته في منزل جميل ولكنه بعيد الشبه بالقصور. كان يعيش دون حرس كإنسان بسيط. كان يغدو كل يوم باكرا إلى القصر أو البيلك من أجل التفرغ لمشاغل الإدارة وإلقاء خطبه وفي المساء يعود إلى منزله ليعيش حياته الخاصة.

كان عبد القادر يلبس دائما ثيابا بسيطة وبدلته هي من الزي العربي الأصيل دون أي نوع من الزخرفة أو علامات الغرور، ولا يستعمل أي رخاء سوى في أسلحته وخيوله وقد ملك لبعض الوقت برنسا تتدلى منه زينات من الذهب إلا أنه قام بقطعها وهذا في المناسبة التالية: قام أحد أصهاره الذي عينه قائد لقبيلة قوية بالتباهي في هذا المركز وتم التهامس عليه، فقام باستدعائه وبعد أن وبخه على تصرفاته قال" اقتدوا بي، أنا أكثر ثراءا وأكثر سلطة منكم وانظروا كيف ألبس و لا أريد حتى الحفاظ على هذه الزينات الذهبية البائسة التي ترون على برنوسي" وقام بقطعها على الفور ومنذ ذلك الوقت لم يلبس أي خيط من الذهب أو الفضة.

كان عبد القادر يحب كثيرا الدراسة والتي كان يخصص لها الوقت القليل من راحته الشيء الذي يترك حياته مضطربة. كانت لديه مكتبة صغيرة تتبعه في كل جولاته. عندما يكون في حملة وجوده أكثر ملوكية في المدينة، يسكن أثناء ذلك خيمة رائعة جد مريحة وموزعة بشكل جيد، ويقام له بها خلوة جميلة جدا أين يقيم مجالس خاصة ويشتغل فيها كذلك.

هذا هو برنامجه في المعسكر عندما لا يكون في اليوم عمليات عسكرية: بعد المسيرة اليومية يصل إلى خيمته أين لا يحتفظ سوى بخادم واحد ويكرس بعض الدقائق للتنظيف، يقوم بعدها باستدعاء أمناء الإدارة، وأهم ضباطه بالتسلسل ويعمل معهم حتى الرابعة مساءا، وعندها يقف عند مدخل خيمته ويقوم بهم الصلاة وبعدها يخطب في الناس لمدة نصف ساعة مع انتقاء نص ديني يوصل أفكاره السياسية والحربية. وفيما تبقى يجلس إلى مائدة الأكل مع الأمين العام الرئيسي ميلود بن حراش Miloud-Ben-Arach كاتم أسراره، إخوته عندما يكونون في الجيش وفي أغلب الأحيان واحد من أغواته. وأطباق الطعام التي يقدمونها له قليلة ولكنها لذيذة ومحضرة بعناية ، لا يدخن شيئا إلاّ أنه يأخذ بعض القهوة.

يبدو أن عبد القادر له أفكار دينية ومتمسك بالعناية الإلهية، ولكنه ليس متعصبا بتاتا. لا يخاف مناقشة المسيحيين في مواضيع شرعية ويقوم بذلك دون فضاضة وبلباقة.إنه رجل نزيه بمبادئ أخلاقية جد عميقة يختار كلماته بدقة. ورغم أنه رقيق وداهية بالمعنى الدبلوماسي للكلمة إلا أنه غير بعيد عن القسوة. إنه يحكم العرب بالعدل واللطف وبهذا يُكذب كليا ودائما أقاويل الذين يصرون على فكرة أنه لا يمكن حكم العرب سوى بالترهيب. لقد كان يبدو دائما عند استطاعته كريما ومتسامحا نحو

أعدائه. وقد تم الحكم بالإعدام على شخصين فقط في عهد حكمه وبعد أن تمت محاكمتهم وهما: قاضي أرزيو وسيدي القوماري شيخ الأنجاد الذي تم شنقه بمعسكر في شهر أوت 1835. قيل أنه قتل خنقا سيدي العريبي هذا الشيخ الذي تمت محاكمته بعدالة بتهمة الخيانة إذ مات بمرض الكوليرا في سجنه. وأبناءه الذين صعب عليهم تقبل موته في فترة الثورة اعترفوا لمؤلف الكتاب أنهم مقتنعون أن والدهم توفي جرّاء ذلك الداء.

إن المحادثة مع عبد القادر مشوقة وفي بعض الأحيان لامعة. السيد أليغرو M. Allégro الذي كان حينها ضابط مراسلات للجنرال تريزيل والذي وجد نفسه بقرب عبد القادر قبل استئناف القتال، قام بنصحه بمهارة وحسن تقدير بالتنازل عن جزء من أطماعه فيما يخص معاهدته مع الجنرال ديميشيل، وأراد أن يثبت له أنه لا يجب أن تغريه الثروة إلى درجة طموحه في الوصول إلى هدف خارج عن قدرته فأجابه الأمير: " أليغرو، قبل ثلاث سنوات لم أكن سوى أحد الأبناء لوالدي و أجبرت عندما قتلت رجلا في معركة على الاستحواذ على حصانه و عدته لزيادة مكاسبي و ترى ما أنا عليه الآن و تريد أن لا أثق بنفسي!"

لقد كانت لنا فرصة القول أن عبد القدر لم يكن يظهر عليه حسد أوروبا سوى على براعة الوسائل التي تملكها، وأنه لم يتمثل بحالات قليلة من حضارتنا وقد شرحنا لماذا كان يجب أن يكون هكذا.

ومع هذا كان يود أن يسمع عن أفعال حكومة بونابرت Bonaparte وما كان يعجبه أكثر فيه ليست انتصاراته العسكرية ولكن النظام الذي عرف كيف يفرضه في دولته بعد الخروج من الاضطراب العام.

في حياته الخاصة كان عبد القادر مقتصدا جدا إلى حد البخل الشديد ولكن كأمير كان يصرف الكثير وليس له سوى أفكار خاطئة عن التجارة والمالية.

لقد قمنا بصياغة صورة عن هذا الرجل المميز التي لا نظن أنها مبالغ فيها والتي سيكون معترفا به لدى كل واحد عرف عن قرب شخصيته الأصلية. ولو استعملت فرنسا مهارة وتقديرا أكبر في علاقتها معه لتمكنت من وضعه تحت هيمنتها والاستفادة من خدماته الكبيرة. الآن لقد سمى وحده عاليا ولا يمكننا حتى التفكير في الإطاحة به كليا. وبعده سيعود العرب إلى حالة الفوضى التي أخرجهم منها في عهد حكمه. هذا ما ننتظره ولكنهم سيملون من الوضع مثلما حدث معهم من قبل وهنا ستكون فرنسا هذه المرة من سيلعب دور عبد القادر وأخذ مكانه الشاغر

والضرر الكبير الذي ألحقه بنا عبد القادر هو أنه جعلنا بالضرورة لا نمثل سوى صورة الوحشية وصورة التدمير بينما هو يمثل الحكمة والتنظيم.

عبد القادر بن عربي : هو أحد السكان النافذين لمدينة البليدة والذي تقلد منصب حاكم في عهد إدارة الكونت ديرلون في الأشهر الأولى لسنة 1835.

وهو جد متأهب للعداء ولكنه رجل نزيه في الباطن. فهو من جلب إلى الجزائر ابن صاحب المطعم المغتال ببوفاريك سنة 1833 و قد تكلمنا عن هذه الحادثة سابقا.

عبد العزيز: القاضي السابق لبيت المال وتم تنصيبه قاضيا مالكيا بالجزائر عندما تم ترقية مصطفى الكبابطي إلى مرتبة مفتي. هو رجل عامل بواجباته ولكنه خاطئ فوق كل تعبير، وكرهه للفرنسيين كان شديدا لدرجة أنه كان يصب غضبه على المسلمين الذين كانوا يخدموننا والذين كانت قضاياهم تقع بين يديه في محكمته، وكان يدينهم تقريبا دون الاستماع لهم مهما كانت بينة حقوقهم. ثم طلب إقالته عدة مرات من الوزير الذي كان يرد أنه لا يجد أحسن منه لوضعه مكانه وأنه من المستحسن الحفاظ عليه عوض الحصول على آخر قد لا يكون أكثر تبعية لنا. استقال عبد العزيز من منصبه بعد القضية العارية التي دخلت في المسيحية تحت إدارة الجنرال فوارول وهاجر إلى الإسكندرية أين لا زال يعيش هناك.

الحاج عبد السلام : عبد السلام رجل ذو نفوذ كبير الذي يمكن أن يكون مضرا أو مفيدا جدا في حالة ضد قسنطينة حسب موقفه إن كان معنا أو ضدنا. في هذه الفترة هو عدو أحمد باي ويجمع في الكثير من المرات بسائل

الضياف لمقاتلته. تملك قبيلة المرجان التي تعترف به شيخا عليها قرب أراضيها المجموعة الشهيرة لبيبان الحديد، مما يعطيها نفوذا استرتيجيا كبيرا عل الطريق بين الجزائر وقسنطينة. وبهذا فإن عبد السلام رجل وجب كسبه إلى صفنا. وقام بنفسه بالخطوة الأولى فخلال سنة 1834 أرسل مبعوثين إلى الجنرال فوارول لدفعه إلى السير عل قسنطينة عبر سطورة Stora أثناء تقدمه بمجموعة من الفرسان عل هذه المدينة. أجاب الشيخ الوزير الذي تم إبلاغه بمقترحات أنه من الممكن أنه أرسلهم إلى الجزائر فقط للاستطلاع عن نوايانا الحقيقية تجاه قسنطينة، وبعدها سيقوم بإبلاغها إلى أحمد باي. هذه الشكوك لم يكن لها أساس من الصحة لأنه كان من المؤكد أن عبد السلام كان ضمن قائمة أعداء باي قسنطينة منذ مدة طويلة.

ويدين عبد السلام بقوته إلى عمل رهيب : فقد كان له منافسان يهددان حكمه ولهما نفس نفوذه في القبيلة وتظاهر بالمصالحة معهما وقام بدعوتهما إلى مأدبة أين قام بقتلهما أمام أعينه.

عبد الضياف بن أحمد: عبد الضياف هو شيخ قبيلة البدو القوية لولاد معادي المستقرة حاليا جنوب سلسلة جرجرة بثلاثة أيام من المسير من الجزائر. هو عدو باي قسنطينة التي هزم قواته سنة 1833. وكتب في العديد من المرات للجنرال المسؤول ليقترح عليه تحالفه ضد أحمد باي.

عبيب بوعلام: هو أحد المشايخ المهمين للقرابا des Garrabas إذ عينه عبد القادر آغا. كان يقود مقدمة جيش الأمير في معركة 12 جويلية 1834 ضد مصطفى بن إسماعيل. خلال محاكمة سيدي العريبي تم ضبط عند هذا القائد رسالة تشوه عبيب بوعلام. قدمها له عبد القادر ولكنه أنكر كتابته لها. فقال له الأمير أنه رغم ما يؤكد أن الرسالة منه فإنه يسامحه، ومنذ تلك الفترة لم تحم الشكوك حول عبيب بوعلام وبقي وفيا لعبد القادر في السراء والضراء.

عدة بن عثمان: انه رئيس نافذ للدواير بإقليم وهران. عيّنه عبد القادر قائدا لهذه القبيلة وهو من بين الذين انفصلوا عن الأمير بسرعة كبيرة سنة 1835 وكان من بين المتلهفين للانضمام إلينا. ورغم ذلك أثناء الحملة عل معسكر ورغم أننا أعطيناه لقب آغا فقد تقاعس في مد يد العون للإدارة الفرنسية التي كانت تنظم نقلا ملحقا بواسطة الجمال التي طلبوها من الدواير والزمالة وهذا ما ترك انطباعا سيئا عنه. وعند العودة من الحملة تمت إقالته وتعويضه بالحاج مختار، أدى Adda لديه ولدان في حزب الأمير عبد القادر.

الحاج عجال: شيخ جندل دخل في علاقة معنا سنة 1834 وأجبرته عل ذلك الحاجيات التجارية لقبيلته لأنها كانت تعج بالأغذية التي لم يكن لها سوى

سوق الجزائر منفذا كافيا لها. وما كان يدفعنا لتصديق ذلك هو على الأقل كل تلك الرسائل والمساعي التي كان يقوم بها لدى الحجوطيين للتأكد من حرية المسالك. الحاج عجال كان غالبا في حرب مع ابن عوده المختاري.

الحاج أحمد: باي قسنطينة هو كرغلي أبوه الذي كان مثله بايا لقسنطينة ثم خنقه. وبعد وفاة والده فرت والدته التي كانت واحدة من بن غانا Gana-Ben إلى الصحراء أين ترعرع أحمد. وبعدها تم تعيينه خليفة حسان باي قسنطينة والخليفة الثاني لوالده و حسين باشا هو الذي لقبه بالباي.

أهم ظروف الحياة السياسية لأحمد باي تم سردها في القسم التاريخي لهذا الكتاب.

يبلغ أحمد الخمسين تقريبا من عمروهو قصير القامة كثير النشاط وجد مستقر سلوكه رائع وأسلوبه متوحش لا يظهره بتاتا في علاقاته الداخلية ومبادئه جد متهتكة.

قبل إمضاء استسلام الجزائر في 1830 أراد أحمد إقناع حسين باشا باللحاق به إلى قسنطينة مع كنوزه وهو ما رفضه هذا الأخير، ولحسن حظه لأنه كان متأكدا أنه يخبئ له مكيدة. لم يطمئن إبراهيم صهر حسين الذي أراد اللحاق بأحمد لذلك، فبعد أن أعطى للباي مبلغا معتبرا من المال كان مخبأ في المنزل الريفي للداي أعاد الباي إرساله إلى الجزائر تقريبا بقميصه فقط.

أحمد بن عدة: يقطن بمستغانم وبقي بالمدينة بعد دخول الفرنسيين إليها. هو رجل ثري وذا عقل متفتح ويتكلم الاسبانية بطلاقة. عينته السلطات الفرنسية قائدا للمدينة. هو أحدب وكان أحد القراصنة وهو يقدم لنا كل يوم خدمات حقيقية.

الحاج أحمد: هو أمين عام عبد القادر ومتعلق به جدا حتى وإن كان يتكلم عنه في كثير من الأحيان بألفاظ قليلة الاحترام. هو رجل مثقف بالمقارنة مع ما يكون عليه عربي.

أحمد بن نونة: بن نونة هو مواطن ثري جدا من تلمسان تم تعيينه قايدا لهذه المدينة من طرف المولى علي حين أراد سلطان المغرب الاستحواذ على إقليم وهران. تصدى لعبد القادر في 1833 وتم هزمه واضطر للفرار إلى المغرب فوضع عبد القادر محله حمادي بن سكال. في سنة1834 وبعد ثورة مصطفى بن إسماعيل، أعاده الأمير إلى وظيفة القائد بعدما تصالح معه ومنذ ذلك الوقت بقي وفيا له. غادر تلمسان عند وصول الفرنسيين في شهر جانفي الأخير وراح يعتدي على الولاسة والقبائل الأخرى للتافنة وحضر المعركتين اللتين قامتا على ضفاف هذا النهر في 26 و 27 جانفي.

كان بن نونة رجل مثقف ومدرك جدا لوضع أوروبا ومهاراتها العلمية

والصناعية إذ كان له أخ سافر إلى اسبانيا وانجلترا والذي وافته المنية بداء الكوليرا سنة 1834.

أحمد بن شعنان: شيخ بني جيد كان في عهد الأتراك الأمين العام الأول للآغا كان رجلا رقيقا وداهية، يعرف جيدا العرب وكان له تأثير عليهم. بدأ في علاقة معنا بعد أيام قليلة بعد وصولنا. قام الرائد ماري Marey بتعريفه للدوق دوروفيقو الذي جعل منه شخصية كبيرة. في نهاية 1832 كان يسكن البليدة وأراد أن يعترف به السكان كحاكم ولكنه فشل في ذلك، فقدم حينها إلى الجزائر وعاد بعدها إلى بني جيد أين تم اغتياله من طرف مزارع لديه سنة 1833 ويقال أن القاتل تمت رشوته من طرف والد أحمد نفسه الذي كان يصعب عليه رؤية مساندته للفرنسيين.

أحمد بودرباح: جزائري مغاربي تمت مشاركته المبكرة لتجارة عمه مصطفى بودرباح الذي كان يسير متزلا بمرسيليا، بعد أن غادر هذا الأخير المدينة. قام بصفقات سيئة وكان مجبرا على إعلان إفلاسه ولكنه اعتنى بجمع كل ما تبقى له من سلع، ولحسن حظ دائنيه أن السفينة كانت مجبرة على الرسو بسيدي فرج أين تمت مصادرتها، وتمت متابعته كمفلس محتال وكان من المؤكد أنه كانت ستتم إدانته لولا تدخل عمه الذي أرسل المال الضروري لإخراجه من تلك

ورطة. كان دائنوه راضين مما أبعد فعل الجريمة عن القضية بحجة جهل المغاربي لتشريعاتنا التجارية.

كان بودرباح بالجزائر عندما قام الفرنسيون بمحاصرتها وكان من بين البرلمانيين المرسلين للسيد دوبورمنت M. de Bourmont عندما استسلمت المدينة، وقد كسب مكانة فورية لدى هذا الجنرال الذي عينه عضوا في رئاسة البلدية. وبما أنه كان مليئا بالعداء ضد الأتراك ويتوق بشدة لثورتهم، قام بكل ما في وسعه لطرد المتبقين منهم من الجزائر. وكان بودرباح صاحب تفكير رقيق ذو أسلوب مغرٍ مما مكنه من الحفاظ على مركز جيد بالقرب من الجنرال كلوزيل الذي خلف السيد دوبورمنت. وكذا في عهد الجنرال بيرتيزين Berthézène لكن الدوق دوروفيقو لاحظ شيء غريب في تصرفاته فقام بحراسته، وقد ظن أنه تحصل على دليل على قيامه بمراسلات تدينه مع العرب. في أولى لحظات غضبه كان يريد وضعه تحت المحاكمة لكن السيدة بودرباح التي كانت فرنسية راحت تتوسل له فاكتفى بإرساله إلى فرنسا. و يظهر أن بودرباح تمكن من تبرئة نفسه في أعين الوزير الذي سمح له بالعودة إلى الجزائر بعد أشهر قليلة، ولكن الدوق دوروفيقو الذي كان محتاطا منه لم يتركه يدخل. فذهب إذن إلى باريس أين كانت تتم استشارته غالبا حول مسائل الجزائر. وقد تنبأ بحكمة ما ستكون عليه نتائج معاهدة الجنرال ديميشيل مع عبد القادر وتكلم بطريقة مميزة أمام اللجنة الكبرى لافريقيا. عاد إلى الجزائر قبل وقت قصير من وصول الكونت

ديرلون وكان ذا فائدة كبيرة له. وهو يمارس لحد الآن مهام نائب رئيس البلدية التي تم تكليفه بها في تلك الفترة.

أحمد بن أحمد بن يوسف: من عائلة المرابطين بمليانة أين كان فيما عدا ذلك أقل اعتبارا. تعلق مبكرا بالقضية الفرنسية وقدم بعض الخدمات للماريشال كلوزيل الذي عينه محافظا للبليدة بلقب خليفة والسلطة على قبائل ضواحي تلك المدينة. هذه التنظيم لم ينجح وتم طرد أحمد من البليدة. عاد إلى الجزائر ثم بعدها غادر إلى وهران مع بن عمر. وعند عودته الجنرال بيرتيزين أظهر له الارتياب ففر إلى مليانة أين قتله الشعب لأنه من أتباع الفرنسيين.

علال وليد بوزيد بن شعاوة: هو ابن بوزيد المغتال ببوفاريك سنة 1833عينه الجنرال فوارول قائدا لبني خليل شهرين بعد وفاة والده. ولكن بعض كبار القبيلة ل يروا فيه سوى طفلا صغيرا ورفضوا الانصياع له، ومنهم موسى بن شايب من الدويرة وعلال بن علال من الذكاكنة. ولم يتم الاعتراف بسلطته لبعض الوقت سوى عند بقاء السيد فيرجي هناك إلى جانبه، ولكن عدم قدرته على السلطة تم إثباتها فيما بعد فتم استبداله واكتفى بلقب شيخ على بن شعاوة.

علال بن علال: قائد سابق للعاشور لبني خليل كان يسكن قرية الذكاكنة. كان رجل ذو شخصية غامضة ومحبة للانتقام ولم تتمكن بالأساليب الطيبة جذبه نحونا، استأجر مقابل مبلغ زهيد مزرعة حوش شاوش أين استقر سنة1834. بناء معسكر بوفاريك أبعده حيث انسحب إلى جبال بني صالح.

علي بن حمدان: المعروف باسم علي بن الخزناجي كان من عائلة كراغلة الجزائر. عند نزول الفرنسيين كان يحارب بإقدام في صفوف الأتراك وانسحب إلى القليعة بعد سقوط هذه المدينة وشارك في كل العمليات الهجومية للعرب. تمكن الرائد جوزيف من ربطه وذهب وإياه إلى المدية حين تم إرساله في مهمة إلى بن عمر، ولكن علي الذي لم يحصل على الثمن المناسب لخدماته ر جع إلى القليعة في 1832 وعاد إلى الجزائر وقدم نفسه للدوق دوروفيقو الذي عامله جيدا. ولكن عند خروجه من هناك تم إلقاء القبض عليه من طرف الشرطة التي كانت تراقبه منذ مدة طويلة، واحتفظ في نفسه بحقد شديد وشارك بعد وقت قصير في عصيان سوغالي بعد قضية بوفاريك. انسحب إلى بني موسى أين كان يملك بيتا جيلا. وفي 1833 جاء مرة ثانية إلى الجزائر وقدم خدماته للجنرال فوارول الذي قبلها وبذلك تم تعيينه قائدا لبني موسى وخدمنا منذ تلك اللحظة بحماس

ووفاء ويشارك معنا في كل حملاتنا. عند وصول الكونت ديرلون بحث أعداءه على إقالته ولكنهم فشلوا. وفي 1835 تم تعيينه قائدا لبني خليل وكان أخوه سيأخذ مكانه بقيادة بني موسى. كان هذا التغيير لفترة قصيرة لأن علي بن الخزناجي الذي راح يحل بعض المسائل مع الحجوطيين، تم اغتياله بضعة أيام بعد ذلك. و قيل أن أحد خادميه السابقين اللاجئين لدى الحجوطيين هو من أعطاه الضربة الأولى. علي بن الخزناجي رجل قلب وعقل وقادر على أن يكون أكثر من قائد.

علي بن سيدي سعادي: هذه الشخصية تنتمي إلى عائلة مرابطي الجزائر وقد انسحب إلى واد الزيتون بعد احتلال هذه المدينة. كان هو من دعا إلى الجهاد سنة 1831 و 1832 فقبل هذه الفترة. كتب إلى الجنرال بيرتيزين و بر عن رغبته في التقارب معنا، ولكنه وضع لذلك ثمنا مبالغا فيه أدى إلى رؤية الرد عليه غير ضروري . كان يطلب شيئا أقل من الإدارة دون رقابة لكل مسائل المغاربة والعرب مع القصبة كمسكن له وموضع للأسلحة. الصمت الذي صد هذه الاقتراحات السخيفة لم يقلل من عزيمته حيث قام بنفس الاقتراحات للدوق دوروفيقو الذي بحث عن كيفية كسبه و جلبه إلى الجزائر دون أن يقبل بها. ورغم كل الوثائق التي أرسلها له لضمان سلامته إلا أنه لم يتمكن من ذلك. وبعد هزيمة العرب بيوفاريك انسحب علي بن سعادي إلى بني مناد.

علي بن عيسى: بن عيسى كان من مشاهير مرابط بفليسة وكان نفوذه يمتد على كل قبائل القبايل، وفي المقام الأول على قبائل الشرق. كان من الأتباع المفضلين لسيدي عبد الرحمن مرابط آخر ليس أقل شهرة وذكراه ذات تبجيل كبير لدى المسلمين، وكان يسكن جبال جرجرة إذ كان يقوم بالأعمال الصالحة الكثيرة وله علاقات متعددة مع عائلة حمدان من الجزائر. كبير العائلة أقام منذ خلال زيارته الدبلوماسية التي أخذته إلى قسنطينة في عهد إدارة الدوق دوروفيقو. هذا الجنرال فهم أن بن عيسى كان رجلا وجب وضعه تحت تصرفنا، وكتب له في الكثير من الأحيان رسائل غير لبقة لم يحصل منها سوى على أجوبة مؤدبة ولكنها مبهمة. هذه المراسلات بلا معنى كانت لمدة قصيرة. ومنذ ذاك الحين أصبحنا دون اتصال مع بن عيسى ولكن علمنا أنه لم يستخدم نفوذه سوى لهدف سلمي. توفي بن عيسى في صيف 1835، كان طاعنا في السن وحافظ حتى النهاية على رباطة جأشه وتفكير نير. وحل محله ابن أخيه الذي يحمل نفس الاسم.

علي بن عودة: كان أحد فرسان الآغا في عهد الأتراك، عائلته كانت تسكن بوعقال منذ ثلاث أجيال. عينه الجنرال فوارول شيخا لكل المرجة وبعد وقت قصير القائد العربي اختاره كنقيب لديه. هو رجل شجاع ونبيه وهو الآن في تعداد أعدائنا.

علي بوشيشة: هو شيخ أولاد شبل أين له الكثير من الأملاك، كان لمدة طويلة عدوا لنا ولكنه الآن يبدوا تقاربه معنا بنية حسنة. هو رجل شاب بمستوى كبير من الخلق والحكمة كان لبعض الوقت قائد لبني خليل في عهد الكونت ديرلون.

علي بن القلاتي: مرابط ورجل ذو نفوذ في مليانة. تكلمنا في الكتاب 13 عن الدسائس التي قام بها لإيقاع الشك بين الجنرال فوارول والجنرال ديميشيل. توفي في طريقه من القليعة إلى معسكر في 1834.

علي بن نيقرو: كان الأمير العام المقرب للداي حسين والذي لم يتبعه إلى منفاه. هو رجل طاعن في السن ثري جدا وجدير بالاحترام، يعيش في هدوء تام ورفض دوما الدخول في المسائل. لديه ولدان وهما مصطفى ومحمد. الأول قليل ما يُتكلمُ عنه أما الثاني فإنه كان يعيش بالنعم الجيدة للجنرال بيرتيزين الذي كان يستخدمه في علاقاته مع الآغا محي الدين الذي كان صديقه المقرب ولكنه أصبح مشكوكا فيه بعد بعض المراسلات الغير بريئة مع العرب ففر إلى شرشال. في سنة 1834 وبعد الاضطرابات التي مست هذه المدينة أجبرته على الابتعاد مع البركاني الذي أبعده المنشقون. سمح له الجنرال فوارول بالعودة إلى الجزائر. قام الكونت ديرلون بتعيينه

مستشارا بالمحكمة العليا، ولكن خيانة الأمانة المرتكبة ضد إبراهيم بن مصطفى باشا أدت إلى إقالته . شبابه كان عاصفا جدا وجامحا. فقد تلقى الفلقة مرتين في عهد الأتراك رغم مقام والده الذي سبب له الكثير من الحزن.

عواد بن عبد القادر: سيدي عواد كان في عهد الأتراك قاضي ملكي بالجزائر، كان رجلا متعلما حازما ومخلصا، وكان يتمتع في كل الإقليم بسمعة مستحقة من الحكمة والفضائل. يحكى أنه في أحد الأيام كان لرجل ثري قضية بمحكمته وتقدم إليه برسالة توصية من حسين باشا. وبعد أن قرأها القاضي قام من مجلسه وانسحب إلى بيته وتوقف عن الظهور في المكان الذي يحكم في بعدالة. وعندما سأله الداي لماذا يترك مهامه أجاب بشجاعة بما أن الأمير أراد أن نحكم في القضايا بواسطة التوصيات وليس حسب قانون النبي (صلى الله عليه وسلم) فعمله لم يعد له قيمة.
وبعد احتلال الجزائر انسحب إلى البليدة أين اعترف به السكان كقاضي. وفي سنة 1834 عينه الجنرال فوارول مفتي الجزائر بعد الاضطرابات التي مست المدينة تبعا لقضية ارتداد المسلمة إلى المسيحية، ولقد تكلمنا عن هذه القضية في القسم الأول من هذا الجزء ولقد قلنا لماذا لم يتم تنصيب سيدي عواد في مهامه، توفي بالكوليرا في تلك المدينة سنة 1835.

العربي بن براهم: قام العربي بخلافة والده شيخ بني صالح وهو لا يزال ولدا. كان رجلا حازما و يعرف جيدا الأعمال. تم تعيينه قائد لبني خليل من طرف الجنرال بيرتيزين، وإقالته بعد وقت قصير تحت إدارة الآغا محي الدين. في شهر جويلية 1834 تم استدعائه للقيادة ليحل محل وليد بن شعاوة الذي كان جد ضعيف لذلك. بن عمر الذي كان يمارس مؤقتا مهمة مشرف لدى الجنرال المسؤول في أوطان بني خليل ساهم بقدر كبير في تعيينه. وهذا ما ضمن بتميز كبير مكسبنا لقبيلة بني صالح لصفنا وهو ما كان نتيجة طبيعية لهذا التعيين. ولكن نظرا للاستعجال في تعيينه لم يتم إلزامه بالذهاب إلى الجزائر للحصول على شهادة اعتماده. مما أبعده عن قَسَم أداه بعد الوفاة القانونية للعربي بن موسى ومسعود. ونتج عن هذا التسرع أن العربي ظن نفسه شخصية لا غنى عنها وأنه في كل الظروف يمكنه التصرف على هذا الأساس.

وأول عمل لإدارته هو إبلاغه للفرنسيين أنه سيغدو نحو سوق بوفاريك ليرأسه و أن تواجدهم هناك لا يمكن أن يكون سوى إعلانا للحرب، وبذلك لن يكون بوسعه سوى العودة للقتال وهذا الإعلان يعتبر أشد وقاحة خاصة بوجود واحد من الفرنسيين إلى جانبه حينها وهو مساعد معسكر أرسله الجنرال المسؤول بأوامر إلى هناك. وفي اليوم الموالي كتب العربي إلى الجنرال بأنه كان مجبرا على اتخاذ هذا الأسلوب لتجنب الأسوأ وإبعاد الفرنسيين الذين صمم العرب على ذبحهم. ولكن كل شيء كان يثبت العكس في هذه الظروف

إن العربي اقترن بأهواء بعض الأشخاص الذين كانت مصلحتهم إبعادنا عن الشرق. وبن عمر لم يكن غريبا عن هذه القضية. وفيما عدا ذلك قال العربي في رسالته أنه إذا ما أردنا التردد على سوق بوفاريك وجب علينا أخذ الشرطة وأن نرسل قوات إلى هناك كل اثنين وهو ما لم نفكر أنه ضروري في عهد الكونت ديرلون. وبعد استئناف الحرب بعد فترة وجيزة وقف العربي علانية في صفوف أعدائنا، وتوفي بالقليعة بداء الكوليرا سنة 1835.

العربي بن قاية: العربي شيخ بلدة ولاد بسام بالخشنة ، تم تعيينه قائدا لهذا الوطن بعد وفاة المخفي في شهر جويلية 1834 وتم اختياره من الجنرال المسؤول في تجمع عام الذي تمت رئاسته من طرف رئيس مكتب العرب. العربي رجل عاقل وصديق للنظام. أنه دون تعصب ظاهر رغم تعلقه الكبير بدينه والذي يتبع تعاليمه بصرامة.

العربي بن موسى: كان في عهد الأتراك مترجما لخوجة الخيل. تم تعيينه قايدا لبني خليل من طرف الآغا محي الدين. وبعد أحداث شهر أكتوبر 1832 تم اتهامه بالتحريض على الاضطرابات في البلد و تم استقدامه إلى الجزائر بوثيقة تضمن سلامته قدمها له الدوق دوروفيقو ثم تم توقيفه وإعدامه بقطع رأسه. وقد قمنا بإعطاء تفاصيل هذه القضية المؤسفة في القسم الأول من هذا الجزء.

العربي: سيدي العربي رئيس قبيلة تحمل نفس الاسم، وهي من أعرق العائلات العتيقة بإقليم وهران. لم يشارك أبدا في حروب أبناء بلده ضد الفرنسيين. كان يجد نفسه طبيعيا بمركزه بعيدا عن مسرح الحروب وكان قليل الإهتمام للاقتراب منه.

وبعد أن اعترف بسلطة عبد القادر، قام بالتآمر ضده ثم توقيفه ومحاكمته والحكم عليه بالإعدام. مات بالسجن بداء الكوليرا. كان يملك بيتا جميلا من الحجر محاطا بالحدائق الجميلة على ضفاف الشلف غير بعيد عن مازونة. ترك أربعة أبناء أصغرهم في السن السابعة. وأكبرهم هو سيدي شعبان تم تعيينه قائدا لأولاد سيدي العربي من طرف عبد القادر. حيث كان لا يملك خبرة كبيرة فكان عمه سيدي محمد هو من يسير فعليا أعمال القبيلة.

شاقلي: قائد بني شقران في إقليم وهران. هو رجل ذو بسالة كبيرة وبأعراف سهلة وعندما لم يخش أن يتعرض للخطر أصبح جاهزا ليكون معنا. و بعد احتلال معسكر ودخول القوات الفرنسية إلى وهران، أعطاه عبد القادر الأمر بالذهاب لتوقيف بعض كراغلة القلعة الذين أرسلوا مفاوضين للماريشال كلوزيل فأذعن، ولكنه أبلغ هؤلاء الرجال خلسة فتمكنوا من اللجوء إلى مستغانم.

شاويش قويدر بن رباح: قويدر كان في عهد الأتراك شاويش الآغا. إذ كان يمارس مهامه عند وصول الفرنسيين إلى سيدي فرج. حيث اخترقت رصاصة وجنتيه في معركة سطاولي. وبعد احتلال الجزائر لجأ لدى أولاد بلده المحجوطيين الذين رغم عدم اعترافهم به كرئيس لهم، كانوا يضعون ثقة كبيرة فيه واستخدم في العديد من المرات نفوذه ليلزمهم بالسلام. في عام 1833 أقام لقاءا مع السيد دولاموروسيار كان حينها رئيس مكتب العرب في 1834. وبعد إبرام السلام مع المحجوطيين تم تعيينه قائدا لهذه القبيلة من طرف الجنرال فوارول والذي عوضه بالإضافة لذلك على خسائره التي تكبدها أثناء الحرب والتي لم يشارك فيها شخصيا بتاتا. وبعد وقت قصير تزوج فتاة صغيرة وجميلة إذ نسي بين ذراعيها كل شيء، ولم يساهم إهماله لواجباته المترتبة عليه بالقليل في إشعال نار الحرب في عهد الكونت ديرلون فانسحب كليا عن الأعمال للعيش غامضا في البليدة، وبما أن عبد القادر انتحل حق الحكم على المحجوطيين أعطاهم قائدا آخر.

كان قويدر رجل في سن 65 ولا يزال نشيطا ومحافظا على صحته كما لديه أسلوب مميز جدا.

قويدر بن شعبان: شيخ أولاد قائد في الساحل. هو رجل نزيه يخدمنا بوفاء. وفي سنة 1834 قام باعتقال وتسليم للسلطات الفرنسية عربيين

قاما بقتل أوروبيين اثنين بلابوانت la Pointe-Pescade. وفي عام 1835 تعرض لعدة إصابات من جرّاء هجمات للحجوطيين.

فرحات بن سعيد: ينتمي فرحات إلى عائلة عريقة من إقليم قسنطينة التي كانت تملك بالتناوب مع عائلة بن غانة مشيخة عرب الصحراء المكلفة بتعيين البايات. كان يشغل هذا المنصب عند وصول الفرنسيين إلى إفريقيا. أقاله أحمد باي الذي كان يحتاط منه عام 1830 ووضع مكانه خاله بوزيس بن غانة، فدخل في تمرد كبير. ومنذ ذلك الوقت أصبح يعمل ضد أحمد. وقد قمنا بالتعريف في الجزء التاريخي للكتاب مفاوضاته مع الدوق دوروفيقو. ومنذ ذلك الحين لم يتوقف عن الكتابة إلى الجنرالات المتناوبة على إفريقيا لتسريع مسيرتهم على قسنطينة. وكان تارة لا يفكر سوى بشد انتباههم لسهولة العملية وكان يتكلم بلسان كل القبائل أنها ستقوم وتمشي مع الفرنسيين للإطاحة بأحمد باي، وتارة ينسى كل ما قاله ويقول في هذا الجانب أنه يضمن فقط إخلاصه الشخصي ويقول أن صداقته مع الفرنسيين كانت تجلب له كراهية كل العرب.

كان فرحات يعيش في هذه الأثناء نواحي أولاد جلال بلدة مهمة من مدينة البليدة الواقعة على ضفاف واد جدي. أغلب القبائل التي يسقيها هذا النهر يعترفون بسلطته التي تمتد شمالا حتى قبائل مخاغل بثلاثة أيام سيرا من أولاد جلال.

القوماري: أحد المشايخ الأكثر نفوذا للأنجاد l'Angad، تمرد على عبد القادر في سنة 1834 مع مصطفى بن إسماعيل، وعند فشل هذه الخطوة سامحه عبد القادر وعينه قائدا. ولكنه أعاد الكرة مرة ثانية فتم توقيفه شنقه بمعسكر. وقام بتعيين فرشات قادا للأنجاد l'Angad مكانه. ولكن أرملة القوماري امرأة ذات نشاط غير معهود، طافت البلد مع أبنائها وقامت بالاحتفاظ لهم بالعديد من الأتباع، وبعد حملة معسكر قام هؤلاء الشباب بتجميع بعض الفرق ومشوا نحو تلمسان لفك الحصار عن المشوار le Méchouar، واتحدوا مع مصطفى بن إسماعيل ومشوا معه ضد الأمير ولكن تم هزمهم وتمت إصابة الأكبر فيهم إصابة قاتلة في المعركة.

حمدان بن أمين السكة (المدعو بوركايب): ينتمي إلى عائلة كانت تتقلد مناصب رفيعة في عهد الأتراك في مجال المالية. أما بالنسبة له كانت له بالجزائر تجارة صغيرة للأقمشة بالجملة، ونظرا لتبذيره للأموال التي تم إيداعها له أصبحت سمعته مشبوهة وسحبت منه الثقة. بعدها عاش فقرا كبيرا في فترة الغزو. و لحسن حظه أنه كان متحالفا مع أحمد بودرباح الذي كان في علاقة جيدة مع السيد دوبورمون M. de Bourmont والذي بواسطته تحصل على مهمة الآغا في 8 جويلية 1830. هذا التنصيب قد فاجأ الكثيرين لأن حمدان لم يكن يتمتع بالجزائر بأي اعتبار، ولم يكن حتى معروفا لدى العرب خارج المنطقة.

أثناء ممارسته لمهامه أظهر حمدان بشاعته ككل من يمر فجأة من وضعية مزرية إلى صف مرموق، واتُّهم بأنه باع الكثير من خدماته لمن كانوا يخصونه. وقد ذكرنا في القسم التاريخي كيف غادر وظيفته وكان مجبرا على الابتعاد من الجزائر التي عاد إليها مرة ثانية تحت إدارة الدوق دوروفيقو الذي طرده منها ثانية، فذهب إلى باريس أين تم استقباله حسن استقبال، وقدم للوزير مذكرة طويلة عن كل الخسائر التي تكبدها في ظل خدماته للفرنسيين، ولكن تحقيقا بالجزائر كشف أنه ليس لديه ما يطالب به وأن كل ما يدين به لهم تم دفعه.

عاد حمدان إلى الجزائر في عهد تنصيب الكونت ديرلون كمحافظ عام وأراد أن يوقع هذا الجنرال في الخطأ باستخدام الحيل الأكثر فضاعة، والآن دخل في غموض تام وتزوج من امرأة فرنسية.

حمدان بن عثمان خوجة: هو رجل ذا تفكير متقدم وأكثر ثقافة مما هم المغاربة عليه كان مقداما دائما في خدمة حسين باشا وكان يحمل كرها شديدا للفرنسيين أكثر من أي شخص آخر والذي يجب الاعتراف بالعجز أمامه. وكان ابنه الذي ترعرع بباريس والذي لا تنقصه الجدارة، يتقاسم مع والده كل تلك الأحاسيس بحيث أن هذه العائلة التي كان من المفروض أن بعض الثقافة قد تمكنها من التقارب معنا بل على العكس فهي تقف جانبا، وتعرف القليل عن مصلحتها للأشياء من وضعية أمور هي فقط من يمكنها أن تحقق له مركزا ما. إنه لمن

الصحيح أن المركز الذي كانت تتقلده في عهد الأتراك كان أكثر رقاءا وأن خسارته تركت عنده حسرة كبيرة.

لقد تكلمنا عن المفاوضات التي تم استخدام حمدان فيها في عهد الدوق دوروفيقو. وفي هذه الأثناء هو متواجد بباريس لمتابعة محاكمة. وهو بالإضافة لذلك أحد الأعوان المقربين لباي قسنطينة. لقد أصدر كتابا ضد الإدارة بالجزائر أين قدم الكثير من المبالغة وسوء النية ولكن للأسف توجد فيه أكثر من حقيقة ثبتا.

حمود: كان في عهد الأتراك شيخ مشايخ بني خليل، خلف أباه في هذا المنصب في سن السابعة. هو رجل لطيف ومصلح والذي بواسطة طباعه وحاجته للنظام تعلق بسهولة بسلطتنا، تم تعيينه قائدا لبني خليل بعد الموت البائس للعربي بن موسى، ولكنه تخلى عن المنصب بعد بعض الإزعاج الذي وجهه له القدم ميرات Merat الذي كان عمدة كبيرا في الجيش. هذا الضابط السامي أراد توقيفه لقضية اغتيال يهودي التي تمت على أراضيه رغم أنه اقتاد بنفسه إلى الجزائر أولئك الذين كان يظهر على أنهم مرتكبي الجريمة.

في شهر جوان 1834 تم تعيين حمود شيخ الحمايد ورغم أن مهامه كانت أقل من التي مارسها إلا أنه قبل بها. وبعد وفاة علي بن الخزناجي تم تعيينه قائدا لبني خليل للمرة الثانية. تصرف معنا دائما بطريقة صريحة ومخلصة، حيث كان يسكن قرية قرواو الجميلة.

الحضناوي: هو شيخ الحنانشة قبيلة قوية بإقليم قسنطينة وتقع على الحدود التونسية. هذه القبيلة مقسمة إلى طائفتين طائفة الحضناوي، وهو عدو أحمد وطائفة عمه التابع لأحمد باي. بعد احتلال عنابة من طرف الفرنسيين عام1832، قام بمهاجمة الفرق التابعة لمحمد بن عيسى البركاني أحد جنرالات أحمد بمجرد إخلائه لهذه المدينة وحصل على بعض التفوق عليها. منذ تلك الفترة كتب لنا كثيرا من أجل تشجيعنا على حملة على قسنطينة.

إبراهيم باي: كان الباي لسابق لقسنطينة، تمت إقالته عام 1822 من طرف حسين باشا انسحب إلى المدية مكث هناك إلى غاية عام 1830. كان يعيش بهدوء في كنف عائلته عندما أقمعه مصطفى بن مرزاق باي التيطري مرة جديدة في الساحة السياسية، ولسوء حظ هذا الباي الذي أخذ القرار المجنون برفع راية الثورة على الفرنسيين ،وتلقيب نفسه باشا أن قامبمراسلة باي قسنطينة ليعترف بسلطته عليه. لكن أحمد لم يتركه يصل إليه إذ أعلن أنه لا يعترف أبدا بزميله كحاكم عليه، وأخذ هو كذلك لقب باشا فعاد إبراهيم إلى المدية دون النجاح في المهمة. هذا الدخول في الأعمال أيقظ فيه طموحا كان نائما منذ ثمان سنوات في قرار نفسه، إذ أراد العمل لحسابه الخاص وجمع أتباعا حوله والذي لم يتأخر مصطفى في نزعهم له كرما منه. وبما انه خاف من ثأر رجل قام بجرحه انسحب

إلى الصحراء بالقرب من فرحات بن سعيد وشارك في حرب هذا الأخير ضد أحمد باي. بعد الانهزام الأول لفرحات انسحب إلى تونس. وكان ذلك في العهد الذي كان فيه هذا البلد في مفاوضات مع الجنرال كلوزيل للسيطرة على إقليم قسنطينة. هذه الظروف جعلت من هذا الرجل مرحبا به نظرا لتمكنه من إعطاء معلومات قيمة عن بلد قام بإدارته. ولكن الحكومة الفرنسية لم ترى من الملائم الموافقة على ترتيبات الجنرال كلوزيل مع تونس فأصبح إبراهيم يعتبر كشخص غير مفيد ومزعج. وفي عام 1831 ذهب إلى عنابة بجانب العقيد هودر Houder. استغل ثقته العمياء لينتزع منه قلعة المدينة مثلما رويناه بالتفصيل في القسم التاريخي. وبعد الاحتلال الثالث والتام لعنابة من طرف الفرنسيين انسحب إلى بيزرت Bizerte أين خرج مع أتباعه تحت أسوار عنابة، ليتلقى ضربات من الجنرال مونك دوزيرMonck d'Uzer. بعد هذه المغامرة فرَّ إلى المدية أين التقى بعائلته. كره أحمد باي فلحقه إلى هناك إذ وجده مقتولا في منزله عام 1833. حيث لجأت عائلته إلى الجزائر وترك ابنين اثنين انضموا لخدمتنا.

إبراهيم بوسنياك: إبراهيم بوسنياك الذي عرف منذ وقت طويل عندنا بصفة القائد إبراهيم. وهو تركي من سالونيك الذي كان مثل الكثيرين الذين جاؤوا بحثا عن الثروة بالجزائر. وقد تألق في ظروف

عنيدة ووصل إلى رتب عالية في الميليشيات التركية. بعد مغادرة الباي حسن لوهران أين كان يعمل تحت أوامره، أخذ مهمة لدى خليفة أمير تونس الذي حسب ترتيبات الجنرال كلوزيل كان من المفروض أن يحل محله. اعترفت بعض الأجزاء من الإقليم بسلطة هذا الأمير وتم استقبال رايته و تنصيبها بمستغانم تحت تأثير من القاضي الحاج محمد الذي كان يدعمه. ولكن هذا القاضي ما تم اغتياله من طرف الحزب المعارض وأوشكت مدينة مستغانم على التخلي عن قضية الباي الجديد. فتم إرسال القائد إبراهيم مع مائتين من أتراك وهران وتمكن من وتقيف الاضطرابات التي هزت المدينة. وبعد وقت قصير، تلقى اعتراض الوزارة على الترتيبات مع تونس وأن بيلك وهران سيتم تسييره مباشرة من طرف السلطة الفرنسية، وبهذا أصبح إبراهيم مع الأتراك تحت خدمة فرنسا. استخدم حماسا ونشاطا كبيرا في قيادة مستغانم وانتصر في عدة معارك ضد العرب مكنته من العيش بهدوء.

وبعد احتلال القوات الفرنسية لمستغانم عام 1833 انسحب إلى وهران بمنحة 6.000 فرنك حيث بقي هناك حتى وصول الكونت ديرلون nolrE'd إلى إفريقيا، فانتقل إلى الجزائر وتم تقديمه إلى المحافظ الذي كنّ له الكثير من الاحترام بعد قضية المقطع Mocta أرسله المحافظ إلى وهران أين اعترف به الدواير والزمالة رئيسا عليهم وتحصل أشهرا بعد ذلك على تكريم بوسام الشرف. وبعد مسيرة الجيش

نحو معسكر أعلنه الماريشال كلوزيل والدوق دورليون d'Orléans بايا لهذه المدينة أين تم التخلي بسرعة عن فكرة تنصيبه، فاكتفى بكونه بايا على مستغانم أين كان تعيينه هناك سهلا. لم يؤدي إبراهيم في الأونة الأخيرة ما كان أسلافه يأملون منه.

إبراهيم بن مصطفى باشا: إبراهيم ابن مصطفى باشا هو الفرد الأكثر تفاهة وغير مؤذي بتاتا في كل الوصاية. يقطن بالجزائر حيث كان يتمتع برخاء كبير. تم تكريمه بوسام شرف دون سبب أو حجة في رحلة قام بها إلى باريس عام 1832 وفيما عدا ذلك هو رجل نزيه.

إسماعيل بن قاضي: أحد مشايخ الدواير في إقليم وهران وكان اعتقاله من طرف عبد القادر أحد أسباب حرب 1835. هو رجل مقدام جدا ولكن قليل الاعتبار في قومه.

لخضر بن طالب: شيخ عريب حمزة. كتب في الكثير من الأحيان للجنرال المسؤول لتأكيد نواياه الودية. وعندما تم غزو حمزة من طرف أولاد معادي انسحب إلى مرجانة أين قام احد باي باختطافه نظرا لشكه فيه وبقي مدة طويل تحت قبضته.

لعقال ولد دواج: قائد مازونة كان في القديم مشهورا بقوته بسالته. ينتمي إلى عائلة تملك كنوزا كثيرة حسب ما يقال وكثير من الحكايات الشعبية تحكى في هذا الموضوع.

محمد بن عيسى البركاني: البركاني ينتمي الى عائلة عريقة وقوية جدا من بني مناصر أين كانت وظيفة الشيخ متوارثة. وبعد احتلال الجزائر اعترفت به مدينة شرشال قائدا لها وهو شرف اعترف به الجنرال كلوزيل كذلك. وطوال مدة حكمه بحث عن الدخول في علاقة ودية وتجارية معنا. ومع هذا لم يكن غريبا عن تمرد1832 بما أنه ظهر أن بسكويتا تم إرساله من شرشال إلى معسكر المتمردين بسوق علي. في سنة 1834 قام بتحديد رسم على السفن المحملة الخارجة من ميناء شرشال، نظرا لحاجيات إدارية مما أدى بأعدائه إلى إيجاد حجة لطرده من المدينة. وقد قمنا بسرد تفاصيل هذه الثورة الصغيرة في الجزء التاريخي. بعد طرده من شرشال انسحب الى بني مناصر. وعندما سار عبد القادر لمواجهة موسى الدركاوي ذهب ليقدم له دعمه والذي قدّره أحسن تقدير. كان في معركة عمورة ولاحق موسى حتى البرواقية. وعينه عبد القادر باي للمدية . يوجد شخص آخر يدعى بن عيسى البركاني وهو جنرال باي قسنطينة.

محمد بوزيد: هو شيخ أحد القرى في نواحي فرندة ومشهور في كل الصحراء بقدرات نراها تقريبا خارقة للطاقة البشرية. وباعتراف كل العرب أنه إذا ما كان السلاح بيده فإنه الرجل الأكثر خطورة في كل البلد. وبعد قتل والده من طرف قبيلة مجاورة أقسم على قتل أكبر قدر ممكن من أفراد هذه القبيلة ممن يصادف طريقه. وأوفى بقسمه حيث قتل حسب ما يقال أربعين رجلا بيده. أوقفه عبد القادر في رحلة له إلى معسكر ولم يسمح له بمغادرة المدينة حتى يتحصل على وعد منه بالحد من انتقامه. محمد بوزيد يشبه في كل شيء شمشون Samson[1] لدى العبريين وهو شغوف بالنساء. في أحد الأيام كان مسافرا مع عشيقة له كان قد اختطفها ووقع بين سبعة رجال من أعدائه ، قتل ثلاثة منهم وفر الباقون. وبينما كان بمعسكر رأى عند أحد الضباط الفرنسيين لوحة جميلة لامرأة حيث أعجبته حتى أنه قال:" إذا أردت أن تجلب المرأة الأصلية لهذه اللوحة وتضعها جانبا وأنا أضع زوجاتي الثلاث وكل ما أملك من جانب آخر ونتخاصم والفائز يأخذ كل شيء".

محمد بن إسماعيل المزاري: المزاري أصبح مشهورا في الوقت الذي أكتب فيه فهو أول عربي تخلى عن عبد القادر في المقاومة الأخيرة. كان لا يزال معه في معركة الهبرة أين أصيب. هو ابن أخ مصطفى بن إسماعيل الذي تقاسم معه الثورة ضد الأمير عام 1834. سامحه عبد القادر وأراد كذلك كسبه

(1) شمشون بن منوح هو بطل شعبي من إسرائيل كان يشتهر بقوى هائلة أرسل لتخليص الإسرائيليين حسب الرواية بالتوراة

إلى جانبه بتعيينه آغا. كان يبدو على المزاري الإخلاص له إلى درجة أنه سنة 1835 اعتقل ابن أخيه إسماعيل بن قاضي الذي عارض أوامر عبد القادر فيما يخص إبعاد الدواير والزمالة عن وهران. وهي من أسباب استئناف القتال بين الفرنسيين والأمير، بعد قضية المقطع توقف المزاري عن كونه آغا وتم تعيينه قائدا للفليتة. وبعد احتلال معسكر أظهر عبد القادر حيطة منه أدت إلى انشقاقه. فذهب إلى مستغانم ثم إلى وهران أين استقبله الماريشال كلوزيل بحفاوة والذي كان يتأهب للسير نحو تلمسان. قام معهم بالحملة على تلمسان وتصرف بإقدام وكرجل عارف للحرب. هو الآن مع عمه مصطفى بوهران.

محمد البغدادي: هو رئيس قبيلة الألطاف حليف عبد القادر الذي تزوج أخوه من بنته عام 1834، كتب للجنرال المسؤول لينصحه بتعيين آغا تكون له كل السلطة في الخارج، وبما أننا لو لم نتمكن أو لم نرد القيام بذلك بأنفسنا، قام بالإشارة إلى نفسه بكلمات واضحة كالوحيد القادر على شغل هذه المهام. تم تدبير هذه الخطوة بينه وبين عبد القادر الذي سيسهل من تحقيق مشاريعه الطموحة أن يكون له بمقاطعة الجزائر آغا متفاني له.

محمد بن محمد: شيخ الآمال في أوطان الخشنة. هو رجل عمل دوما على

الجزء الثاني، 9.

جعل الطرق أكثر أمانا على أراضيه، وأعطى نشاطا للعلاقات التجارية لقبيلته. ومع هذا تم اتهامه عام 1835 بالكتابة إلى العمراوة من أجل دفعهم إلى مهاجمة الحامية الفرنسية في البيت المربع. ونظرا لعدم إمكانية إثبات ذلك الفعل فقد تمت تبرئته بأغلبية أصوات مجلس الحرب.

محمد المخفي: كان من عائلة المرابطين تم تعيينه قائدا للخشنة من طرف الجنرال بيرتيزين وقمنا بالتطرق للدور الذي لعبه في المغامرة المؤسفة لمسعود والعربي بن موسى في عهد الدوق دوروفيقو. في عهد الجنرال فوارول تمت إقالته تبعا لشكاوى رفعت ضده ولكنه سرعان ما عاد إلى وظيفته. توفي سنة 1834 بمرض النقرس.

محمد محي الدين بن مبارك: سيدي محمد كان مرابط القليعة وكان اسمه مبجلا في كل الوصاية. كان يعيش في حالة دائمة من التأمل الزاهد ويصرف مداخيل ثروته الكبيرة على أعمال الخير وكان فيما عدا ذلك بعيدا عن التعصب. كل المسيحيين الذين كانت لهم علاقة به يثنون عليه. لم يخرج من فمه سوى كلمات السلم والاتحاد. ولكن الدوق دوروفيقو قام بتوقيفه أثناء التمرد الكبير لسوق علي وبقي محتجزا لمدة عامين تقريبا بالقصبة بالجزائر. ويعد تعميم السلام مع الحجوطيين عام 1834 حرره الجنرال فوارول. هذا الجنرال كان

يرغب باستخدام سيدي محمد كأحسن وسيلة لتعزيز نظام الاندماج والتهدئة التي كان يتبناه وكانت مساعدته قيمة جدا. ورغم كبر سنه لم يتوان عن التنقل إلى كل مكان كان ضروريا تواجده فيه لاستتباب الهدوء والنظام. كان الكونت ديرلون الذي خلف الجنرال فوارول يقدره كثيرا، ولكن سياسته الخاطئة التي التزم بها أدت إلى إعادة إشعال فتيل الحرب في إقليم الجزائر، وأصبح سيدي محمد يظهر مشتبها به نظرا لاستمرار علاقته بالحجوطيين الذي كانت علاقة طبيعية للصداقة والمجاورة. حتى أنه تم توقيف ابن أخيه بالجزائر من طرف الضابط الفرنسي الذي رأى الكونت ديرلون أنه يستحق لقب آغا. هذا الشاب سرعان ما تم إطلاق سراحه ولكن الكثير من الحوادث الأخرى جعلت سيدي محمد يستنتج أن مركزه لدى السلطات الفرنسية لم تعد نفسها كما في عهد الجنرال فوارول. فخشي أن يتم اعتقاله بالقليعة كما حدث في عهد الدوق دوروفيقو فقرر الابتعاد عن المدينة. كان يود الوصول إلى بوعلوان Boualouan أين كانت له ملكية هناك. ولكنه قام بالسفر في جو رديء ومات في الطريق من التعب والوهن حيث كان سنه يناهز 70 سنة. أولئك الذين أسرعوا من وفاة هذا الرجل الطيب يمكنهم أن يتفاخروا بتقديمهم لأسوأ خدمة يمكنهم تقديمها للمستوطنة.

كان لسيدي محمد ابن عم يدعى سيدي علال الذي توفي قبله بوقت قصير وكان يتمتع كذلك بسمعة معتبرة و لكن على العكس لم يكن يستحقها.

الجزء الثاني، 9.

محمد بن زمون: الشهير بن زمون والذي كثيرا ما تم تداول اسمه في السنوات الأولى للاحتلال، كان في عهد الأتراك أحد الضباط الأكثر نفوذا للآغا والذي كلفه في العديد من المرات بمهام جد مهمة. كان يقود القوات المسلحة لقبيلة الفليسة القوية في معركة سطاولي. وبعد سقوط الجزائر انسحب للعيش في هذه القبيلة واستقر بمزرعة شنيشة التي كان يملكها. لقد قمنا بالتطرق في الجزء الأول إلى مفاوضاته مع السيد بورمونت M. de Bourmont والنصائح التي قدمها له، والتي للأسف لم يتم إتباعها. بعد أن أجبر بن زمون على التخلي على دور الوسيط الذي أراد لعبه بيننا وبين العرب، أعلن نفسه عدوا لدودا لنا. وهو من هاجم الحامية الفرنسية بالبليدة في 1830 وكان على رأس تمردي 1831 و1832. وسخط على الطريقة الباهتة التي تصرف بها العرب في مسألة بوفاريك، فأقسم على عدم إقحام نفسه مرة ثانية في مسائلهم ومنذ ذلك الوقت أصبح يعيش بسلام في مزرعته.

مصطفى بومرزاق: كان من أتراك آسيا الصغرى الذي بلغ شرف باي التيطري في عهد حسين باشا، وقد قمنا بذكر كيف أجبر على الاستسلام للجنرال كلوزيل بعد سقوط المدية والذي أرسله إلى فرنسا. وبعد بضعة أيام من الإقامة في هذا البلد حصل على ترخيص بالذهاب إلى أزمير أين يتواجد بالتأكيد لحد الآن.

شارك ابنه الذي بقي بالوصاية بنشاط في تمرد 1831 وتمكن بذلك من فرض سلطته بمدينة المدية ولكنه سرعان ما تم طرده منها بسبب تصرفاته السيئة والفاجرة. وترك هناك أمه وأخواته اللواتي رفضن اللحاق به. أصبح هائما لا يعلم ما يفعل فانضم إلى حزب أحمد باي ومدح كثيرا في إحدى شقيقاته لأحمد حتى أرادها زوجة له ووعده بها ابن بومرزاق فأرسل أحمد 50 من فرسانه إلى المدية لإحضارها ولكن سكان المدية لم يتركوها ترحل، لأن أمها قد عارضت هذا الزواج. وأصبح يعيش وليد بومرزاق منذ ذلك الحين حياة مغامرة ويظهر نادرا مع بعض الفرسان في سهل حمزة، ولكنه دون أي نفوذ ولم يعد يرى فيه أحد سوى ملحقا غير نافع.

الحاج محي الدين الصغير بن مبارك: محي الدين من عائلة مرابطي القليعة قام الجنرال بيرتيزان بتعيينه آغا للعرب، وقد تم التطرق لكل أعماله السياسية في الجزء التاريخي من الكتاب. وبعد مشكلة بوفاريك انسحب إلى بني مناد أين كان يتمتع باعتبار كبير، وعند سير عبد القادر ضد موسى الدركاوي تعلق به عينه بابا لمليانة. وبعد اشتعال الحرب بيننا وبين الأمير بحث على تحريض أعدائنا في كل إقليم الجزائر. وقاد الحجوطيين وكل القبائل الأخرى لأوطان السبت في قضية العفرون في 18 أكتوبر 1835. كانت له علاقة غرامية بالجزائر أين كان يأتي في أغلب الأحيان دون أن تشك الشرطة في ذلك.

سعود بن عبد الواحد: كان في عهد الأتراك فارسا للآغا وبعد سقوط الجزائر أصبح قائد للسبت d'El-Sebt وقد قاسم مصير العربي بن موسى في عهد الدوق دوروفيقو.

الحاج مسعود بن زكري: هذا العربي ينتمي إلى عائلة عريقة من إقليم قسنطينة ورغم ذلك كان أبوه يمارس مهاما متواضعة كساعي مكتب الباي. أما بالنسبة له فقد كان في الريف منذ طفولته وكان تقريبا غير معروف حتى بدأت شكوك أحمد باي، أو بالأحرى شرطته تحوم حوله بسبب غير واضح عن مكيدة ما. ومخافة توقيفه لجأ إلى زموري. وخلال تواجده في تلك المدينة دخل في علاقة مع وليد اورباح وبوستة من بجاية Boucetta de Bougie. هذان الرجلان اللذان كانا في مراسلات دائمة مع الجنرال فوارول قاموا بتقديمه له على أنه شخصية بارزة يمكن الاستفادة من خدماتها وبذلك تم السماح له بالمجيء إلى الجزائر أين منح له المحافظ منحة سنوية ب 6.000 فرنك. وعدم جدوى بن زكري لم يتأخر عن الظهور ولكن لعدم العودة الفجائية عرائم فصله وأصل الحصول على مرتبه الذي خُفِض قليلا سنة1834 وبعد وقت قصير من وصوله إلى الجزائر تم وضعه في برج البحري لحراسة هذه النقطة مع بعض الفرسان التي كانت الحكومة تدفع لهم أكثر مما تستحق خدماتهم. تم إبعاد هؤلاء

الفرسان في 16 جوان 1834 وبعد اجتماع العريب براسوطة تم تعيين بن زكري قائدا لهذه القبيلة أين يتواجد لحد الآن.

مصطفى بن شرقي: كان في عهد الأتراك فارسا للآغا ونظرا لشاجره مع أحد رؤسائه انتقل لخدمة باي وهران ثم باي قسنطينة. عاد بعدها إلى موطنه بالبليدة أين كان هناك عند سقوط مدينة الجزائر. عينه الدوق دوروفيقو حاكما للبليدة في 12 نوفمبر 1832 وتم استبداله في إدارة الكونت ديرلون بعبد القادر بن غريلي . مصطفى بن شرقي رجل ذا طباع سهلة و ذا روح متواضعة.

مصطفى بودرباح: وكيل مكة والمدينة أين يقوم بأشغاله أحسن من الشركة. كان أحد التجار بمرسيليا حيث يتكلم القليل من الفرنسية، هو سهل المراس وجد متذلل.

مصطفى بن إسماعيل: هو رجل مسن في الخامسة والسبعين كان دائما في مركز مرموق، تعود على قيادة أعلى الدرجات. كان آغا لدى باي وهران. وعندما قمنا باحتلال هذه المدينة سنة 1830 قدمنا عروضا له إذ قام برفضها، وبذلك ظهر أنه تصرف هكذا بسبب كرهه للمسيحيين أقل من

رغبته في خلق مركز مستقل له. لأنه رفض كذلك عرض سلطان المغرب الذي كان في تلك الفترة طامعا في إقليم وهران. مولاي علي جنرال هذا الأمير قبض عليه ولم يطلق سراحه إلا بعد أن تحصلت فرنسا من سلطان المغرب على وعد بعدم تدخله في شؤون الوصاية. بعدها أصبح مصطفى يقوم بالحرب تارة لحسابه الخاص وتارة مع عبد القادر. وقد كان يصعب عليه رؤية هذا القائد الشاب ولكنه لم يتجرأ على رفع السلاح في وجهه مخافة تخلي أهله عنه لأنهم سيرونه مسلما سيئا. بعد الهدنة التي تم عقدها بين الجنرال ديميشيل وعبد القادر، فكر في أن الظروف قد تغيرت فتمرد ضد الأمير، وتم هزمه بعد بعض المحاولات الفاشلة، فانسحب إلى جانب الأتراك وكراغلة المشوار بتلمسان أين كان محجوزا هناك إلى غاية وصول الفرنسيين لتلك المدينة سنة 1836 . مصطفى الذي لم يرد أن يكون بايا على تلمسان عاد إلى وهران مع الجيش. إنه رجل ذو بسالة مميزة وحيوية كبيرة والعقل. وتكلم الماريشال كلوزيل عن مواهبه في الحرب وهذا هو أكبر ثناء يمكننا تقديمه له.

مصطفى بن الكبابتي: في بداية الاحتلال كان قاضي مالكي بالجزائر ثم عينه الجنرال بيرتيزان مفتي. وهو رجل عادل متفتح وذو سمات طيبة ولكنه غير متحفز للعلاقة معنا وفيما عدا ذلك فأنه يتصرف بتعقل كبير.

مصطفى بن عمر: بن عمر هو أحد مغاربة الجزائر الذي عاش مطولا بايطاليا أين كان يقوم بالتجارة. كان بالجزائر عندما قمنا بحصارها وكان من أول المعترفين بأن المقاومة كانت مستحيلة. وبمجرد احتلال المدينة بحث عن إنشاء مركز له لدى المنتصر فتم تعيينه في البداية عضوا في مجلس البلدية ثم بايا للتيطري من طرف الجنرال كلوزيل. ونعرف تفاصيل إقامته بالمدية وكيف عاد من هناك. وبعد عودته من المدية أرسله الجنرال بيرتيزان إلى وهران ولكن الجنرال بويير Boyer لم يرد استخدامه. وفي عهد الدوق دوروفيقو ذهب إلى باريس ورجع بمنحة 6.000 فرنك وتقليد وسام شرف. وفي عهد الجنرال فوارول تم استعماله في عدة مهمات ولم يتوقف عن مضايقة النظام المفروض من هذا الجنرال حتى انتهى بإبعاده عن الأعمال. بحث عن العودة في عهد الكونت ديرلون ولكن دون فائدة. عينه الماريشال كلوزيل في نهاية سنة 1835 بايا على مليانة وشرشال. وعند محاولة إرساله إلى تلك المدينة بدأ بالصراخ أنهم يرسلونه إلى الموت. فاستقال حينها سفينة بخارية وتقدم نحو شرشال ولكن نظرا لسوء الأحوال الجوية وعدم استعداد البلدة لاستقباله عاد إلى الجزائر لانتظار تحسن الظروف التي تسمح بتوجهه نحو بايليك beylik.

الجزء الثاني، 9.

كان بن عمر رجل مؤدب وطباعه جد مميزة، ليس له نفوذ لدى العرب الذين لا يبدون له أي اعتبار. وحين كان بالمدية رفعت عدة شكاوى ضده فأرسل الجنرال كلوزيل إليه جوزيف مملوك Josephh Mameluk الذي وقعت بينهما عدة متاعب وتبادل الرجلان التهم بمحاولة كل واحد اغتيال الآخر.

مصطفى بن مكلح: ابن أحد البايات السابقين لوهران. وضعه الجنرال كلوزيل على رأس بيلك خيالي بتلمسان.

سعد وليد أورباح: شيخ أولاد عبد الجبار تبعد يوم مسير عن بجاية. كان يريد أن يكون حامي التجارة الفرنسية ببجاية ولكنه كان يتمنى أن لا تكون هذه المدينة محتلة. وبعد إبدائه استعدادا بالنسبة لنا أصبح في أقرب الأوقات عدوا فور وصول قواتنا إلى بجاية وقد تطرقت في القسم التاريخي المفاوضات السخيفة والتعيسة مع السيد لوازي M. Lowazy. مات وليد أورباح بعد تلك الخدعة.

.10

المناهج المختلفة لغزو واستيطان الشعوب الأكثر شهرة قديمة كانت أو حديثة.

قد لا يكون من دون الفائدة للقارئ أن يلقي نظرة سريعة على هذه الثورات، سواء كانت فورية أو تدريجية، و التي جعلت الشعوب تحتك ببعضها البعض و غيرت بطريقة عنيفة أو سلمية وجودهم المشترك و جلبت تركيبات جديدة للمجتمع البشري . و لهذا نقترح في هذا المقال طرح المناهج المختلفة للفتوحات و الاستيطان. هذا التحليل سيكون سريعا و سهلا لأننا سنعتقها من الحقائق العسكرية التي سنلخصها بهذه الكلمات الوحيدة: استخدام القوة، و كذا الحقائق الدبلوماسية التي تقلصت فقط في استخدام المكر. و نعتبر أن المبدأ الشامل في تصادم شعبين مبدأ موجود مسبقا لدى الفوضى التي تحكمهم، و دون معرفة حتى الذين يشاركون في النضال لأنه حسب الحكمة اللاتينية فإن العقل هو الذي يحث المادة Mens agitât molem. في هذا القرن الذي تطور فيه التفكير كثيرا، لا يجب خسارة دروس الماضي من أجل المستقبل. فبعد دراسة واعية لكيفية نجاح بعض المستعمرات و كيفية خسارة أخرى، فإننا ربما سنفهم بأكثر سهولة ما يجب فعله في افريقيا و ما يجب تجنبه.

فتوحات زمن البطولات.

تراث الشعوب القديمة حافظ على ذكرى أبطال مشرعين اعترفت بهم الآلهة، الذين كانوا يجوبون الأرض سوى للقضاء على اللصوصية و نشر نظام القانون و على هذا النحو كان باخوس وهرقل. وان كان هذا التراث حقيقة أم خيالا، فإنه يدل على أنه في تفكير تلك الشعوب فأن الفتوحات النافعة هي الوحيدة التي كانت تحظى بإعجاب البشر. وربما متأثرين بالنظام الذي نشره أولئك المشرعون الأوائل، وسرعان ما قام رؤساء تلك الشعوب باستبدال لصوصية "فرد لفرد" بلصوصية "أمة لأمة". ومن هنا جاءت فتوحات الأشوريين والبابليين، و فيما بعد الفرس. لقد كان الهدف منها هو وضع مناطق شاسعة تحت سلطة قانون استبدادي، خاضع لحكم رجل واحد.

مستعمرات المصريين.

بينما كان الأشوريون يجتاحون آسيا، كان هناك شعب لا علاقة له بالغزو يعاني بعضه أحيانا، ويعيش في ازدهار على ضفاف نهر النيل، مستمتعا بالفنون والصناعة، ثم سرعان ما ما صار شبيها بخلية تعج بالنحل وجب أن إرسالها أسرابا الى الخارج. لقد استقبلت اليونان بعض المستوطنين منهم، لأن تلك المنطقة كانت مأهولة بشعب لا يزال همجيا ومضللا. ثم اندمج المصريون بهم وقاموا بتعليمهم وأصبح العرقان لا يمثلان سوى عرقا واحدا فقط. فكان أن

ولد من هذا الاتحاد الحميم أولئك الاغريقيون الشجعان و البارعون الذين سيظلون دائما في أعلى مراتب الذكاء والمجد الحقيقي.

المستعمرات الفينيقية.

على ضفاف البحر الأبيض المتوسط، غير بعيد عن الأماكن التي شهدت ولادة المسيح ووفاته، كان يتطور شعب بفضل التجارة والصناعة، ولا يزال من مصلحة غزاته الحفاظ على الازدهار. وهنا ظهرت صور العاصمة الفاخرة للأمة الفينيقية التي لها مستعمراتها، ومن أشهرها: قادس و قرطاج. مؤسسو قرطاج اشتروا من السكان المحليين الأرض التي بنوا عليها مدينتهم، ولكنهم أهملوا الالتحام معهم والمزج بين قوة دم التجار القدامى لصور، والدم الذي كان ما يزال يافعا. و لم يكونوا بالنسبة لأفريقيا سوى مضيفين غير مرغوب فيهم، وكانت تحملهم الأرض بأسى. نشاطهم الجبار وبراعتهم في التجارة أحرزت للقرطاجيين مكاسب هائلة، ما مكنهم من الحصول على العديد من فرق المرتزقة الجيدة التي سمحت لهم بتوسيع هيمنتهم، ولكنهم لم يرسوا جذورهم في تلك الأرض. وفي وقت لاحق تخلت عنهم فرق المرتزقة، وفي الأخير، استسلمت للاندثار، لأن الشعب الذي لم يمارس سوى التجارة سيتوقف حتما على أن يكون شعبا، آجلا أم عاجلا. اليونان كذلك خسرت حريتها على يد الرومان، ولكن كان ذلك كل ما خسرته. واستمرت في العيش

الجزء الثاني، 10.

كأمة. وفيما بعد، عاد الى الظهور تواجد الشعب اليوناني على المستوى السياسي مع إمبراطورية المشرق المسحوقة خلال بعضة قرون تحت ثقل فتوحات جديدة، أكثر دمارا وأثقل من الأولى، و لكنهم عاودوا النهوض في أيامنا هذه وأخذوا مكانا بين الأمم الحديثة، فكم كان قويا ومفعما بالحيوية ذلك العرق المارج بين المستوطنين المصريين والأبناء البدائيين لليونان!

المستعمرات اليونانية.

لم يعرف اليونانيون، لسوء حظهم، حياة الوحدة إلا نادرا، ليس فقط تناحر المدن فيما بينها بل وحتى الجمهوريات، حيث كانت الصراعات تعصف بقوة. وأدت هذه الوضعية الى العديد من الهجرات، نتج عنها تأسيس العديد من المستعمرات: آسيا الصغرى، وصقلية وجنوب ايطاليا الذي اتخذ اسم اليونان العظمى. وأسباب أخرى مثل الحروب الأجنبية، التوليفات السياسية التي ضاعفت من عدد المستعمرات اليونانية. فأنشأوا البعض في بلاد الغال، واسبانيا، وافريقيا و شبه جزيرة القرم، بمعنى جميع أنحاء البحر الأبيض المتوسط و البحر الأسود.

اليونانيون كانوا يتداخلون طواعية لصالح الشعوب التي يستقرون بها وعلاقتهم بها كانت دوما عادلة و طيبة. سلاسة طباعهم، تفوقهم بفضل تنوع معارفهم، روعة خيال أساطيرهم والرخاء والرفاهية الموجودين بمدنهم، كانت

كلها أسباب تجلب إليهم صداقة الشعوب. كانوا يرونهم على أساس أنهم جيران طيبين وودودين، يتم استقبالهم بحفاوة. وبالتأكيد، كان يمكن أن يقضوا أياما ممتعة عندهم. وعند عودتهم الى ديارهم، كان السكان المحليون يقومون بتقليد ما رأوه عندهم، وشيئا فشيئا أصبحت المستعمرات اليونانية محاطة بمنطقة تسكنها حضارة كانت ستمنحها القوة، لو لا أنها فرضت نفسها بمنطق الجبروت.

فيما عدا ذلك، فإن بسالة اليونانيين كانت معروفة، و كان معلوما أنه من الأفضل كسبهم كأصدقاء لا كأعداء. وبما أنهم كانوا متعودين في بلدهم الأم على رؤية العديد من الدويلات المستقلة أكثر من المدن، فلقد أصبحوا أكثر تقبلا لاستقلال جيرانهم من دون أن يفكروا في سحقهم. كانوا يحصلون على الأراضي التي يحتاجونها بواسطة الاتفاقيات ويحمونها بالأسلحة في حالة مهاجمتها، ولكنهم بشكل عام كانوا يكتفون برئاسة الكونفدراليات الحرة التي تتشكل حولهم بين الشعوب الخاضعة لهم. كانت هناك حروبا بالتأكيد، ولكنها كانت قصيرة المدة ونادرة.

لقد نجحت كل المستعمرات اليونانية تقريبا، والكثير منها ما يزال يعد من المدن الأكثر ازدهارا في الحوض المتوسط.

فتوحات ألكسندر.

في آسيا، كان ألكسندر، بالكاد، يقوم بمحاربة شعوب مستضعفة، أو أكثر سهولة من حيث التحكم فيها. ومع هذا، فإن النظام الذي استخدمه كان يؤدي

تجاوزه إلى الكثير من الصعوبات من الذين كانوا يتقدمون نحوه، لأنه كان يحسن استغلال النصر ويراعي أعراف المنهزمين. الاستعباد الذي كان يفرضه عليهم كان يبدو أخف من ذاك الذي أرهق عاتقهم لمدة طويلة، ولكن بالرغم من الحجة المشرقة التي يعطيها لكل خطواته، فإن العنف هو ما أثمر لدى الذين جاؤوا من بعده، واستمر الطغيان في الحكم على أنقاض الامبراطورية الفارسية، غير أن الحضارة اليونانية انتشرت في هذه المناطق وحضرت الأذهان للثورة الفكرية الكبيرة التي ستتولد من دم المسيح.

الفتوحات و المستعمرات الرومانية.

روما تقدم لنا الظاهرة الرائعة، لشعب يحلم من المهد، بإمبراطورية عالمية، ويمشي بخطوات متناسقة وواثقة دائما. فمهما كان حكمنا على طبيعة نتائج هذا الطموح الواسع والمقرح للانسانية على العموم، فلا يمكن الانكار من أن تطور العظمة الرومانية هو من أروع المشاهد التي عرضها لنا التاريخ. فاليونانيون، قبل ألكسندر، لم يكونوا سوى مستوطنين. لكن الرومان كانوا في آن واحد مستوطنين و فاتحين، أمضوا خمسة قرون لإخضاع ايطاليا بالقوة، ولجعلها تابعة لهم بكل توليفاتها السياسية. هذه الترتيبات لم يكن فيها أي احتقار للمنهزم الذي كان يدعى

يتمتع بامتيازات المنتصرين نفسها. ولكنهم ارتكبوا خطأ في ذلك، بعدم تحقيق العدل في تقسيم الأمور، وعوقبوا فيما بعد بتلك الحرب الاجتماعية التي أوشكت بهم على السقوط. وتجنبوا العاصفة بمنح ما لم يكن عليهم رفضه، واستطاعوا أن يقتنعوا بأن الشعب ينمّي قوته عندما يزيد من عدد إخوانه لا من عدد الرعايا.

و خارج ايطاليا، كان للرومان العديد من الرعايا، و نظرا لاستنادهم على أسس متينة، كانوا لا يخشون من غضبهم الذي حافظوا على عدم إثارته. و ما هو ذا الأسلوب المتجانس الذي كانوا يستخدمونه في كل فتوحاتهم: بمجرد أن يدخلهم امتداد قوتهم في اتصال مع شعب جديد، كانوا يقيمون معه علاقات صداقة وتجارة. هذا الشعب الذي بالضرورة كان له تواجد سياسي، كان على علاقة كذلك مع جيرانه، وهذه العلاقة يمكن ألا تكون ودية كلها، وهنا، تتدخل روما لتنصح أصدقاءها الطيبين بفعل كذا أو بالامتناع عن ذاك، وبضرورة مراعاتها هي طبعا. واذا ما حدثت مقاومة، فسيتم إعلان الحرب فورا. وإذا ما تم التنازل، فإن المطالب تزداد مع التنازلات، مما ينتج الحرب في الأخير رغم تأخرها قليلا. وسيكون لروما بالضرورة، كتابع للدولة التي تدخلت لصالحها، والنجاح أكثر أو أقل، بسرعة أو ببطء، مضمونا على الدوام. الحرب الأولية كانت نادرا ما تقضي كلية على قوة المنهزم، بل كانت تضعفها، ولكن بما يسمح له بالبقاء في هذه الوضعية من الاذلال. وبعد وقت قصير، سيعتقد المنهزم أنه تمكن من استجماع قواه وسيعود الى القتال، حيث ستسعى روما من

أجل خلاف جديد. هذه الحروب المتتالية كانت ترهق الشعوب، وبحثا منها عن بعض الراحة، فإنها كانت تستسلم لرغبة ضمّها للمقاطعات الرومانية، وهي النتيجة النهائية للمقاومة.

الشعوب المستعمرة كانت تحافظ على قوانينها وأعرافها ودياناتها. وتغيير الهيمنة كان أفضل لها، إذ كانت تعاني من باستعباد الملوك، وكان عددها كبيرا جدا. لقد تنفست كلها الصعداء بخسارة استقلالها أثناء تلك الراحة. الصناعة والتجارة كانت تزيد من رخائها وتجعلها تتمتع بقسط وفير من الرفاهية. بعض المندوبين كانوا لا انسانيين وجشعين. كانوا يظلمون من حين الى آخر في المقاطعات التي كانت الحكومة تعهد بها إليهم. ولكن على العموم، كانت الادارة الرومانية حكيمة ومعتدلة.

هذا النظام الاستعماري كان معدا بإحكام، إذ كانت أي خطوة مكتملة تلعب دور السلّم للوصول الى خطوة أخرى. اكتسب -النظام- قوة جديدة بإنشاء المستعمرات والمحافظات، بعد كل حرب. وكانت كلها كذلك في الغالب. وتقوم روما بالتنازل عن الملكية المقيدة لمساحات من الأراضي التي توزعها على مواطنين معوزين، رومانيين كانوا أو إيطاليين. هذه المستعمرات التي أصبح أغلبها عبارة عن مدن قوية متواجدة لحد الآن، تلتف حول كل الشعوب المحتلة، وتنتزع من أذهانهم فكرة الثورة في حد ذاتها. وبالإضافة الى ذلك، كانت روما تتبنى العديد من مدن الأهالي المحليين، وتمدها بلقب بلدية، مع جميع حقوق المستعمرات. هذه الحقوق كانت ممنوحة بقوة، مما يجعل كل من

ينظر إليها يتمتع بعلاقة ودية مع روما. المستعمرة كانت عبارة عن وحدة متكاملة يمكنها أن تحقق اكتفاءها الذاتي. كانت مسيّرة من طرف قاضيين اختياريين، هما المسمى الدومفيرس duumvirs، ومن طرف مجلس الأساسيين. الدومفيرس وأعضاء هذا المجلس كان يصوت عليهم الأعيان curiales، وهم أولئك الذين يملكون 25 ذرعا من الأراضي. كل مستعمرة أو بلدية كان لديها، اضافة الى ذلك، محاميا (مدافعا)، مهمته معارضة كل الاجراءات التي كانت تبدو مخالفة للمصالح العامة للمدينة، وكان ينتخب في تجمع عام لكل المواطنين دون تمييز للمركز أو الثروة. فتشريع كهذا، وبتلك الدرجة من التعقل والليبرالية ساهم في ازدهار المستعمرات، وضمن قوة روما لعدة قرون، والتي كانت ترى نفسها تعود الى الحياة بكبرياء في هذه السلالة المتعددة من المدن الفتية والشامخة. ومنها من وصلتنا تقريبا بشكلها الجمهوري كمرسيليا. فهذه المدينة الأنيقة كانت تشكل بلدية تحت الهيمنة الرومانية[1] ولم تخسر امتيازاتها الا في عهد لويس الرابع عشر.

استقرار الفرنكيين في بلاد الغال.

نعرف كيف انتهى المطاف بالإمبراطورية الرومانية، ومن بين كل الشعوب التي تقاسمت أنقاضها ستطرق بتفضيل للفرنكيين أو الجرمان.

فاستقرارهم ببلاد الغال كان متينا مما يجعلهم يستحقون هذا التفضيل بعيدا عن الألقاب التي يتميزون بها عندنا، بما أنهم يعتبرون أسلافنا.

(1) نقرأ في كتاب، الف نهاية القرن الماضي: "لويس الرابع عشر قام ببناء حصن سانت نيكولا للسيطرة على المرسيليين الذين كانت لهم الارادة الوقحة للحرية".

وبفعل اقترانهم بالغاليين، ولدت الأمة الفرنسية. وهو الشعب الوحيد الحديث في الغرب، الذي تعود حقيقة وجوده السياسي الى سقوط روما، والذي يتحمل وحده التغييرات التي شهدها في القرون الأربعة عشر الجارية.

الفرنكيون لم يواجهوا الزامية محاربة أي عدو مهم في بلاد الغال. شعوب تلك المناطق لم يعودوا أولئك الغاليون المقدامون الذين صعب على سيزار هزمهم. تلينوا بسبب الراحة المطولة التي فقدوا فيها تعودهم على السلاح. و لكنه ما يزال يتواجد في المدن نوع من الميليشيات البرجوازية les cohortes الذين بإمكانهم ابداء معارضة للغزاة، ولكن المواطنين المسالمين الذين لا يملكون من كلمة مقاتل سوى الاسم فقط،لم يعودوا يصلحون لفتح أبواب مدنهم وإعطاء شكل متناسق وقانوني لاستحواذ الفرنسيين على أملاكهم. فكان المنتصرون يستحوذون، منذ الوهلة الأولى، على الأراضي التي يرونها ملائمة ويضمنون للمهزومين حق التمتع بما يتركونه لهم. هذا التصرف كان عقلانيا، فيجب أن يأخذ النصر حقه. الشعب الذي يتعرض للغزو يتنازل دونها احتجاج. وكأنها ضرورة متوقعة. وإذا ما توقف العنف فسينسون ذلك. أما إذا حدث العكس، أي إذا كانت المتطلبات متتالية، ولا شيء يسمح بمعرفة نهايتها، فإن أحقادا خرساء ستملأ كل القلوب، ينتج عن ذلك رد فعل يضع المنتصر في وضعية أسوأ من الوضعية التي كان عليها المنهزم.

لما ترك الفرنكيون للغاليين الذين كانوا يدعون وقتها الرومان، كجميع رعايا الامبراطورية، قوانينهم وأعرافهم، لأنهم كانوا قليلي الغيرة لنشر تقاليدهم التي، وبالرغم من ذلك، فإنها أصبحت مهيمنة بمقتضى الحال. كان لديهم قسمين من القوانين التي لم يتم كتابتها الا بعد الغزو: القانون السالي للمستقرين داخل بلاد الغال، والقانون الريبواري للقبائل المتوقفة بين نهر الراين وميوز. كان يكفي ليختار واحد من الغال أن يحكمه القانون الأول أو الثاني، حتى يتمكن من التمتع بكل حقوق وامتيازات الفرنكي. سرعان ما أدى هذا الحق الممنوح للشعوب المحتلة الى اندماج حميم، بحيث أصبح العرقان لا يشكلان سوى واحد. والمسيحية التي لم يتأخر عن اعتناقها الفرنكيون سهلت هذا الاندماج بالضرورة، لكونها كانت الدين المهيمن لدى الغاليين. لقد أمكنهم التباهي حقا، بكونهم تمكنوا من الغزو المعنوي لغاليتهم، مما أدى الى محو كل ذكرى أليمة من أذهانهم لذلك الغزو المادي.

فتوحات الشعوب الأوروبية في العصور الوسطى.

باستثناء استقرار النورمنديين بنيوستريا، وإنجلترا، وإيطاليا، وصقلية، لا نرى في أوروبا خلال العصور الوسطى سوى حروب أمير ضد أمير آخر، عوضا عن شعب ضد شعب. الاقتتال الداخلي والمناظرات بين الاقطاعيين ليس إلا، ولكن لا وجود لأية غزوات. إن الحملات التي شكلت الحلقة الأكثر تألقا لهذه الحقبة أثرت فعلا على آسيا. نعلم أن تدفق العالم المسيحي على العالم الاسلامي

نتج عنه تأسيس مملكة القدس الصغيرة، والتي لم تدم قرنا كاملا. والمبادئ التي اتبعها المسيحيون في حملهم للسلاح كانت في طبيعتها تجعل من المستحيل إقامة أي تسوية أو تقارب بينهم وبين أتباع القرآن، علاوة على دخولهم في حروب دائمة مع سكان فلسطين بالرغم من الهدنات النادرة الحدوث. النقاط التي احتلوها كانت مسدودة باستمرار من طرف العرب، إذ لم يكونوا قادرين على التواصل معها الا بحراسة مشددة وكذا تحمل مخاطر كبيرة. فهكذا كان موقف آبائنا منذ700 سنة في فلسطين. وها هو ذا موقفنا في افريقيا. في فلسطين، كان مرد ذلك الى طريقة التفكير التي لم يكن من الممكن القضاء عليها، والتي لم تكن تسمح بتوافق الشعبين، وفي إفريقيا ليست سوى نتائج أخطاء الإدارة الفرنسية.

الفتوحات العربية.

لقد تطرقت الى هذا الموضوع في الجزء الأول، ولا أعيد الحديث عنه هنا سوى من باب التذكير.

الفتوحات العثمانية.

الفتوحات العثمانية كانت الأكثر دمارا، والأكثر وحشية، والأكثر تهورا من كل تلك التي عرفتها الانسانية. فالأتراك لم يختلطوا بأي شعب ولم يحثوا

عن ترسيخ أنفسهم في أي مكان. مماثلة لجنود فظين وجشعين، يلتهمون ويفسدون كل ما وقعت عليه أيديهم. لقد أرهقوا ودمروا كل البلدان التي خضعت لسيطرتهم، ومن دون إبداء أي قلق بشأن المستقبل. لقد انمحوا من صفوف الأمم على الرغم من شجاعتهم وصفاتهم الخاصة الجديرة بالاحترام.

استقرار الأوروبيين في الهند.

إن تطور الملاحة فتح أطماع وطموحات الأوروبيين في بلدان غنية وشاسعة حلال نهاية القرن الخامس عشر في القارة القديمة المقابلة للقارة التي يسكنونها.

كان البرتغاليون أول من هرع لهذه الحرفة الجديدة التي عرضت عليهم إغراءات مزدوجة من الشهرة و الثروة . فاسكو دوغاما Vasco de Gama أدلهم على الطريق الذي اتبعه الكثير من بعده.

إن استقرار البرتغاليين بالهند كان مبنيا على استخدام القوة مع المكر، وكان أمرا متألقا ومتقنا. ولقد أسسوا حصونا ومتاجر ومارسوا، بذلك عمليات تجارية و حربا باهرة بمهارة الرؤساء و شجاعة الفرق العسكرية. فيا عدا ذلك لم يتعاملوا مع الأهالي بإجراءات ادارية حكيمة تدفع الى حب هيمنتهم. ولم يندمجوا كليا مع السكان المحليين الذين كانوا يضطهدونهم أكثر ما يحكمونهم.

وبالرغم ذلك، كان على رأسهم رجال عادلون مشهورون:

آلبوكارك، خوان دوكاسترو، آتاييد[1]. كانوا من الأبطال الجديرين بالتعظيم. لكن أعمالهم البطولية وعبقريتهم وقفت عاجزة أمام حواجز منبعة من الأحكام المسبقة والتعصب الديني للأمة. كما أن البرتغاليين أخطأوا بانتشارهم الكبير في الهند واحتلالهم لنقاط متعددة دون ضمان قاعدة واسعة ومتينة. هم لم يتأخروا في إدراك ذلك، لكن شرفهم الوطني لم يسمح لهم بالتراجع. وعندما تم تعيين آتاييد نائبا للملك، استخدم كل مصادر عبقريته للحفاظ على جميع النقاط التي تمكن من احتلالها، بالرغم من أنه لام نفسه عن الامتداد الذي أخذه الاستعمار.

وبعد مرور قرن تقريبا على الاستغلال الحصري للبرتغاليين لتجارة الهند، أبدى الهولنديون منافستهم الشديدة. هؤلاء تقدموا مبدئيا نحو السكان المحليين كتجار مسالمين لا يفكرون سوى في القيام بالتجارة معهم، ولصالح الجميع، دون ادعاء السيطرة عليهم في أي شيء. كانوا يقنعونهم أنه من أجل مصلحتهم فقط، ومن أجل الثأر لحقوقهم

(1) هؤلاء الرجال الثلاثة تميزت طريقة تفكيرهم بشيء من العظمة والشهامة، يذكروننا بأبطال بلوتارخ (كاتب سير ذاتية يوناني)، ونجاحهم العسكري حقق المعجزات. يلاحظ لشبونة منحهم سلطات أكثر شمولية، ولم تفرض عليهم أية واجبات أخرى سوى النجاح. وهي الطريقة الوحيدة الفعالة في أي عمل له بعد، ويهدف الوصول الى أفضل النتائج. الجنرالات البرتغاليون أبدوا استحقاقهم للثقة غير المحدودة لحكوماتهم، عندما كان ينقصهم المال للقيام بأي خطوة مفيدة، كانوا يقترضونه باسمهم بدلا من ترك الرعية تعاني. وباقتناع عميق وأليم، فإنني أعلن أننا لا نملك في فرنسا أي رجل سياسي تقدم بعرض أقل جزء من ثروته من أجل مثل هذه القضية النبيلة.

المهزومة، يجب أن يحاربوا البرتغاليين. كما كانوا مساعدين لهم. وبعد وقت قصير قلصوا قوة منافسيهم في الهند الى دور ثانوي، فقاموا بانتزاع ملاقا malaca والكثير من المواقع الأخرى، ولكنهم وجهوا نشاطهم على الأخص نحو جزر الملوك وجزر سوندا. وبعد إهانتهم للبرتغاليين، أسقطوا أقنعتهم و وتفطن السكان المحليون إلى أنهم قاموا فقط بتغيير الطاغية. وحتى يستبقون احتكار التوابل، فرضوا على ملوك الجزر المختلفة عدم البيع لسواهم، وأجبروهم كذلك على تدمير كل أشجار القرنفل أينما وجدت باستثناء منطقة أمبون، حيث كثفوا زراعتها. أبادوا سكان جزر باندا التي تنمو بها جوزة الطيب، وأسسوا مستوطنة. كما انهم أبادوا سكان مملكة جاكارتا في جزر جاوة، التي أسسوا بها باتافيا عاصمة لمستعمراتهم. بمعنى أنهم تجاوزوا في الكثير من الأحيان وحشية البرتغاليين. لم تكن بتاتا الجمهورية التي تسير عمليات الهولنديين في الهند بل شركة منحتها الحكومة الحق الحصري لممارسة التجارة والمنشآت. أعوان هذه الشركة، وان لم يبيدوا الأهالي، فإنهم كانوا يقومون برشوتهم أو افلاسهم بالاحتيال التجاري، وهو طبعا أكثر عارا، وتمثلت سياستهم تجاه أمراء البلاد في تزويدهم بالأسلحة دون توقف، لضرب بعضهم البعض، واختطاف أطفالهم كرهائن لإفساد أخلاقهم، وتعليمهم طريقة التحكم بالناس، أي المبادئ الخاطئة والأكثر انحرافا. أخيرا، وعند

توليهم العرش، سيعملون بأنفسهم على إضعاف وتدمير رعاياهم. كل هذا سيظهر للبعض على أنه قمة البراعة، ولكن ما نتج بالفعل هو إحاطة المستعمرات الهولندية بقطاع طرق، دون إقرار ذلك، عوض أن تحيط هي نفسها بمساعدين مفيدين وعمال منتجين. مما كان يقلل كل يوم من المنافذ التجارية. وبإفساد الأوروبيين لأنفسهم باستخدام هذه السياسة البشعة أصبح جموع السكان وحدة ضعيفة وتافهة.

أسس الفرنسيون كذلك مستعمرات في بلاد الهند، لكن سلطتهم كانت لمدة قصيرة، وعرفوا كيف يحببون الأهالي فيهم. ولكنهم استسلموا لأنهم كانوا في مواجهة عدو تمت خطواته كلها ببراعة. شاندرناقور Chandernago، وخاصة بونديشيري Pondicherry، تألقوا لبعض الوقت. وهما الآن ليسا سوى مصانع دون أهمية. فقد دمر الانجليز في الهند القوة الفرنسية التي علا من شأنها دوماس Dumas ودوبليكس Dupleix، وهم الآن يسيطرون على كل تلك البلاد الثرية والشاسعة، مع اقصاء كل الأمم الأوروبية.

انطلاقتهم كانت ضعيفة مثل الهولنديين، وقاموا مثلهم بتقديم أنفسهم مبدئيا على أساس تجار مسالمين لهم ضمائر. ففي سنة 1750 لم يكونوا سوى قوة ذات شأن هيّن في بلاد الهند، وهم الآن بشكل ما، القوة الوحيدة هناك. منشآتهم الأولى كانت مصانع بسيطة تحصلوا عليها من

أمراء البلاد على اذن بإقامة حامية عسكرية بذريعة معقولة، وهي حماية تجارتهم ضد هجومات الشعوب الأوروبية المحاربة لهم. ومع الوقت تمكنوا من الحصول على تنازل عن سيادة النقاط التي كانوا يحتلونها، سواء بالمال أو بالمكر. وبعد أن أحسوا بتعزيز مكانتهم، بدأوا بالقيام بالغزو. وكان في الغالب أمراء محليون يقفون الى صفهم كمساعدين، ممن كانوا يسلحونهم ببراعة ضد بعضهم البعض، ونذكر بعض الأمثلة: كان لهم مصنع وفرق عسكرية بسورات، تم التنازل عن كل سيادتها من طرف الحاكم الإقليمي للدويلة، مقابل دفع معاش سنوي يقدر بكلح من الروبيات أي 100.000 روبية. والإمبراطور أورجنتزيب الذي سمح لهم بالاستقرار في كالكوتا، تمكنوا من الحصول على إذن من خلفائه بأن يتم استثناؤها من سلطة الاقليم، وهذا عن طريق طبيب منهم، تمكن من شفاء هذا الأمير من مرض خطير. وبعد بضع سنوات، تنازع حاكمين اقليميين على حكم البنغال فوقفت انجلترا الى جانب واحد منهما، وساهمت مساعدتها بانتصاره على منافسه، وهكذا تمكنت من الحصول على الرفع من قوتها. وأخيرا، ما حدث مع سليل الامبراطور القوي أورجنزيب، وهو الشاه علوم الذي كان ضعيفا وبائسا حتى أجبر على التنازل لهم كليا عن كل حقوقهم في بلاد البنغال، وبعض الأقاليم المحاذية. ورغم هذا فانهم واصلوا لمدة طويلة تعيين حكام اقليميين هناك، وهم لم يكونوا سوى منفذين لأوامرهم. وفي الأخير تمكنوا من الاستحواذ على

دلهي بذريعة تخليص شاه علوم من قبضة الماراثا marathas، تزامن هذا الحدث مع بداية هذا القرن، ومنذ تلك الفترة توسعت هيمنتهم أكثر فأكثر. فبمساعدة أو باستخدام الماراثا تمكنوا من القضاء على سلطة سلاطين الميسور erosyM وهم حيدر علي و ابنه تيبو- صهيب. و عندما لم يعودوا بحاجة لهم لم يفكروا سوى بتدمير والقضاء على قوة من كانوا حلفاءهم.

كانت انجلترا تمارس تأثيرها في الهند عن طريق شركة تجارية، ولكن كل ممارسات هذه الشركة خاصة السياسية منها، والسيادة كانت تحت رقابة و ادارة الحكومة.

البريطانيون كانوا يحكمون الهند ويهيمنون عليها، ولكن لا يمكننا القول مع ذلك أنهم استقروا بالكامل لأنه كان من المحظور عليهم اكتساب الأراضي، وكذا جميع أولئك الذين صنعوا ثروة من التجارة، فكانوا ينقلون الى العاصمة ثروتهم نقدا، فلم يتشكل أبدا أي عرق أوروبي هناك، مما يعطي الأمل للسكان المحليين بالحصول على استقلالهم عاجلا أم آجلا. خلاص الأرض الهندية قد يأتي على أيدي الماراثا اللذين لازالوا أقوياء، و خاصة السيخ، وهو شعب جديد تشكل وسط السكان القدامى، ليس من قبيل الصدفة بل اختياريا، مثلما ظهر المسيحيون داخل الامبراطورية الرومانية. انها طائفة فلسفية ودينية تخلت عن التمييز بين الطوائف وأغلب الأحكام المسبقة والخرافات الهندوسية، أخذت شكل دولة تحتل مناطق شاسعة من غرب دلهي. يشكلون

جمهورية فدرالية، وأظنهم المحررين المستقبليين للهندومستان.

فتوحات و استقرار الاسبان بأمريكا.

لا أحد يمكنه انكار الوحشية المستخدمة من طرف الاسبان في امريكا، فأسلوبهم كان يرمي الى القضاء على السكان الأصليين، أو الى اخضاعهم للعبودية. بهايتي وفي كل الجزر الأخرى، اختفت جموع السكان عن الوجود خلال وقت قصير. فمن لم تقض عليهم الأغلال و أسنان الكلاب المحرضة، فقد تم اخضاعهم لأعمال لم تقدر عليها بنية أجسامهم. فكان من الواجب استبدالهم بالسود المستقدمين من افريقيا الى امريكا بواسطة ذلك الاتجار المشين التي تلطخت به الأمم الأوروبية ولمدة طويلة. لقد دافعت الحكومة الاسبانية لسنوات عدة عن السكان المحليين ضد تكالب المستوطنين الأوروبيين، ولكنها في الأخير كانت مجبرة على الرضوخ، وتسليمهم لهؤلاء الذين يعتبرون من حثالة أوروبا، فقد تم أخذهم من السجون والمؤسسات العقابية.

عند غزو المكسيك الذي تم ثلاثين سنة بعد استقلال هايتي، أظهر في البداية فرناند كورتيز، قائد الحملة، تجاوبا مع السكان المحليين وقد كان له منهم العديد من المساعدين الذين قدموا له مساعدة كبيرا، وكان متأكدا من فشل مشروعه لو لا التحالف الذي عقده مع جمهورية تلاكسكالا. و بمجرد اتمامهم لغزوهم، أظهر المستعمرون وجههم القاسي و المتوحش. لقد كان الأهالي يظلون مكبلين

للعمل لصالح أسيادهم الجشعين. وحدث نفس الشيء بالبيرو، أين تمت معاملة شعب ضعيف ولطيف معاملة جائرة من طرف قطاع طرق، ذبح بعضهم بعضا في الأخير من أجل تقاسم الغنائم. في الشيلي، وجد الاسبان سكانا محاربين وأكثر صلابة، فتنازعوا معهم على الأراضي، وأجبروا أمامهم على التراجع واللجوء الى الجبال أين استمروا حتى أيامنا هذه في اعطاء ضربات مدمرة وقاتلة للمستعمرات الأوروبية، من آن لآخر.

و انه لمن السعادة أن تحول أنظارك عن مشاهد تعيسة وكثيرة، لتنقلها الى المؤسسات الخيرية اليسوعية. هؤلاء رجال الدين المشهورون بألقاب مختلفة، أسسوا في البراغواي وكاليفورنيا مستعمرات هنيئة ومزدهرة، مشكلة كلها من السكان المحليين، وهذا باستخدام وسيلة وحيدة هي الطيبة، والاقناع، والاحسان والفضائل. وتمكن اليسوعيون من القيام بكل ذلك بواسطة الكلمة و الانجيل، أكثر مما قام به فاتحو العالم الجديد، بالسيف والمدفع.

المستعمرات الاسبانية بأمريكا كانت تكلف البلد الأم 34.500.000 جنيه، والآن، هي منفصلة عنها، بحيث أنها باعتزازها الغبي لم ترد الاعتراف باستقلالها، ولم يعد لها معها أية علاقات تجارية. هذه العلاقات، وعندما كانت موجودة، كانت تكسب الجمارك الاسبانية منها كفوائد سنوية 20.000.000 جنيه.

ولن نتطرق الى المستعمرات البرتغالية في البرازيل، فقد سارت على خطى الاسبان. وهناك أيضا استخدم اليسوعيون الانسانية والحكمة مكان الظلم والعنف في المستعمرات التي أقاموها.

المستعمرات الفرنسية.

لقد قلنا في الكثير من الأحيان أن الفرنسيين لم يكونوا يعرفون كيفية الاستيطان. وهذا التأكيد وللأسف، صحيح. هذا لا يعني انهم ليسوا قابلين لتعلم ذلك. فمن كل المستوطنات التي قاموا أو حاولوا اقامتها في أمريكا، سنتكلم عن تلك التي بأمريكا الشمالية لأنهم وجدوا أنفسهم في احتكاك مع السكان المحليين.

في عهد شارل التاسع، تم انشاء مستعمرة صغيرة بفلوريدا، تحت اشراف الأميرال دوكوليني de Coligny ، ولم تزدهر بتاتا، لأن الحكومة اهملتها نظرا لاهتمامها بظروفها الداخلية المحرجة، وتم تدميرها كليا بعد ذلك من طرف الاسبان الذين كانوا يخشون أية منافسة ممكنة.

في سنة 1534، اكتشف جاك كارتي Jacques Cartier كندا، أين وضع صاموئيل دوشيلانSamuel de Champlain البنى التحتية للكيبك سنة 1608. هذه المستعمرة الثانية لم تزدهر كذلك لأنها كانت تحت سطوة الاحتكار، وكذا فإن الفرنسيين أرادوا احتلال الكثير من المواقع، ما جعلهم ضعفاء على العموم. وفي عهد لويس الثالث عشر انتزع منهم البريطانيون كندا، والتي أعيدت إليهم فيما بعد سنة 1631 بموجب اتفاقية سان جيرمان. و بعيدا عن تصحيح الذات من التجارب العابرة، وقعوا في نفس الخطأ مرة ثانية، وكانت كل مواقعهم الصغيرة متناثرة على مساحة واسعة وغير متصلة فيما بينها، وأصبحت مسدودة من طرف السكان المحليين. و لحسن الحظ

أن كندا لم تغب عن الأعين الثاقبة للويس الرابع عشر. هذا الملك قام بإرسال بعض القوات الى هناك ووضع حدا للاستغلال السيء للاحتكار. فبدأت المستعمرة تأخذا شكلا من اشكال النمو، وتم احتواء الأهالي. ولكن المحافظ دونوفيل الذي قام بتوقيف رؤساء الإيروكوا Iroquois غدرا بعد أن دعاهم الى اجتماع، واستأنفت الحرب بسرعة بوحشية أكبر من ذي قبل. وتم تدمير حقول المستوطنين على يد عدو كان ممتعضا بطبيعة الحال. واستغلت بريطانيا الفرصة نظرا لحربها مع الفرنسيين وتحالفت مع الإيروكوا، وكادت كندا أن تضيع مرة ثانية من يد الفرنسيين لولا تحلي السكان المحليين بالدهاء، ففهموا أنه من مصلحتهم المحافظة على توازن بين الفرنسيين والانجليز. ومنذ ذلك الوقت فإنهم يعيشون بوئام مع الفرنسيين الذين أطلقوا سراح رؤساء الإيروكوا المعتقلين. في سنة 1715، أي بعد أكثر من قرن عن تأسيس الكيبك، لم تكن المستعمرة تحصي سوى 2000 مستوطن، وأصبحوا 100.000 فرد في سنة 1758.

الغالو-كنديين كانوا عسكريين أكثر منهم مزارعين، كانوا يتجارون في الفراء. وللحصول على هذه المادة بأحسن الأسعار، كانوا يصطادون بأنفسهم الحيوانات التي تتوفر عليه. وكانوا يجدون متعة كبيرة في هذه الحرفة، لدرجة أن بعضهم لم يعد يرغب في القيام بعمل آخر. وذهبوا للعيش مع الهمج وتنازلوا عن الحياة المتحضرة. وبهذا توطدت العديد من الروابط بين الكنديين والمستوطنين الذين أصبحوا أكثر استعدادا للنزول الى مستوى الهمج. بعد استئناف الحرب

الجزء الثاني، 10.

بين فرنسا وبريطانيا، حارب الكنديون بإصرار وشجاعة مع حلفائهم، ولكن وجب الرضوخ للقدر في الأخير. فقد ضاعت كندا من أيدي الفرنسيين للأبد سنة 1763. هذه المستعمرة كانت في تلك الفترة مكلفة جدا بالنسبة للبلد الأم، ما أدى إلى إدخال سوء الاستغلال الفاحش والإفلاس. المصاريف التي كانت تقدر سنة 1729 بـ 400.000 فرنك سرعان ما ارتفعت الى 2.500.000 فرنك. وظلت في ارتفاع مستمر طوال تلك الفترة، حتى وصلت سنة 1758 الى رقم هائل هو: 27.000.000 فرنك. وكان الناتج الوحيد للمساهمات يقدر بـ 200.00 فرنك.

المستعمرة التي انشأها الفرنسيون بمنطقة آكاديا المشابهة لتلك بكندا، تم التنازل عنها لبريطانيا بموجب معاهدة أوتريش.

لويزيانا كانت مأهولة بمستوطنين سويسريين وألمان، أرسلتهم شركة الميسيسيبي الشهيرة. وبما أن لا شيء كان محضرا لاستقبالهم أو لتمكينهم من العيش، فقد ماتوا من الحزن والعوز. و لأجل تعويضهم، تم انتقاء آخرين بدلهم من السجون والأماكن السيئة بالبلد الأم، وكان هذا شيئا فضيعا، ومن كل الجوانب داخل المستوطنة.

في سنة 1731، توقف الاحتكار وبدأت المستعمرة بالازدهار قليلا، فقامت الحكومة بإرسال جنود متفرغين من الخدمة للإقامة هناك، ووزعت عليهم الأراضي وقدمت لهم تسبيقات. ولكن الفرنسيين وقعوا في لويزيانا في نفس الخطأ المقترف بكندا، وهو التوسع كثيرا، حيث أرادوا احتلال بلد في مساحة تمتد على 2500 كلم عن طريق 7000 رجل.

المستعمرات البريطانية في أمريكا الشمالية.

كان والتر راليت، أول انجليزي فكر في استقرار أبناء بلده على سواحل امريكا الشمالية. أسس سنة 1584 شركة تحصل لأجلها من الحكومة على حصرية استغلال كل البلدان التي تقوم باكتشافها في تلك القارة الشاسعة.
أول مستعمرة تم انشاؤها في نفس السنة كانت بخليج رُوينوك الذي هو الآن جزء من ولاية كارولينا. البريطانيون تصرفوا جيدا ومنذ البداية مع السكان المحليين في البلد، مما سهل من استقرارهم. ولكن سرعان ما غيروا من طريقتهم تجاههم، فتمت مهاجمتهم والقضاء عليهم كلهم تقريبا. فأعادت الشركة ارسال مستوطنين جددا عام 1589، وهم 115 فردا من الجنسين. وكانت هذه بداية أمة عظيمة.

مستوطنة رُوينوك كانت منسية تقريبا عندما قرر زيارتها غوزنولد Gosnold، وهو أحد المساهمين بالشركة. انطلق عام 1602 ولكنه تجاوزها أكثر نحو الشمال فأخفق، ووصل الى سواحل الماساشوست، وقام هناك بصفقات مربحة مع السكان المحليين في مجال الفرو، وعاد إلى موطنه للإعلان عن اكتشافه. ولكن الشركة التي كان ينتمي اليها رفضت التورط في مستعمرة جديدة، فتم انشاء شركة جديدة لاستغلال هذا الموقع فأصبحت هناك شركتان.
و بما أن كافة قارة امريكا الشمالية كانت تدعى فرجينيا، على شرف الملكة إليزابيث التي كانت تعتبر كالعذراء. فكان أن سميت الشركتان كالتالي: الأولى "شركة فرجينيا الجنوبية" والثانية "شركة فرجينيا الشمالية".

الجزء الثاني، 10.

هاتان الشركتان لم تعرفا نجاحا كبيرا. عام 1614 لم تكن المستعمرتان تضمان سوى 400 شخص، والتي كان من الممكن أن تهزل أكثر لولا أن الاضطرابات التي حدثت بانجلترا ملأتها باللاجئين. فعام 1621 تعب العديد من المشيخيين البروتستانت الانجليز، الذين أجبرهم اضطهاد حكومة شارل الأول على البحث عن ملاذ بهولندا، من عدم حصولهم على موطن، فاشتروا امتيازات بـ"شركة فرجينيا الشمالية"، و ذهبوا للاستقرار بالماساشوست. وتبعهم عدد كبير من أتباع نفس الديانة ، وخلال سنوات قليلة أصبحت هذه المستوطنة قادرة لوحدها على انشاء مستعمرات جديدة قامت بها في هامبشاير أو الكونكتيكت وبرودايسلاند.

لقد سادت، ولمدة طويلة في هذا الجزء من أمريكا، خرافات تافهة، إذ ظهر أن المشيخيين لم يهاجروا من أوروبا أين تم اضطهادهم سوى ليصبحوا طاغين بدورهم. وتم حظر كل الطوائف المخالفة لطائفتهم. وحتى القرن الثامن عشر، بقيت تشريعات هذا البلد تحافظ على ذكرى اجراءات مروعة لا معنى لها، بخصوص جرائم مزعومة عن السحر، وهو تباعد مخزي للتفكير الانساني الذي لم تكن قد عرفته الكنيسة الكاثوليكية في ذلك الوقت. هذا البلد تم تسميته كما في أوروبا اسم انجلترا الجديدة (نيوانغلاند). والأقاليم الأربعة التي كانت تشكله كانت مستقلة عن بعضها البعض، وتتحد بالرغم ذلك للدفاع المشترك تحت لواء المستعمرة المتحدة. وكان يمثل هذا الاتحاد مجلس نواب لكل اقليم.

سلوك المستعمرين في نيوانغلاند كان قاسيا تجاه المواطنين، حيث ازدهرت المستعمرة، ويمكن وصفها بالشكل التالي: المشيخيون توجهوا اليها بحشود كبيرة، لأن روح الاستثناء التي تميز طائفتهم كانت هي نفس روح المستعمرة، وعمت الحرية المدنية الأكثر امتدادا، لأنها كانت من مبادئهم. كما كان يعم المكان كل ما هو خارج عن النطاق الديني: العمل، والعدالة، والأعراف الحسنة. لأن كل ذلك كان ما يزال من مبادئهم. وبكلمة واحدة، يمكن القول إن هؤلاء الطائفيين شكلوا فيما بينهم مجتمعا جد منظم وحكيم، لا يكون عنيفا ومستبدا سوى في علاقاته مع المجتمعات الأخرى. ولكي ينمو هذا المجتمع، لم يكن ينقصه سوى شرطان اثنان: قوة الجانب وضعف العدو. القوة تم الحصول عليها بالهجرة الكثيفة القادمة من أوروبا، و الضعف وجدته عند الأمريكيين الذين، ورغم شجاعتهم، فإنهم كانوا غير متحدين ولا يعرفون الأسلحة النارية التي استخدمت كل مهاراتها ضدها. في هذا البلد كانت المنشآت تتشكل محاذية لبعضها البعض، و كانت المؤسسات البعيدة و المعزولة ممنوعة.

عند وصول أفراد جدد، كان يجب الانتظار حتى يتوفر تجمع من ستين عائلة. وبهذا، يبدؤون ببناء كنيسة و تعيين قس و مدرّس. ليتم اختيار المكان الذي سيستصلحونه، و يكون دائما مجاورا للأراضي المأهولة بأوروبيين سابقا. وهكذا، تواصل التدفق المستمر لموجات جديدة على نيوانغلاند أمام ناظر السكان الأصليين. الذين كان يتم طردهم بقوة الى المناطق الداخلية. وهو ما

يد يشعل أحقادا رهيبة في القلوب، تتحول الى اعمال انتقامية فظيعة . فأثناء حرب التمرد كانت نيوانغلاند تضم 900.000 فردا.

في الوقت التي كان المشيخيون البروتستانت مستقرين في نيوانغلاند ، كان كاثوليك انجليز يؤسسون مستعمرة في ماريلاند، وهم الذين فروا كذلك من بلد أصبحوا فيه مضطهدين، لأن شارل الأول الذي كان مساندا لهذه الطائفة سرعان ما وجد نفسه مجبرا على التخلي عنها لصرامة القوانين التي تم سنها منذ الاصلاحات، و كانت مضادة للبابوية. اللورد بالتيمور كان مؤسس و حاكم هذه المستعمرة، و يمكن القول أنه مالكها، لأن الأراضي تم التنازل عنها له بموجب ميثاق من شارل الأول . لقد قام بتوفير ظروف جيدة للمعهودين اليه، وعامل السكان الأصليين بطريقة جيدة، و تعايش معهم في وئام، وينشر التسامح الديني التام في المستعمرة.

في سنة 1664، وتحت حكم شارل الثاني ، تمكنت انجلترا من الاستحواذ على بلجيكا الجديدة، و هي مستعمرة هولندية على ضفاف نهر هودسن جنوب نيوانغلاند، أعطاها شارل لأخيه دوق يورك فأخذت اسم نيويورك. هذا الأمير الذي حل بعد جاك الثاني، نشر هناك القليل من الحريات المدنية و السياسية، حتى كان الأوروبيون على وشك التخلي عنه عندما قرر أخيرا عام 1683 تعيين مجلس نيابي لحسم القضايا، و بما أن نيويورك كانت تحد من الجهة الشمالية لها الأراضي الكندية مباشرة، فإنها عانت الكثير من كل الحروب بين البريطانيين وبين فرنسا و حلفائها المحليين. و لم تضمن ازدهارها

سوى حين تمكن البريطانيون من الاستحواذ على كل المستعمرات الفرنسية عام 1760.

كانت حكومة نيويورك كحكومة نيوانغلاند ، معادية للسكان المحليين الذين تم طردهم أو محقهم. عرفت الزراعة فتورا لمدة طويلة، لأن جاك قدم تنازلات معتبرة لنفس الأشخاص، الذين، وعلى غرار الملاّك الكبار، كانوا يرغبون بالعيش في رخاء دون القيام بأي شيء، فكانوا يفرضون ظروفا قاسية على المزارعين.

النيوجرسي المحاذية لنيويورك كانت في البداية عبارة عن مستعمرة سويدية احتلها الهولنديون عام 1655، و قاموا بضمها الى بلجيكا الجديدة. وبما أن هذه الخيرة، وكما رأينا سابقا، كانت فريسة البريطانيين، فإن جرسي عرفت نفس المصير. قام جاك بالتنازل عنها لشخصين مفضلين عنده، لم تكن لديهما رغبة في استغلالها، فقاما بالتنازل بدورهما عن أجزاء كبيرة لمضاربين بالأراضي، لم يفكروا سوى بتحقيق مكاسب جمة بإعادة بيعها بالتقسيط. ونتج عن كل ذلك أن المنتجين وجدوا أنفسهم مجبرين على تحمل ثقل تلك الفوائد للحصول على الأراضي. و أخيرا ابتعد المضاربون المتتاليون عن البلد ونقلوا تجارتهم لمكان آخر سنة 1702. فقد رأوا أنهم قد أخطأوا في حسابات جشعهم الأعمى، فتنازلوا عن كل مزاياهم للحكومة مقابل شيء بسيط. وهنا، بدأت الحكومة بتوزيع الأراضي مقابل شروط معقولة؛

بلد، بدأت المقاطعة ترى نوعا من التقدم رغم وقوع حرب الاستقلال، ولم يكن بها سوى 16000 ساكن.

أشهر المستعمرات البريطانية بأمريكا الشمالية تدعى بنسلفانيا، كما سماها غيوم بان Guillaume Penn مؤسسها. هذا الرجل كان من الشخصيات التاريخية القليلة التي تركت للتاريخ سمعة عرفت كيف تستحقها، فقد كان ابن أميرال بريطاني مات و هو يدين للدولة بمبالغ مالية معتبرة. و بما أن الحكومة لم تستطع تسديد المبلغ المطلوب، تنازلت لابنه عن تلك البلدة التي أصبحت منذ ذلك الحين تحمل اسمه. وصل الى هناك سنة 1681 مع 2000 شخص من طائفة الكويكرز (جمعية أصدقاء الدين)، و بما أن تنازل الحكومة عن أراضي بلد مأهول هو سند كافي لملكيتها ، فإنه قام بشراء الأراضي المناسبة لإنشاء المستعمرة من السكان المحليين. سعر البيع كان، من المؤكد قليلا، لكنه يبقى دائما بمثابة تكريم لحقوقهم. وعندما أصبح بان سيد الأراضي، قدم بتنازلات بأسعار منخفضة و بطريقة تجعل المتعاملين المالكين ثابتين لأنه لم يرد أتباعا متنكرين باسم مزارعين. و استبقى لنفسه ممارسة السلطة التنفيذية، و لكنه وضع الى جانبه ممثلية وطنية حقيقية و منظمة بشكل جيد. الحرية كانت مضمونة مثل الحرية السياسية و كل الطوائف أعلنت حرة دون الهيمنة على أي واحدة منها. مظاهر العدالة تم تقليصها إلى الحد الأدنى الضروري، و مهنة المحاماة كانت محظورة. بدأت العدالة تنمو بشكل مميز في المستعمرة التي استقرت على

قواعد من الأعراف الحسنة. و لكنها لم تظهر شكلا موحدا و مدمجا بشكل كاف، لأن المستعمرات لم تكن مجمعة مثل ما يوجد في نيوانغلاند. بان الذي كان دوما يعامل السكان المحليين جيدا، كان يظن أن مستوطنته لم يكن لها ما تخشى منه و أنه يستطيع دون انزعاج الانتشار في البلاد، و لكنه أهمل أن يولج لديهم حكومة، كما أهمل أن يتحد معهم بزيجات حيث لم يكن هناك لا اندماج و لا ضمانات. و من هذه الوضعية، نتجت فيما بعد هجمات جزئية من القبائل الامريكية، جعلت من الصعب التصدي لها مع انتشار المزارع. و من الواجب القول إن البنسلفانيين كانوا أغلب في الوقت عدوانيين: ففي 1763 هاجموا و قضوا على قبيلة الكونيستوغوس، من دون أي تحرش من هؤلاء البائسين. كان تعداد سكان بنسلفانيا في فترة حرب الاستقلال 350.000 مقيم.

سنة 1606، تم استقرار البريطانيين في البلد و حافظت على اسم فرجينيا حصريا. اللورد دولاوار Delaware الذي كان يمارس مهام محافظ مؤقت، قام بالكثير من الأشياء الحسنة، ومع هذا بقيت المستعمرة دون تطور يذكر، لأنها كانت تحت استعباد المزايا الحصرية للشركة المؤسسة سنة 1584 من طرف والتر رايت. هذا الوضع انتهى مع ارتقاء شارل الأول لعرش بريطانيا . فقد اشترت المملكة كل أسهم الشركة و قامت بالتنازل عن الأراضي مقابل أتعاب سنوية تقدر بـ2 جنيه و 5 ستنات لكل مئة فدان. هذا التغيير السعيد للأمور جلب نحو فرجينيا كمًا هائلا من السكان، مشكلا من كل المستائين في البلد الأم

من الحكومات المتتالية طوال القرن السابع عشر. في أمريكا، نسي كل هؤلاء الأفراد ورغم آرائهم المختلفة، كل أحقادهم السابقة و عاشوا مع بعضهم البعض في وئام تام، و لم يفكروا سوى بتطوير بلادهم بالتعايش المشترك. سلوك سكان فرجينيا نحو السكان المحليين لم يكن لا انساني والا سياسيا، ورغم ذلك كان هؤلاء على تجاوب مبدئي معهم، حتى انهم عرضوا بناتهم عليهم للزواج، .الفرجينيون رفضوا ذلك باستعلاء، على الرغم من أنه كانوا من دون نساء في السنوات الأولى. الاحتقار هو الشيء الوحيد الذي لا يسامح عليه السكان المحليون بسهولة، فحقدوا على جيرانهم الجدد، و حدثت حروب دامية و اعمال عنف و مجازر كان بالإمكان تجنبها بتقبل الاندماج الذي عرضه الأهالي، مستوطن واحد قبل بذلك، و تزوج بنت أحد رؤساء القبائل. دوام هذا التحالف كان يكسب المستعمرة فوائد جمة. وباختصار، كان من المفروض في هذه المستعمرة القيام بما تم به في المستعمرات الأخرى، وهو طرد الأهالي أمامنا. كان الهمج والأوروبيين ملزمون بالتخلي عن رؤيتهم كرجال حقيقيين. الهمج كانوا يتفوقون على الفرجينيين في الكثير من الأحيان، لأنهم قاموا بنفس خطأ البنسلفانيين، وهو تباعد مزارعهم. وقت حرب الاستقلال كان يسكن فرجينيا 650.000 ساكن.

مستعمرة الرُوينوك التي تكلمنا عنها في بداية هذا المقال لم تتطور بعد. وفي سنة 1663 أعطى شارل الثاني ملكية كارولينا الشمالي لوردات استقروا بها. قام

الجزء الثاني، 10.

لوك ekoL بكتابة الدستور الذي لم يكن من بنات أفكاره بالتأكيد. و فيما عدا ذلك، ما الذي كان بإمكانه فعله مع ثمان من كبار الملاَّك الذين كانوا يريدون استغلال البلاد حصريا لصالحهم؟ هذا عيب جذري ومدمر لكل تقدم، وتم الشعور به مرارا في كارولينا، حتى أنه في سنة 1728، قرر البرلمان إعادة الملكية الى الدولة، مع تعويض أصحاب الحقوق، وهم المالكين الثمانية. و بعدما أرجعت الحرية للبلد بدأت بالتقدم بخطى متسارعة. تم تقسيمها الى اقليمين: شمالي وجنوبي. وكان يضم وقت حرب الاستقلال 600.000 ساكن. كان سكان كارولينا مثل جيرانهم بفرجينيا غير عادلين مع الأهالي، ونتج عن ذلك حرب طويلة كانت نهايتها ابادة القبائل أو انسحابها الى خارج أبالاتشي.

جيورجيا الواقعة جنوب كارولينا كان لها نفس مصير هذه البلدة، و لكنه تم تأهيلها فيما بعد. أولى المستعمرات كانت سنة 1733. البلد لم يتطور منذ البداية، لأنه كان الملكية الحصرية لبعض المضاربين الجشعين. و تم تحريره من هذه التجارة حتى تمكن كالبقية من استقبال شعوب بريطانيين، فرنسيين، ألمان، اسكتلنديين وسويسريين.

في سنة 1763 تنازلت اسبانيا عن فلوريدا لبريطانيا، مما جعل ممتلكاتها تمتد حينها من بحيرة سان لوران الى الميسيسيبي. وضعت بريطانيا بفلوريدا عسكريين متوقفين عن الخدمة ومستوطنين من أجزاء مختلفة من أوروبا حتى من اليونان.

الجزء الثاني، 10.

في الوقت الذي أعلنت فيه أمريكا استقلالها، كانت المستعمرات المختلفة التي قمنا بتعريفها مقسمة إلى صنفين، بحسب شكل حكومتها: صنف المستعمرات التي كان الملك يعين محافظها، وتدعى مستعمرات ملكية، وهي الأكبر عددا. والصنف الثاني كانت حكومته تدعى مالكة، أي أن تلك الأقاليم كانت من الأصل ملكيات خاصة، أين حافظ ورثة المالك المؤسس على حق تعيين المحافظ، ويوجد من هذا الصنف مستعمرتان اثنتان فقط في فترة الثورة، هما: بنسلفانيا وميريلاند. وما عدا ذلك، كان يوجد في كل مستوطنة ممثلية وطنية وكلها كانت تتمتع بحرية سياسية ومدنية كبيرة.

بالنظر إلى الملخص السريع الذي طرحنا فيه التأسيس والتطور، فمن السهل استنتاج أن المستوطنة لم تكن تعتمد في شيء على البلد الأم أو العاصمة، بما أنها كانت منشأة من طرف المستوطنين أنفسهم. وهذا ما يفسر كذلك لم كانوا يتمتعون بكل هذا القدر من الحرية. فما الذي يمكن مطالبته من أشخاص لم نقدم لهم شيئا، والذين خاطروا بما لديهم للاستقرار بأمريكا؟ بالإضافة إلى ذلك، كان هذا من الأشياء التي لا نفكر فيها حتى في انجلترا، الحق الذي يملكه الأفراد المترابطون بمصلحة مشتركة بتسيير مسائلهم كما يحلو لهم، ولا نفكر حتى في مهاجمة ذلك، أو منع حرية تنفس كل واحد. وما نتج عن ذلك هو أن المستعمرات البريطانية تحمل معها مبدأ تواجدها، ولا تحتاج إلى الحصول عليه مع كل بريد وارد من البلد الأم. هذه أفضلية كبيرة، مع اقترانها بالتزايد المستمر لأفرادها بعد الثورات في البلد الأم، مما يفسر التطور السريع الذي

شهدته مستعمرات أمريكا الشمالية. شهدت بعض الاقاليم عددا معتبرا من الوفيات، وهو عامل كان سببا كافيا في تعطيل نموها لبعض الوقت. أريد التكلم عن مزايا الشركات و مالكي الأقاليم التي كانت قوة الأشياء العامل الوحيد لاندثارها في بعض المواقع. وفي مواقع أخرى تم وضع حد لها بحكمة من طرف الحكومات. و هو ما ترك للأجيال القادمة دروسا عظيمة، ومنها أن التنازلات الممنوحة لشخص واحد هي من الأشياء الأكثر ضررا بالنسبة لأي مستوطنة، فلا يمكنها أن تتطور الا بالعمل الحقيقي، و ليس عن طريق التكهنات. و أرجو من القارئ أن لا تغيب عن باله هذه الحقيقة الكبرى.

و بما أن مبادئ السياسة البريطانية لم تكن تسمح لها بمناقشة كمية محددة من الحرية الممنوحة لمستعمراتها، إلا أنها تصرفت بشكل يحمي مصالحها التجارية، فقامت بمعارضة أي علاقة مباشرة لهذه المستعمرات مع الشعوب الأخرى. لقد أرادت أن تعبر كل تجارة هذه البلاد على عبرها. هذا الغرور، وإذا ما طبق على بلد لا يملك مناجم المعادن النفيسة مثل أمريكا الجنوبية، كان سيجلب الافلاس، لولا أن عوامل أخرى ساهمت في ازدهاره. و بالرغم من ذلك، فإن هذه التجارة المجبرة مع البلد الأم فقط كانت سلبية لأمريكا حتى أنه في فترة الثورة أصبحت تدين للبلد الأم بأكثر من مائة مليون.

هذه الثورة قامت بسبب بعض الضرائب التي أرادت العاصمة فرضها

في أمريكا. الاعانات التي كانت تمنحها المستعمرات للعرش كانت دائما تعتبر كتبرعات طوعية مقدمة بحرية من ممثلي كل ولاية. و كذا طموح البرلمان البريطاني الى فرضه بنفسه للمستعمرات، بدا ظالم بدرجة عالية، ونتج عن ذلك صراع بين المستعمرات والعاصمة يعرف الجميع مخرجها.

و منذ استقلالها، اكتسبت المستعمرات البريطانية نموا هائلا بعد اتحادها في كونفدرالية تحت اسم الولايات المتحدة الامريكية. عدد السكان ازداد أكثر من عشرة أضعاف، وهو أحسن علامة من علامات التقدم الإيجابي. تحصلوا على لويزيانا التي تنازلت لهم عنها فرنسا بموجب اتفاقية سنة 1803، و على الكثير من المستعمرات الجديدة المتمركزة بين الأبالاتشي و الميسيسيبي مثل الأوهايو ،ليلينوا..الخ. لقد تواصل طرد السكان المحليين و لكن الحكومة الامريكية قامت بهذا الطرد بنوع من المساواة، كانوا يقدمون رشاوى لبعض رؤساء القبائل الأكثر نفوذا ليتحصلوا على اتفاقيات يلتزم فيها السكان المحليون بالتخلي عن المكان مقابل بعض المال.

و بهذا، فإنه وفي سنة 1827 التزمت العشائر التي كانت تقطن البلاد المحصورة بين جيورجيا و آلاباما الجديدة بالهجرة الى الضفة اليمنى للميسيسيبي. و في شمال ولاية نيويورك تم دفع السكان الأصليين عام 1832 الى خارج الحدود التي منحت لهم في الأول.

سكان الولايات المتحدة كانوا يتزايدون بشكل رئيسي بنشر جنسهم، الذي كان نشيطا جدا في بلد المستقبل فيه مضمون. كما كان يصل الى البلد

العديد من المهاجرين الأوروبيين خاصة من سويسرا وألمانيا. كان يتم جذب المهاجرين من طرف مالكين كبار، لم يكن لديهم سواعد كافية لاستغلال أراضي شاسعة، في بلد كان سهلا الحصول فيه على أراض، يمكن لكل واحد لديه رأسمال بأن يستخدم كل الطرق لاستقدام أناس من تلك البلدان البعيدة، والذين جعلهم الفقر تحت تصرفهم، وعندما كان هؤلاء البؤساء يصلون سعيدين الى امريكا ، لم تكن لديهم أي مصادر دخل، مما يجبرهم على المرور مثلما يريد أصحاب الأراضي، والذين يمضونيجعلونهم يوقعون على التزامات تقضي باستغلال حرفتهم لمدة معينة من طرف السادة الجشعين. وبعد أن يضيّعوا أجمل سنوات عمرهم تحت عبودية حقيقية، يتلقون بعض المساعدة ويبنون بذلك حياة مستقلة. هؤلاء العبيد المتطوعون كانوا سلعة تجارية قابلة للبيع، و يتنازل عنها او يتم استبدالها كأي ثور أو حصان[1] . وبهذا الشكل، أسس الجمهوريون الأمريكان عندهم نوعا ما تجارة الرقيق الأبيض. تجارة الرقيق الأسود كانت محظورة، ولكن استعباد رجال من هذا اللون كان موجودا في جميع المحافظات الجنوبية، و بما انه كان ممنوعا وضعهم للبيع، فسينتهي بهم المطاف اذن بالاختفاء عن الوجود. لو علم هؤلاء المزارعون البؤساء، الألمان والسويسريين ،المصير الذي كان ينتظرهم بأمريكا، لكانوا أقل رغبة في الذهاب، و لكن الحكومات كانت تخفي عنهم ذلك و تتركهم في جهلهم، فمن مصلحتها التخلص من

---

(1) في محادثة لي مع رجل عمل لمدة طويلة كمزارع بامريكا، تطرقنا لمسألة من بين أخريات عن صانعي ساعات سويسريين، تعاقدوا معه بالتزام من هذا النوع، وعملية بيع مع أرباح جاءته فرصة القيام بها في ظروف معينة. ولا أدري ان كان الخطأ قلة انتباه مني او وضوح شديد منه، حيث لم افهم في البداية ما هو موضوع البيع فسألته: أحقا، فأجابني: كان الساعاتيان ملكا لي.

الجزء الثاني، 10.

أشخاص هم عبء في بعض الأحيان على البلديات.

و حتى نختصر الأمور، سنقول أن النظام الاستعماري بأمريكا الشمالية كان مبنيا على:

- الحرية المدنية والادارية.
- الطرد المتتالي للسكان الأصليين.
- استغلال الأرض.

كانت الحرية المدنية والادارية شيئا ايجابيا، أو بالأحرى انبثاقا إلزاميا لمبادئ وعادات العاصمة أو البلد الأم.

وأمكن الطرد المتتالي للسكان الأصليين حدوث ذلك، لأن المستوطنين كانوا يملكون الأسلحة النارية، والسكان المحليون كان لهم قارة يمكنهم الترحال فيها، ولم يثابروا في الدفاع عن أراضيها التي كانت تنتزع منهم على، سواء بالقوة أو بالاحتيال.

وكان استغلال الأرض فوريا، وسهلا، وخصبا أيضا، لأنه لم يسجل نقص في السواعد، فأوروبا أرسلت لهم الكثير من المجندين للعمل فور حصول الاضطرابات التي هزتها منذ الظهور الأول للمستوطنات. بمعنى ذلك أن المستعمرات البريطانية بأمريكا اكتسبت كلها حظوظ النجاح. و مع القليل من البغض للسكان المحليين، كان بالإمكان استجماع قوى هذا الدم الأوروبي من خلال التحالف معهم، فلقد فقد هذا الدم قوته، ربما في أمريكا العجوز أكثر مما كان عليه في اوروبا، لأن الشعب الأمريكي، وبالرغم من طموحه نحو الكمال، فهو ليس شعبا مفعما بالحيوية. كان بإمكان بريطانيا اخضاعه من

دون الدعم المقدم من فرنسا التي أتت به من اسبانيا، والتي كان تأثير اسمها بأمريكا الشمالية سيمنع جميع قبائل السكان الأصليين من الاتحاد ضده. فلم يكن يتوجب، في هذه الفترة، سوى وجود بعض الرجال، مثل الباسل واللامع تيكومسيه Técumseh، الذي ثار بضربة واحدة لكل الانتهاكات التي تعرض لها السكان الأصليون. هؤلاء الرجال يمكن أن يظهروا يوما ما. الهنود المطرودون الى ما بعد نهر الميسيسيبي و الى غرب البحيرات، يمكنهم الاتحاد في شكل أمة وتأسيس حضارة أكثر صلابة، الى درجة لن تكون فيها عرضة للخطر، كتلك التي تعرضت للقمع والطرد. وهي الأمنية التي أبداها أحد الرؤساء الشباب للكريك Crecks مام أحد رفقاء لافايات خلال رحلته الأخيرة لأمريكا. واذا توج المستقبل هذه الأمنية، فلم لا يكون الهنود في هذه القارة الجديدة مثلما كان عليه العرب في القديمة؟

.11

مبادئ يجب أن تتخذ كأسس لاستقرارنا بأفريقيا.

بعد عرضنا في المقال السابق لمختلف طرق الاستيطان والغزو، لنرى إن كان في متناولنا ايجاد الطريقة المناسبة، لتستخدم في إفريقيا التي نحتل بعض مناطقها. ولنضع للحظة، جانبا، اعتبارات العدالة والأخلاق، ولا نفكر في المسألة من وجهة نظر مادية، ولنفرض أن فرنسا تملك نية فرض سيطرتها بأي ثمن في إفريقي. فكيف الوصول الى ذلك؟

هل يفترض بها أن تبيد السكان المحليين أو تفرض عليهم الاستعباد، كما فعل الإسبانيون في امريكا؟ اذا ما كان هذا تفكيرها فإن كل قوتها ستنهار في محاولات تطبيقها. فالعرب لا يشبهون تماما السكان البدائيين لأمريكا الجنوبية، والذين كانوا عبارة عن مخلوقات معزولة وضعيفة. فالعرب رجال بواسل وأشداء، وهم لا يخشون أسلحتنا، وإذا ما دُفعوا دفعا نحو اليأس فسيصبحون مخيفين.

و هل يمكننا انتظار طردهم نحو المناطق الداخلية و اجبارهم على اخلاء المكان لصالحنا؟ لا يوجد أمل في ذلك، تمكن نظام القمع من النجاح في أمريكا

الشمالية، لأن سكان هذه البلاد المحليين كانت وراءهم مساحة مقدرة ما بين 7500 الى 9000 كلم، وتمكنوا، مع ذلك من التراجع دون خوف من أن تنقصهم مساحات الأراضي. لكن العرب يعرفون تماما أنه وعلى بعد 250 كم جنوبا، سيجدون بحرا من الرمال، ليست لديهم رغبة الذهاب للاندفان فيه. فهم يدافعون عن أراضيهم بنفس وحشية الدفاع عن حياتهم وحريتهم. واذا ما حدث و أن أدت النشاطات المستمرة لكل تفوقنا عليهم الى طرد بعض القبائل فإنها ستذهب للرفع من وسائل المقاومة التي سيتوجب علينا محاربتها أيضا. وبالاندماج معها بشكل ما، فإن كل خطوة نقوم بها ستجعل قوات عدونا تتركز أكثر، وتصعب من الخطوات التي سنقدم عليها. وبما أن العرب كيّسون وأذكياء، فإن هذا الصراع المطول سرعان ما سيفتح لهم أسرار علومنا العسكرية. وهكذا اذن، سنجد أنفسنا أمام أمة لم تجعلها انتصاراتنا العابرة سوى أكثر قوة وتوحدا، وهي التي ستحاربنا بمميزاتها الطبيعية، مضافة إلى ما تمكنت من تقليده، وسنكون سعيدين اذا لم ينضم اليها العديد من المنشقين. فنكون بذلك قد صنعنا على أبواب مستعمراتنا عدوا رهيبا بقدر ما هو ماهر. وهو ما يتوجب علينا تجنبه.

و بما أنه لا يمكننا محق أو طرد العرب، فهل يتوجب علينا تسييرهم كحكام دون الاستقرار عندهم كمستوطنين، كما فعل الانجليز تجاه الهندستان؟ هذا النظام الذي لن يكون تطبيقه سهلا، سيكون دون فائدة

بالنسبة لفرنسا. فهو يوفر لانجلترا الفوائد التي المتنازع عليها، لأنها تطبقها في بلد يملك عناصر تجارية هائلة، ومستقلة عن الأوروبيين، ولكنه سيكون نظاما مفلسا في بلاد البربر أين من الممكن معرفة أن أغلب السلع يجب أن تطلب من الأرض المزروعة بأياد أوروبية، نأو على الأقل بمناهجنا، مما يجبرنا على الاستقرار بطريقة مخالفة للانجليز في بلاد الهند.

و بعد انتهائنا من هذه النقطة، لا يبقى لنا سوى الاستقرار وسط العرب كحكام، وكمستوطنين. ولكن، هل يمكننا ممارسة سيادتنا، حتى نضعهم بسهولة تحت نفس التسمية، أو بالأحرى تحت نفس الحكومة كالفرنسيين؟ أو تكرس للأبد تميز عرق على عرق آخر؟ هذا النظام الأخير كان أسلوب العرب في اسبانيا، وأسلوب الأتراك في اليونان، وفي كل مكان، عيوب خطيرة مرفقة بذلك، فليس هناك سوى اليهود الذين لم يتعبوا من أن يكونوا في مكانة أدنى ومهينة. أما النظام الأول فكان هو أسلوب الفرنكيين في بلاد الغال، مما وفر ميلاد أمة هي الأكثر تماسكا، والأكثر وحدة على الكرة الأرضية، إنها الأمة الفرنسية. إنه نظام الاندماج العقلاني، الوحيد الذي يوفر نتائج دائمة، لأنه النظام العادل الوحيد. الغزاة الذين يتبعونه، أدوات تستعملها العناية الإلهية لتعديل المجتمعات البشرية دوما لصالحها، أما الباقي فهي نكبات عابرة. وهذا يعني دوما أنه يتوجب علينا تبني هذا النظام الأكثر فائدة والأكثر عدلا.

كيف ستقوم بتطبيقه؟ هنا تكمن الصعوبة الكبيرة و لكنها ليست مستحيلة التجاوز. فإذا كانت فرنسا قادرة على إرسال خلال بضع سنوات 50000 رجل لأفريقيا، فسيكون من السهل احتلال كل المواقع المهمة، من تلمسان الى قسنطينة، وكذا تشكيل بلديات، والهيمنة بهذه الطريقة على شعوب خاضعة بكل سهولة إذا لم تجد نفسها مهددة، لا في حريتها ولا في ثروتها. سنعطي إذن، لمختلف القبائل العربية، حقوق المستوطنين الفرنسيين كمكافئة عن حسن تصرفهم واحترامهم للقوانين وتطورهم في أعمالهم الزراعية، وبالعيش وسطهم على محمل المساواة، وبتقبلهم وسط عائلاتنا، وبالاندماج معهم، وبمقاسمتهم أعمالنا ومتعتنا، فإننا سنجلب التمازج المرغوب. فالنقطة المهمة ستكون بتشجيع التحالفات المختلطة وإضعاف الأحكام الدينية المسبقة دون تدمير للمعتقدات. وهو شيء ممكن تحقيقه.

أكبر حاجز يعترض هذا الاندماج سيأتي ربما من الأوروبيين. فالتجربة تثبت، للأسف، أن الأفراد المستقرين في المستوطنات لهم حيطة من السكان المحليين أكثر من الحكومات نفسها، حتى الأقل تفتحا منها. ولقد رأينا أمثلة مؤسفة في المقال السابق. وهذا يعني تواجد أحد ما على رأس أغلبهم، ممن خرجوا من مواقف صعبة وأصبحوا جشعين عند وصولهم هذا البلد. إنهم بالإضافة الى ذلك، قليلو العلم عامة ويحسون بالنشاط، وما من شيء له اعتزاز كبير سوى الجهل. فيجب أن نراعي أكثر تلقين

الأوروبيين، على أن نعلم السكان المحليين، وان نفهمهم جيدا أن الاندماج سيكون لصالحهم بقدر ما هو في صالح المحليين، وأن لا يتم قبول سوى أولئك الذين تخلوا عن كل أفكارهم المسبقة نحو الأعراق، في الوظائف العمومية. ومع هذا، فمن بين جميع الاوروبيين، يوجد لدى الفرنسيين استعداد مؤسف، نحاول محاربته، ولكنه الأقل ترسخا.

ومن جانب السكان المحليين ما يبدو أنه أكثر ما سيعارض الاندماج، هو الأعراف الدينية، لكنه، ولحسن الحظ، يوجد ببلاد البربر رجال دين مبجلين، هم المرابطون الذين هم على العموم رجال سلم ومصالحة. فيجب الاستفادة من هذه الميزة[1]. العديد من هؤلاء الرجال مستنيرون ومثقفون بالقدر الكافي للفهم أحسن من المسيحيين، بأن المحمدية (ليست في الأخير سوى طائفة من المسيحية)، وإضافة الى ذلك، هل يوجد الكثير من المتدينين المسيحيين بيننا؟ من المؤكد أن العرب يعلمون أننا لا مبالون دينيا. وهذا يعد ضمانا لهم بعدم ازعاجنا لمعتقداتهم الدينية. وما تبقى لدينا من عقيدة لا تدهشهم كذلك، لأن هذا الإيمان تقدمي: هو معتقد شاتوبريان ودولاموني، فهي تتعاطف مع كل العقائد. إنها

(1) انه لمن المؤكد ان أشهر المرابطين لم يظهروا تباعدا عن المسيحيين. ويمكن العودة الى السير الذاتية لإيجاد ما ذكرناه عن بن عيسى و سيدي محمد. وفي قضية المقطع فان حياة الأسرى الفرنسيين اعتقت على يد مرابطين؛ وبعض الفارين من الفيلق الأجنبي عادوا إلينا لأنهم وجدوا انفسهم وسط العرب واكدوا لنا انهم وجدوا دائما المساعدة و الحماية عند المرابطين حتى حين ابدوا رغبتهم بالعودة الى المسيحيين.

هي التي ذكر الانجيل أنها ستقوم بتغيير أماكن الجبال، بمعنى صنع شعب واحد من بين كل الشعوب، وعائلة من بين كل العائلات ورجلا من بين كل الرجال.

أعلم أن نظام الإدماج سيقابل معارضين كثرا، ولكن، ما العمل؟ هذا قدر كل الحقائق المقيدة. ومع هذا، فإن فكرة خلق أمة شابة وقوية من كل العناصر التي تلتقي بالجزائر في الوقت الراهن، سواء كانت محلية أو دخيلة، من الذين يمكن أن يتدفقوا عليها، فهي فكرة عظيمة في حد ذاتها، ما يتطلب التوقف عندها للحظة. الرجال الأكثر تحيزا لا يتجرؤون على التطرق إليها مبدئيا، ويكتفون بإحالتها للطوباوية أو الخيال المثالي. ولكن، لم كل ذلك؟ فأمة مثل الأمة الفرنسية، تمكنت خلال بضع سنوات من أن تغير تواجدها السياسي والاجتماعي، لدرجة أن آباء آبائنا لن يتعرفوا على موطنهم لو خرجوا من قبورهم الآن. فهي أمة أدارت ظهرها بشكل عنيف لماضيها، حتى لم يتبق له أي أثر، فهل وجب عليها التضييق في حدود الإمكان في النظام الأخلاقي لدرجة الاقتناع بأنه لا يمكن إجراء أي تعديل في كونهم عربا! لنفترض أنه بعد خمسين سنة بعد هذا، سيوفرون لنا جنرالات لجيوشنا، أجهزة لقوانيننا، نوابا لمجالسنا التشريعية، ورسامين لورشاتنا، ألن يكون هذا التغيير أكثر إذهالا من ذلك الحاصل في فرنسا سنة 1780 و فرنسا سنة 1830؟ فكم من

أبناء همج البيريني، والأفيرون، والبروتان ... هم الآن من بين وجهاء مجتمعنا! فلم يظنون أن همج جبال الأطلس والمتيجة، لن يكونوا قادرين على الوصول الى هذه المراتب العليا؟ فلنتمنى أن ترى فرنسا في العرب أناسا تقدميين مثلنا، وتمد لهم يد المساعدة، ترفعهم الى صف الأمم بتبنيهم كأبناء لها. لكنها لن تصل الى الاندماج بمجرد إعلانها أنها تظنه حدوثه ممكنا، بل يجب عليها كذلك ان تفتح له الدروب. ومن أجل ذلك، لا يجب عليها الانتظار أن يقوم العرب بكل المساعي، فيجب عليها القيام بجزء من ذلك بنفسها. يجب أن تكون القوانين منطوية على متطلبات الدوائر المحلية، وأن تكون هناك امكانية تشكيل عائلات مختلطة حسب الأعراف المتواجدة في البلد، وأن تقترب تنظيماتنا القضائية والإدارية من البساطة العزيزة عند هذه الشعوب. وسنربح أكثر منهم بهذا التغيير.

أنا لا أعرف إن كنت أسيء الفهم، فكلما نهلت من دروس الماضي، وكلما أمعنت النظر في ملفات الحاضر والوقائع الحالية، وجدتني في النهاية أجمع بين كل احتمالات المستقبل، فإن ذهني يفيض قناعة بإمكانية حدوث الاندماج بيننا وبين العرب. و لكن، إن كنت تحت اغراء أوهام كاذبة، وإن كان وطني الأكثر اطلاعا، يعتبر ذلك مستحيلا، وبذلك لا تعمل شيئا لتحقيقه، فيتوجب عليها التخلي عن إفريقيا التي لن تكون في هذه الحالة سوى عبئا مزعجا لنا. لأننا اذا ما أعطينا للعرب تحمينا عن نفور الفرنسيين، مما يلغي أي تقارب أخلاقي

بين الشعبين، ونظرا لبسالتهم، فمن الواضح أنهم سيرفضون بالطبع الاعتراف كأسياد بمن رفضوهم كإخوة. بهذا، ستتولد بيننا وبينهم حرب مستمرة، ستكلف فرنسا الكثير من الدم والمال، من أجل الحصول فقط على بعض النقاط التجارية الضعيفة على الساحل، والتي ستكون مجبرة على التخلي عنها آجلا أو عاجلا، مثلما فعل البريطانيون بطنجة والاسبان بوهران. ومن هذا نستنتج أن نظام الادماج هو الوحيد الممكن تطبيقه وإن كان ذلك غير ممكن فيجب الرحيل، و خير البر عاجله.

و لنفترض مع هذا أنه يمكننا إجبار السكان الأصليين على التنازل عن المكان لصالحنا، هل نحن متأكدون من أن نحل محلهم؟ هل نحن في فترة تكون فيها الهجرات الكبيرة ممكنة؟ و هل الأسباب التي جعلت امريكا الشمالية آهلة بالسكان هي الآن متوفرة بأوروبا؟ وهل يجب علينا التنازل عن محاولة الاستفادة من الرجال الذين سنجدهم هناك، مع أمل تعويضهم بعناصر أكثر انصياعا إذا ما أردنا ذلك، والتي قد لا نتمكن من تجميعها؟ هذه بالتأكيد تساؤلات في الصميم. أعترف للحظة أنه سيكون من المستحب ان يكون لدينا في الوصاية أوروبيون فقط، لكن، هل هؤلاء الأوروبيون سيرغبون في المجيء؟

لن يأتوا الا اذا ما اضمحلت كل أسباب الحرب والدمار من المستوطنة، الا اذا ما عمّ السلام والنظام. ولن يعم السلام والنظام الا بعد ان نكون قد أسسنا البلد. ولا يمكننا تأسيس البلد إلا بالعناصر التي هي تحت أيدينا، وهذه العناصر تتمثل في السكان المحليين.

لقد تكلمنا عن 50.000 رجل لضمان هيمنتنا على نقاط الوصاية في نفس الوقت، وتحضير الأرضية لتطبيق النظام الوحيد الذي نراه مقبولا. فبونابارت أخضع مصر بأقل من ذلك، ولكن نهر النيل كان يعطيه جبهة ممتازة للعمليات، لا نملكها نحن هنا. فبـ 50.000 رجل سنضمن غزو كل البلاد تقريبا، دون إراقة للدماء، فالعرب اذا ما تم تهديدهم في كل الأنحاء لن يمكنهم التكتل في أي مكان، وتطبيق النظام سيصبح سهلا. وقد أتسرع بالقول أنه بعد عشر سنوات من تطبيق هذا النظام، فإن فرنسا ستمتلك في افريقيا أكثر من 4.000.000 من اتباعها المخلصين. صحيح أن عشر سنوات من الاحتلال ستكلف فرنسا ضعف ما تكلفها الآن، والمقدر بـ 20.000.000 فرنك، ولكن الايرادات التي لا تتعدى في الوقت الحالي 2.000.000 فرنك ستؤول الى الارتفاع، ويمكننا أن نقول إنه في نهاية العشر سنوات ستغطي كل التكاليف التي ستنخفض باستمرار، ويجب أن نأخذ بعين الاعتبار كذلك ارتفاع مداخيل الجمارك الفرنسية، والتي جعلها الاحتلال المحدود بسيطة، والتي ستصبح معتبرة أكثر اذا ما قامت التجارة التي المارة بتونس وموانئ سلطنة المغرب بالعبور عبر عنابة ووهران. وهو ما ستكون له نتائج فورية على مستوى الخضوع التام للبلد.

و فيما عدا ذلك، فإننا سنكون مخطئين اذا ما فكرنا أن وصاية الجزائر يمكنها، في يوم ما، أن تكسب فرنسا ربحا صافيا. فكل ما يمكنها فعله، حتى في ظل ظروف ايجابية هو تغطية مصاريفها.

لا يمكن اعتبارها، في المستقبل اذن، كمزرعة يمكن استغلالها لصالح الضرائب، لأن البلد الأم، ورغم مصادره الهائلة بالكاد يمكنه تحمل مصاريف إدارته. فكيف يمكننا أن نتوقع من بلد، حيث يتم إنشاء كل شيء فيه، أن يدفع جزية لفرنسا، بالإضافة الى المساهمات الضرورية لتغطية الانفاق الداخلي؟ فإفريقيا ستحقق اكتفاء ذاتيا اذا ما تمت إدارتها جيدا، وهذا كل ما يمكننا انتظاره أو المطالبة به. الجانب الإيجابي لفرنسا هو النمو التجاري الذي يصبح كل سنة أكثر اعتبارا، وكذا توسيع القوة البحرية والعسكرية الناتجة عن خلق أمة جديدة تتحد معها بروابط ودية، والمصلحة المشتركة. وبالإضافة إلى ذلك، فهلا وجدت من بين كل هذه التضحيات، سوى المجد الذي يرتبط بكل هذه المشاريع الكبيرة التي يجب أن لا تتردد في القيام بها. فبالرغم من كل ما يقوله رجال الأرقام، هو الشيء الوحيد للمجد في حياة الشعوب، خاصة اذا ما كان هذا المجد نقيا وعزيزا، ولا يرمي الى الغزو والدمار، بل للتنظيم و البناء.

لقد سبق و أن صرفت فرنسا الكثير لأجل الجزائر، أقل مما أعلنه معارضو الاستيطان ولكن مع هذا اكتفاء برغبة عدم تبذير أموالها في خسارة بحتة. فقد حان الوقت لأن تشتغل بجدية، بجعل هذه التسبيقات تنتج مدخولا في المستقبل. ويظهر أنها تراجعت أمام الغزو، والتنظيم في وقت واحد للوصاية، لأنها سحقت تحت وطأة إدارة مدمرة وسيئة تماما، ممثلة بالجزء الأقل صرامة، ويمكن القول الأقل تنويرا في المجتمع. و بعد كل شيء، فإنه يعتبر الأسلوب الوحيد للاقتراب من نهاية هذه التضحيات. وهذه رؤيتنا لكيفية سير الأمور،

في حالة ما إذا أرادت فرنسا مع هذا، أخذ الأشياء من هذا الجانب.

بقرب نهاية شهر ماي، أين تكون الأراضي مغطاة، ويكون العرب يرتجفون لمحاصيلهم، يكونون عادة أكثر تكيفا من أي موسم آخر من السنة. سيتم تشكيل ثلاثة جيوش بالجزائر وعنابة ووهران.

الأول بقوة 10.000 رجل، سيتوجه نحو اقليم التيطري وسيؤسس بالمدية مستعمرة فرنسية، ويترك بها حامية عسكرية، وسيجوب بعدها البلاد مع تعيين القياد في كل الأوطان، ويمدهم بكل الوسائل التي تساعدهم على فرض سلطتهم. حاميات عسكرية محصنة جيدا سيتم وضعها في كل من حمزة والبرواقية. الجيش الذي قلص الى 6000 رجل سيعود إلى اقليم الجزائر عبر بني جيد وسيباو، أين سيتم فرض السلطة الفرنسية في كل تلك المناطق، وإقامة حامية بحصن سيباو وحصن تيزي وزو، أين تجمع حولها قبائل الزمول القدامى في البلاد. وتتوجه بعدها الى شرشال، أين سيتم ترك حامية بـ 1000 رجل في هذه المدينة وباقي الفرق ستعود الى الجزائر داخل المعسكرات المجاورة لها.

الجيش الثاني بقوة 15000 رجل، سيتوجه من وهران الى تلمسان ومنها الى معسكر، القلعة ومازونة ومليانة، مع وضع السلطة الفرنسية لحامية عسكرية بكل هذه المدن. تحركات هذا الجيش ستكون منسقة بشكل يجعل وصولها الى مليانة يتوافق مع وصول جيش التيطري الى شرشال. و من مليانة ستعود الى وهران عبر مستغانم وأرزيو. جيش عنابة بقوة 15.000 رجل مثل جيش وهران، سيسير مباشرة إلى قسنطينة، ومنها نحو غرب الإقليم. ستترك حامية

بقسنطينة، وزمورة وعند بيبان الحديد، وستعود الى قسنطينة حيث يذهب جزء من الجيش لاحتلال سطورة وجيجل. أما فيما يخص بلاد القبايل، أي جبال بجاية والقلعة، فلا أدري إن كان يتوجب علينا احتلالها حاليا.

كل هذه العمليات لن تأخذ أكثر من شهرين. العرب الذين سيعاملون جيدا ويعلمون مسبقا بأهدافنا، لن يبدوا أية مقاومة في أي مكان، ما عدا المواقع التي على رأسها عبد القادر وباي قسنطينة.

الجيوش ستكون مقسمة كالتالي، بعد الغزو أو بالأحرى، بعد عملية الاستحواذ:

الجزائر و ضواحيها........
10,000 رجل........
بوفاريك........
500 رجل........
شرشال........
1000 رجل........
مضيق الثنية........
200 رجل........
سياو........
500 رجل........
دلس........
500 رجل........
البليدة........
500 رجل........
المجموع في إقليم الجزائر........
14.200 رجل........
المدية........
2000 رجل........
البرواقية........
500 رجل........
حمزة........
1500 رجل........
المجموع في إقليم التيطري........
4000 رجل........
وهران وحصونها........
1500........
أرزيو........
200........

1000........
مستغانم........
4500........
معسكر........
2000........
تلمسان........
2000........
مليانة........
1000........
مازونة........
500........
تنس........
300........
جسر الشلف........
2000........
التافنة أو غزونة........
15000 رجل........
المجموع في إقليم وهران........
8800........
قسنطينة........
1000........
عنابة........
1000........
سطورة........
1800........
زمورة........
2000........
بيبان الحديد........
1200........
جيجل........
15800 رجل........
المجموع في إقليم قسنطينة

بعض الأشخاص سيجدون، ربما، أن الفرق الموزعة بهذا الشكل ستكون أكثر تناثرا، ولكن، يجب ملاحظة أنه اذا ما تم تدمير كل مركز للمقاومة، فإن هذا التبعثر سيكون دون خطر، وسيكون هدفها الثاني دعم استقرار المستعمرات الأوروبية على نقاط متعددة في آن واحد، ويمكن بالإضافة الى ذلك، للتوزيع على مناطق متعددة، أن يجعل القوات جاهزة

لأي تدخل مع أولى أعراض أي ثورة. و في البداية، لابد من تواجد بعض الفرق الصغيرة المتنقلة التي تمضي غالبا من حامية إلى أخرى، لاستطلاع أمور البلاد و دعم سلطة القياد الذين يعملون لصالحنا إذا ما تطلب الأمر لذلك؛ و يبقى مفروضا بطبيعة الحال أن يكون استعمال القوة الملموس بهدف فرض النظام و العدالة، و أن يتم تطبيق نظام الاندماج بواسطة وسائل أخلاقية تم مسبقا تطويرها و بعيدا عن أسلحتنا الحضارية.

ستكون عملية الغزو المتزامنة أسهل عن طريق المفاوضات عوض الأسلحة. و لا توجد أية مقاطعة كان لنا فيها علاقات متواصلة مع القبائل القوية إلا و كان نصفها قد خضع لنا. و ستكون ذات عون كبير لنا للتعرف على الأماكن و تموين مخازننا. و لكن ما يجب مراعاته في علاقاتنا مع السكان الأصليين هو تجنب استعمال الخدمات الاستغلالية لأصحاب الفتن عديمي الخجل و عديمي الوطنية الجاهزين دوما لتلطيخ سمعة أولئك الذين يستخدمونهم لإرضاء جشعهم المنحط و المستبد في الكثير من الأحيان.

و حالما ستستقر المستعمرات الأوروبية و يصبح البلد منظما و آمنا، ستختفي كل عوامل الاضطراب، و سيمكن لميليشيات محلية مكونة من أوروبيين و أهالي أن تعوض أغلب الحاميات الفرنسية التي لن تتمركز سوى في عواصم الأقاليم، و يمكنها فيما بعد ترك البلد لقواه الخاصة و الانسحاب كليا.

الجزء الثاني، 11.

خلال عشر سنوات، ستتشكل الأمة الجديدة الغالو-جزائرية (gallo-algérienne) وحدة متكاملة، متمثلة في شعب لا يزال مولودا صغيرا لكنه ذو بنية جيدة، و الذي سينزع حفاظاته الأخيرة بعد مرور عشرين سنة و سيتمكن من الانتقال بكل شبابه و حيويته إلى المستقبل.

و باعتماد خطة تبدو عظيمة لدى الأشخاص الذين يظنون أنه يتوجب على فرنسا عدم الإقدام على أي خطوة كبيرة، فإنه لابد من إضافة مبالغ معتبرة لتلك التي كلفتنا الجزائر لحد الآن، لأنه حسب طريقتنا في تسيير الإدارة و الحرب و حسب التبذير و أخطاء النظام و الحسابات، و كذا كل الخبث الذي يلف كل خطواتنا، فإنني لا أظن أنه يستوجب أقل من 300 مليون فرنك تصرف خلال عشر سنوات، منها 100 في السنة الأولى للتمكن من القيام بهذا المشروع بشكل جيد. لكنه بعد عشر سنوات فإن إفريقيا لن تصبح مكلفة لفرنسا بل على العكس ستصبح أحد عناصر رخائها. الاحتلال المقيد سيكلفها خلال نفس المدة 230 مليون و لا يمكن تحديد مدة تضحياتها. لأنها إذا لم تكن قط سيدة البلد فإنها لن تتمكن بأي شكل من الأشكال من التحكم في الأحداث الواردة.

الأمريكي شالر Shaler، هذا الرجل الحكيم و الذي لحد الآن برهنت الأحداث كل توقعاته، كان يرى أن غزو و حضارة هذا البلد الرائع إيجابي بشكل كبير للأمة التي تُقدم عليه و القيام به سهل جدا. و أوصى بنظام الاندماج و لم يشكك في أن الغزو يجب أن يكون عاما و فوريا. و يسرني أن

الجزء الثاني، 11.

أدعم بهيبة إسمه آرائي الشخصية على خطة من شانها ضمان مستقبل الوصاية مقابل بعض التضحيات العابرة، و لكنني بعيد عن تأمل أن من يتحكمون بمصيرنا يقاسمون شالر قناعاته. ففي فرنسا نادرا ما نتصرف وفق نماذج مخطط لها لمدة طويلة و بعناية و إصرار مسبق. فنحن نعيش اليوم في يومه حسب نزوات الوقت الراهن و أهواء الزمر، فنحن أحيانا سخيون و أحيانا بخلاء، و تقريبا دوما في اتجاه معاكس. و كما جرت العادة، فإننا سنقبل بصرف من ٠٢ إلى ٥٢ مليون في السنة و إلى أجل غير مسمى و في أغلب الأحيان بدون فائدة تذكر للمستقبل، و أكيد أننا لن نذهب بعيدا. لذلك يتوجب ضبط أنفسنا في هذا الجانب. فإذا كانت حكومة الجزائر غير مرتبطة بعاداتنا الإدارية و توفرت لديها من ٠٢ إلى ٥٢ مليون و تمكنت من خلق مصادر في هذا البلد، ونظمت فرقها العسكرية و إدارتها كما تشاء، فإنها ستتمكن من الهيمنة على كل البلاد بالعمل و البراعة رغم الندرة الواضحة للوسائل المتاحة. و إنه لمن المؤكد أنه لو كان لدى عبد القادر ربع ذلك فقط لكان قد بسط هيمنته على كل شمال إفريقيا، و هو شيء لا يمكن لأي محافظ للجزائر القيام به. إن سوء الاستغلال هي فطرة ملحة تكرسها المصالح الشخصية التي يجب التخلي عنهاو محاربتها بالقوانين و الأعراف. كل سنتيم يذهب إلى مكانه المحدد مسبقا وكما يقال، كل فلس يعلم الجيب الذي يدخل فيه. نحن بحاجة بالضرورة إلى أفواج جيوش منظمة بطريقة معينة تلبس بدلة كهذه أو تلك، عدد الضباط فيها كذا و تعداد المهندسين و الموسيقيين كذا و كذا و هو ما سيكلفنا مبلغ كذا، نحن بحاجة إلى إدارة عسكرية متكونة من

الجزء الثاني، 11.

ذاك العدد من الأفراد التي تقوم بهذه الأشياء و لا تقوم بتلك، مأخوذين من فئة معينة و ليس من أخرى، يحررون الوثائق عوض إنتاج شيء فعلي. نحن بحاجة إلى عدد معين من الجنرالات و عدد معين من ضباط هيئة الأركان الذين يضيعون وقتهم في كتابة رسائل بلا معنى، ضباط هندسة عسكرية كحرفيي بناء يدفنون في الجير و الملاط ما علمتهم إياه بكل عناية الطبيعة و التربية العلمية من أفكار نيرة، نحن بحاجة إلى إدارة مدنية روتينية و مكلفة. والجدير بالذكر أن كل هذا يمكن تنظيمه بطريقة أخرى و أكثر اقتصادا بحيث أن شيء يكلف هذا المقدار إذا ما قمنا به بهذه الطريقة و لن يكلف سوى ذاك المقدار إذا ما قمنا به بتلك الطريقة، و سيذهب كل شيء سدى. و لن نتوقف عن ذلك أبدا. يتوجب على حكومة الجزائر أن تتصرف بما يتوفر لديها من عناصر مطابقة لما يناسب لائحة القوانين. هذه العناصر هي 21.000 رجلا يجب دفع رواتبهم، إطعامهم و التكفل بهم، بعض المال للأشغال العمومية و المصاريف المدنية، بعض الملايين من الفرنكات للحالات غير المتوقعة و مصاريف المفاوضات مع العرب.

بهذه الوسائل القليلة التي يكون استخدامها ثابتا، فإنه من المستحيل القيام بغزو المناطق الداخلية للوصاية في آن واحد فتبقى محاولة الغزو المتعاقب. و لأجل هذا لابد من الحفاظ فقط على مواقع بحرية و عسكرية في الشرق و في الغرب و تركيز كل قوى الأداء في إقليم الجزائر، مع السعي لتأسيس حكومات إقطاعية بأقاليم: قسنطينة، وهران و التيطري وفقا للنظام الذي اعتمده الجنرال كلوزيل عام 1830 و الذي لم يتمكن من الحصول على تنفيذ له إلا تحت ظروف

لم تكن جوهرية. و رغبة التصرف بطريقة أخرى أي انتشارنا الكبير بوسائل غير كافية سيعني جعلنا ضعفاء في كل مكان. و سيكون خطأ مماثلا للذي جلب انهيار السلطة البرتغالية في بلاد الهند.

إن نظام الاندماج المعتمد في إقليم الجزائر مع إدارة جيدة و أبوية و النظام و الهدوء السائد في المنطقة، هي كلها عوامل ستجعل العرب الذين يعيشون به أغنياء و سعداء. و رؤية الرخاء الذي يعيشون فيه لن تتأخر في إعطاء مفعوله لدى القبائل البعيدة و سترغب في الدخول تحت لواء الدولة الجديدة التي ستنمو بهذا التلاحق المتتالي، و التي قد ينتهي بها المطاف لاحتضان كل الوصاية. إنه لمن المؤكد أن تطبيق هذا النظام سيكون صعبا بعض الشيء، فلا يوجد به شيء كبير أو شيء شهم و يناسب مقاس رجال دولتنا. فنحن نظن إذن أنه من المناسب التوقف عنده. و أريد إعادة التنويه إلى أنه لا يمكننا التحكم في الأحداث إذا لم نكن أسياد البلد. و بهذا يمكن للغزو التدريجي أن يتلقى منافسة خطيرة مثل تلك التي يمثلها عبد القادر.

إن البريق الذي سينبع من الغزو الفوري و الأثر الذي سيتركه في الأذهان سيجلب الكثير من الأوروبيين نحو إفريقيا. و بالاحتلال المحدود سنحصل بالضرورة على القليل منهم.

في هذه الحالة أو تلك، يجب التفكير في تثبيتهم بطريقة إيجابية لهم و للدولة. لقد أشرنا في الجزء الأول من هذا الكتاب عن مساوئ استيلاء المضاربين على الأراضي المتاحة. و لقد أثبتنا أن المزارعين في ضواحي الجزائر سيكونون تحت

رحمتهم و أن الإنتاج المثقل بأرباح المضاربة سيعاني كثيرا. و لقد اقترحنا لعلاج هذا الأمر إحداث إجراءات تشريعية تجبر المضاربين على التنازل عن الأراضي بسعر البيع إلى الكادحين. و إذا كان هذا الإجراء قاسيا وفقا لبعض الأفكار التي ليس هنا المكان المناسب لمحاربتها، يمكننا تحقيق الهدف بالجمع بين تدبيرين اثنين سهلا التطبيق. فالدولة تملك بالنتيجة أراضي شاسعة قمنا سابقا بوصفها للقارئ، و إذا ما وهبتها للعمال على شكل قطع بأسعار منخفضة فإنها ستشكل منافسة للمضاربين لا يمكنهم مواجهتها و بهذا تبقى أراضيهم بوراء، و عند وضع ضريبة على الأرض غير المستغلة سيكونون مضطرين إلى بيعها بأسعار منخفضة و بهذه الطريقة ستصل الأراضي إلى أيادي منتجين فعليين و هم الوحيدين من يتوجب أن يمتلكوها في كل المجتمعات الجد منظمة إلا إذا ما بقت مع ذلك ملكيتها محصورة.

إن نظام المزارع سيكون غير معقول في إفريقيا و لا توجد سوى مصيدة الملكية التي تمكن من جذب العمال. فالأوهام الخادعة قادت المزارعين المساكين إلى أمريكا و هناك من لم يتمكنوا من التراجع عن خطاهم و هم على بعد آلاف الأميال عن أوروبا. و لكن هنا على أبواب أوروبا فإن الأوهام مستحيلة لذلك لابد من الواقعية. فالمضاربون بالأراضي لا يجب أن يتوقعوا القيام بتجارة الرقيق الأبيض بالجزائر. و علاوة على ذلك، فإننا قد رأينا في الجزء السابق كيف أن هذه الانتهاكات للملكيات الكبيرة أضرت بازدهار العديد من الدويلات الناشئة و كيف توجب على التشريع أن يحد منها أكثر من مرة.

و لأجل ازدهار الجزائر، وجب على العامل أن يكون مالكا و ليس مزارعا. لكن سيقال: أين لهم برأس المال؟ و بالفعل، هنا كما في أماكن أخرى، توجد في المجتمعات الحديثة هذه الآفة الرهيبة التي تضع أدوات العمل بين أيادي غير منتجة تجبر العمل على دفع مستحقات للكسل. و بما أنه الأمر على هذا النحو أي ملزمون بدفع مكافئة للكسل فليكن على يد صاحب مزرعة مجتهد، و إليكم الطريقة:

عمل الإنسان له قيمة يمكن تقديرها بالمال، فلنشكل شركات من المستخدمين و المساهمين حيث تكون هذه القيمة هي أساس الأسهم فيها، كل فرد من الشركة سيمتلك أسهما حسب كفاءاته و يدفع ثمنها سواء بالمال أو بالعمل أو بالأرض. الإيرادات ستقسم حسب الأسهم. و لتوضيح الفكرة: لنقدر بـ500 فرنك العمل السنوي للرجل الواحد. العامل الذي يضع ساعديه في العمل و حقلا بـ500 فرنك سيمتلك سهمين. و المساهم الذي يدفع 500 فرنك سيمتلك سهما. و بـ500 فرنك ستبتاع الشركة كل ما يلزم لعملية استغلال الأرض و المدخول يتم تقسيمه على ثلاث أسهم. و الآن يمكن تعميم ذلك على مقياس أكبر. و لدينا إحساس بأن مشروع الشراكة يحتاج إلى التطوير و لكننا طرحنا الفكرة المبدئية له.

إذا ما تحصل العمال على بعض التسبيقات يستطيعون التشارك فيما بينهم للعمل في الميدان التجاري و هذا هو المفضل. التكاليف ستكون بهذه الطريقة أقل اعتبارا. فعلى سبيل المثال، عوض الحصول على محراث، مشط

و زوج من الثيران أو أي شيء آخر لكل القطعة الأرضية، يمكن الحصول على اثنان لكل ثلاث قطع أرضية أو أكثر، حسب طبيعة الأغراض. و لا أحد يجهل قوة الشراكة لإنتاج آثار كبيرة بوسائل صغيرة. فإذا ما شجعت حكومة الجزائر الشركات فإنها ستجذب عددا هائلا من العمال إلى المستوطنة الجديدة.

يمكننا تجربة هذا النظام على العسكريين من جيش إفريقيا، الذين تقدم لهم تسبيقات دون أن يكلف شيئا للدولة. هناك نقاط في البلد من الواضح أنه من الضروري احتلالها مهما كان التوسع الذي نريد إعطاءه لغزونا. ألا نستطيع وضع جنود بها يكونون في آخر سنة من الخدمة و يودون الاستقرار بإفريقيا؟ سيتم إخراجهم من الفيالق التي ينتمون إليها و لكنهم سيستمرون في أخذ أجورهم و استحقاقهم منها. ثم يتم تشكيلهم في شركات يسيرها ضباط سابقين لهم نفس النزعة.

فعند حصولهم على المواد الغذائية و الثياب لمدة سنة فإنهم سيستخدمون تقريبا معاشهم بالكامل لشراء الحيوانات و الأدوات اللازمة لعملهم، بشكل يجعلهم في استقرار كامل بحلول نهاية العام. و قد شاءت الصدف أن تملك الدولة أراضي جاهزة في نقاط مختلفة من المتيجة، وجب الاهتمام بها لأنها في الوقت الحالي المنطقة الأهم بالنسبة لنا. و يمكننا الحصول على هذه المستعمرات العسكرية دون تكاليف، و من المرجح أن تتزايد بشكل مذهل في غضون سنوات. ستتزوج هؤلاء المستوطنين الجدد بنات قدامى المحاربين

اللواتي يوجد العديد منهن في البلد، ثم و بمرور الوقت يمكنهم الاقتران بالبنات المحليات و هذا سيكون أفضل، و لا أرى أي مانع معقول يمكن أن يقف في وجه هذا المشروع ذو التطبيق السهل و الاقتصادي.

بعد كل مسائل الإنشاء و الاستقرار المبدئي تأتي مسألة التواجد السياسي للمستوطنة. فهي مسألة خطيرة يتوجب التفكير مليا بها. الدروس المستقاة من التاريخ أثبتت أنه لا يمكن لأي بلد أن يزدهر دون حرية، و أن المستوطنات -التي تريد البلد المستعمرة لها الإمساك بها باستمرار و استغلالها في إطار ضيق لمصلحة الضرائب، أو تلك التي تضعف أو تنفصل بعنف عن البلد الأم التي -غالبا ما تشكل عبء كبيرا و غير منتج.

فكل رجال الاقتصاد الحديث و على رأسهم ج.ب ساي J.B.say التي تتحسر العلوم السياسية و التربوية على فقدانه مؤخرا، يظنون بأن الشعب الحكيم لا يتوجب عليه تأسيس مستعمرات إلا باستخدام الفكر و بهدف تركها فور عدم حاجتها لمساعدة البلد الأم. و يشبهوها بصغار الطيور الذين يتركهم والداهم لقواهم الشخصية حالما يصبحون في وضع يقدرون فيه السعي من أجل البقاء. لا يجب التفكير في أن هذا النظام سيكون غير مربح للشعوب التي تأسس المستعمرات على هذا الأساس؛ لأن المستعمرات تجمعها بالبلد الأم اللغة و عادات و أصول مشتركة، ستأخذ طبيعيا منها عاداتها التجارية، و تجارتهم تصبح أكثر نموا كلما كانت الحرية التي يتمتعون بها أكبر. شالر Shaler و حشد كبير حتى

الانجليز منهم، اعترفوا بأن بريطانيا تستفيد أكثر من ذي قبل من أمريكا منذ أن حصلت على انفصالها. و بالإضافة لذلك ينصح ج.ب ساي J.B.say بمستعمرات مستقلة مع تنديده بإقامة مستعمرات تابعة. و لقد أشار -قبل فترة طويلة من تفكير فرنسا بالجزائر- إلى شمال إفريقيا كمكان بارز و مناسب لاستقبال مستعمرات من هذا النوع . و حسب رأيي فإن هذا دليل على بعد نظر هذا الرجل المشهور.

علاوة على ذلك ، فإن شمال إفريقيا مجاورة لفرنسا لدرجة أن هذه السلطة ستأخذ تجاهها -عندما يحين الوقت - موضعا وسط بين التبعية و الاستقلال المطلق: سيكون بإعلانها جزء متمما لإمبراطوريتها و منحها نفس الحرية السياسية التي تتمتع بها. و في هذه الحالة يجب توفرها على استقلالية إدارتها أكثر مما يوجد في دوائرنا و بالخصوص تشريعات أكثر بساطة. و لن يغيب عنا أن الإدارة جد معقدة و جد مكلفة بفرنسا، لدرجة سيصعب على هذا البلد الجميل و الرائع تحمل ثقلها. و تطبيقها بإفريقيا هو كسحق صدر طفل صغير تحت ركبة عملاق. فتجاوزات المركزية المطبقة في هذا البلد شيء رهيب، و لقد كان ذلك كفاية لخنق ازدهار كندا رغم أنه لم يكن في ذلك الوقت مفرطا فيه مثل اليوم. يجب مناقشة مصالح الجماعات المحلية داخل الجماعات المحلية. فأولئك الذين تهمهم مصلحة شيء ما هم من يتوجب عليهم الاهتمام به.

و بالتالي، فإن تحقيق الاندماج مع الأهالي و التوجيه الجيد للنشاط

الاستيطاني و الحرية الإدارية أولا ثم الحرية السياسية، سيؤدي إلى تطور البلد. و في حالة الحرب سيتمكن من تعويض فرنسا كل الإعانة التي تلقاها إما بالمال أو على الأقل بالرجال. و ربما لم يفت الوقت الذي يمكن لريف جنوب أوروبا أن يرى فيه مرة ثانية البرنس العربي.

12.

حول إقليم التيطري.

في الجزء الأول لم نقل سوى الشيء القليل حول هذا الإقليم، و مع ذلك سنتطرق إليه في هذا الجزء من الكتاب قمنا سابقا بإلحاق لائحة لأسماء قبائل التيطري و التي من المحتمل أنه تم حذفها بسبب استحالة قراءة الكتابة. هذا الخطأ المطبعي يتيح لنا فرصة العودة إلى هذا الموضوع و التطرق إليه بطريقة أكثر شمولية و ذلك لأنه منذ سنة اكتسبنا معلومات جديدة حول هذا الإقليم.

الأوطان السبعة التي تحيط بمدينة المدية من الجنوب و بالدوران شرقا هي: بني حسن، حسن بن علي، بني يعقوب، وزرة، وامري، ريغة، هوارة. الأرض متموجة و تتخللها تلال و أودية .

و إلى ما وراء حسن بن علي و بإتباع طريق الصحراء نلتقي بقبائل العبيد و الدواير التي تسكن منطقة سهلية يتوسطها حصن البرواقية الذي

يبعد بمسيرة يوم واحد عن المدية كما ذكرنا في الجزء الأول. و إلى جنوب البرواقية و دائما باتجاه الصحراء، نجد قبائل مفتاح ثم اولاد مختار، الربان و قبائل أخرى مستقلة تمتد حتى الشلف و إلى بحيرة أو مستنقعات التيطري.

تأتي بعدها قبائل اولاد نائل التي تمتد حتى سلسلة كبيرة من الجبال التي نصل بعدها إلى الصحراء. القمة الأعلى لهذه السلسلة هي قمة الصحاري المكسوة بالثلوج لفترة طويلة من السنة و هي على بعد مسيرة ثلاثة أيام كاملة إلى جنوب المدية.

بين سهل حمزة و القبائل التي تحدثنا عنها نجد القبائل التالية: العربايا، اولاد سيدي إبراهيم، اولاد علان، اولاد منيف، اولاد شبانا، اولاد زايد و الدريزة. هذه الأخيرة تشكل موطنا كبيرا جدا و الذي يكون على رأسه عادة واحدا من أبناء باي التيطري. نجد جنوب سهل حمزة الذي يدخل ضمن إقليم الجزائر الميطنة (Les Maitenan).

عند سلسلة جبال الصحاري ينتهي إقليم الجزائر، لكن أبعد من هذه الجبال و على مشارف الصحراء، يعيش شعب يستحق الاهتمام به لأنه ربما الأكثر حكمة و الأكثر رخاء و الذي يحكم بأفضل طريقة موجودة بالأرض. هذا الشعب هو قبيلة بني ميزاب أو المزابيون الذين قمنا بتعريف أصولهم المحتملة في الجزء الأول. تحتل هذه القبيلة ثلاثة واحات، تلك الواقعة أقصى الغرب تبعد بعشرة أيام من المسير عن المدية. هذه الواحة

تروى بمياه النهر الأبيض الذي تجري في الجهة الجنوب- شرقية. و ترتمي سواء في الشط أو في واد جدي أو تتوه داخل الرمال كالكثير من مجاري المياه في هذه المنطقة؛ و لم أستطع الحصول على معلومات ايجابية في هذا السياق.

غرداية، المدينة الأكثر أهمية في بلاد بني مزاب هي المنبع الأصلي لهذا النهر. هي واسعة كالجزائر و لكنها أقل كثافة سكانية، المنازل بها عموما ذات طابقين اثنين لأنها مبنية من الحجر، و قد تم بناؤها بنفس شكل مباني الجزائر. ضواحي المدينة جميلة و خصبة. و على بعد نصف ساعة من السير، أسفل غرداية نجد القرية القوية مليكة و أسفل مليكة نجد المدن الصغير و المتباعدة عن بعضها البعض: بني يزقن، بونورة و العطف و كلها مقامة على ضفاف النهر الأبيض.

شرق الواحة الأولى توجد واحة أخرى أكثر اتساعا و أقل كثافة سكانية و توجد ثلاث مدن: القرارة، بريان و متليلي. هذه الأخيرة كبيرة بصورة معتبرة. و ثالث واحة تحوي أربعة مدن أكثر تباعدا عن بعضها البعض و هي: ورقلة ، الرويسات، الشط و نقوسة.

و بما أنه ليس لبني ميزاب جيرانا فلم تكن لهم حروب خارجية يخشونها. و أقرب قبائل عربية منهم تبعد أربعين ميلا في اتجاه الشمال الغربي و هي قبائل العمور و قبائل اللواتة. و القبائل العربية الأقرب توجد على بعد مسافة أربعين ميلا في الشمال الغربي.

كل مدن بني مزاب تشكل جمهورية فدرالية. السلطة التشريعية و الحكومية في كل مدينة تكون بين أيدي الطَّلَبة (العلماء) (Les Talebs) و يأخذ هذا اللقب كل من يعرف القراءة و الكتابة و يمكنه التأمل و التدبر في القرآن. يقوم الطَّلَبة بتعيين شيخ يمارس مهام السلطة التنفيذية و هو في نفس الوقت إمام المسجد الرئيسي للمدينة التي يديرها. وظيفة الشيخ ليست لها شعبية كثيرا في هذا البلد و عندما تجري انتخابات يجب مفاجئة الذي تم اختياره لأنه قد حدث في كثير من الأحيان و أن فر المرشح إلى مدن أخرى و حتى أن يقاوم بالقوة و لكن حين يتم الإمساك به فإنه يكون مجبرا على القبول. إلا أنه يمكنه فرض شروطه مثل ترخيصه بالقيام بتغييرات في إدارة البلد أو إعطاء الأعمال الاتجاه التي يشير إليه. و عند تبوئه لمنصبه فإنه يؤدي واجباته بأمانة و يحيطه مواطنوه باحترام حيث يعطونه لقب الأب. كل الوظائف المنحدرة تحته هو الذي يقوم بتعيينها. القضاء مستقل عنه، يمارسه في كل مدينة قاضي معين من طرف الطَّلَبة. جريمة القتل هي الذنب الوحيد الذي يعاقب بالإعدام[1].

بلاد بني مزاب غنية جدا بأراضيها الخاصة، لها علاقات تجارية كبيرة مع دغامس، بورنو، تمبوكتو و جميع أنحاء السودان. و تقوم بتسويق منتجات هذا البلد عبر كل من تونس و طرابلس.

استقر الكثير من بني ميزاب لبضع سنوات بالجزائر، ففي عهد الدايات

(1) عندما تحدث منازعة بين مدينتين من مدن بني ميزاب فإن المدن الأخرى ترسل حكاما للفصل في القضية و قوات لفرض احترام القرار الصادر.

احتكروا الحمامات، المطاحن و القصابات. فهم أناس نشطاء، كادحين، أذكياء و ذوي نزاهة كبيرة. و يمكننا بواسطتهم في وقت لاحق أن نجلب إلى الجزائر التجارة التي يقوم بها أبناء بلدهم عبر تونس و طرابلس.

جدول المحتويات

محتويات المجلد الثاني.

الجزء الأول

الجزء الثاني

نهاية فهرس المجلد الثاني



هذا الكتاب هدية من وزارة المجاهدين
بمناسبة الذكرى الـ 50 لعيد الاستقلال



Assala
culture

57، شارع ديدوش مراد، الجزائر
هاتف\فاكس: 700 444 021
www.assala-culture.com